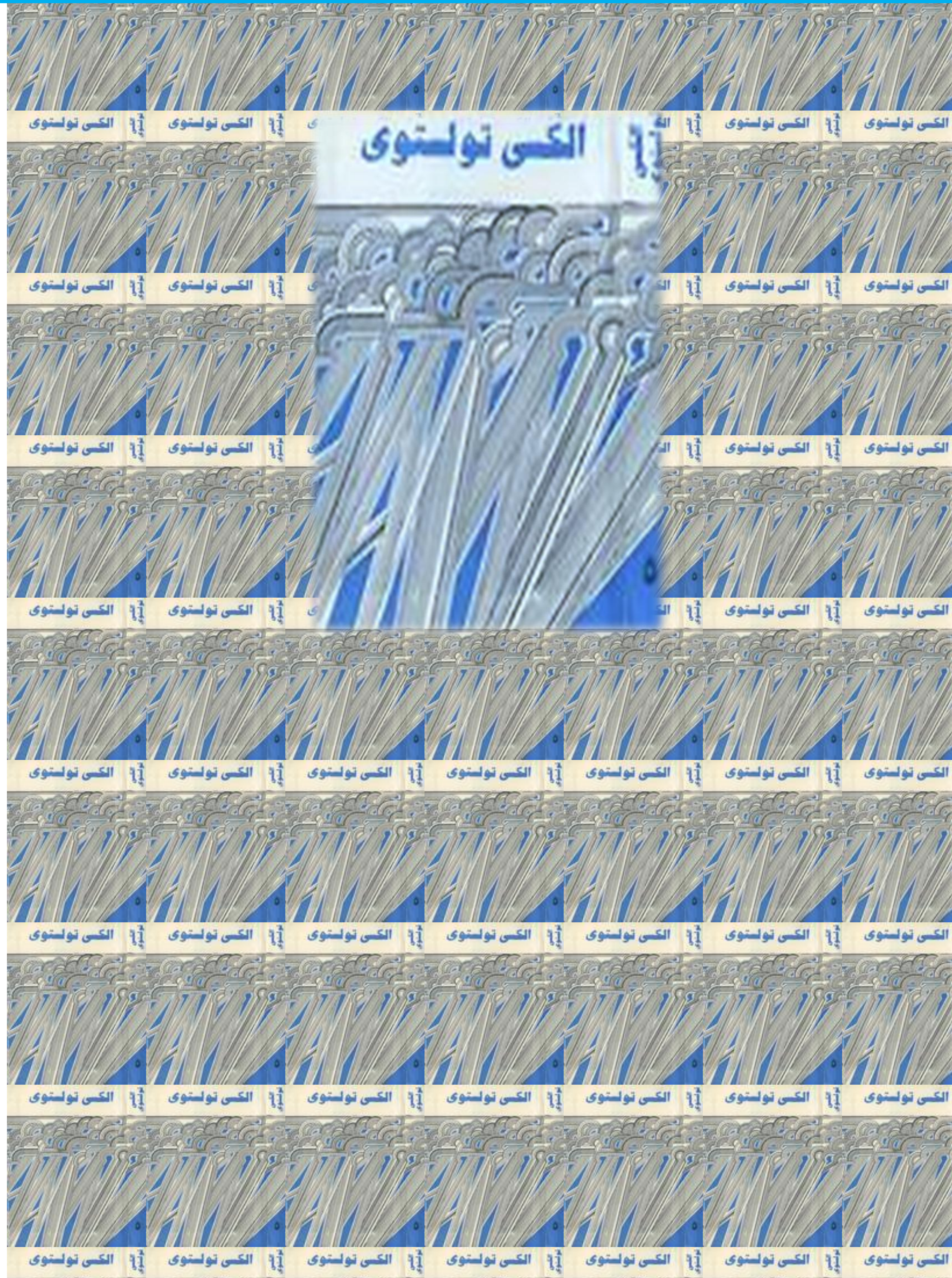

الكسى تولستوى



# الكسي تولستوي

## مؤلفات مختارة في خمسة مجلدات

المجلد الخامس

قصص



دار «رادوغا»
فرع طشقند، ١٩٨٥

ترجمة خيري الضامن
عبدالله حبه
ابو بكر يوسف

А. ТОЛСТОЙ

Собрание сочинений в 5-ти томах

ТОМ 5

ПОВЕСТИ И РАССКАЗЫ

*На арабском языке*

Т $\frac{4702010200-398}{031(05)-85}$ 074—85

طبع في الاتحاد السوفييتي


ISBN—5—05—000085—8
ISBN—5—05—000090—4

ترجمة خيرى الضامن

# الامير الاعرج

من عرش الجليد من اعالي الجبال
يغزل الناسك الطليق شلالا عارما
يخترق حجب الظلام ويحطم كل القيود.
وتعود السحابة الى الجبل على مدي الحب
كقربان الدم على مذبح ملفع بالثلوج.

(ف. ايفانوف «نجوم الهدى»)

## ضوء القمر

—١—

اطل القمر على كوليفان ، في منتصف الليل، فانار من جهة الشمال الزجاج المتموج على نوافذ المنازل، وراح يطارد من اليمين الظلال الكثيفة على اعشاب الحماض المدعوكة في درب القرية، ثم اختفى وراء سحابة هائمة في سماء الليل. آنذاك كانت تنهب الدرب على طول القرية ثلاثة جياد تجر عربة بسقف مطوى ويتهادى من جرسها رنين خفيف.

لم تبدأ الديكة، بعد، صياحها المعتاد، بينما كفت الكلاب عن النباح. لا شيء سوى بصيص أصفر ينبعث من شق نافذة موصدة في منزل على طرف القرية.

امام هذا المنزل تنتصب على سقف البوابة المقوس صارية في اعلاها حلقة ملفوفة بالقش تقول لعابر السبيل من بعيد ان المنزل خان للمسافرين. وراء الخان ينبسط سهب شاسع مستو بدا رمادى اللون في ضوء القمر. الجياد تسرع لاهثة بعدو نحو السهب مجلجل رتيب في سكون الليل. التقط الرجل الجالس في

العربة عصاه ومس بها كتف الحوذي. فتماهلت العربة ثم توقفت عند الخان.

رفع الرجل البطانية عن قدميه وزل مستندا الى ضلع العربة، ثم خطا على العشب، وهو يعرج، وتوجه نحو المدخل الواطيء. وعندما بلغه التفت الى الحوذي وامره بصوت خافت:

— اذهب. وعد الى عنا في الفجر.

ارخى الحوذي العنان فانطلقت الجياد الى السهب، بينما امسك الرجل بمقبض الباب وراح يهزه، ثم مال الى ضلع المدخل البالي وكأنه غارق في تاملاته. كان وجهه النحيف شاحبا، وتحت عينيه المستطيلتين خطوط عميقة، وتلوح اسفل ذقنه بقعة عارية بين شعر لحيته القصيرة الجعداء. خلع قفازه الايمن على مهل وطرق الباب من جديد.

تهادت خطوات اقدام حافية وانبعث صرير من ارضية المدخل الخشبية، وفتح الباب قليلا في البداية، ثم فتح على مصراعيه بسرعة وظهرت على العتبة امرأة شابة، هتفت بفرح وانفعال:

— الكسي! لم اتوقع مجيئك.

ولمست يديه بتهيب وقبلت كتفه.

— اتسمحين بالدخول يا ساشا؟ سابقى عندك حتى الصباح — قال الرجل وهز راسه ثم ولج المدخل المغمور بضوء القمر.

سارت ساشا امامه متلفتة، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة فلاحت اسنانها البيضاء، منضدة على محيا عاطر مليح.

— رايتك ظهرا عندما اجتزت القرية وظننت انك ذاهب الى ضيعة فولكوفو وستقضي الليلة هناك، لكنك، يا سيدي، عرجت علي...

— هل عندك احد من المسافرين؟

— كلا. — اجابت ساشا وهي تدخل غرفة صيفية ذات جدران ملبسة بالواح خشبية. — توقف عندنا فلاحون بعرباتهم، لكنهم فضلوا المبيت في العراء — وجلست على سرير عريض مغطى ببطانية مضربة وابتسمت بحنان.



ضوء القمر يتسرب الى الغرفة عبر نافذة صغيرة وقد استقر على محيا ساشا، على الشفتين المرتفعتي الزاويتين بعض الشيء، على الجيد الطويل البارز من فتحة الفستان الاسود، على الصدر الذي تتململ فوقه قلادة كهرمان رفيعة.

وقال الرجل:

— احضري نبيذا.

وقف في الظل وبيده قبعته وعصاه. نهضت ساشا برشاقة وخرجت. بينما ارتمى هو على السرير وشبك يديه تحت راسه. بدا وجهه ينكمش ويلتوي. استدار على جنبه واحتضن الوسادة ودس راسه فيها.

عادت ساشا تحمل طبلية مغطاة بشرشف. وضعت عليها قنينة نبيذ وقنينة خمر سكري، ثم صعدت السلم الى الرف العلوي واحضرت طبقا من الجوز والحلوى والزبيب. كانت تتحرك بخفة ورشاقة وهي تنتقل من ضوء القمر الى الظل. اعتدل الرجل متكئا على كوعه وقال:

— تعالي يا ساشا. — جلست على السرير في الحال من جهة القدمين. — خبريني، لو اهنتك، لو اهنتك اهانة لا تغتفر فهل ستسامحينني؟

— تحت امرك يا الكسي بتروفيتش — اجابته بصوت مرتعش بعد صمت قصير — لكنني ممتنة لك كل الامتنان على حبك لي. — اشاحت بوجهها وتنهدت.

ظل الامير الكسي بتروفيتش كراسنوبولسكي يتفرس في وجه ساشا في الظلام. وبعد برهة قال بصوت خافت متكاسل:

— لن تفهمي شيئا على اية حال. فرحت لمجيئي دون ان تسألي من اين جئت ولماذا ارقد عندك الآن؟.. في حين ان وجودي عندك في هذه اللحظة امر فظيع... اجل، يا ساشا، فظيع وشنيع.

– ماذا بك؟! تمتمت مرتعبة – كيف تقول هذا الكلام وانا استقبلك بكل حب ورغبة؟!

– اقتربي مني. هكذا... – واصل الامير كلامه واحتضن ساشا من كتفيها المكتنزتين. – قلت انك لن تفهمي، فلا تتعبي نفسك. هذا المساء تحدثت حتى التخمة مع احد الاشخاص. وكان الحديث ذا شجون.

– مع الاميرة فولكوفا، اليس كذلك؟

– بلى. بالضبط. جلست قربها فاخذ راسي يدور باشد من نبيذك. اتذكرها كما في حلم لذيذ. جئت الآن قادما منها وخيل الي ان كل شيء لدي على احسن ما يرام. وعندما دخلت كوليفان فكرت: حالما اتوقف عند بابك ستسوء حالي. هل فهمت الآن؟ لم تفهمي؟ لا يجوز لي ان اعرج عليك. حبذا لو فعلت شيئا كيلا آتي اليك.

تهاوت يدا ساشا خائرتين، واطرقت براسها.

– انت متألمة علي، يا ساشا، اليس كذلك؟ – سألها الامير وجذبها نحوه وطبع قبلة على وجهها، لكنها ظلت متجمدة كالصخر دون ان تنفتح جفونها او تنفرج شفتاها. فهمس في اذنها – كفاك، انا امزح.

وعند ذاك تكلمت بيأس وقنوط.

– اعرف بانك تمزح، ومع ذلك اثق بك. فلماذا تعذبني؟ لماذا تمزق فؤادي؟ اعرف انك تتصدق علي بالحب. انا امرأة فات اوانها، فاية سعادة تنتظرني؟!

في تلك اللحظة اطلق ديك صيحة عالية وراء الجدار. ورفس حصان ناعس خشبة ما، وفي ضوء الفجر الخافت اخذت تتراءى شيئا فشيئا ملامح وجه الامير النحيف الوسيم الموشى بالظلال. عيناه الواسعتان تسلطان نظرات كئيبة جادة، وعلى شفتيه تجمدت ابتسامة مريرة.

تطلعت ساشا الى الامير طويلا، ثم انهالت بالقبل على يديه وكتفيه ووجهه ورقدت جنبه لتدفئه بجسدها المكتنز المنتفض.



–٢–

على الطرف الآخر من القرية رقد الدكتور غريغوري ايفانوفيتش زابوتكين على تخت فوق رف منصوب عند السقف، بين الجدار والفرن، في منزل جديد وسط حوش مهمل مسيج باغصان الصفصاف تكسو ارضه حشائش طفيلية عالية.

ولا يرى من الطبيب، من تحت، سوى رأسه. فقد اسند بقبضتيه ذقنا نبت عليه شعر سبط اشقر. وانتشر مثل هذا الشعر في كل جهات الرأس، ابتداءا من اليافوخ، واستقر على الجبين والعينين. لم يكن الطبيب قد غسل بعد وجهه المنتفخ من النوم.

ضيق الدكتور زابوتكين جفونه وراح يبصق من التخت الى اسفل محاولا اصابة شرخ في الارضية.

وفي الفسحة بين النافذتين جلس قبالته على مصطبة تحت قنديل من الصفيح قس قمي، هادئ، تلوح عليه امارات الرضا والقناعة، وقد وخط الشيب شعره المتهدل القاتم على العموم. ردنا غفارته يلمعان مما تراكم عليهما من دهون واوساخ، ونشأت عليهما طيات كطيات الاكورديون. دس الاب فاسيلي اصابع يده في كم الاخرى وانكمش وجهه وراح يتطلع صامتا الى الطبيب الذي واصل البصاق.

وقال الاب فاسيلي اخيرا.

– الى اي حال وصل هذا الرجل في ثلاث سنوات؟!

– ماذا؟ الا يعجبك؟ – اجابه الطبيب متكاسلا. – انا متعود على البصاق منذ الطفولة. عندما يشتد الضجر اتسلق مكانا ضيقا وابصق من هناك. لا تنظر الي اذا كان ذلك لا يعجبك. واقول لك انه كان عندي مكان محبب، قرب المستودع، على العشب الطرى. كانت كلبتنا تلد جراءها هناك. والجراء دافئة تفوح منها رائحة اللبن. الكلبة تلعقها الواحد بعد الاخر والجراء تصأصئ. والله، ما احسن حياة الكلاب!

– احمق انت يا غريغوري ايفانوفيتش – قال الاب فاسيلي بعد صمت قصير – الافضل ان اذهب.

– لا يحق لك، يا ابانا فاسيلي، ان تذهب قبل ان تبعث السلوى في نفسي، فالحكومة تدفع لك اجرا مقابل ذلك.
– كم عمرك؟
– ثمانية وعشرون.
– تخرجت من الجامعة، ولا تزال في ريعان الشباب، ولديك مهنة محترمة. لو كنت مكانك لصرت اضحك وامرح ليل نهار. اما انت... اسفي عليك. ما فائدتك بافكارك هذه؟ ما نفع رقادك وبصاقك؟
– كانت عندي، يا ابانا فاسيلي، افكار رائعة – انقلب الطبيب فرقد على ظهره ومد يديه من التخت وطقطق باصابعه وتثاءب – لكنني لم اتعود على الفودكا.
– اسفي عليك – قال الاب فاسيلي واخرج من عب الغفارة بعناية حافظة سجائر معدنية واشعل ثقابا وطوق اللهيب براحتيه على عادته عندما يشعل الثقاب في العراء، ودخن ثم القى بعود الثقاب تحت المصطبة. – صدقني، لو كان في القرية مثقفون غيرك لما جئت اليك ابدا.
هذا الحوار كثيرا ما يتكرر بين الطبيب والاب فاسيلي منذ ان شب الحريق في مستشفى كوليفان في الربيع. آنذاك سلم الدكتور زابوتكين زمام الامور الى المضمد وقبع في المنزل الذي استاجرته البلدية موقتا حتى يتم بناء المستشفى الجديد.
كان غريغوري ايفانوفيتش قد باشر عمله قبل ثلاثة اعوام منذ ان عين طبيبا في كوليفان. استولت عليه حماسة العمل آنذاك فاخذ يجوب القرى ويعالج المرضى، بل ويساعدهم ماديا. كان يخوض الدروب التي يبقبق عليها الروث في فيضانات الربيع او يجوبها في ليالي يناير عندما تنخر الريح الجليدية العظام ويتجمد القمر ميتا فوق ثلوج موات، ويعرج على الاكواخ الضيقة التي يتصايح فيها الصبيان الجرب، ويكاد يختنق في الحمامات السوداء– على السفح – من صراخ الحوامل اثناء المخاض ومن الدخان الخانق، ويبعث رسائل الاستغاثة الى البلدية طالبا الادوية والاسعافات والنقود، ويرى ان كل ما يبذله من جهود خارقة يغوص في قعر سحيق من خراب القرى والفاقة والفوضى. ومن خلال ذلك ادرك



الطبيب اخيرا انه وحيد مع قنينة من زيت الخروع في قطاع يمتد ستين كيلومترا، حيث تلتهم الحمى القرمزية الصغار ويبتلع التيفوئيد الكبار، وانه لن يفعل شيئا بقنينته هذه على اية حال، فالقضية غير متوقفة عليها. في تلك الاثناء احترق المستشفى، فحطم الطبيب قنينة الخروع على الارض وتسلق تخته.
كان الاب فاسيلي متالما جدا للدكتور زابوتكين بعد ان شهد، على هذه الصورة، عذاب ثالث طبيب في القرية. فصار يعرج عليه كل يوم تقريبا ويسعى على قدر الامكان – بسيجارة او نكتة طريفة – ليس الى بث السلوى في نفسه، (فكيف تجد السلوى سبيلها الى انسان لم يبق منه الا السخام؟)، بل الى تسليته بعض الوقت على الاقل. فقد يبتسم رغم كل شيء.
كف الطبيب عن التثاؤب وانقلب من جديد على بطنه وارخى يده وطلب سيجارة. فرد عليه الاب فاسيلي قائلا بانه اشترى التبغ اليوم من كوربينيف، ووقف على اطراف اصابعه تحت التخت ورفع حافظة السجائر وضغط على زنبرك خفي فيها.
تظاهر الطبيب بانه لا يتذكر ان هذه الحافظة المحيرة ذات جيبين، ففتح جيبها التمويهي الخالي من السجائر...
– ماذا؟ هل اخذت سيجارة فاخرة؟ – سأل الاب فاسيلي ضاحكا، فقد اعجبته النكتة كل الاعجاب. – دخن، اذن، دخن. هل تعلم باني كنت اليوم عند فولكوف؟
– يقال ان صاحبك فولكوف وحش فظيع، دابة من الدواب.
– ابدا! لا تلق بالا للثرثرات. انه انسان رائع، وحياته رائعة... ولو انك، يا غريغوري ايفانوفيتش، نظرت الى هؤلاء الناس جيدا لما رقدت طوال الوقت على تختك. اما ابنته كاتيا، فهي، صدقني، حسناء رائعة من اجمل ما خلق الله... لو كنت رساما لرسمت صورة ماريا المجدلية عنها وهي تبتسم ساخرة امام خطيبها.
– كيف تبتسم ساخرة امام خطيبها؟ – قاطعه غريغوري ايفانوفيتش بغتة.
– ماذا؟ الا تعرف ان الرسامين العظام جسدوا هذه الابتسامة الساخرة دوما في لوحاتهم؟ فالعذراء، قارورة الحب والحياة، تبتسم

دوما ابتسامة ساخرة وكأنها ترى ملاكا يشير باصبعه الى بطنها. لا اقول ذلك مازحا، فلا تضحك. - رفع الاب فاسيلي حاجبيه وراح يدخن وينفث الدخان من انفه، ثم قال - تلك اذن... - وتنهد ولاذ بالصمت وانصرف.

الا ان غريغوري ايفانوفيتش لم يكن يريد ان يضحك اطلاقا. سحب راسه الى داخل التخت ورقد وادعا - اغلق جفونه واصطكت اسنانه، فهو في الثامنة والعشرين لا غير. ثم ان الكلمات التي قيلت صدفة عن ابتسامات العذارى يمكن ان تصعقه كالرعد في وضح الضحى.

-٣-

ضوء القمر ينساب على السماء الزرقاء القاتمة، وكأنه سيظل على هذه الحال ابد الآبدين. يتسرب عبر الشقوق وعبر الجفون المغمضة الى غرف النوم، الى حظائر الماشية، الى جحور الوحوش، الى قاع البركة الذى تندفع منه سميكات مسحورة فتلامس بشفاهها المستديرة سطح الماء.

في تلك الليلة ظل القمر معلقا على شاطىء البركة الذي داسته السنابك. واطل بجناح منير وضاء من وراء الاجمة على طرف بستان آل فولكوف.

انبطح سائس ملتح عريض المنكبين على معطف فرائي قصير مفروش على العشب قرب الماء، واسند راسه الى كوعه وعلى مقربة منه غفا صبي على السرج وراح حصانه الرمادي الناعس يهز راسه ويطقطق بلجامه. اما الخيول الاخرى فهي تقضم اعشاب راعى الحمام والشيح العالية في المرج المنخفض، في حين رقدت المهور وابوازها تلامس قوائمها الامامية الممدودة.

وعلى امتداد الشاطىء تقدم عجوز يرتدي قفطانا وسار ببطء من صفصافات السد العالية. وعندما اقترب من السائس توقف وظل على وقفته هذه امدا طويلا وكأنه يتطلع الى شيء او يستمع الى احد... وقال اخيرا:

- الليلة دافئة.



وساله السائس بتكاسل:

- لماذا تتجول طول الوقت يا كوندراتي ايفانوفيتش، هل يقلقك شيء؟..

- لا استطيع ان انام.

- تفكر دوما؟

- نعم، افكر... كل عمري قضيته محوما في هذه الاماكن في البيت وما حوله كما في دوامة. مسحت الارض حتى تعرت صخورها... ولذا تجتذبني آثاري القديمة. فهل قرب الاجل يا ترى؟

- انت بحاجة الى الاستقرار والهدوء يا كوندراتي ايفانوفيتش، الى المعاش.

وقال كوندراتي بصوت كالهمس.

- ثم ان السيد غضب من جديد مؤخرا. فقد وصل الامير اليوم عند الغروب وترك عربته على الضفة الثانية في البركة وجاء بالقارب خلسة، كاللص الى التعريشة ودار هناك حديث بينه وبين كاتيا... يا له من شخص لجوج، بل وخطر.

- ما العمل، يا كوندراتي ايفانوفيتش؟ فهو امير. انا واياك بعنا انفسنا، وعلينا ان نصمت. اما هو فيفعل ما يشاء. يقال انه يودع ضيوفه باطلاق المدافع.

- لا اعترض على ذلك، ولكن لماذا يتردد عليها ولا يخطبها. الا ترى كيف تغير حالها؟..

صمت كوندراتي ايفانوفيتش. ونهض السائس على ركبتيه فوق المعطف المفروش فتطلع حواليه ثم نادى الصبي:

- لا تنم يا ميشكا. الخيول ابتعدت!

افاق الصبي في سرجه ونفض راسه وتمطق ولوح بسوطه. خطا الحصان الرمادي خطوة ثم توقف وتدلت رقبته. وغفا من جديد، وغفا الصبي ايضا. فالليل دافىء هادىء.

ظل كوندراتي صامتا، ثم تلفظ بلهجة ذات دلالة «اجل هكذا اذن»، وجرجر قدميه عائدا الى البستان.

الصفصافة المعمرة التي دمرتها الصاعقة والسياج المضفور والساقية والقنطرة والمماشي واشباح الاشجار - كل ذلك شيء

معتاد، ولكنه كالمفاتيح التي تفتح اقفال الذكريات القديمة وتستحضر الافراح والاتراح، مع ان الافراح نادرة، اذا استعيدت تلك الذكريات بدقة.

كان كوندراتي خادما في عهد فاديم اندريفيتش وفي عهد اندرى فاديميتش، وهو يتذكر رب العائلة الاول فاديم فاديميتش فولكوف الذى يخشاه حتى في المنام. فقد كان طويل الشاربين مخيفا لا يعرف ضبط النفس. وكان عنده مهرج وقح اسمه ايفان وكنيته «المنخل» ومهرجة حمقاء يستخدمها خصيصا للسخرية من النبلاء ذوى الضياع الصغيرة. وكوندراتي هذا هو ابن ذاك المهرج من تلك المهرجة. وقد رضع مع لبن امه الخوف من كل آل فولكوف والولاء لهم في وقت معا.

كان فاديم اندريفيتش والد الاقطاعي الحالي الكسندر فاديميتش، من هواة المطالعة وممارسة الكتابة، حتى انه اصدر كراسا للفلاحين بعنوان «الكادح الفاضل»، لكنه كان من اشد معارضي الغاء نظام القنانة. ذات مرة استدعى فاديم اندريفيتش الراعي الاعور فيودور واجلسه على مقعد حريري وثير وقدم له سيجارا وقال «ها انت الآن، يا فيودور ايفانوفيتش، شخصية مستقلة حرة. احييك، واخبرك بانك معتوق وتستطيع ان تذهب الى اي مكان تريد، ولكن اذا كنت ترغب في البقاء للخدمة عندي، فارجوك ان تامرهم بان يجلدوك في الاسطبل آخر مرة». فكر فيودور وقال «موافق».

في عهد اندرى فاديميتش، والد فاديم اندريفيتش، كان كوندراتي «صبيا» من الخدم والحشم. وكان سيده كسولا يعاني من الملل ويحب التردد على الحمام، وغالبا ما يفرط في الشراب هناك في شلة من الضيوف والغواني حيث يفترشون الاعشاب المحشوشة توا وهم عراة تماما. وهناك، في الحمام، احرقه خدمه.

اما الاقطاعي الحالي الكسندر فاديميتش فولكوف فهو يختلف عن اسلافه. انه اقل شأنا منهم، وقد نشأ في عهد تدهورت فيه احوال النبلاء ولم يبق مجال للبذخ والفخفخة.



ربما ليس صحيحا القول بان كوندراتي ما كان يخشى الكسندر فاديميتش، فالاصح انه لم يكن يحترمه بالقدر الكافي. ولكنه كان يميل بكل جوانحه الى كاتيا كريمة الكسندر والحسناء الاولى في القضاء.

اجتاز كوندراتي السد وهبط الى المنخفض وعبر سياج الصفصاف الواطئ، ومضى في الممشى المعتم الرطب.

الهدوء يعم البستان سوى طير يتململ احيانا ثم يغفو من جديد على اغصان الزيزفون، وضفادع الشجر تنقنق بأنين كئيب رقيق والسميكات تلبط في مياه البركة.

طوقت اشجار الصفصاف المعمرة البركة البيضوية، وهي كثيفة خضراء متهدلة الاغصان تحول دون تسرب ضوء القمر من خلالها. القمر يلعب بعيدا وسط البركة مع طير ينزلق على سطح الماء الزجاجي المتموج برفق، لعله بطة برية او زاغ لا يقوى جناحاه المنشوران على حمله بعد ان شرق بالماء.

بلغ كوندراتي نهاية الممشى والتفت الى الشمال، الى التعريشة المطلة على البركة والمائلة بفعل الزمن، وهي الآن تسبح في الظل.

حملق في الظلام فميز قامة امرأة في وشاح ابيض استندت بكوعيها الى الدرابزون. طقطق غصن يابس تحت قدمي كوندراتي فالتفتت المرأة على عجل وتمتمت بانفعال:

– آ، هذا انت يا امير؟ عدت اذن.

– كلا، هذا انا يا كاتيا – قال كوندراتي وسعل وتوجه نحو المرسى.

هبطت كاتيا بخفة ورشاقة على الالواح الخشبية الى الضفة. وكانت ملتفة بالوشاح حتى الفم. وقفت امام كوندراتي وقالت:

– انت ايضا لا تريد ان تنام؟ هجم علي البعوض في الغرفة فلم انم. رافقني الى البيت.

– فلنترك البعوض وشانه. ولكن لا يليق بالفتاة ان تجيء الى البركة وحيدة في الليل... – قال كوندراتي بلهجة متشددة.

توقفت كاتيا امامه .

– ما هذه اللهجة يا كوندراتي؟!

– ما العمل عاتبني والدك اليوم، وهو على حق فهل يجوز التجول في الليل؟ احكمي بنفسك...

اشاحت كاتيا بوجهها وتنهدت ثم واصلت سيرها واذيال فستانها تلامس العشب البليل.

– لا تخبر بابا بانك رايتني الليلة، عزيزي – همست فجاة ولمست شفتاها خد كوندراتي المتغضن...

رافق الآنسة حتى الشرفة التي تنتصب عليها ستة اعمدة متصدعة في بعض الاماكن وبدت قممها زرقاء على بياض في ضوء القمر. انتظر حتى دخلت كاتيا الدار وسعل وانعطف وراء ركن المبنى متوجها الى مدخل الجناح الصغير الذي يقيم فيه وتطل منه نافذة على الشجيرات.

حالما جلس على الصندوق المغطى ببساط من اللباد تعالى في الدار صوت سيده غاضبا – كوندراتي!..

رسم كوندراتي، كعادته، شارة الصليب على صدره وهرع برماحة الشيوخ في الرواق الطويل نحو الباب الذي جاءه صياح فولكوف من ورائه.

حالما ادار كوندراتي مقبض الباب تشمم رائحة الدخان. وعندما دخل راى وسط الدخان الكثيف على بصيص الشمعة الاصفر السيد فولكوف جالسا على السرير في قميص النوم المفتوح على صدره المتهدل المكسو بالشعر وراى وجهه المحتقن بلون قرمزي. وقد انحنى على وعاء فخاري ينبعث الدخان من جمر فيه. رفع فولكوف الى كوندراتي عينين جاحظتين ناعستين وقال بصوت اجش:

– نهشني البعوض. اعطني عصيرا. – وعندما استدار كوندراتي نحو الباب، صاح به – سالقنك درسا يا سافل! لم لا تغلق النوافذ في الليل؟

– آسف. – اجاب كوندراتي واسرع الى السرداب لاحضار العصير.



## شعور مفاجىء

### –١–

ظل الدكتور زابوتكين، وهو على تخته عند السقف، يتفحص طويلا بعض الخرق والنفايات واعقاب السجائر ويستنشق الهواء المثقل بالغبار، ثم لمس راسه الذي ارهقه الصداع ونزل من التخت ببطء شديد وكان بدنه كله ثقيل بلا عظام. نزل منكمش الوجه وراح يتحسس درجات الفرن برجليه.

وعندما هبط على الارضية شد سرواله وانحنى على كسرة المرآة المعلقة تحت القنديل. فحدق فيه منها وجه اصفر مدهن وعينان زرقاوان كابيتان ناعستان، وشعر متنافر متطاير في كل الجوانب.

– سحنة فظيعة! – قال الطبيب وانشب اصابعه في شعره وصففه الى الوراء ثم جلس الى المائدة مسندا ذقنه بيده وغرق في تاملاته.

تصادف عند المرء بقايا من افكار يحتفظ بها لما ياتي من زمان، وهي بقايا مترسبة كوحل المستنقعات وعفنة كالصديد. واذا استطاع المرء ان يستحضرها من سراديب الروح وينتزعها من نفسه متحملا آلامها فسوف يفيق ويتطهر كل شيء فيه. واذا قلبها وداراها ولمسها كالضرس المريض وتنفس تلك العفونة مرارا وتكرارا واصيب بالم لذيذ هو الم القرف والتقزز والاشمئزاز من النفس فسيغدو شخصا ميئوسا منه، لان احب شيء لديه، والحال هذه، هو الخسة والبصقة في الوجه.

لم يكن الطبيب راغبا على الاطلاق في مفارقة افكاره المترسبة العفنة. فخلال ثلاثة اعوام ترسب لديه منها الكثير. زد على ذلك ان من الخطر جدا على النفس الغضة الا ترى غير المرضى والتعساء المعذبين. خلال تلك الاعوام الثلاثة مر امام غريغوري ايفانوفيتش جمع كبير من الفلاحات اللواتي مزقهن الوضع والولادة والضرب، وحشد كبير من الفلاحين الذين اسودت عروقهم من الفودكا، والاطفال الجرب الذين يتمرغون في الوحل يتضورون جوعا ويعانون

من داء الزهري. ولذا يتصور الدكتور زابوتكين روسيا كلها ممزقة مسودة جرباء. وطالما الحال هكذا ولا مخرج منها فليذهب كل شيء الى الجحيم. واذا كان الوحل والروائح الكريهة في كل مكان فذلك يجري بالضرورة؟ ولا موجب للتظاهر بانك آدمي اذا كنت خنزيرا.

وفكر وهو يلوح بيده الهزيلة «حقا. كل شيء مكتوب ومقدر. لن انتحر بالطبع، لكنني لن احرك ساكنا لتغيير الامور. لماذا ذكرت لي، يا ابانا فاسيلي، ابنة فولكوف؟ الأجل ان تواسيني؟ لو اخذت معي هذه الآنسة الى التيفوس الطفحي فهل «ستبتسم ساخرة امام خطيبها» يا ترى؟..»

ضحك الدكتور زابوتكين ضحكة خبيثة، لكنه ادرك بانه ليس محقا تماما...

«لنفترض ان هذه الآنسة لم تر شيئا ولا تعرف شيئا، فهي ثمرة المشاتل الدفيئة... ربما يشفع لها ذلك في نظري...: ولكن القس يثيرني... فاين هي اموركم الطيبة؟ ارني اياها. يولد الشخص في الوحل ويعيش حياة الخنازير ويموت مشيعا باللعنات... ولا بصيص في هذا القاع الموحل. واذا كنت انسانا شريفا فعلي ان ابصق بنزاهة وصراحة على هذه الحقارة التي تسمى حياة. في البداية يجب ان ابصق على نفسي، على سحنتي...».

بصق غريغوري ايفانوفيتش بالفعل وسط الغرفة ثم استدار نحو النافذة ورأى بزوغ الفجر.

دهش لانه لم يكن يتوقع ذلك باية حال. ثم نهض وخرج الى الحوش واستنشق عطر الاعشاب والرطوبة النافذ وانكمشت اساريره لكأن هذا العطر قد شوش افكاره. ثم مضى يجرجر اقدامه على طول السياج الى الجدول الذي يتلوى في المرج.

السياج يطوق المنزل والحوش من جهتين ويمتد منحدرا الى حيث تنمو صفصافتان اجتثت قمة احداهما ونتأت بدلا منها اغصان متنافرة كثيرة، وانحنت الاخرى على الجدول الضيق حتى كادت تلامس الماء.

كانت السماء لا تزال موشحة بغلالة الليل، لكن نورا رقيقا انسكب على طرف الارض من جهة الشرق. وعلى خلفية هذا النور لاحت سطوح القش وقمم الاشجار بتقاطيع اوضح.



تعالى صياح الديكة في القرية. ورد عليها ديك في حوش الطبيب. وداعب الصفصافة نسيم مشبع برائحة الاعشاب النافذة فاهتزت اوراقها كالقوارب الصغيرة وانبعث منها حفيف رقيق.

— كل هذا خداع و اهمية له. — دمدم غريغوري ايفانوفيتش وهو واقف قرب الصفصافة يتطلع طوال الوقت الى نجمة ضخمة تتلألأ على ارتفاع غير كبير في المشرق الذهبي الفاتح الذي جعل سماء الليل تتحول الى رمادية خضراء ولازوردية كالماء الرقراق. ذهل الطبيب لهذا المشهد المدهش حتى فغر فاه.

كانت النجمة تذوب متلألئة في لهيب المشرق. وفجأة انطفأت فقد ظهر قرص الشمس الساخن من وراء السهب.

تصاعد البخار محوما على الجدول. وانداحت على العشب الضبابي ظلال مائلة الى الزرقة تطاردها الريح. ونعبت الزيغان على الاغصان وراء الجدول وغردت الاطيار مبتهجة في كل مكان، بين الشجيرات والاعشاب... وارتفعت الشمس فوق السهب...

الا ان غريغوري ايفانوفيتش عنيد، فقد ابتسم بسخرية واستهانة وضيق جفونه من الشمس وعاد ادراجه الى منزله العفن.

عندما دخل المنزل رأى قنديل الصفيح يسكب ضوءا اصفر على الجدار. ورائحة الدخان تنبعث من كل الارجاء. فكل شيء مهيأ للصداع.

— تفو. يا للشيطان. الجو خانق. لو علقت فيه فاسا لما سقطت على الارض. — دمدم الطبيب وعاد في الحال الى الحوش فمسح جبينه وفكر «سأستحم. لا شك انني لست بخير».

—٢—

ارتجف الطبيب في الماء البارد عندما نط فيه مرتين نافثا الهواء بشخير. فارتدى ملابسه على عجل ودس يديه الواحدة في كم الاخرى وجلس على جذع الصفصافة الاملس يتطلع الى الشرق.

تعرجات الجدول اللازوردي يختفي بين البردي ثم تنساب من جديد في المرج الاخضر وتمضي بعيدا الى ما وراء اجمة البتولا.

وفي الجانب المقابل لاحت الاوز بيضاء كنتف الثلج على اعشاب

الحماض. وفي الماء الموشى بالبخار سبحت فراخ الاسماك وراحت تتحرش بالاشنات. وفي القاع عند القدمين استقرت قرمة تشبه سمكة الجري المشوربة التي يخشاها الصبيان لانها تنهش القدمين. وبين البردي تتراقص اطيار رمادية تتناغى بين حين وآخر.

كان الدكتور زابوتكين يتطلع الى ذلك كله واسنانه تصطك، بينما اخذت الشمس تسخن وجهه وقدميه الحافيتين.

وفكر في نفسه «هذا يبعث الارتياح طبعا. ولكنه سينتهي قريبا، فهو مجرد صدفة». خفض راسه وتصور هذه الليلة بالذات ككابوس مقيت، افليس الرقاد على التخت الوسخ والهواء الفاسد والصداع الشديد كابوسا مقيتا؟

وارتعب فجاة لقوقاة الاوز. فقد اندفعت نحو الضفة وذكرها في مقدمة السرب. نشرت اجنحتها البيضاء وقفزت الى الماء الواحدة تلو الاخرى وراحت تعوم محولة رؤوسها باستعلاء ذات اليمين وذات الشمال...

سيطر غريغوري ايفانوفيتش على تنهدة كادت تنفلت من صدره (حتى لكأن روحه ارادت ان تطلق صرخة ولا يجوز الصراخ)، ثم راح يتطلع الى الضباب المنبعث من الجدول وهو يرتفع الى الجو.

الجدول طويل كثير الالتواءات والاخوار. وهذا الضباب الشفاف ينبعث من كل مكان ويتجمع وراء الغابة في غيوم بيضاء.

حالما تشرق الشمس ترتفع الغيمة الاولى من وراء غابة البتولا، وتعقبها ثانية وثالثة على نفس الطريق. وتحوم الغيوم فوق الغابة وكأنها محصورة في عش. وسرعان ما تمتلىء السماء الزرقاء بها فتسبح ببطء في اتجاه واحد كطيور التم وهي تعرف بان عمرها غير طويل، وتنزلق على السهب ظلالها الباردة. وتتغير اشكالها فتبدو بصورة وحش تارة وبصورة دمية تارة اخرى وتظل تلعب على هذا النحو حتى تلطمها الريح و تجمع اشلاءها في سحابة ثقيلة وتغرز سهام البرق في جسدها كي تحبل بالمطر الذي تسكبه على الارض وتتلاشى.

— انني مجرد جرو، انني عنيد و كسول — تمتم الطبيب. — وعلى كل حال ما اروع ذلك...



لم يتمالك نفسه فانساق للفرحة حتى ارتجفت يداه ورمشت عيناه بانفعال، فتوجه نحو السياج وقفز من فوقه واخذ يتلفت باحثا عن شخص طيب مدهش ليحدثه عن ذلك كله.

في تلك الاثناء، لاح في الشارع جنب السياج صبية يتدافعون بالارجل ويثيرون الغبار الخفيف و يتشقلبون على الاذرع في مختلف الحركات البهلوانية.

وخلف الصبية سارت فتيات متشابكات الايدي في فساتين قطنية مزركشة ومناديل مبرقشة. وهن ينشدن اغنية لا تتميز بالجدة والروعة. فهي اغنية غير معروفة.

وتبعهن فتيان راح احدهم، وهو شاب نحيف فارع القامة في سترة بالية، يعزف على ناي من القصب فتنتفخ شفته العليا كالفقاعة. والى جنبه شاب آخر، قصير القامة ملتوي الساقين، يرتدي صديريا وسدارة، وهو يعزف على الاكورديون.

استدار الصبية والفتيات والفتيان وراء المنزل الواقع في الركن ووراء السياج، فابتعدت الاغاني والموسيقى. ثم ظهروا جميعا مرة اخرى وعبروا القنطرة البعيدة واختفوا وراء التلة، خلف اعمدة المستشفى المحروقة.

— ما اروع ذلك — تمتم الطبيب — اليس هذا اليوم فريدا من نوعه؟!.

اقترب من السياج فلاح وقور في حلة جديدة جميلة بدون قبعة وقد صفف شعره ودهنه. امسك بعود من عيدان السياج ودس جزمته المطلية بالدهان بين تلك العيدان فقد علق بها قش وغبار، وسأل:

— ماذا؟ هل تتمشى؟

— مرحبا يا نيكيتا. الى اين هم متوجهون؟ — سأل الطبيب — هل اليوم عيد؟

— نعم، اليوم عيد العنصرة — اجابه الفلاح بهدوء، — عجبا لك يا غريغوري ايفانوفيتش، اخذت تخلط بين الايام. الفتيات توجهن لجدل الاكاليل.

لمس نيكيتا عود السياج ليتأكد من متانته وفجاة تطلع في عيني الطبيب فانفرج فمه الذي نبتت حوله لحية صهباء جعداء.

وادرك الطبيب من هذه النظرة المتفهمة المنبعثة من عيني الفلاح الباهتتين بفعل الشمس ومن وجهه الاسمر وبدنه المتين الذي تفوح منه رائحة طيبة ان نيكيتا جاءاليه يوم العطلة ليرى اي سيد هو وماذا فيه من خبال، فالقى عليه نظرة وكأنه عجلة ما، وحدد فورا هوية الدكتور زابوتكين الذي هو، نيكيتا، في غنى عنه باية حال، لانه، رغم كونه طبيبا متعلما — لا يستطيع تحديد هوية نفسه ولا يصلح لشيء.

ادرك الطبيب ذلك وضحك. فقال له نيكيتا:

— لي رجاء عندك. تعال معي الى جدتنا فهي تحتضر من زمان، لكن الجياد كانت مشغولة طول الوقت، وانا ايضا كنت مشغولا... هل ستاتي؟ استطيع الآن ان اشد الحصان الى العربة بسرعة.

— طيب! هتف غريغوري ايفانوفيتش. — اسرع وشده.

وبالفعل شد نيكيتا الحصان بهمة الى عربة جديدة مليئة بدريس طري وجاء بها الى باب المنزل.

صعد اليها الطبيب بارتياح ومهد لنفسه فرشة من الدريس وجلس متربعا وقال:

— نيكيتا، اليوم عيد حقا. انت متزوج، اليس كذلك؟ هل تحب زوجتك؟

رفع نيكيتا حاجبيه مستغربا، وتمطق الحصان فتحركت العربة. كانت جزمته تتراقص قرب العجلة بفعل الاهتزاز على الدرب. وكان الطبيب يهتز على الدريس الندى وقد انطبعت على وجهه ابتسامة عريضة. وراح يتطلع فيما حواليه بارتياح.

عندما اجتازت العربة الهادرة جسر الناحية قفزت الضفادع من جانبيه الى اعشاب السعد، وهرع البط من تحت الجسر لتصيدها...

— ما اكثر الضفادع — قال نيكيتا وغمز بطرف عينه.

خلف الجدول تنبسط مراع ومرج، ووراءها غابة البتولا. كان نيكيتا يلتفت الى الطبيب بين حين وآخر ويحدثه عن صغائر الامور. ولما كان هذا الاخير صامتا اكثر الوقت ولا يبادره باسئلة حمقاء طفق نيكيتا يتحدث عن شؤون الفلاحة وعما فكر به طوال الشتاء، ثم قال فجاة بعد ان قلص عينيه الرماديتين الفطينتين



— ساءت احوال الفلاحين الآن. كل شيء يباع بالنقود. فما قيمة الفلاح اذا قيس بالنقود؟ لم يبق ما يستحق الجهود. فما نفع...

تجهم وجه نيكيتا، ثم انتبه لنفسه في الحال دون ان ينتظر الجواب واشار بالسوط الى طرف الغابة وانفرجت شفتاه من جديد عن ابتسامة ساخرة.

فقد كانت الفتيات هناك يتجولن بين البتولا ويضفرن الاكاليل من الاغصان، وكان الصبية يتسلقون الاشجار، بينما ارتمى الفتيان على العشب منصتين الى انغام الاكورديون. وقال نيكيتا:

— في المساء سيسكرون جميعا ويرتكبون كل الخطايا. في السابق كانت الامور افضل.

خرجت العربة من الغابة الى درب ضيق بين سنابل القمح المتموجة بفعل الريح الدافئة. وفاحت منها رائحة التربة والعسل. وانتشرت الغيوم بيضاء ملتوية كالصوف في كل ارجاء السماء الزرقاء. وامتد الدرب منحدرا في المنخفض تارة وصاعدا على سفح الجبل المتعرج تارة اخرى. وعلى طرف الارض ربضت اكوام جديدة هائلة من الغيوم البيضاء. فهل فيها ما يثير الدهشة الا ان الطبيب راح يتطلع اليها وكأنه لم يلاحظ وجودها في السابق. تطلع اليها وكأنه تحسس الآن بالذات جمالها لاول مرة. وقال:

— انظر يا نيكيتا، ما اروع هذه الغيوم!

— حقا، انها غيوم — اجاب نيكيتا وهو يلتفت صوبها. — ولكنها خالية، فهي ذاهبة لاحضار الماء، وحالما تعود محملة بالماء تصبح قاتمة. قبل ايام مرت غيمة محملة بالضفادع... وضحكنا كثيرا.

قفز الى الارض وسار ازاء عريش العربة وهو يهز العنان فارتقت العربة كثيبا رمليا.

ومن فوق الكثيب تكشف امام انظار الطبيب سهل فسيح تكسوه مربعات فاتحة وخضراء غامقة وصفراء، من سنابل القمح وجناحان فضيان من البركة التي يطوقها الصفصاف كالاكاليل. القرية على هذا الجانب من البركة، وعلى الجانب الآخر البستان. ووسط الاشجار الجعداء سطح المنزل المطلي بالاحمر.

وقال نيكيتا وهو يشير اليه بالسوط:

– ضيعة آل فولكوف.

فاحس غريغوري ايفانوفيتش بفرحة الحب الدافئة كالريح تمس شغاف فؤاده. وتمنى ان يطير بجناحين الى السطح الاحمر الواسع وينظر ولو لحظة الى ابنة فولكوف ليرى ابتسامتها الساحرة المدهشة.

– ٣ –

جدة نيكيتا المريضة تقيم على الضفة الثانية من نهر الفولغا. بذل الحصان المتعب جهدا كبيرا وهو يجر العربة على رمال شاطئ بين شجيرات صفصاف تكسرت بعض اغصانها وطليت بالقطران. واخيرا لاح السطح الباهت لمبنى دائرة الملاحة النهرية وعلمها الذي نقشت عليه الاحرف الثلاثة الاولى من اسمها.

الجو ساكن فلا ريح هناك، والامواج التي خلفتها الباخرة تزحف ببطء نحو الرمال وتهز زورقين مليئين بالماء ومربوطين الى المرسى. سار الطبيب على رصيف المرسى المتداعي ودخل المبنى وجلس وهو يتطلع الى الضفة الاخرى الخضراء الشديدة الانحدار. وهناك على تلة بين الاشجار ينتصب منزل أبيض تعلوه قبة وفي واجهته اعمدة، ونوافذه مغلقة دوما بالواح مسمرة افقيا. تلك هي «ميلوبه» ضيعة المرحومة الاميرة كراسنوبولسكايا. كان الطبيب قد تعود على هذا المنزل لكثرة مروره به، فلم يلاحظ هذه المرة ان كل النوافذ مفتوحة وان اناسا يتحركون بين الاعمدة ويبدون من بعيد صغارا كالذباب.

وفجأة ارتفعت امام المنزل غيمة بيضاء وانداحت اطلاقة مدفع على النهر وبعد لحظات ابتعد عن الضفة قارب مسطح ثقيل.

فقال نيكيتا الواقف قرب درابزون المرسى:

– الامير يودع ضيوفه. كان مدفعيته تقصف الاتراك.

– نعم، فعلا. لم الاحظ ان المنزل مسكون. منذ متى؟

– من الربيع. فقد جاء صاحبه الامير الاعرج. لو تعلم ما كان يجرى هنا في الفترة الاولى! كنا نظن بانهم سيحرقون المنزل. يقال ان الامير ينوى الزواج، ولذا يستهوى العرائس بمدفعه.

عبر القارب المسطح النهر بخط مائل. وكانت المجاذيف بايدي



اربعة يرتدون قمصانا زرقاء وبدون طاقيات، وتهتز على القارب مظلة حمراء تنعكس ظلالها في الماء.

وبعد برهة صار بالامكان رؤية رؤوس البحارة الحليقة ووجه فتاة ورجل بدين يرتدي سترة طويلة ضيقة عند الخصر وطاقية بيضاء بحافة عريضة. اسند ذقنه الى عصاه وتدلى على جنبيها شارباه الطويلان الاشقران.

كانت الفتاة الجالسة قربه موشحة بالبياض، وقبعتها القش تستقر على ركبتيها. وقد طوقت رأسها بضفيرتين من شعرها الاشقر، وسكبت الشمس عبر المظلة ضوءا ورديا على محياها البيضوي الرائع الاشم وفمها الطفولي الصغير.

وقال نيكيتا:

– اقطاعي رزين يتمسك بالارض وبتقاليد الاجداد، لكنه يريد ان يزوج ابنته من الامير. ذلك هو فولكوف على حقيقته.

«تلك هي اذن!» – فكر الطبيب وابتعد عن درابزون المرسى باستحياء، وانزوى وراء اكياس الدقيق واحتقن وجهه عن آخره، ودمدم: ما هذا الهراء الصبياني؟.. – واخذ ينبش باصبعه في احد الاكياس.

تناهت طبطبة المجاذيف. واقترب القارب محمولا بالتيار. وسرعان ما تعالت من القارب صيحة «امسك»، واجاب ملاح من الرصيف «حاضر» وركض ليمسك بالحبل الذي القى اليه. وارتطم القارب بالمرسى، وبعد لحظة سمع غريغوري ايفانوفيتش صوتا كالموسيقى «بابا، انجدني»، ثم سمع صرخة وطبطبة على الماء.

نغز رعب بارد صدر الطبيب، فتشبث بالكيس، ثم هرع الى الدرابزون...

كانت كاتيا واقفة في اسفل سلم المرسى وقد رفعت من الجانبين تنورتها المبللة وهي تضحك. اما فولكوف فقد خاطبها غاضبا:

– هل انت عنزة حتى تقفزي بهذه الصورة؟!

وصعد الاب مع ابنته الى الرصيف ومضيا الى الشاطئ بلا استعجال واستقلا العربة التي شدت اليها ثلاثة جياد دهم.

التفتت كاتيا صوب المنزل على الضفة الاخرى فلمسته بنظرة رقيقة من عينيها الرماديتين الواسعتين الجاحظتين بعض الشيء

كعيني ابيها. وامر فولكوف «تحرك»، وانطلقت الجياد في الجمتها المزركشة واقتادت العربة الصقيلة الى ما وراء شجيرات الصفصاف.

اما غريغوري ايفانوفيتش فقد شيعها بنظراته وظل واقفا امدا طويلا يتطلع صوبها ثم عاد الى المصطبة وراى على الارضية ازاءها اثرا رطبا لحذاء نسوي فابعد قدمه عنه بحذر.

وبعد حين وصلت الباخرة. فاستقلها الطبيب الى اسفل النهر حيث عاد جدة نيكيتا وقفل راجعا الى البيت في ساعة متأخرة من الليل. وكان خائر القوى ميالا للصمت.

لم يدخل منزله، بل رقد على صندوق في الدهليز. واستولى عليه النوم في الحال، ولكن لامد قصير. فقد ايقظه صياح الديك، وراح يتطلع الى النجوم عبر مستطيل الباب المفتوح، ثم انقلب على جنبه، ثم على ظهره، وراح يتنهد ويبتلع لعابه منقبض الاسارير.

## ذكريات خبيثة

### - ١ -

فتح الامير الكسي بتروفيتش عينيه في مقعد وثير امام طاولة الزينة قرب النافذة العالية المرفوعة الستارة. اما النافذتان الاخريان في غرفة النوم فقد اسدلت ستائرهما وكان رقاص الساعة المعلقة فوق المدفاة الجدارية يتكتك متانيا في الظلام.

لاحت عبر النافذة قمم اشجار البستان وعلى مسافة ابعد يتراءى النهر البنفسجي ووراءه مبنى ادارة الملاحة وخمائل بالمياه وبحيراتها المائلة الى الحمرة ففي مرآتها البيضوية ينعكس الغروب الحزين وسحبه الرمادية. وفي ذلك الاتجاه، عبر الهضاب والحقول، يمتد الدرب كخط ضيق لا تكاد العين تراه.

كانت اطراف السحب مصطبغة بلون احمر ينبعث من ضوء المغيب الخابي، اما الغيوم المعلقة في اعلاها فقد بدت وردية في سماء بلون مياه البحر، وفي بقعة اعلى تتدفأ احدى النجوم.

تطلع الامير الى هذه المشاهد ولمس باصابعه الباردة خده النحيف الشاحب.



في موقي عينيه زرقة كثيفة، وعلى وجنته المستديرة تجعدت شعيرات رفيعة من لحيته الكستنائية القصيرة.

لم ينعكس في مرآة الزينة الا مشط يده الابيض وخده وعينه الجاحظة. كان الامير جالسا بلا حراك، وهو يلقي على نفسه احيانا نظرة في المرآة.

فهو يعرف ان كل وحل هذه الليلة سيثور في راسه حالما يتحرك، فيعكر عليه التامل الهادئ في كل الاشياء الواضحة الشفافة كما لو صنعت من بلور. وكانت افكاره هي الاخرى شفافة كئيبة. تلك هي كآبة الغروب على الانهار الروسية. ويثير المزيد من الاحزان التطلع الى الدرب المسرع نحو المغيب. فالله وحده يعلم من اين يبدأ هذا الدرب واين ينتهي. وهو يقترب من النهر كانما يريد ان يرتوي. ثم يسرع من جديد. ولكن ماذا هناك؟.. اتلك عربة تنهب الدرب؟ لا فرق، فهي لا ترى بوضوح من هنا.

في كآبة السماء والارض هذه ترتاح نفس الكسي بتروفيتش. ويخيل اليه ان كل ما مضى لا يعنيه، وكل ما هو آت سيمر به مر الكرام كشبح لا حاجة اليه. بعد حفلات السكر الصاخبة مع الخلان والاصحاب، وبعد اللقاءات القلقة مع كاتيا في البستان خلال الامسيات حيث يتوق الى لمس فستانها على الاقل بشفتيه ولا يجرؤ على ذلك، وبعد المداعبات الرقيقة في احضان ساشا، بعد الافراح والتوبة، واخيرا بعد ذكريات بطرسبورغ التي يقشعر لها البدن، يمسح الامير الاصباغ من وجهه مرة اخرى كممثل متعب ويتمتع دوما، والى ابد الآبدين، بمنظر هذا الغروب الذي يثلج القلب، بمنظر هذا الدرب.

ولكن ما ان فكر الكسي بتروفيتش بهذا الهدوء والاطمئنان حتى اخذت الافكار المتناقضة تقلقه خلسة وكانها السنة تجادله...

بادرته احدى الافكار قائلة. «انت بارد وحيد كالميت. لم تفعل شيئا غير تدمير نفسك وتدمير الآخرين. فمن هو بحاجة اليك انت المخلوق الصغير في مقعدك هذا؟.. ربما انت اكثر الناس كآبة واسى، و احوجهم الى المشاطرة والحنان...».

وردت عليها فكرة اخرى. «لا تاتي المشاطرة والحنان مجانا».

وقالت فكرة ثالثة بلهجة مريرة، «الجميع يأخذون منك ويطالبونك ويدمرونك».
وقالت الفكرة الاولى من جديد «لم تكن تحب احدا، ولذا فانت منبوذ الآن، وقد جفت عروق قلبك».
— كلا، لقد احببت، واستطيع ان احب، بل اريد ان احب — همس الامير متململا في مقعده.
واضطرب الاستقرار والاطمئنان، في حين بهت الغروب وخبا وراء النافذة، وداهمته الظلمة من الجناحين.
— يا الهي، ما اشد ضجري — قال الامير وضغط براحة يده على عينيه لدرجة الالم. فهو يعرف بان الوقت حان الآن ليشتوى في مقعده كما في المقلاة ويتعذب من الخجل ويفكر في بطرسبورغ...
لا مفر من هذه الذكريات، فهي متنبهة دوما، ولا يرويها الا الخمر والعربدة والليالي الحمراء.

— ٢ —

خدم الكسي بتروفيتش في احد افواج الحرس بعد ان نسب اليه قبل ثماني سنوات، في عام وفاة والديه.
انفق بدون تقتير المبلغ غير الكبير الذي كان معه، فهو واثق من ان احدا من اقربائه سيموت او ان شيئا سيحدث لامحالة عندما يصرف آخر ورقة من فئة مائة روبل.
وبسبب هذه الثقة كان من المستبعد العثور في بطرسبورغ على رجل خالي البال اكثر من الامير الكسي كراسنوبولسكي. النساء معجبات به اشد الاعجاب، وعلاقاته بهن سطحية قصيرة الامد دوما فلا تترك اثرا في نفسه ما عدا الذكريات الطيبة او المسلية.
قضى ستة اعوام من الخدمة في الفوج، وكانت الايام في تلك الاعوام تمر تباعا الواحد مثل الآخر في حياة عاصفة هائجة. ذات مرة انتبه الامير الى نفسه وخيل اليه انه كان يسير طوال هذه الحقبة في رواق واحد رتيب، وليس امامه الآن غير رواق مماثل باهت اصم. اثار هذا الاحساس الجديد بالحياة دهشته واسفه.
وفي تلك الاثناء قابل في صالون الضيافة بمنزل الاميرة



ماتسكايا المضجر الذى لم يكن يتردد عليه كثيرا، امرأة ايقظت فيه على نحو مفاجيء، كالرعد، مشاعره واشواقه الغافية.
كان الامير واقفا مع شاب نحيل من السلك الدبلوماسي يستمع الى ارتجالات ونكات سخيفة معلوكة من زمان، وقد هم بالانصراف خلسة عندما فتح الوصيف الباب المذهب ودخلت سيدة فارعة القوام بتنورة من جوخ ينبعث منه حفيف وعلى كتفيها فرو بني اشيب، فجلست مسرعة على الاريكة.
كانت حركاتها سريعة ومقيدة بتنورتها. ومن جبينها الواطيء تحت القبعة لاح شعر بلون النحاس. محياها المخملي بعينيه الرائعتين وجفونه المرتخية وانفه الرقيق ينم عن القلق والاكتئاب.
— من هذه؟ — سأل الامير على عجل.
— آنا سيميونوفنا موردفينسكايا، وهي ذائعة الصيت — اجاب الدبلوماسي وقد سالت القهوة من فنجانه على السجادة.
على هذا النحو كان اللقاء الاول. وظل الكسي بتروفيتش يتذكره بادق التفاصيل.
عندما قدموه اليها القت عليه نظرة خاطفة بجفون ضيقة وكأنها تقيس مواصفاته.
اخذ الامير الذي رن مهماز جزمته وامسك قبعته بيده المستقرة جنب فخذه يبحث عن الكلمات اليسيرة المعتادة دوما، ولكنها بدت له الآن خالية من المعنى.
استمعت اليه آنا سيميونوفنا مشرئبة، وقد انتصبت اذنها الوردية بشكل لا يكاد يلحظ. وعلى تنورتها السوداء استقر منديل ابيض يفوح منه عطر متميز لعله عطر الانوثة، وربما كان هذا العطر يفوح منها بالذات. ثم ابتسمت وكان اللقاء الرسمي قد انتهى. لم يفطن الامير الى ضرورة الانصراف في الحال، فنهضت بحفيف واستقام صدرها ومضت الى صالون الضيافة الثاني وحيث بعض معارفها مرفوعة الراس باهرة الجمال.
بعد هذا اللقاء امضى الامير بضعة ايام في عالم عاطر رائع، لا مكان فيه لاي شيء تختلف رائحته عن عطر المنديل على ركبتي آنا سيميونوفنا. وكان بصر الكسي بتروفيتش يغيم وينتفض قلبه لادنى اشارة او تلميح الى ذلك العطر.

كان يجلس في شقته الخالية بغرفها الثلاث في الدور الارضي في منزل بشارع فونتانكا، قرب الحديقة الصيفية، ويتطلع شارد الفكر الى الجدران التي اصابت الطلقات بعض مواضعها في حفلات العزوبة. ثم ينهض ليجلس الى طاولة عليها كثير من صور النساء، ويضطجع على اريكة جلدية ويدخن ويترنم صافرا بالحان من شوبان، ومن خلال ذلك كله يرى صفحة ذلك المحيا الشاحب والفم الرقيق العينين اللتين ينبعث منهما الدفء. ولم يعد يستثيره حتى الجندي القائم على خدمته والذي ينشد في المطبخ عادة اغاني الجنود بصوت انثوي كاصوات الفلاحات.

وعندما تساقط الثلج نتفا كبيرة وراء النافذة الصق الامير جبينه بزجاجها وتطلع طويلا الى البساط الابيض المتموج الهابط من السماء، وصاح بخادمه فجاة. «اعطني معطفي وقبعتي. اسرع.»

تلك هي طبيعة الثلج. فعندما يلفع السماء والارض والمنازل، وتلف النساء معاطفهن ويدفئن الفرو العاطر بدفء الاكتاف والصدور، وتنفرج الزوبعة الثلجية عن حصان منطلق وذنبه ملتو بفعل الريح، ثم تبتلعه من جديد بسرعة يتعذر معها على الرائي ان يلاحظ الشخص الجالس في الزحافة الواطئة التي يجرها الحصان، عند ذاك يتعين عليك ان تقبع في ركن الشارع وتنتظر: من التي ستاتي بها الزحافة فتلمع عيناها السوداوان من تحت قبعتها المشدودة الى وجهها المتورد؟ عند ذاك يتعين عليك ان تمتطي الجواد وتنطلق به مخبئا وجهك في ياقة معطفك وتفكر: من التي ستصادفها في هذا المساء وتترك عندها فؤادك؟

سار الامير الكسي بتروفيتش على الكورنيش بخطى متسارعة وقد فتح ازرار معطفه الفرائي. كان الثلج يذوب على خديه، ورنين مهمازيه العذب يداعب اذنيه. توقف على جسر الارميتاج وادرك بانه سائر في اتجاه منزل الاميرة ماتسكايا.

هز كتفيه واطلق ضحكة ساخرة وتطلع الى ما حواليه.

حجب الثلج الكثيف نور الفوانيس واستقر على كل الافاريز والتماثيل وغطى الجرانيت القاتم بوسائد بيضاء. كان الشارع خاليا من المارة. ونوافذ القصر معتمة، والحارس يقف متجمدا عند المدخل وقد التف بمعطف خشن من فرو الضان، والتصقت البندقية بجنبه.



وفجاة دوت صيحة ومرق حصان ادهم بقوائم سريعة متباعدة عبرجسر الارميتاج وهو غارق في الزبد والثلج. ووراء ظهر الحوذي العريض في الزحافة الضيقة جلست آنا سيميونوفنا مائلة الى الامام في فرو السمور القاتم...

وضع الامير يده على قبعته القندسية العالية وظل على هذه الحال يحدق في الزوبعة التي ابتلعت الزحافة والحصان. انزلق المعطف من على كتفيه فتكشفت الاشرطة الذهبية على بزته.

ونخر البرد عظامه ولسعه حتى الفؤاد...

في اليوم التالي قام الامير بزيارة الى آل موردفينسكي. اوضح للزوج متلعثما محمر الوجه بانه يتشرف بتقديم آيات الاحترام الى آنا سيميونوفنا التي التقاها عند الاميرة، وظل اثناء تلك التوضيحات ينتظر ان تاتي هي من احدى الغرف استمع موردفينسكي الى الامير ببرود ورفع حاجبيه مستغربا دون ان يتطلع اليه. كان بدينا طويلا محدودب الظهر. القى الامير نظرة على وجهه الكالح بانفه النافر وشاربيه المتهدلين، وتصوره منكمش الاسارير منقبض النفس بعد انصراف الضيف لعلمه بضرورة رد هذه الزيارة التي هو في غنى عنها.

الا ان موردفينسكي لم يرد الزيارة. انتظره الامير عبثا طوال اسبوع، وعزم على اهانته في اول مقابلة واستدراجه للمبارزة...

وبعد فترة قابل آنا سيميونوفنا في باب احد المنازل عندما كان خارجا منه. سلطت عليه نظرة من عينيها الزرقاوين وابتسمت ابتسامة ساخرة. ظل واقفاً وكان قوة جبارة سمرته في مكانه.

ثم بحث عنها طوال شهر وتصف في الصالونات وصالات الرقص وفي الحفلات وصلوات المغرب في كنائس المجتمع الراقي. لم يكن يتصور ابداً بانه يمكن ان يتالم الى هذا الحد. تعود التفكير فيها دوما وبشكل ممض كما يفكر المرء في المرض. وعندما يدخل صالات الضيافة كان يعرف مسبقاً، ودون ان يراها، هل هي هناك ام لا. وعندما اقتربت منه ذات مرة من الخلف بصورة مفاجئة ارتجف واستدار على عجل واتسعت حدقتا عينيه..

فسالته:

— يبدو انك تخشاني، اليس كذلك؟

كانت تلك هي كلماتها الاولى التي لا تمت بصلة الى لغة المجتمع الراقي...

لعل آنا سيميونوفنا تعيره اهتماماً أكثر من الآخرين، بيد انه كان يحتقر نفسه ويعتقد بأنه ليس اهلا لها. فلم يعد يفرح لمشاعره، وهي تقيده وتلسعه وتفتت كيانه. ليس عبثاً ان يقول المثل الشعبي: الحب ثعبان...

آنذاك اعترف الامير بكل شيء فجأة (كعادته دوما) لضابط معرفته به قليلة، لكنه من الذين يترددون على آل موردفينسكي... استمع اليه الضابط باهتمام، وهو يعض شاربيه، (وكانا جالسين في حانة يعوي فيها فيها الغجر الرومانيون فيشوشون عليهما الحديث). وفي اليوم التالي نقل الضابط كل ما سمعه منه الى آنا سيميونوفنا.

في تلك الامسية المشهودة تقابلا في احدى الحفلات الراقصة. كان الكسي بتروفيتش الذي غدا نحيفا رزينا قد اندس بين البزات العسكرية وبدلات الحفلات وفساتين النساء وهو ينظر شزرا ويطنطن بمهمازيه وينحني محييا ليشيح ببصره في الحال، ويبحث عنها جادا وكأنه ويخشى الا يتعرف عليها أو يخطىء في معرفتها.

وكانت هي واقفة قرب أحد الاعمدة في فستان بسيط مفتوح من الحرير الاخضر، وقد نقشت على اذياله وردة كبيرة وردية اللون.

— لي حديث طويل معك، — قالت آنا سيميونوفنا للامير عندما لمست شفتاه يدها. لكنه لم يسمع شيئاً ولم ير شيئاً... كان الامر صعبا جدا عليه، فهو مرتعب وفرح في الوقت ذاته. وتمتم بصوت خافت.

— لا تغضبي علي.

اجتازا الصالة ومضيا الى الحديقة الشتوية المسقوفة.

جلست آنا سيميونوفنا على اريكة صغيرة قرب حائط ملبس بصخور ناتئة... الصخور والنتوءات مكسوة باللبلاب، ومن فوق تتدلى خيوط النباتات المتسلقة. وعلى جانبي الاريكة تنتصب نخلتان حتى السقف الزجاجي. والضوء يتوزع متساويا بلا ظلال في كل الارجاء فينير الخضرة والنافورة التي ينبعث منها خرير، كما ينير كل بدن آنا سيميونوفنا النحيفة الغاضبة. انطبعت على شفتيها بسمة ساخرة وضربت راحة يدها بالمروحة ثم قالت:



— سمعت انك تكلمت عني بما لا يليق، فهل صحيح ما سمعته؟

تنهد الامير واطرق براسه، بينما واصلت آنا سيميونوفنا كلامها.

— انت لا تجيب، الا يعني ذلك انه صحيح؟..

انفرجت شفتاه الجافتان بعسر عن تمتمة غير مفهومة..

— ماذا؟ ماذا؟! — تساءلت واضافت فجأة بصوت خفيض على غير المتوقع: — الا ترى باني لست زعلانة جدا منك؟!

خيل اليه ان هذه الكلمات تنطوي على السخرية وعلى المشاطرة الانثوية الخالصة. فبهذه الطريقة يسهل علاج الاكتئاب. واختلطت افكاره، واحس بانه سيخل باللياقة، وعند ذاك سيضيع كل شيء.

الا ان موردفينسكي دخل الحديقة في تلك اللحظة ورأى الامير فانقبضت اساريره وقال لزوجته:

— وصلتني برقية. سارتحل.

فاجابت آنا سيميونوفنا.

— صحيح؟ لكنني لا اقرأ برقياتك. سيوصلني الامير الى البيت.

انحنى موردفينسكي وانصرف. كان في كلمة «الامير» القصيرة وعد... تأبطت آنا سيميونوفنا ذراعه ودخلا صالة الرقص. وهناك انتشى الامير فجأة فحدثها عن الايام الاخيرة و كيف قضاها، وكانت آنا سيميونوفنا تحرك حاجبيها بعض الشيء عندما يحدق في عينيها باصرار.

غادرا الحفلة في الثالثة بعد منتصف الليل. وعندما صعدا الى السيارة رفعت آنا سيميونوفنا معطفها الفرائي الرمادي وكشفت عن ساقها حتى الركبة في جورب ابيض لاحت بشرتها من خلاله..

واغمض الامير عينيه. وعندما جلس ازاءها على المقعد الوثير المتقافز خيل اليه انه رآها كلها من الجورب الابيض حتى عقد الماس على جيدها، ولاذ بالصمت ومال الى الوراء واحس بان عينيها الباردتين اللامعتين بضوء فانوس الشارع المسرع نحوهما تراقبان كل حركاته وسكناته..

واخيرا اثقل الصمت عليهما لدرجة لا تطاق. فدس الامير اصبعه في ياقته الفرائية عند الرقبة وسحبها فانفرطت الابزيمات والازرار على بزته.

– لا داعي للانفعال، – قالت آنا سيميونوفنا ومسحت بيدها في قفازها الابيض الزجاج الذى عتمه البخار واضافت بصوت خافت. – سأسمح لك بكل شيء...

هل كان ذلك نزوة من نزوات آنا سيميونوفنا ام انها تمادت جدا في لعبتها، لكنهما ظلا حتى الخامسة صباحا، في السيارة اولا، ثم في شقة الكسي بتروفيتش، يلاطفان بعضهما البعض دون توقف...

حالما دخلت آنا سيميونوفنا غرفة نومه قالت مندهشة: «ما اضيق هذا السرير». وكانت تلك هي الكلمات الوحيدة التي قالتها طيلة ذلك الوقت.

في غرفة النوم المضاءة بقنديل معلق أمام الايقونة المذهبة القت على المقاعد والسجادة معطفها وفستانها والبستها الداخلية المعطرة. لمس الامير هذه الالبسة مترنحا كالثمل ثم رقد باستعجال على الوسائد من جديد وهو يتطلع بجد الى المراة اليافعة التي بدت اكثر بهاءا وروعة في الضوء الخافت، ولكي يتأكد بان ذلك ليس حلما، طبع على شفتيها بجفون مغلقة قبلة انسته نفسه.

غيرت تلك الليلة مجرى حياة الامير. فقد ذاق طعم الألم والفرحة المنقطعة النظير وفقد ارادته. وفي كل ساعة من اليوم التالي كان يتوق بمزيد من التعطش الى تكرار ما حدث... ولو الضرورة ان يعمل عندها حوذيا او وصيفا لوافق في الحال.. ولصار يلمس حاجياتها ويتطلع اليها وينصت الى كلامها ويقبل المقعد الذي تجلس عليه.

بيد ان الامير لم يصبح حوذيا ولا وصيفا. اما آنا سيميونوفنا فلم تحدد مكانا او موعدا للقاء جديد.

انقضى النهار وانقضت ليلة مسهدة، وتبعها نهار مشبع بالقلق...

وفي المساء اقيمت في جمعية النبلاء سوق خيرية. حالما ولج الامير قاعة الجمعية الفسيحة لمح آنا سيميونوفنا في كشك المبيعات. كانت تبيع مطرزات ومخرمات فلاحية رخيصة. وقد وقف الى يمينها زوجها، والى شمالها استند الدبلوماسي النحيل الى رف الكشك وبيده نظارته المنفردة.

عندما اقترب الامير من الكشك وانطبعت على محياه ابتسامة عريضة نور كل شيء حواليه وكان شمسا اشرقت هناك... اما آنا سيميونوفنا فقد اكفهر وجهها وتجهم حالما وقع بصرها عليه، فغضت



الطرف واستدارت نحو الفتى النحيل. وتعسرت انفاس الكسي بتروفيتش... فانحنى محييا، لكنها لم تمد يدها اليه. ورد زوجها التحية على مضض.

امضى الامير المساء كله تجولا في السوق الخيرية بين الاجنحة يشتري حاجيات لا داعي لها ويحملها معه ثم يتركها على رفوف النوافذ، وبعد كل دورة يقوم بها هناك يتوقف على مسافة من كشك المطرزات، حجبت جمهرة من الضباط آنا سيميونوفنا، وكانت ضحكاتها تتهادى اليه. وقبل ساعة من اغلاق السوق هبط الى مشجب المعاطف ووجد معطفها. وعندما ظهرت على السلم متأبطة ذراع زوجها اقترب منها دون ان ينظر اليها كيلا يرى عينيها الباردتين وطفق يتحدث عن مبيعات المطرزات... لم تجبه بشيء، وضع البواب جزمتها القصيرة على الارضية واخذ يساعدها في ارتداء معطفها. انحنى الامير على الجزمة الرمادية وراح يساعدها في ارتدائها بعد ان ازاح بحذر طرف معطفها وهو عارف بان تلك فعلة لا تغتفر. كان رأسه يقترب اكثر فاكثر من الجورب الشفاف الازرق فلمس ساقها بشفتيه على عجل ونهض محتقن الوجه ورأى موردفينسكي يرتدي معطفه وقبعته ويتطلع الى قدمي زوجته بابتسامة ملتوية غريبة...

تلك كانت بداية الكارثة الفظيعة التي ترك الامير الفوج على اثرها وقبع في ضيعة «ميلوبه» التي ورثها عن جدته كراسنوبولسكايا بعد ان توفيت هذا الربيع في مصح للمياه المعدنية في المانيا.

بتلك الكارثة انتهى شباب الكسي بتروفيتش، وهو يتصور الآن بان هذه الحياة المملة الوهمية لا مفر منها. ولعل حبا آخر ينقذه، لكنه يحس بان قلبه ممزق لا يكاد ينبض بالحياة. ولكي يحب مرة اخرى لا بد ان يولد من جديد.

## – ٣ –

كان الامير يدعو ضيوفا بعينهم كل مساء تهربا من البقاء وحيدا مع تلك الذكريات الخبيثة المسمومة. فيتقاطر عليه في الغسق

الاخوان رتيشيف في عربة خفيفة بعجلتين والعجوز اوبرازتسوف في عربة مشبكة السقف باربع عجلات واخيراً سوروبا الذي يصل بعد الجميع في مركبة صغيرة على النمط الانجليزي، وهو ابن تاجر كثير الاسفار. اجتمعت هذه الشلة اليوم ايضا.

صعد الوصيف في الموعد المحدد الى غرفة نوم الامير وفتح الباب قليلا فرآه وقد استقر راسه على رف النافذة.

لم يسمع الامير في الحال وصيفه يدعوه لتناول طعام الغداء ويخبره بوصول الضيوف. عبث التيار المنبعث من الباب المفتوح بشعره، فالتفت وهو يضيق عينيه على نحو مؤلم في ضوء الشمعدان المائل اللهيب بيد الوصيف، وقال:

– فليتناول الضيوف الطعام.

جرت العادة على تناول طعام الغداء المتاخر في الصالة الكبرى. وعلى طول جدرانها الاربعة ينتصب على مسافة معينة من كل جدار صفان من الاعمدة المستديرة التي تشكل ممراً هناك، ووراءها ست نوافذ تطل على البستان، اما الجهة المقابلة فعليها نوافذ وهمية بمرايا بدلا من الزجاج. وبين الاعمدة رصفت ارائك صغيرة بدون مساند للظهر...

عندما دعا الوصيف الضيوف لتناول الطعام نهض من هذه الارائك الاخوان رتيشيف وسوروبا واوبرازتسوف وهم يتنحنحون ويفركون ايديهم، ثم جلسوا الى المائدة وازاحوا باكواعهم الصحون والكؤوس البلورية على السفرة الناصعة البياض. الاخوان رتيشيف يجلسان دوما جنب بعضهما البعض، وظهراهما العريضان مشدودان في سترتين طويلتين رماديتين ضيقتين عند الخصر بازرار مستطيلة. وكلاهما بشاربين آشعثين وانف افنط ووجه مكتنز مترهل وعينين مستديرتين واسعتين. جلس الاخوان خجلين ينتظران حتى يتناول سوروبا اللقمة الاولى، فقد ارتمى على كرسي رب البيت في آخر المائدة. اما اوبرازتسوف الاصلع فقد دور شفتيه المعسولتين بشكل حلقة وراحت عيناه الشاخصتان الغائمتان بسبب داء النقرس تنبشان محتويات المائدة.

مطط سوروبا شفته السفلى وامر باحضار شمبانيا من النوع



الذي احتسوه بالامس... يرتدي سوروبا بدلة سموكنغ وقد علق على صديريه منديلا احمر كما لو كان اثناء القربان المقدس.

وقال اوبرازتسوف للوصيف.

– نسيت يا عزيزي أن تحضر نبيذ الكرز العسلي، طلبت منك ان تحضره كما في يوم امس، الا تتذكر؟

– سمعا وطاعة – اجاب الوصيف عابسا.

احضر صبي المطبخ الحساء في تلك اللحظة. وقال ايفان رتيشيف واخوه سيميون متاملين:

– الافضل ان نشرب الفودكا العادية، فالبطن لا يقرقر منها كما يقرقر من الشمبانيا... ناولني، يا سيميون، الفطر المملح واملأ الكاس...

سوروبا ياكل قليلا، وهو صامت يطرف بجفونه الخالية من الرموش، فقد احتفظ بنكاته حتى يجيء الامير.

اما اوبرازتسوف فقد علق على صدره فوطة نظيفة وانهمك في تناول الحساء بشهية، والغضون المنتفخة تتراقص تحت عينيه. واوما براسه الى الاخوين وقال:

– معهما حق. فالمدعي العام عندنا أصيب بمرض خطير بسبب الشمبانيا، وانتفخ بطنه لدرجة لا تطاق. ولكن لا يجوز طبعا الافراط في شرب الفودكا وحدها...

اطلق سوروبا ضحكة اشبه بالصرير وهو يعجن من الخبز كرية لينة. ووضع الاخوان رتيشيف شوكتيهما وفغرا فميهما واطلقا هما أيضا ضحكة كخرير الماء عندما ينسكب من البرميل.

وواصل اوبرازتسوف كلامه.

– كان اخي منكتا حقا. ويصادف ان يذكر نكات تجعل السيدات ينصرفن...

احضر الوصيف والصبي اطباق الطعام والنبيذ. وحومت حول الثريا فراشات اخذت تتساقط على المائدة باجنحة محترقة. اكل الضيوف الطعام صامتين، وكان ايفان او سيميون يطلقان احيانا زفرات ثقيلة بسبب الافراط.

واخيرا تهادت وراء الجدار الخطوات المتنافرة المعروفة. مسح سوروبا فمه بالفوطة على عجل واخرج من جيب صديريه النظارة

المنفردة والصقها فوق عينه المستوي، ودخل الامير. كانت عيناه محتقنتين. وقد سرح شعره الرطب الى الخلف توا. ورأى سوروبا، ربما للمرة المائة، في حركاته المتأنية المكبوتة وفي تفصيل بزته اناقة يصعب فهم سببها. وفي محاولة للاقتداء به اقتنى سوروبا مرايا ثلاثية وطلب بزات والبسة داخلية من لندن، وطرد جميع اقربائه من التجار السخفاء كيلا يفسدوا عليه اناقته.

وقال الامير وهو يحييهم:

– اوه، لا تنهضوا يا اصدقائي، لا داعي لذلك. آمل بان الطباخ قد صحح غلطة امس.

اصطفقت اقدام الاخوين رتيشيف تحت المائدة بباعث من حسن التربية. وامتد عنق اوبرازتسوف ليتبادل القبل مع الامير، اما سوروبا فقد قفز ولم يتمالك نفسه وربت على كتف الامير.

جلس الكسي بتروفيتش عند ركن المائدة وتناول قطعة من الخبز وبدأ يأكل. صبوا له نبيذا احتساه بتعطش، ثم استند الى كوعه واصابعه تلامس وجنته.

– حدثونا عما استجد من امور. ارجوك صب لي نبيذاً.

– الجديد الدائم هو أنت نفسك، – قال سوروبا. – وبالمناسبة فقد جئت بنادرة...

مال على اذن الامير واخذ يحدثه وهو مختنق بقهقهته. ابتسم الامير، وضحك الاخوان رتيشيف ثم تجعد جبيناهما في محاولة لتذكر شيء ممتع، ولكن لم يحضرهما شيء غير الكلاب والماشية التي عاثت بالاعشاب في المروج والحصان الذي التوت احدى قوائمه فأخذ يعرج، اي كل ما لا يصلح لمقام هذا المحفل الرفيع. وقال اوبرازتسوف:

– اذا كان الكلام يدور عن البنات فهذا من اختصاص اميرنا العزيز... فليتحفنا اذن.

– أجل، أجل، من كل بد – تصايح الضيوف – فليحضر لنا الامير بنات مليحات!

– الافضل ان نذهب الى كوليفان يا سادة!

– هيا الى الخان! ساشا!



– ما هكذا يفعل الاصدقاء. يتمتع هو بكل شيء وليس من نصيبنا الا القشور. كلا، فلنذهب الى كوليفان، الى الخان!

قطب الامير حاجبيه، واخذ الاخوان رتيشيف يضربان الارضية بجزمتيهما الضخمتين ويصيحان والعرق يتصبب منهما. «الى الخان!.. الى الخان!..» ومال سوروبا على اذن الامير هامسا. «عيب يا امير، والله عيب». ومسح اوبرازتسوف صلعته بالفوطة وتدلى طرف لسانه من فمه فقد ذاب وارتخى لذكر الخان. كانوا ثملين جميعا.

اطرق الامير مستندا الى المائدة بكوعه. فالنبيذ الذي شربه، اضافة الى سهرة البارحة، قد خدره كسحابة مسكرة خانقة. وفكر. «ينبغي ان اسكر اليوم اكثر من اي وقت مضى». ونهض. اسنده سوروبا من ساعده، فابتسم وقال:

– فلنذهب الى البستان.

فتح الوصيف أبواب الشرفة في الحال فاندفع الى الصالة نسيم المساء، وهبط الضيوف على درجات السلم الى البستان الرطب.

الممشى الرملي يمتد من الشرفة حتى المنخفض. وعلى حافة المنخفض يقوم درابزون يكاد لا يرى من وراء شجيرات العليق الكثيفة، وقد سلمت مزهرية حجرية واحدة فيه.

ومن نوافذ الصالة الست ينساب الضوء على هذه المزهرية وعلى عدد من قوائم الدرابزون بين الاوراق وعلى الاشجار والممشى. وفي أسفل الضفة العالية لمعت أضواء التحذير الحمراء والصفراء على نهر الفولغا العريض الذي لا يكاد يرى من هنا.

– يجب اقناع الاخوين بان يتصارعا، – همس سوروبا في اذن الامير الذي اسند خده الى المزهرية وراح يتطلع الى الفولغا ويفكر: «اليوم، اليوم بالذات، هل يعقل ان الشجاعة ستخونني؟».

واجاب الامير:

– اقنعهما.

لم يكن السكر يستولي عليه دفعة واحدة. في بادىء الامر يشتد خدره وكأنما يتوجس شيئا، ثم يكتنفه الحزن حتى تكاد الدموع تتعطر من عينيه، وتغدو كل الاصوات واضحة وكل الامور مفهومة،

وكل شيء يرزح تحت ثقل النهاية المحتومة. ولكن على حين غرة، وكما يشق البرق الغيوم، يخزه الم حاد يبدأ من القلب ويخترق الظهر الى باطن القدمين الباردتين، فينتفض، وعند ذاك تبدأ العربدة.

عندما كان الامير واقفاً قرب الدرابزون شرع سوروبا ينغز الاخوين بكلمات كالشوك ليؤلب أحدهما على الآخر. فصار ايفان رتيشيف ينظر شزراً الى اخيه سيميون.

اشتهر الاخوان رتيشيف في القضاء كله بقوتهما، وكانا يتحديان في أسواق الخيل بين حين وآخر احد الرعاة التتريين ويستدرجانه للمصارعة بين العربات في جمع من الاقطاعيين والفلاحين. وعندما لا يجد الاخوان أحدا يصلح للمصارعة يتنازلان بعضهما البعض.

همس سوروبا وهو يستحث ايفان:

– سيميون سيلقيك ارضا.

– طبعا سألقيه ارضا، – أجاب سيميون، بينما هم ايفان بالهجوم على اخيه الذي رفع صدره وتثاقلت انفاسه.

– جبنا! – هتف سوروبا دفعة شديدة الى ظهر سيميون، وغمز لاوبرازتسوف الذي اخذ يدفع ايفان بكتفه.

نخر الاخوان واشتبكا فامسك ايفان بسيميون من ابطيه.

– خلافا للقواعد، – هتف سيميون وبرك ورفع أخاه الذي فرفر بقدميه. ثم اشتبكا وتلاحما واستدارا لاهثين. وكان سوروبا يحوم حولهما ويصفق. انزلق الاخوان متراجعين حتى طرف المنخفض. ودس سوروبا رجله كي يتعثرا بها فاستطاع سيميون ان يقلب ايفان، وهوى الاثنان على الارض وتدحرجا نحو المنحدر وهما يزاران ويحطمان الشجيرات في طريقهما.

قهقه الامير وانزاح الهم عن فؤاده. وامسك بطرف المزهرية الباردة وهو يقهقه.

هرع الوصيف والبستاني في الحال وأحضرا حبلا، وتم سحب الاخوين من المنخفض وهما يلهثان بمرح وفرفشة. واندفعا حالا لاصطياد سوروبا الذي فر منهما بجزمة قصيرة صقيلة على العشب البليل وهو يطلق صيحات حادة بصوته المتخشب...



في تلك الاثناء، كانت المركبة جاهزة عند المدخل. وضعوا عند الاقدام صندوق النبيذ واجلسوا عليه الاخوين ظهرا لظهر. واندس اوبرازتسوف في المقعد بين الامير وسوروبا. وازاح الامير قبعته على جبينه وصاح سوروبا: «هيا». وانطلقت الجياد بالمركبة صاعدة في اتجاه كوليفان.

– ٤ –

كانت ساشا واقفة وسط الغرفة النظيفة، آنذاك، والمشبعة بدخان التبغ الآن، وقد وضعت يديها العاريتين حتى المرفقين تحت نهديها الناتئين في أعلى مئزر أخضر.

التفتت الى الامير بمحياها المليح وحاجبيها المخمليين المستقيمين وغمرته بحب يتدفق من عينيها السوداوين. كانت شفتاها منفرجتين بعد نغم في اغنية انشدتها تواً. والآن تلاحقت انفاسها بعض الشيء وتململ عقد الكهرمان على جيدها.

– استمري يا ساشا، غني! – صاح الضيوف. فابتسمت ساشا واومأت برأسها ثم غنت بصوت منخفض وكأن فؤادها ينتحب في صدرها.

ياشيحاً مراً،
يا عشب العلقم،
لم ابذر حياتك
لم تزرعك يداي،
يا عشب الشيطان،
لم جئت الينا،
دمرت البستان؟..

استند الامير بكوعيه الى المائدة غير المطلية وامسك رأسه الثمل بيديه وراح يستمع باهتمام. أخذ اوبرازتسوف يذرع الغرفة جيئة وذهابا قرب ساشا، ويطقطق باصابعه طربا، وقد اسبل جفونه.

وجلس الاخوان رتيشيف على المصطبة وفتحا ازرار سترتيهما، اما سوروبا فقد مد ساقيه ودس يديه في جيبي سرواله واخذ يتمايل.
واختتمت ساشا اغنيتها. فبادرها الامير قائلا بصوت اجش.
— وتلك الاغنية، هل تذكرين يا ساشا؟
— تلك اغنية سيئة كاذبة — قالت ساشا. — لا احبها. واذا كنت ساغنيها فمن اجلكم فقط...
اسبلت رموشها وتنهدت وانشدت بصوت كئيب.

المصيبة في بطرسبورغ،
لا في موسكو،
في شارع ميشانسكايا
ذبحت الزوجة زوجها
بسكين حادة.

— ساشا! — صاح الامير مكررا الكلمات الاخيرة من الاغنية — ما افضل هذه الكلمات «الساعد الايمن على رف النافذة، والدموع الساخنة تتساقط من النافذة»، وخلاص. اما الحبيب فينتظر هناك، تحت النافذة ويضحك على الزوج العجوز. انشدينا الآن الاغنية الاخرى التي فيها تفاصيل مدهشة...

شدت الحبل
على الرقبة
ومدت طرفه للحبيب
عبر النافذة.

— اغنية تناسب المقام تماما، خصوصا اليوم، وكأنها نظمت ولحنت من اجلنا. هيا يا ساشا...
وانشدت ساشا مرتعبة بكل جد:

عقدة متينة
لن تنقطع،
على رقبة العجوز
لن تنقطع.



شخر المسكين
كما في المنام،
فرفرت قدماه
كما لو داسهما ابليس،
تشنجت يداه
وكشر عن انيابه
كأنه يرقص
ويبتسم.

— الافضل، يا الكسي بتروفيتش، ان اغني اغنية راقصة، — قالت ساشا معترضة على عجل.
ازاح الامير الطاولة واخذ يطبطب بقدمه ويصفق. وحومت ساشا منشورة اليدين وهي تترنم برباعيات من الشعر الشعبي.
اتسعت تنورتها القطنية الحمراء من الاسفل فصارت كالناقوس وتراقصت قدماها بجوارب بيضاء وجزمة جلدية قصيرة...
وراح اوبرازتسوف يحوم حول ساشا بخطوات قصيرة متلاحقة ويصيح «عظيم، عظيم!». اما ايفان رتيشيف فقد اشتد حماسه وفقد هدوءه فامسك جنبه بيده وراح يرقص مقرفصا واذيال سترته تتطاير. وسحب سوروبا المنديل من على رأس ساشا مقهقها. فصاح به الامير.
— لا تمسها يا سافل!
كان رأس ساشا الصغير بضفائره السوداء يدور على رقبتها المكتنزة، كما يدور عباد الشمس نحو الشمس. وكان الامير هو الشمس جلس على المصطبة شاحبا ثملا بشفتين متحشفتين. وفجأة قامت ساشا بدورة مباغتة وهوت عليه وعانقته وضغطت جسدها الى كتفه. فجأر الاخوان رتيشيف.
— احضروا لنا بنات، هيا احضروا البنات!
انسحب سوروبا مغتاظا الى الغرفة المطلة على الدهليز. ورقد على سرير ساشا جاهداً كيلا يدعك بدلته السموكنغ.
وتمتم وهو يمسح وجهه بالمنديل:
— موضوع شيق، سيكون للحديث عن لهو اميرنا وقع

القنبلة... هذا العريس الذي امتدحوه... «سافل». سأريه من هو السافل. كلكم اوغاد!

في تلك الاثناء فتح الباب على مصراعيه، ومرق الضوء الى الغرفة، وظهر اوبرازتسوف وكأنه قد نط من دخان السجائر والصخب الهادر، وامسك بالضلع العلوي للباب ثم اندفع الى الخارج وابتلعه الحوش.

فواصل سوروبا تمتمته.

– ذهب لاحضار البنات. تمهلوا. سأقيم حفلة ساهرة وسألقي اليكم بعظم كالكلاب. سأستدعي جوقة شيشكين من موسكو، بل سأدعو شاليابين نفسه... كلكم تحبون المال رغم الغطرسة.

ظل سوروبا يتأمل طويلا في الملاعيب المثيرة التي سيبتدعها ليسخر من انفة النبلاء. واخيراً سمع هسيساً وهمساً من جهة الحوش، ودخلت الدهليز بتردد اربع من زوجات الجنود الغائبين يدفعهن اوبرازتسوف هامساً بصوت عال:

– حمقاوات، مم تخفن. لن نأكلكن، سنقدم لكن النبيذ الحلو وستتدفأن.

واغلق الباب بعد دخول النساء. وتعالت من الداخل قهقهة الاخوين رتيشيف التي تشبه الصهيل. في تلك اللحظة دخل الامير وساشا الدهليز وقالت له ساشا:

– الى اين انت ياعزيزي؟ لا تذهب اليها.

توجه الامير الى باب الخروج دون ان يجيبها. كان هناك غسال فخاري معلق على عمود. وكان واضحاً عبر الباب في الظلام الشفاف كيف صب الامير الماء على راحتيه ورشه على وجهه ثم تنشف. وامسكت ساشا بالعمود الثاني واستمرت على توسلاتها.

– انها فتاة شابة ولن تحبك طويلا. اما انا فلا اريد منك شيئاً، سأفرش لك الفراش حتى اذا كنت سكران. لا تذهب... سترتحل غداً اذا كان ذلك لازماً يا حبيبي.

– ارجوك، اتركيني لحالي، ما هذا الكلام. يبدو انك نفسك سكرانة! – اجابها الامير.

لاذت ساشا بالصمت. التقط الامير انفاسه ونادى الحوذي وهبط على السلم، بينما ظلت ساشا واقفة عند العمود. طبطب



الجياد في الحوش وراح الحوذي يلاطفها. ثم انبعث صرير ثقيل من البوابة وجاء صوت الامير.

– الى فولكوفو...

وانطلقت المركبة. ابتعدت ساشا عن العمود وجلست على درجات السلم التي هبط عليها الامير. ورأى سوروبا بوضوح في الظلام الشفاف عبر الباب المفتوح شبحها القاتم الجامد وكوعيها على ركبتيها ورأسها الخفيض العاري، والخطوط غير المتوازية لسطوح الاحواش وشادوف البئر.

وبدا له ذلك كله شيئاً مألوفاً كئيبا حتى انكمش وجهه واخذ يفكر. «هذا المنظر الروسي... الى الشيطان. سأرتحل نهائيا الى باريس. حقا، أليس لدي ما يكفي من نقود؟ اما هذا الامير الصعلوك فسننقل اخباره كاملة الى من يهمهم الامر...»

ووراء الباب اشتد وقع الارجل والصخب والقهقهة، فالابتهاج على قدم وساق.

## كاتيا

### – ١ –

رسم الكسندر فاديميتش شارة الصليب على ابنته وقبلها ومضى بخفه المنزلي الى الاريكة التي اعدوا له عليها الفراش.

فتحت كاتيا باب المكتب وخرجت الى الصالة بعد ان لفت كتفيها بمنديل ويري. وعلى خشب الارضية العتيق استقر ضوء القمر مشبكا كزجاج النوافذ. وكانت اركان الصالة، والارائك قربها، قابعة في الظل. تطلعت كاتيا الى مربعات ضوء القمر على الارضية ورفعت راحة يدها الى وجنتها وابتسمت فجأة ابتسامة رقيقة جعلت قلبها ينتفض ويتجمد. وفكرت في نفسها. «لم يحن الوقت بعد! ولكنه ربما ينتظرني؟ كلا، يجب ان اتمهل».

رفعت فستانها من الجانبين، ووسعت عينيها بشكل مخيف واخذت تدور محومة...

في تلك اللحظة اصطفق احد الابواب. فجلست كاتيا في

الحال. ورات كوندراتي يسير على امتداد الجدار حاملا شمعة وبدلة فولكوف.

وعندما راى كوندراتي الآنسة جالسة على الارضية توقف واخذ يلوك شفتيه. وقالت كاتيا بصوت خنقته ضحكة.

– ظننت ان جنيا قد جاء. هذا انت يا كوندراتي؟ اضعت خاتمي، تعال نبحث عنه.

اقترب كوندراتي وانحنى بشمعته على الارضية.

– اي خاتم؟ لا ارى هنا خاتماً.

قهقهت كاتيا وركضت الى الرواق... ووراء الباب لمظت بلسانها لكوندراتي واخذت تطبطب بقدميها عمداً متظاهرة بانها ذاهبة الى غرفتها، لكنها اختبات في تجويف النافذة قبل ان تبلغ نهاية الرواق التي علقت فيها سجادة، وغطت فمها بيدها كيلا تنفجر ضاحكة.

عندما هدات جلبة كوندراتي المخدوع عادت كاتيا على اطراف اصابعها الى الصالة ومرقت الى البستان عبر باب الشرفة. وتوقفت هناك في عتمة الاشجار، فقد استولى عليها الحزن فجأة. وفكرت:

«يبدو انه مل مني. واذا لم يكن قد مل بعد فسيمل لا محالة. فما الذي وجده في؟ وهل استطيع ان اروح عنه؟ لقد عانى الكثير، اما انا فاثقل عليه بالتفاهات. يا لي من بطلة!»

واشتد حزنها حتى جلست على المقعد المعشوشب.

«فالبطلة الحقيقية لا تاكل شيئاً، وفي الليل تنام طليقة والورود الفواحة على صدرها، اما انا فاغرز انفي في الوسادة...»

وضحكت كاتيا فجاة بصوت عال. الا ان حزنها لم يتبدد بعد... ومن بعيد نقنقت الضفادع في البركة. وبدت الاعشاب في ضوء القمر شيباء بين الظلال الطويلة السوداء وراء الاشجار.

اشرابت كاتيا فجاة وانصتت لحظة ثم ركضت في الممشى ممسكة باطراف منديلها. والتصق خيط عنكبوت بخدها، فنفضته، وشقت لنفسها بصعوبة طريقا اقصر بين شجيرات عنب الثعلب عند منعطف الممشى على ضفة البركة، ووصلت الى المرسى. اطل القمر على البركة من وراء التعريشة فانار الماء واوراق الزنبق الصقيلة. وفي التعريشة جلس الكسي بتروفيتش مسنداً خديه بكلتا يديه



الى الطاولة المثبتة في الجدار والتي يحتسون الشاي عليها مع الضيوف عادة. وخيل لكاتيا انه حملق واتسعت عيناه دون ان يرى شيئا.

«ماذا دهاه؟» – فكرت على عجل ثم نادته.

– الكسي بترفيتش!

انتفض الامير بشدة ونهض. فهرعت اليه كاتيا على الالواح المتزعزعة وهي تقول ضاحكة. «كنت نائما، الا تخجل؟»

طبع قبلة على يدها وقال بصوت اجش بعد الصمت الطويل:

– شكرا، شكرا...

– كنت تفكر بنفسك من جديد. اليس كذلك؟ – سالته كاتيا برقة وجلست على المصطبة ووضعت مرفقها على أعلى الدرابزون. الم اطلب منك ان لا تفكر على هذه الصورة؟ ومع ذلك اعرف انك في منتهى الطيبة...

– كلا، – أجاب الكسي بتروفيتش بصوت منخفض ولكن بصلابة – كاتيا، يا حبيبتي، الامر صعب جداً علي. انظري الى سلوكي... هل تحبينني ولو قليلا؟

ابتسمت كاتيا بسخرية واشاحت بوجهها دون أن تجيب. جلس الامير جنبها وهو يتطلع الى شعرها المستقر اسفل قفاها والى وجنتها البيضوية الواضحة القسمات على مرآة الماء. وتعلق عنكبوت في بيته باعلى الركن فوق راسها.

– في الطريق الى هنا فكرت: هل أخبرك أم لا؟ واذا لم اخبرك فربما لن اتجاسر على المجيء الى هنا بعد الآن، واذا اخبرتك ستتركينني بنفسك، سيكون الامر صعباً عليك، ولكنك ستحاولين أن تنسيني... فما من حيلة اخرى؟

– اخبرني، – اجابت كاتيا بمنتهى الجد.

– الن تفكري باني اكذب او اتظاهر؟

– كلا.

– اقترفت الكثير من الكبائر، ولكن احداها تعذبني، – قال الامير بصعوبة وبصوت أجش – هكذا هي الحال دوما. تتصور بانك نسيت، لكن الدناءة التي اقترفتها من زمان تغدو محددة واضحة المعالم وتنفض عليك عيشك...

— ارجوك، تكلم، — كررت كاتيا وارتعشت يداها الممسكتان بطرف المنديل.

— فعلا، فقد فكرت بان من اللازم اخبارك. حدث ذلك من زمان بعيد. كلا، قبل حين، في العام الفائت... قابلت احدى السيدات... وكانت حسناء للغاية. لكن قوتها ليست في جمالها... فهي تتعطر بعطور مدهشة تفوح منها رائحة داعرة تفوق التصور. الا تسمعين يا كاتيا ما اقول؟ كلا، لا يجوز ذلك... قد احببت مرة واحدة في حياتي. وكان يخيل الي ان النساء، مثلنا، من نفس الطبيعة. لكن ذلك غير صحيح... فالنساء، يا كاتيا، يعيشن بيننا ككائنات غريبة جداً وخطرة جداً. وتلك كانت اكثر دعارة واشد نهما كالحشرة. ما افظع ان تكون المراة داعرة. عشت مسحورا كالمجنون بعد ذلك اللقاء، وكان شيء حاد يلسعني ويخز قلبي.

توقف الكسي بتروفيتش عن الكلام فجاة ورفع اصابعه الى صدغيه.

— انا لا اعني ما اقول، واعذبك. افهميني، كل ذلك مضى وانقضى. وانا اكرهها الآن بكل جوارحي... سحرتني وعاشرتني ثم هجرتني كقفاز ارتدته مرة واحدة. فقدت رشدي واخذت اطاردها واتعقبها... كنت كعطشان اعطوه ماء، فلمسه بشفتيه ثم ابعدوه عنه، يمد عنقه ليشرب، لكن فمه جاف كما في اللهيب... ذات مرة، بعد حفلة ساهرة، قبلتها يائسا على مرأى من الجميع، ربما تشفيا. وفي اليوم التالي صادفني زوج هذه السيدة ودعاني الى بيته بخصوص بعض التذاكر. حدست سبب هذه الدعوة، وذهبت. اتذكر ان الصقيع كان قارسا ذاك الصباح، فحزنت وانا اتطلع الى الثلوج! كان زوجها جالسا في مكتبه وعندما دخلت عليه خفض راسه في الحال. كانت بيده حافظة سجائر فضية. لاحظت كيف حاولت اصابعه القصيرة المرتجفة ان تمسك بسجارة ولكن دون جدوى. وقد اشتريت نفس هذه السجائر فيما بعد. وعلى الاوراق فوق المكتب رايت سوطا ملفوفا بسلك ابيض. وقفت امامه، بينما ظل هو يحدق في السجائر. وفجاة قلت باستهتار: مرحبا، اين تذاكرك؟»

— ومددت له يدي حتى كادت تمس حافظة السجائر، لكنه لم يصافحني. اهتز وجهه المترهل بغضب وقال: «انني اعتبر تصرفك



مشينا ودنيئا...» وعند ذاك صحت به، ولكن بصوت خافت كما خيل الي. «كيف تتجرأ على اهانتي؟!»، فارتعش كمن انتابته الحمى، واهتز وجهه وانتشل السوط وضربني به على وجهي. لم اتحرك ولم اشعر بالالم. لمحت على صديريه زرين مفتوحين كما عند البدناء. اما هو فقد مال عبر المكتب ودمدم: «خذها ثانية» وضربني مرة اخرى على الياقة فقد كنت احدق في عينيه. دسست يدي في جيبي على عجل واخرجت مسدسي. وظهر في يده هو الآخر مسدس فاندفع نحوي حتى لاحت عليه ابتسامة بسبب الغضب، اما انا فكنت احدق بالرصاصات وبفوهة مسدسه المعتمة... يا الهي، ما افظع ذلك! واحسست باني لا اقوى على الموت ولا اقوى على القتل، فتراجعت، وتعثرت بالسجادة المفرشة امام المرآة ورايت في المرآة الباب مفتوحا وقد وقفت فيه تلك السيدة بقبعة وقفاز طويل. ضمت شفتيها بشدة وراحت تراقب حركاتنا باهتمام. وقلت. «سابعث شاهدي المبارزة». عند ذاك ضرب الزوج الارضية بقدمه وجأر. «ساريك المبارزة الآن، اغرب عني يا جرو!». اغلقت عيني ورفعت المسدس فضربني على يدي ثم على عيني حتى سقطت على السجادة. وبعد ذلك نهضت وارتديت معطفي في الدهليز، بينما وقف هو عند الباب والسوط بيده يودعني كما يودع الضيوف، لكنه لم يضربني اكثر...

التقط الكسي بتروفيتش انفاسه، ثم واصل الكلام على عجل:

— لم يبق امامي غير مخرج واحد. لازمت الفراش ثلاثة ايام وانا ارتعش ووجهي الى الحائط. لم يغمض لي جفن وكنت اتذكر كل التفاصيل. كيف جئت اليه وكيف امسك بحافظة السجائر، واية كلمات قلت له وكيف ضربني... اخذت اتقلب وافكر بما ينبغي فعله. ما الذي يجب ان افعله الآن مثلا... جلست على السرير واخذت اصر باسناني... لكن ارادتي خارت... كنت اعلم بان علي ان انهض واذهب الى المتجر واشتري مسدسا جديدا (فقد بقي مسدسي عنده في الدهليز)، ثم اذهب الى هناك واقتله. لكنني لم اتمكن من القيام بذلك، فارتميت على الفراش وبقيت احدق في الجدار. واخيرا ادركت بان من اللازم التفكير بشيء آخر. اخذت اتذكر الفيلق والقرية التي ارتحلت اليها في الاجازة. وشعرت بالاسف على نفسي

فبكيت ثم غفوت. استيقظت في الصباح يعتصرني ذلك الاسف بعينه.
لم اكن اريد التصديق بان شرا قد حدث. وان علي ان اقوم بما هو اسوأ. فقبل حين كنت حرا طليقا، ولكن لا بد لي ان اسير حتى النهاية... وافظع ما في الامر انني لم اعد حرا... ارتديت ملابسي وخرجت. رفعت ياقتي وناديت حوذيا واخبرته بعنوان متجر الاسلحة، لكنني غيرت رايي في الحال. فليس بوسعي ان اختار مسدسا لهذا الغرض. الافضل ان اطعنه بالسيف... نزلت من العربة في ركن الشارع قرب مدخل بيته، واخذت اجوب الرصيف.

مر قربي، وانا اتذكر ذلك جيدا، جنرال عجوز بانف قرمزي وفودين كثيفين. الجو صقيعي صاف. وفكرت، «ينبغي ان اعتذر له فتعود الامور الى نصابها. كلا، ثم كلا. الناس لا يحبون احداً، وهم اشرار متعطشون للثأر و الانتقام. ويجب اهانتهم وقتلهم والتمثيل بهم...» في تلك اللحظة ارتطم بي ضابط من الجيش لا يزال فتيا متورد الوجنتين. دفعني صدفة واعتذر بتأدب. لكنني فقدت رشدي وصحت له. «احمق!..» ارتبك الضابط اشد الارتباك، لكنه لاحظ نظراتي المسلطة عليه فقطب حاجبيه ورفع وجهه بانفه الافنط وقال، «يا سيدي...» واضاف شيئاً لم اميزه، فاهنته ودعوته في الحال للمبارزة. في الصباح التالي تبارزنا. اصاب ساقي برصاصة. وجلس قربي يبكي من مرارة الحادث. يا له من فتى مسكين! رقدت على الثلج ووجهي الى السماء الصافية الزرقاء...» وكنت في اطيب مزاج... تلك هي القصة...

ظلت كاتيا صامتة امداً طويلا وقد خبأت يديها تحت المنديل، ثم سألت بلهجة حادة.

– وتلك المرأة؟

انزلق الامير من المصطبة وركع امام قدمي كاتيا ولمس ركبتيها بجبينه وتمتم بيأس وقنوط.

– كاتيا، يا عزيزتي، هل تسامحينني؟ هل فهمت؟ ليس ذلك بسيطاً... الست بغيضا بالنسبة لك؟

– انا متألمة جداً، – اجابت كاتيا وهي تبعد ركبتيها عنه.

– ارجوك، اتركني لحالي ولا تأت الي... عدة ايام.

نهضت ومدت يدها للامير مودعة واستدارت ومضت ببطء





عبر المرسى الى الاشجار المعتمة على الضفة. ووراء الاشجار التهمت الظلال فستانها الذى بدا أبيض في ضوء القمر.

ظل الامير ينظر الى تلك الجهة طويلا، ثم هبط على درجات السلم الى الماء واخذ يرشه براحة يده على وجهه وقفاه.

– ٢ –

مضت كاتيا الى غرفتها على اطراف اصابعها، واشعلت الشموع امام مرآة الزينة وخلعت المنديل الوبري وفكت ازرار بلوزتها ثم خلعتها، وانتزعت الدبابيس فتناثر شعرها على الكتفين والصدر.

لكن المشط ارتجف في يدها وضغطت براحتها شعرها الناعم الى وجهها وهبطت على مقعد شبه دائري.

فخلال الساعة الماضية سمعت الكثير وتأثرت أشد التأثر وصارت تعرف وتحس بان مصيبة قد حلت، مع انها لم تفهم بعد لا الحق ولا الباطل، لا الخير ولا الشر، بل لم تفهم شيئاً على الاطلاق.

قبل ساعة لا أكثر كانت تتصور نفسها مع الامير لوحدهما في هذا العالم، ولا أحد قبلهما، طبعا، يعرف مثل هذا الحب الرقيق. وكما ينوء الراس بالشعر الثقيل كانت كاتيا تحس في فؤادها بثقل الحب الساخن. لم تكن حياتها حياة قبل هذا الحب. وهل يعقل أن تكون حياة الامير حياة قبل أن يتعارفا؟ لقد جاء فجأة، جاء بكل جوارحه من اجل كاتيا، وهو لها وحدها. كان الحال كذلك قبل ساعة لا غير.

وقالت كاتيا هامسة.

– آه، ما افظع ان يتحدث عن ذلك، وبكل هذه التفاصيل! اللطخة لا تغسل... كان حزيناً على الدوام، وهذا هو السبب اذن. طبعا، فهو لا يزال يحب تلك... طبعا، والا لما حزن ولما حدثني عنها. ثم تلك الضربات على الوجه وعلى العينين، على عينيه... يا الهي، على العينين اللتين لم اتجرأ حتى على تقبيلهما... اما هو فلم يفعل شيئا، لم يهجم عليه ولم يقتله... عاجز، وضيع... كلا، كلا، لو كان وضيعاً لما حدثني. ثم انه رقد ثلاثة أيام حزيناً. عيناه حزينتان معذبتان. كنت أستطيع أن أجلس على السرير وآخذ رأسه بيدي واحتضنه... وحيد وحيد في الكآبة والآلام... ولا

وراح كوندراتي يبحث في كل مكان عن الاقلام المكسورة الاسنان ويحملها الى سيده... ثم اولع الكسندر فاديميتش بالتصوير الفوتوغرافي وعند ذاك استقرت في كل مكان افلام محمضة واوعية التحميض. وفي شتاء آخر انهمك في صنع موديلات من الكرتون لقرى نموذجية وطاحونات وآلات زراعية. وذات مرة علم من مساح عرج عليه أن بالامكان ايصال الكهرباء بطريقة منزلية فبعث في طلب كل ما يستلزمه ذلك وأثار المكتب بعد جهد جهيد ووعد بايصال التيار الكهربائي حتى الى غرفة كاتيا، الا ان الصيف صرفه عن هذه الفكرة. فمع ذوبان الجليد وبدء خرير المياه في الربيع يشعر بالدم يفور في عروقه فيكرس كل اوقاته للاشغال النبيلة فقط. في مارس انهمك باخصاب الخيل، وفي ابريل انصرف الى انشاء السدود، وفي مايو انشغل في تدريب المهور، وبعد ذلك تواترت الاعمال في حش الاعشاب وجنى الغلة والدراس، ثم حل الخريف حيث تقام ولائم الاعراس والناس سكرى في كل مكان.

مل الكسندر فاديميتش من الجلوس على السرير فصاح منتعشا:

– كوندراتي، احضر سروالي!

جاء كوندراتي بسروال فضفاض وانحنى قائلا:

– صباح الخير، يا سيدي.

– ماذا؟ كل شيء على مايرام؟ – سأل الكسندر فاديميتش.

– الحمد لله، على ما يرام.

– لم يحدث شيء؟ آ؟

– لا شيء، كما يبدو.

– هل جاء الفلاحون؟

– نعم.

– وماذا قلت لهم؟

– قلت لهم ان السيد امر بطردهم.

– وماذا قالوا؟

– لم يقولوا شيئاً. انصرفوا صامتين. لم يبق امامهم الا ان يحكوا رؤوسهم، طالما منعتهم من رعي ماشيتهم...

– ما هذا الكلام؟ اضبط لسانك يا كوندراتي...



القى الكسندر فاديميتش نظرة غاضبة على كوندراتي فاستدار هذا وعلك شفته ثم قال:

– يبدو ان الآنسة مرضت.

– كيف؟

– مرضت فعلا. حامت طول الليل... وها هي النتيجة.

تنهد الكسندر فاديميتش وقطب حاجبيه. لم يكن يصدق بان آل فولكوف يمكن ان يمرضوا. وطالما لم تنم ابنته الليل فان حماقة البنات استولت عليها ويجب علاجها بالزفاف. والزفاف هو الذي جعل فولكوف يقطب حاجبيه. فاين العريس المناسب؟ الشيطان وحده يعرف اين هو! ربما كان الامير هو العريس المطلوب. ولكن كيف تتم الخطوبة اذا كان يتردد على منزلهم ويأتي اليه حتى في الليل ليتقابل مع كاتيا في البستان، ومع ذلك لا يقدم على الخطوبة. ما اشد وقاحته! تلك أمور مزعجة لحد الغثيان. وفكر فولكوف: «حبذا لو رقدت في المساء واستيقظت في الصباح لاجد كوندراتي يقول: الآنسة تزوجت...»

– يا للشيطان! ساتعذب بسببكم، – قال الكسندر فاديميتش اخيراً، والتفت وسعل وبصق. ثم مد ساقيه لكوندراتي وشد سرواله الفضفاض بزر عاجي ونهض واضاف، – اخبرهم كي يشدوا كلاوزا الى العربة – وتوجه الى الغسال.

الغسال عبارة عن ابريق من الخزف ينقلب على فوهته اذا لمست صنبوره فيصب على يديك ماءا وفيرا. اغتسل فولكوف واخذ ينخر وينفخ الماء من فمه ثم ارتدى قفطانه القطني الخشن الذي اتخذ هيئة بدنه من كثرة الاستعمال حتى برزت من خلاله حلمتا الصدر الصغيرتان، ومضى الى غرفة الطعام.

اثناء احتساء القهوة تذكر ابنته وقطب حاجبيه من جديد وذهب اليها عبر الرواق.

كانت كاتيا راقدة على السرير بوجه نحيل شاحب. رفعت راسها وقبلت والدها، ويدها في يده، وقبلها هو ايضاً، ثم رقدت على الوسادة من جديد ودست راحتيها تحت خدها واغلقت جفونها.

– يا لك من بنية ضعيفة! – قال الاب وداعب انفها بسبابته.

– هل نبعث في طلب الطبيب؟

هزت كاتيا راسها ببطء دون أن تفتح عينيها. وعند ذلك امر الكسندر فاديميتش، بداع من العناد، كوندراتي بان يرسل احداً في الحال الى كوليفان لاحضار الطبيب حيا او ميتا. ثم لمس خد ابنته ومضى الى المدخل ووضع يديه على جنبيه وراح يمتع انظاره بالفرس الكميت المربوطة الى العربة.

غمزت كلاوزا بعينها الحمراوين وهزت اذنيها واقعت مرارا منتظرة ان يطلقوا سراحها لتفعل ما تشاء.

وقال الحوذي بمرح وهو يمسك بلجام كلاوزا:

– فرس ماكرة. عضت يد السائس في الصباح. فما اقطعها.

ودمدم السائس وهو يخلع قبعته احتراماً:

– يا الكسندر فاديميتش، لا بد من كاس مقابل العضة.

– طيب، اذهب الى المطبخ، – اجابه سيده، ونزل من سلم المدخل وشعر بارتعاشة خفيفة ارتاح لها. ضبط نفسه وصعد الى العربة ورتب العنان وشد طاقيته البيضاء على راسه وقال بصوت خافت: – هيا!

افلت الحوذي اللجام لكن كلاوزا لم تتحرك. نخرت بصخب واتسع منخاراها الورديان.

وخاطبها فولكوف: «هيا، يا لطيفة!» – ولمس جنبيها بالعنان، لكن كلاوزا تراجعت مقعية. اراد الحوذي ان يمسك بلجامها من جديد، بيد ان سيده صاح به . «لا تمسها!» وضربها بكلا سيري العنان.

اندفعت كلاوزا ثم اقعت ونهضت على قائمتيها الخلفيتين. ضربها فولكوف مرة اخرى، وعند ذلك هزت عقيرتها فبللته وانطلقت به... وركض السائس والحوذي في اثرها. لكنها خرجت بفولكوف الى الطريق العام فحاول عبثاً ان يشد العنان وهو يبصق لاهثا وقد جحظت عيناه. اما الحوذي والسائس فقد ركضا حتى طرف القرية ثم ضربا على ركبتيهما غارقين في الضحك قائلين: «هذا ليس عصيراً لتشربه...»

ظلت كلاوزا تعدو منحرفة عن الطريق على الاعشاب التي تضرب القوائم، وهي تترافس وتصهل وتحاول ان تقلب العربة بكل الوسائل، لكن فولكوف تسمر في مقعده والريح تعبث بشاربيه وهو يحاول توجيه الفرس نحو الهضاب.



واخيراً تمكن من ذلك، الا ان كلاوزا ابتدعت حيلة اخرى بعد ان صعدت التلة التي تقبع الضيعة وراءها. فقد توقفت عن العدو فجاة وربضت مع العريشين في الحال.

لم يكن فولكوف يتوقع ذلك فنزل من العربة ليساعد الفرس على النهوض.

الا ان كلاوزا قفزت بخفة وقلبت فولكوف واسرعت تعدو في الحقل ساحبة العربة كيفما اتفق.

واكتاب فولكوف اشد الاكتئاب وهم باللحاق بالفرس، لكن وجهه احتقن في الحال فانبطح لاهثاً على كومة من دريس الموسم الفائت.

في تلك اللحظة مرت على الطريق قربه عربة مشبكة السقف – يجرها ببطء حصانان هزيلان في اعنة من الحبال...

وكان الجالسان في العربة قد شاهدا بام العين ما فعلته الفرس بفولكوف والعار الذي جلبته له. فاوقفا العربة وتعالى من داخلها صوت معروف:

– الم تصب باذى يا الكسندر فاديميتش؟

القى فولكوف نظرة على الراكبين واطلق شتيمة خافتة. فقد رقد في العربة اوبرازتسوف وراسه يتدلى. وهرع سوروبا على العشب نحو كومة الدريس وهو في بدلته السموكنغ وجزمته الصقيلة...

وفكر فولكوف: «رآني الحقير. وسينتشر الخبر في القضاء كله، سيقول ان فرسا جرباء غلبتني».

بلغ سوروبا الكومة راكضا ورفع بنطاله الى اعلى وجلس منحنيا على فولكوف.

– يا الهي! اغمي عليك!

جلس فولكوف في الحال.

– لماذا تثقل علي؟! تعبت من السفر وانبطحت لاستريح.

– اين فرسك اذن يا الكسندر فاديميتش؟

آه، ذهبت، يا للشيطان... شيء مزعج!.. كانت واقفة بهدوء طوال الوقت. يبدو هربت من الذباب.

فقال سوروبا:

– هربت الفرس الى القرية. راينا ذلك من الهضبة. ولكن لا

تهتم... انا مسرور جدا لاننا قابلناك. كنت اريد ان اذهب اليك بنفسي لاخبرك بشيء في منتهى الاهمية.

انحنى على اذن فولكوف وهمس قائلا:

– علي أن احذرك. والكلام بيني وبينك. الامير الكسي كراسنوبولسكي سافل ودني.

– ماذا تقول؟ – سأل فولكوف وقد نهض على اربع، ثم قام وعدل قفطانه واضاف: – وشاية جديدة؟

– آه، انا نفسي لا احب الوشايات – واصل سوروبا كلامه على عجل. – فهي لا تليق بالانسان المؤدب ولكني افعل ذلك بدافع من صداقتي لك. علما بان القضية تمس الشرف. بالامس جئنا اليه – انا واوبرازتسوف والاخوان رتيشيف – لتناول الغداء. فانظر باي حال هو الآن. الافراط على مائدة الامير، طبعا، فظيع الى حد مخجل. وبعد الغداء مختلف الحماقات. وفجأة اقترح علينا أن نتوجه الى كوليفان، الى العاهرات. ما اسوأ هذه العادة! ولما كنا شلة فقد توجهنا الى هناك. وفي كوليفان سكروا حتى فقدوا الحشمة والتهذيب، واحضروا اربع عاهرات عاريات.

– عاريات؟ – سأل الكسندر فاديميتش.

– عاريات بالفعل.. شيء فظيع، مقرف. وفكرت: فليكشف هذا الصعلوك عن نواياه حتى النهاية. فتصور ماذا فعل. – توقف سوروبا لحظة وهو يتطلع في عيني فولكوف الذي تنحنح فجأة وطرفت رموشه. – تصور. حوالي منتصف الليل ركض هذا الامير الى الحوش وصاح: «احضروا الجياد، انا متوجه الى فولكوف...»

– الي؟ – سأل الكسندر فاديميتش.

– نعم، ولكن، كيف لاتفهم؟.. تلك مسألة حساسة جداً. طبعا توجه اليك يا الكسندر فاديميتش، ولكن كيف اقول كيلا أزعجك: الناس يمكن ان يفكروا بانه لم يتوجه اليك بالذات.

وللمزيد من الوضوح نشر سوروبا أصابع يده امام انف فولكوف الذي فهم تلميحات سوروبا فجأة فانفجر به صائحا:

– بليد، ابله.

الا ان سوروبا تمادى في الرواية فلم يزعل وواصل كلامه باستعجال اكثر:



– حقا، توجه اليك، لكن الجميع اخذوا يطلقون اقوالا غير لائقة، حتى صحت بهم آمرا: كفاية. شبعنا من هذه المشاهد الدنيئة. فلنرحل من هنا! لكننا تركنا جيادنا في ضيعة ميلويه، ولذا ترانا مع حصاني البلدية الهزيلين. كنت من زمان اقول: لا يجوز استضافة هذا الصعلوك، ثم هل هو امير حقاً؟ أليس يهوديا؟

بيد ان الكسندر فاديميتش لم يعد يسمع كلام سوروبا. فقد اشتد به الغضب، وهو منفعل اصلا بسبب حادثة كلاوزا، حتى عجز عن النطق، وكان يشخر بفم مفتوح مما جعل سوروبا يرتعب. واخيراً قال فولكوف بشق الانفس:

– اين هذا الحقير؟ احضروا الجياد! سأبقر بطنه!

– طيب. رائع. سنتصل الى منزلي بهذه العربة ومن هناك نباغت سوية ضيعة ميلويه ونأخذ معنا الاخوين رتيشيف: فليدفع الحساب. – همس سوروبا وركض، وهو يتلوى كالاصل، خلف فولكوف نحو العربة فرحا لانه ثأر لنفسه من الاهانة التي تلقاها من الامير يوم امس.

– ٢ –

غادر الفرسان ضيعة سوروبا متوجهين الى منزل الامير بعد ان تناولوا طعام الغداء واستعر النبيذ في عروقهم.

كان فولكوف يسرع، بكوعين متباعدين، على ظهر حصان سيبيري اشعث يشخر تحت ثقل راكبه. ووراءه اندفع الاخوان رتيشيف يلوحان بسوطيهما ويهتفان.

– تلك هي الحياة! تلك هي المتعة! اسرع، عجل!

لا فرق عند الاخوين رتيشيف بين الهجوم على الامير أو الدفاع عنه. فاهم شيء بالنسبة لهما هو ان تصفر الريح في الاذنين. زد على ذلك انهما عزما على اجتثاث التفسخ الخلقي بعد ان جهد سوروبا في اقناعهما.

وخلف الجميع كان سوروبا يتقافز على ظهر فرس انجليزية وهو منكمش الوجه ذاوي القسمات، لكنه في سترة ممتازة وسروال وحذاء بغطاء على الكاحل.

اندفع الفرسان بين شجرات الصفصاف والرمال تتطاير من تحت السنابك. وكلما اقتربوا من ميلوبه ارتفع حاجب اشقر على عين فولكوف وهبط الحاجب الآخر على عينه الثانية واخذ فكه الاسفل يمتد الى الامام، وهو يبتكر في كل لحظة تمر فنونا جديدة من التعذيب الذي سيسلطه على الامير.

وكان الامير الكسي بتروفيتش قد نام بقية الليل في هاجس مقلق، فاخذ حماما باردا وطلب ان يدلكوه بمنشفة ثم جلس الى البيانو في الصالة المستديرة الصغرى ذات النوافذ العالية المزججة بزجاج ملون.

البيانو بشكل قيثار من الخشب الوردي، وهو مهشم يبعث دويا. عزف الامير بيد واحدة ما يحفظه عن ظهر قلب – « chanson triste » وانسابت أشعة الشمس عبر الزجاج الملون على الارضية الخشبية فانتعشت عليها زخارف الزهور والاكاليل. وعلى قماش الجدران علقت رسوم محفورة كئيبة، وقبالة البيانو علقت صورة نصفية لشيخ وجهه مزين بالمساحيق ويرتدي صديريا أحمر وبيده مخطوطة قديمة مطوية. كل ذلك، بالاضافة الى الارائك المتهرئة والموائد المستديرة المحكوكة ودفاتر النوتات المستهلكة، حاجيات بالية موات تفوح منها العفونة. استدار الامير على المقعد اللولبي وفكر:

«كانوا ينظرون عبر هذه النوافذ المبرقشة ويستمعون الى الفالس ويضطجعون على الارائك ويمارسون الحب والقبلات خفية – وبعد ذلك ماتوا ولم يبق لهم اثر. فورثت المنزل الذي آواهم وورثت آنيتهم وذكرياتهم. لاى غرض؟ الكي أموت كالآخرين ولا يبقى لي اثر؟!»

داعب مفاتيح البيانو من جديد وتنهد فداهمه التعب مرة اخرى بعد أن طرده الاستحمام موقتا، وتقوست كتفاه – وتمتم ببطء:

– كاتيا، يا صغيرتي!

ولاحت كاتيا أمام عينيه المغمضتين كما كانت بالامس، بصفحة وجهها الملتفت الى ضوء القمر وكتفيها المنحدرتين تحت



المنديل الوبري. يا ليته يضغط خده على كتفها ويطمئن الى الابد!

«اليس بالامكان العيش مع كاتيا كأخ مغرم متيم؟ ولكن هل ستوافق هي على هذا النوع من الغرام؟ فهي تحس بانها امرأة. طبعا، لا بد وان تحس بذلك. فلتذق طعم السعادة المباغتة اللاذعة. يا ليتني اهيم معها يوما او اسبوعا! ثم ارتحل الى الابد. ويظل في نفسي مدى الحياة حزن لذيذ لان يدي امسكتا بكنز ثمين، كنز السعادة التي تخليت عنها طوعا. فهذا أشد واقوى من اي شيء آخر. وهو يترك انطباعاً عميقا. فما الذ الحزن حتى الدموع! ما اروعه! امس هرعت الي ومدت يديها. كان يجب أن انهال عليها بالقبل، آه، يا الهي... بدلا من ذلك حكيت لها ابشع الفظائع... فلماذا؟ لن تفهمني... لن تتقبلني بعد الآن!».

مرر الكسي بتروفيتش راحته على وجهه ونهض من كرسي البيانو وتمدد على ظهره فوق الاريكة التي سخنتها الشمس وشبك يديه تحت رأسه. وفي تلك الاثناء طرق الوصيف الباب بحذر وافاد بان الطعام جاهز.

– اغرب عني، – قال الامير. فقد انقطع حبل افكاره. اسف لذلك، ونزل الى صالة الاعمدة، حيث المائدة جاهزة، والقى نظرة خاطفة على الوصيف الواقف بوجه متحجر تعلوه مسحة الاحترام، وانكمش وجهه (فلا يزال الغثيان يلازمه بسبب سكر الامس) ثم توقف قرب العمود البارد وشبك يديه وراء ظهره. هبط قرص الشمس الهائل وراء قمم الشوح عبر الباب الزجاجي. وتهادى هدير حزين حنون لحمامة برية. وانبعث حفيف من اوراق الحور التي اخذت تترجرج وتدور على اعوادها ثم سكنت. كل شيء هنا ازلي قديم، كل شيء يتكرر من جديد.

وفكر الامير: «ساغير طباعي، ساحبها الى الابد. أحبها بشدة، ما اروعها، ما ارقها... كاتيا ستروضني وتجعلني استقر. يا الهي، اجعلني مخلصا امينا مثل الآخرين. خلصني من اضطرابي، وخلص افكاري من السموم. اريد ان اقضي حياتي كلها قربها. سانسى، سانسى كل شيء... ما عدا الحب... أفليست لدي مقدسات؟..

فلتكن ساشا هي المسؤولة. ساشا تتحمل العذاب. استطيع ان اهجرها، فهي وديعة، تحترق وتموت وتباركني مع ذلك».

دس الكسي بتروفيتش يده في عب صديريه وكانه يريد ان يمسك قلبه الذي اشتد وجيبه حتى نفزه واوجعه. مال على العمود والتصق به، ونبعت حبات العرق على جبينه. وفكر. «يجب ان اشرب البروم»، وخطا نحو المقعد الواسع وهوى عليه خائرا من النوبة التي اعتورت قلبه المرهق جدا.

في تلك الاثناء اصطفق باب المنزل وسمعت خطوات ثقيلة. هرع الوصيف مرتعبا الى الباب البلوطي الثقيل الذي انفتح على مصراعيه بضربة شديدة. واقتحم الصالة فولكوف وخلفه الاخوان رتيشيف ووراءهما سوروبا.

— احضروه الي! — جار فولكوف وهو ينقل عينيه الجاحظتين ثم ركل المائدة برجله حتى جلجلت الاواني. — كل ذلك وهو يتجرا على تناول الغداء! — ثم خطا نحو باب الشرفة وعندما راى الامير بين الاعمدة يتشبث بالمقعد وينظر من الاسفل الى الاعلى، دمدم بفك ناتئة. — هذا التصرف، يا اخي، يستحق لطمة على البوز!

— نعم، لطمة على البوز! — زعق الاخوان رتيشيف من وراء ظهره.

اما سوروبا الذي ظل واقفا عند الباب فقد راح يكرر:

— على مهلكم يا سادة، على مهلكم.

شحب وجه الامير حتى اكتسى بمسحة خضراء. فقد ظن ان كاتيا حدثت اباها بكل ما سمعته. وانه، هو المستضعف، سيتعرض الآن للاهانة ثانية، سيسمع صوت السوط اللماع مرة اخرى، وسيلازم الفراش ويعض الوسادة من جديد...

الا ان سعار فولكوف خمد حالما واجه نظرة الامير، وكان ضميره بدأ يؤنبه. فهذه النظرة الكسيرة تشبه نظرة الكلب المقصوم الظهر عندما يقترب منه رجل بحبل ليجهز عليه باسرع ما يمكن، فكل دفاعه يتركز في عينيه. واحياناً لا يتجرا الرجل على خنقه والقاء الانشوطة على رقبته، بل يشيح بوجهه ويتصرف ويكتفي برميه بحصاة من بعيد.

وهذا ما فعله فولكوف. فقد تراجع وهبط حاجباه ودمدم:



— لماذا تحدق في هكذا؟ هذا التصرف، يا اخي، غير جائز ولو كنت من عائلة كريمة. ثم انني اب. يمكنك ان تسكر وتعربد، ولكن لا تلوث سمعة البنت!

وعندما قال هذه الكلمات اهتاج من جديد وصرخ مهاجما:

— كلا، ساضربه، لن اتحمل!

— ماذا جنيت؟ — سأل الكسي بتروفيتش بصوت خافت واخذ يرتعش على نحو غير ملحوظ لشدة فرحه، فقد مر بسلام افظع الاحتمالات.

— كيف؟ تتهتك مع ساشا ثم تتباهى امام الجميع بانك ذاهب الي في الليل. اما انا فلا علم لي ولا خبر، لقد شوهت سمعتي في القضاء كله.

نهض الامير على عجل ولم يتمالك نفسه فراح يقهقه، واخذ فولكوف المندهش من يديه واقتاده الى الشرفة:

— تعال يا عزيزي، يا حبيبي، — قال الامير ومال على الكسندر فاديميتش فوضع خده على كتفه التي تفوح منها رائحة العرق والخيل واضاف: — انا احب كاتيا، واطلب يدها منك. لقد تغيرت طباعي يا عزيزي... وتبت نهائيا...

كاد الامير يختنق، بينما اهتز راس فولكوف بسبب الانفعال:

— هكذا اذن. انا فاهم، لقد حولت الامور الى مجرى آخر. تلك قضية اخرى اذن. انا نفسي كنت أريد... لكنك، يااخي، فاجاتني، لماذا انت مستعجل الى هذا الحد؟ — مسح جبهته واختتم كلامه بصوت خائر: —انا ذاهب لأتمشى في البستان، بين الشجيرات. فالقضية هامة. ولا تخش شيئاً. دعني اهدىء اعصابي قليلا...

وهبط فولكوف من الشرفة بخطوات ثقيلة. وعاد الامير الى الصالة وكور قبضتي يديه المعروقتين وقال مخاطبا سوروبا والاخوين رتيشيف عبر اسنان مصطكة.

— اغربوا عني!

ما كان فولكوف يحب التماهل والتأمل اذا اشتدت رغبته في القيام بشيء ما. ولذا فقد جلس بين الشجيرات برهة ثم عاد واعلن للامير ان من اللازم اتمام كل الامور في هذا المساء بالذات. وتوجه بنفسه الى الاسطبل وظل يلوم سائسي الخيل بعد أن

عشر بعينه الثاقبة على مواضع الاهمال في عملهم. وعرج في طريقه على جميع الحظائر ومستودعات العربات، وعندما عاد ادراجه خاطب الامير الواقف في المدخل.

— معذرة، يا عزيزي، أنت مغفل على ما يبدو. فهل يجوز اهمال الاسطبل الى هذا الحد؟ من حسن الحظ اني سارتب امور ضيعتك.

وراح الامير يكركر بقهقهة قصيرة متلاحقة لم يتمكن من التخلص منها. فقد كان يتوجس منه خيفة ولا يتوقع خيراً. ولذا فعندما اختار فولكوف افضل عربة وأمر بشد ثلاثة من الجياد الدهم اليها واصطحب فيها الامير الى ضيعته كان سلوك هذا الاخير غريباً اثناء الطريق حتى القى عليه فولكوف نظرة شزراء عندما اجتازا نصف المسافة وقال:

— ماذا بك؟ اقول لك لا تتململ. كاتيا لن ترفض.

لكن انباء سيئة مباغتة كانت تنتظرهما في فولكوفو التي وصلاها في المغيب. وعجل ذلك في الاحداث وترك اثراً مؤلما ليس لدى الامير وكاتيا فحسب، بل ولدى الدكتور غريغوري ايفانوفيتش زابوتكين الذي تورط في هذه القصة كما تتورط الذبابة عندما تندفع الى النار.

— ٣ —

في صباح ذلك اليوم ارسلت عربة لاحضار الدكتور زابوتكين. كان يغسل ارضية غرفته المدخنة بالماء الساخن والصابون وقد فتح الباب والنافذتين ويفرش المكان بالورق النظيف والكتب غير الممتعة اطلاقا التي وجدها تحت الفرن،وكان يتوقف احيانا والخرقة في يده ليلقي نظرة على الشمس التي جففت بسرعة المصاطب والارضية.

وفكر غريغوري ايفانوفيتش: «انا احب النظافة. فالروح تتطهر بها وتفرح. و النهار، ما اروع النهار! الاوز على الماء والغيوم في السماء. ما اروع ذلك».

عرج عليه الاب فاسيلي لحظة ودهش أشد الدهشة فساله. «ماذا؟ هل انت بخير يا غريغوري؟» لكنه ادرك كل شيء من اولى



الكلمات التي نطق بها الطبيب فابتسم وانصرف بهدوء خشية ان يفسد الفرحة التي لم يشتد عودها (كما خيل اليه)، حتى ان غريغوري ايفانوفيتش لم ينتبه الى ذهابه.

وخيل اليه أن السعادة ستاتي اليه اليوم بالذات. واذا لم تات؟ كلا، ستاتي من كل بد.

في حوالى الثانية بعد الظهر وصلت الى منزل الطبيب عربة يجرها حصانان ادهمان. دهش غريغوري ايفانوفيتش فمد عنقه من النافذة والخرقة بيده. قفز الحوذي من العربة وأسرع نحو النافذة وسال:

— ماذا، يا اشعث، هل الطبيب في البيت؟ — والقى نظرة على داخل المنزل ثم ضيق عينيه وتطلع الى غريغوري ايفانوفيتش. — ادع الطبيب، ارجوك. الآنسة مريضة. قل له ابنة فولكوف مريضة.

ابتعد غريغوري ايفانوفيتش عن النافذة في الحال وسقطت الخرقة من يده. وانتفض قلبه وكاد يختنق. ولاحت في مخيلته كاتيا عندما رفعت طرف فستانها المبلل وصعدت السلم الى الرصيف وبان راسها المشع وكتفاها المكورتان وقدها الفارع المطوق بالحرير...

«ماذا لو اصيبت بالتيفوئيد؟ كلا، مستحيل». — فكر الطبيب. وركض الى النافذة من جديد وصاح:

— اسمع يا هذا! انا الطبيب، سارتحل معك في الحال! — وتطلع في كسرة المرآة المعلقة بين النافذتين وبيده طاقيته، وانعكس في تلك الكسرة بشكل مائل وجهه العريض المحتقن والزغب على خديه، وقد تهدل على جانبيه حتى الكتفين شعر كالالياف.

— ما هذا المنظر المرعب؟ — دمدم الطبيب متراجعا — انا «اشعث» حقا، لن استطيع الذهاب بهذه الهيئة.

جلس على المصطبة بسرعة متحيرا وتغضن جبينه، ثم نهض في الحال واخذ المقص وغرز طرفه في رأسه وقص خصلة شعر جانبية سقطت على الارضية دون أن تتناثر. داس عليها وزم فمه وراح يقص المزيد من شعره حتى قصر من كلا الجانبين. وادرك على الفور ان المقص لن يطال شعره من الخلف، وانه، على العموم، يكاد يجن.

كانت الاجراس وراء النافذة ترن بين حين وآخر، وصار الحوذي يتثاءب عمداً ويحمد ربه بصوت عال. بينما أخذ العرق يتصبب من الطبيب الذي حنى ركبته ولوى رقبته وحلق قفاه. ثم القى بالمقص واسرع الى الغسال فلم يجد فيه ماء. ولم يكن يعرف اين سترته . طرق الحوذي على النافذة بسوطه وسأل: «متى سنتحرك؟» ضرب زابوتكين الارض بقدمه . ولم يحدث له شيء من هذا القبيل الا في الاحلام عندما يتعين عليه أن يركض لكن قدميه ملتصقتان بالارض، ويريد أن يلوح بيديه لكنهما ثقيلتان لا ترتفعان.

واخيراً قال الطبيب بعد أن قفز الى العربة:

– اسرع، بكل ما تستطيع.

ظل طوال الطريق يعدل هيئته . ويمسح وجهه بالمنديل ويتأوه. وعندما لاحت من أعلى التلة البرك والبستان وسقف الدار الاحمر في فولكوفو كاد يقفز من العربة. فكل ما كان يجري في دخيلته هذا النهار كأنما يجري في الاحلام.

استقبل كوندراتي الدكتور في المدخل ورافقه الى المنزل. واستنشق غريغوري ايفانوفيتش الرائحة الرقيقة، العفنة بعض الشيء، لهذه الغرف العتيقة، ثم اخذ يسير على أطراف الاصابع مدركاً بأن الواجب هنا يحتم عليه التحلي باللياقة والادب، فعلى كل لوح من اخشاب هذه الارضية سارت كاتيا، ووقفت أمام كل نافذة. فهذا ليس منزلا مثل سائر المنازل، بل هو المعجزة بذاتها.

– تفضل الى هنا، – قال كوندراتي وتوقف امام السجادة التي تغطي الباب. ثم اضاف وهو يعلك – الفت انتباهك الى عدم الافراط في اعطاء المستحضرات.

وازاح السجادة عن الباب، فدمدم غريغوري ايفانوفيتش: «تمهل، تمهل، طيب»، وسحب اذيال سترته ومسح وجهه براحته ودخل فالقى نظرة زائغة على الغرفة ثم استقرت عيناه في الحال على الوسائد والراس الانثوي الراقد وقفاه الى الباب. التفت على الجيد ضفيرتان يفصلهما خط المفرق، وامتدت يد عارية حتى الكوع على البطانية الزرقاء.

اغمض الطبيب عينيه ثم القى نظرة على الخف الاحمر على



السجادة وفكر، عرضا، بانه، هو الدكتور زابوتكين، دجال لا اكثر، مجرد كومة من الخرق القذرة. ثم نسي افكاره في الحال.

تنهدت كاتيا وانقلبت على ظهرها ببطء. فتراجع الطبيب مرتعبا. طرفت جفونها بسرعة واستيقظت نهائيا وتوقفت نظرتها المندهشة على القادم. ثم اسبلت جفونها وتورد محياها. وقالت:

– آه، هذا أنت يا دكتور؟ مرحبا... معذرة لازعاجك... لكن بابا...

اقترب الطبيب منها بعد جهد جهيد. مدت له كاتيا يدها التي لا تزال دافئة اثر النوم، فامسك بها واحتقن وجهه بحمرة قانية ثم انتبه على نفسه واخرج ساعته، لكنه لم ير عقاربها فراح يحسب الثواني بضربات من قدمه، وفهم بعد لحظة أنه اخطأ الحساب وانه هالك لا محالة فترك يد الفتاة وسقطت الساعة منه. عند ذاك غطت كاتيا وجهها براحتيها ببطء، وارتعشت كتفاها و لم تضبط نفسها فانفجرت ضاحكة.

انتابت الدكتور زابوتكين قشعريرة شديدة حتى شعر بالغثيان، بينما انفرجت شفتاه عن ابتسامة بلهاء. يا للعنة! واخيراً قالت كاتيا بعينين مغرورقتين بدموع المرح:

– لا تزعل يا عزيزي الدكتور، ارجوك اوضح لي ما الذي حدث لشعرك؟ – واطلقت قهقهة عالية رنانة هذه المرة.

وعند ذاك تطلع في المرآة يائساً ورأى وجهه المتشنج ورأى البقع المحشوشة والتضاريس على راسه ورأى ما يشبه الضفيرة من الخلف... ودمدم:

– ذلك بسبب الظلام. تعودت دوما... – لم يتحمل فتراجع الى الباب وخرج راكضا.

– ٤ –

كان كوندراتي ينتظره وراء الباب في الرواق. فصاح به الطبيب يائسا مستغيثاً:

– اسمع ياهذا، اخبرهم ان يعدوا لي الحصان بسرعة. سارتحل في الحال، لا استطيع.

فاجابه كوندراتي بلهجة صارمة:

– ارجوك، لا تتبختر، فانت لست في بيتك. تفضل واتبعني.

قال الطبيب. «طيب» وسار طائعا خلف كوندراتي في الرواق ثم الى جناح الوصيف تحت السلم حيث جلس على الصندوق المغطى ببساط اللباد. و بعد صمت قصير قال كوندراتي وقد مال الى ضلع الباب:

– اسمي كوندراتي ايفانوفيتش وليس «اسمع يا هذا» وانت هل جئت الى هنا لتموت الآنسة؟ هل حلقت راسك بهذا الشكل الغريب عمدا؟

فصاح به الدكتور:

– اسكت يا كوندراتي ايفانوفيتش! فانا افهم كل شيء!

– ينبغي أن تسمع النصيحة ولا تعقد الامور يا دكتور. فلن اعطيك حصانا على اية حال. اما كاتيا فقد ربيتها بيدي ولن اسمح لاحد، ما دمت حيا، ان يؤذيها. يجب ان تعالجها بالكلام الطيب وليس بالمستحضرات. فمرضها هو مرض البنات لا اكثر. هل انت فاهم؟ طيب. منظرك الغريب اضحكها. هذا شيء جيد. كنت انا نفسي في ايام الشباب، ابتدع النكات. وحالما يضحك السيد من كل قلبه يحل النظام في المنزل وتؤدي نحن الخدم واجبنا. تعال اعدل لك شعرك. فالظهور مرة اخرى بهذا المنظر المشوه جلافة لا تثير الضحك.

التقط كوندراتي المقص ومد له غريغوري ايفانوفيتش راسه طائعا وسأل:

– هل ربيت الآنسة بنفسك حقا يا كوندراتي ايفانوفيتش؟

– نعم، بنفسي، – اجاب كوندراتي ووضع المقص فجأة واصاخ السمع. فقد تهادت في الرواق خطوات شخص حاول أن يدير مقبض الباب، وند عنه صوت لعله سعال أو بكاء مكبوت. وقال كوندراتي:

– شخص غريب على ما اعتقد. اليس كذلك؟

وهدأ الضجيج، فخرج الخادم العجوز مهموما.

وسرعان ما ارتفع صوته: «كلا، غير ممكن، اذهبي»، وجاء صوت نسائي متوسل مستعجل. لكن الطبيب لم يعد مهتما، فقد اغتسل ومشط شعره ونظف سترته وفكر في نفسه: «طيبا، لست



جميلا، ولست رشيقا، لكن وجهي لا يزال نضيرا، وخصوصا تعابير العينين». وتنهد بتحفظ وخرج الى البستان وظل ينتظر ان يستدعوه لعيادة المريضة.

استدار في البستان وراء ركن المنزل وسار على العشب ثم جلس على مصطبة حديدية مقابل النوافذ ووضع يده على رشاشة زهور خضراء قربه.

حوم النحل فوق الاعشاب قرب قدميه وفاحت رائحة البرسيم العسلية، فانفعل غريغوري ايفانوفيتش لهذه الرائحة وللشمس الدافئة المنخفضة جدا والمنسابة عبر الاوراق على جدار المنزل المطلي، ولنافذة كاتيا بستائرها المسدلة (فمن الستائر بالذات حزر ان هذه النافذة نافذتها) – انفعل لذلك كما ينفعل للموسيقى، فضيق جفونه وعرض قفاه للشمس واحس بأن كل ما في داخله يرتخي ويخور (وما حاجته الى ما في داخله؟)، فهو كانما يذوب في الضوء، في السكون، ويحتوى كل شيء – السماء وغيومها والماء والاشجار والمرج – كل هذا في داخله. ثم يخيل اليه أن بدنه ينصهر ويتجزأ، فيقدم عينيه للسماء، وروحه للغيوم ودمه للماء، ويديه للاشجار وجسده للارض. تلك حالة تشبه الموت او الحلم او الحب. وفكر في نفسه: «انا مستعد للتنقل مدى العمر في الطرق والدروب، بين الاكواخ النتنة، وما عدا بشاعة منظري، وعدم قدرتي على الموت والتضحية بالنفس من اجلها، كلا، فانا استطيع أن اضحي بنفسي حالما تامرني، ما عدا ذلك فما الذي يعوزني؟ لا شيء! لا اريد غير العيش والاحساس والتنهد...»

في تلك الاثناء ظهر الامير الكسي بتروفيتش على الشرفة بين الاعمدة التي تساقط طلاؤها في بعض الاماكن حتى بان الطابوق داخلها. كان يرتدي سترة سوداء، وبنطالا مقلما. وقد استند بيده اليمنى الى عصا، وامسك باليسرى قفازه ينش به خائفا نحلة كانت قربه. حلقت النحلة مبتعدة. ونزل الامير على عجل الى البستان وراح ينظر الى النافذة المسدلة الستائر بانفعال شديد وقد وقف على اطراف اصابعه دون أن يرى زابوتكين. ثم قال بصوت عال:

– مستحيل! هذا يتعدى كل الحدود! – لوح بعصاه واستدار ومطط شفته السفلى حالما وقع نظره على الطبيب.
«من هذا؟» – فكر الطبيب وهو يلقى نظرة متفحصة على الامير. وساله الكسي بتروفيتش.
– انت الطبيب؟ من عند كاتيا الآن؟ الا تعرف شيئاً؟
– ماذا حدث؟ هل حدث مكروه؟
– كلا، الاصح اني لا ادري – أجاب الامير وجلس على المصطبة، ولمس يد الدكتور وقال بمنتهى الرقة: – لا اسرار امام القسس والاطباء، أليس كذلك؟ اخبرني هل هناك وسيلة للتخفيف من آلام القلب او السيطرة عليه؟
– البروم، – اجاب الطبيب.
– طبعا، لكنني لا اقصد ذلك. عندما يفتح باب السجن امام السجين ويرى الشمس من العتبة يقولون له:
«تذكرنا جناية قديمة من جناياتك، فعد الى السجن...» – «لكنني اصلحت ما بنفسي!..» – كلا، عد»، يا دكتور، زوج كاتيا يجب ان يكون حرا طاهراً، اليس كذلك؟
– تريد ان تتزوجها؟ – سأل غريغوري ايفانوفيتش وهو يحدق في شفتي الامير المحمرتين جداً وفي عينيه القلقتين. وفكر: «يداه بيضاوان تماما»، واستولت عليه فجاة كآبة شديدة.
وواصل الامير كلامه:
– لست عدوا لنفسي، واريد ان تصدق كاتيا ايضا باني لست عدوا لنفسي. انا اتعذب اكثر منها. ولم اكن اتردد على كوليفان من اجل الافراح... وبالمناسبة فانت لا تدري... جئت لاخطبها... ولكن... يا دكتور، اذا وقعت مصيبة هل ستساعدني؟ وراء هذه النافذة تحاك الآن وشاية اخرى عندي. انا اعرف ذلك.
التقط انفاسه وتنهد وتطلع الى عيني الطبيب وابتسم ابتسامة المستكين.
– كاتيا تستحق ان يتالم المرء من اجلها – تمتم الطبيب دون ان يعرف لماذا يقول مثل هذا الكلام وارتبك فاخذ يشغل نفسه بالرشاشة ويحنيها حتى سال الماء من صنبورها.
في تلك اللحظة دوت من وراء نافذة كاتيا صرخة ذابت في



صيحة من صوت اجش، وهرع شخص ما الى النافذة المفتوحة فارتجت الستارة وانقذف من الداخل راس امراة عار على رف النافذة. وامتدت يدان عاريتان في محاولة لانتزاع أصابع قصيرة مكسوة بالشعر تطبق على رقبتها.
ثم دوت صرخة انثوية يائسة اخرى اقشعر بدن زابوتكين لها، بينما امتقع لون الامير فقفز من المصطبة مرتعبا وهو يكرر بالم بالغ: «لا تمسها، لا تمسها...» تركت الاصابع المكسوة بالشعر الرقبة فانزلق راس الامراة من رف النافذة. هم غريغوري ايفانوفيتش بالنهوض لكن الامير تشبث بركبتيه باصابع خائرة وهوى عليه فتدلى راسه.
– لا بأس، طيب، لا بأس سيمر ذلك بسلام، – تمتم الطبيب وراح يبلل جبهة الامير بماء الرشاشة.

## الدوامة

### – ١ –

اسند غريغوري ايفانوفيتش الامير من ابطه واقتاده عبر الشرفة الى الصالة وهو يبحث عن مكان مناسب يمدده فيه. الباب الجانبي في الصالة يؤدي الى المكتبة. فقال الامير وهو يضغط على يد الطبيب: «الى هناك». وفي تلك اللحظة تهادت من داخل المنزل اصوات وصرخات ووقع اقدام.
ما كاد الامير وزابوتكين يصلان المكتبة حتى فتح باب الصالة من جهة الرواق على مصراعيه ولاح في العتمة السائس والحوذي يقودان ساشا من ابطيها. كان فستانها الاسود ممزقا وشعرها مشعثا ووجهها ملتويا بحاجبين مرفوعين واثر الدموع على العينين. وهي تكرر بصوت خافت يائس:
– لماذا؟ لماذا؟..
ومن الخلف كان كوندراتي يدفعها، بينما راح فولكوف يسب ويلعن الشيطان ويضرب الباب بجمع كفه صائحا:
– احبسوها في العنبر، واقفلوا الباب على هذه الساقطة!..

– ولم يكن قد راى الامير وزابوتكين اللذين تمكنا من دخول المكتبة قبلئذ.

دفعوا ساشا الى خارج الصالة. واغلق فولكوف باب الشرفة بصخب ومضى الى غرفته شاتما.

ظل الطبيب والامير جالسين على الاريكة قرب خزانة الكتب وقد غرقا في صمت طويل. ارتعشت ركبتا الطبيب، بينما تجمد الامير واغلق عينيه ومال براسه الى ظهر الاريكة.

– لماذا حبسوها؟ – اخيرا سال الطبيب بهمس وتطلع الى الامير. كان وجهه الذي لا يكاد يرى في الظل المعتم جميلا للغاية. وفكر الطبيب. «هذا هو الحب الانيق القوي الذي يؤدي الى الاغماء والى الاشواق الخارقة! الامير زوج حقيقي يليق بكاتيا. حتى الكتب تتحدث عن امثاله». مال الطبيب على الامير بحذر ولمس يده، فساله الكسي بتروفيتش بصوت خافت:

– هل ستبقى معي يا دكتور؟

هز الطبيب راسه بالايجاب. وواصل الامير كلامه:

– اخرجوها؟ ما افظع ذلك. الحياة معقدة عزيزي الدكتور. مسكينة ساشا!

انتصب الامير فجاة وعدل قامته كمن يخلع القناع عن وجهه. وقال:

– انني اعرف ما هو نبيل ونزيه، لكنني اتصرف بدناءة وبلا نزاهة، وكلما كان تصرفي افظع شعرت بلذة اكثر... هكذا يمكن ان اجن. ما الذ ان ينظر المرء الى نفسه عن كثب، ليرى صورته، سافلا دنيئا يجلس في العربة ويرتدي قبعة رمادية وقفازا ابيض ولا احد يضربه على وجهه، الجميع يحترمونه، وهو معجب بنفسه. يكاد المرء يختنق عندما يفهم اعماق هذه الحقيقة. افليس غريباً ان اعود في الليل من هنا، من كاتيا، واتطلع الى السماء والقمر (الى السماء المقمرة من كل بد) واضحك من فرط السعادة بصوت خافت كيلا يسمعني الحوذي. وفي الحال انظر الى نفسي عن كثب وارى ان اقتراف الكبائر امر فظيع في حين يفوح عطرها من راحة يدي. وعندما اكاد اختنق اوقف الجياد امام خان ساشا وادخله وامسك بيدها واميل براسي على صدرها واتمتم: «ساشا، عزيزتي،



ريحيني» – وتريحني قدر ما تستطيع. وبعد ان ارتاح وتهدأ نفسي احدثها عن سبب مجيئي اليها، وتلك أعلى درجة من الدناءة. انا اكذب عليها من جديد، بينما قلبها يتفطر... وعلى هذا النحو شددت النابض اقوى فاقوى، حتى انفجر الآن.

– اسمع، هذا تصرف فظيع يبدو انك جننت. – همس الطبيب وابتعد قليلا عن الامير. لم يكن قد ادرك تماما، لكنه احس مجرد احساس بان الامير، وهو يتخبط ويتملص، قد تعرى وانكشف. وشعر الطبيب بتقزز غامض. فراح ينتف لحيته القصيرة ثم نهض واخذ يجوب الغرفة جيئة وذهاباً.

– اجل، هذا تصرف فظيع، – واصل الامير كلامه، وكان صوته معتدلا وكانما هو يتفحص نفسه بعين ثاقبة. – والافظع منه اني كذبت الآن عليك أيضاً... فمن الصعب جداً ذكر الحقيقة كما هي. يلف المرء ويدور حولها، ويكاد يذكرها بالكامل، ثم يلتفت فلا يراها، لقد هرب من الحقيقة بطريق متعرج منحرف، وكأنه يكتب يومياته... هل حاولت كتابة اليوميات؟ لا تجرب. صورت نفسي امامك الآن وكأني انسان يحمل اعباءا ثقيلة... اي انسان؟ وأية اعباء؟! انا مجرد شخص فيه عيوب، وعاء مثقوب، مثل رجلي هذه. اخترقتها الرصاصة هنا، ويخيل الي اني استطيع ان امدها بالكامل، لكنها لا تطاوعني الا ترى كيف التوت من جديد؟». احاول دوما الا اعري ما هو اساسي في مكنون نفسي... نعم، ربما يلزم المرء أن يشرب الكثير ليستطيع ان يعري نفسه... صدقني، يا عزيزي الدكتور، انا احب كاتيا اكثر من حبي للحياة، واذا رفضتني الآن ستكون تلك نهايتي. تلك هي الحقيقة... عرفت ذلك يوم امس، ففي الامس كان الامتحان الاخير، ولم اتحمل، مع انه لم يكن هناك طبعا اي امتحان. مجرد تهور بسيط. جئت الى هنا ليلا واغتسلت بجمال كاتيا وبضوء القمر وتطهرت عندما كشفت لها قلبي... انها فتاة رائعة، بينما القيت على كاهلها كل ما كان يثقل كاهلي. وفي الصباح ارسلت الحوذي الى ساشا وامرته بأن يقول لها: «لا تفكري بالامير، فهو مقبل على الزواج...» لم تتحمل ساشا، فجاءت الى هنا سيرا على الاقدام... وكنت أعرف بأنها ستشي بي.

– كل هذا كذب! – هتف الطبيب فجاة واراد ان يضيف شيئاً لكنه تلعثم وانعقد لسانه فاخذ يجوب غرفة المكتبة من جديد وينتف لحيته.

– يا دكتور، – قال الامير مستعطفا بصوت لا يكاد يسمع – اذهب الى كاتيا وحدثها بكل شيء، وستفهم...

– لن اذهب ولن احدثها! – صاح غريغوري ايفانوفيتش. – حدثها بنفسك. انا لا افهم شيئاً، ولا اطيق المجانين.

مال برأسه الساخن الى الزجاج. خيم الظلام حالكاً، ومن وراء الاشجار بزغ القمر البرتقالي قرصا كابيا غير مكتمل و كانه مرآة تعكس شجون هذا العالم الكئيب.

وفكر الطبيب: «ماذا أستطيع أن اقول لها؟ هل أقول لها انه اناني ومجنون؟ كيف اقول ذلك وهو يحبها؟ لا ادري... انا لا افهم مثل هذا الحب. لو كنت في مكانه لتطلعت اليها وبكيت دون ان أقول شيئاً... فهل يستطيع المرء أن يقول للغيمة انه يحبها»؟

حينما كان الطبيب غارقا في تاملاته تكثف ضوء القمر وانساب بارداً على ندى الاوراق ورسم ظلالا طويلة، وحوم فوق الاعشاب ضباب خفيف. وأنار ضوء القمر عبر نافذة المكتبة شطرا من وجه الامير ويده التي دس ابهامها في صديريه. ولمعت الزوايا النحاسية لخزانة الكتب.

وانتفض الطبيب فجاة، فقد مرت كاتيا مسرعة أمام النافذة (عرفها من كتفيها المكورتين ومن رأسها الانوف) والتفتت قرب منعطف الممشى ثم ركضت فتطاير الشال الابيض وراء ظهرها...

التفت الطبيب وقال بسرعة:

– وخرجت راكضة الى البستان.

قفز الامير وفتح النافذة على مصراعيها، وهمس:

– هيا، فلنسرع!

وخرجا على عجل.



– ٢ –

العنبر الخشبي ينتصب منعزلا في المرعى بين الساقية التي تبدا منها حدود البستان وبين اكداس القش المستطيلة، وتحت سقيفته رصفت الزحافات والمسالف، ويتدلى قفل ضخم من الباب الذي نجرت في اسفله كوة مربعة للقطط.

وتناهت من وراء الباب تاوهات ونحيب خافت.

ركضت كاتيا في المرعى من الساقية حتى العنبر وتوقفت لاهثة قرب بابه ثم هبطت على ركبتيها وقربت وجهها من كوة القطط وهتفت:

– ساشا، أنت هنا؟ أنت تبكين؟

توقف النحيب وراء الباب واحست كاتيا بانفاس ساشا تلفح وجهها، بل ورأت عينيها. وقالت:

– لو كان عندي مفتاح لاطلقت سراحك.

تنهدت ساشا، فمدت كاتيا يدها اليها وداعبت وجنتها.

– ساطلب من كوندراتي ان ياخذ المفتاح من بابا خفية، وسنطلق سراحك بعد فترة. ساشا، خبريني... قربي خدك لاقبله... ياعزيزتي خبريني هل انت متالمة جدا؟ ساجعله يعود اليك من كل بد. فانت لم تفهميه، كان يمزح معك. ما قاله عني سخافة... فهو لم يتردد علي وحدي، كان ياتي الى ابي ايضاً. لكنك انت المذنبة... لماذا ذكرت كل شيء بحضور بابا... ساشا، يا عزيزتي، لم يحدث اي سوء. فكري في الموضوع بهدوء. سيعود اليك غداً.

لكن ساشا بكت بكاءاً مراً وهي تدق الباب براسها. ولمست كاتيا صدغيها بإصابعها واخذت تتلفت، فكيف تهدئها؟

وتمتمت ساشا:

– انا اتعس خلق الله. ساتحمل التعذيب من أجله. كنت اعرف انه يكذب علي ويسخر مني، وان عذابي يهدهد كبرياءه. لكنني لم اتحمل... عندما جاء السائس وقال وهو يضحك: «سيدي يامرك بان لا تفكري به ويأمرك ايضاً ان تنامي معي». تجمد الدم في عروقي... وفقدت عقلي، وركضت من البيت وانا افكر: هل أذهب اليه ام الى النهر لانتحر؟ وفي تلك الاثناء مرت بي ابنة

عمي على العربة واخذت تضحك علي وتقول: «ماذا؟ الم يات الامير اليك؟ اذهبي الى الطريق وناديه...» لا ادري من أين جاءني ذلك الحقد... فقررت ان اطلعك انت، ياسيدتي، على حقيقة الامير...

هبت كاتيا ناهضة ثم جلست على العتبة ووجهها الى البركة. كانت خيول قاتمة تقف على ضفتها، والقمر يسبح وحيداً في السماء الشاحقة الخالية بعد ان اطفا كل النجوم حواليه.

اسندت كاتيا حنكها براحة يدها واخذت تفكر مبتلعة دموعها: «ما هذا الهراء؟! لقد تلقيت عقوبة صارمة، ويجب أن انساه». وبدا لها ضوء القمر قطنيا ضبابيا في صحراء زرقاء.

— يا آنسة، — نادتها ساشا — ياعزيزتي الحلوة، اصبري عليه، تحملي، حاولي ان تحبيه، فانت أيضا امراة. ولو كنت قادرة لما تنازلت لك عنه. صعب علي. لكن ربيع عمري انقضى، وجاء دورك في معاناة الآلام...

نهضت كاتيا دون أن تسمع خاتمة هذا الكلام، وتطلعت الى باب العنبر وارادت أن تجيب، لكنها لاذت بالصمت وابتعدت ثم استدارت وراء ركن العنبر، فندت عنها صرخة خافتة وتوقفت متحجرة.

كان الامير جالساً على المسالف المرصوفة واسنانها الى الارض.

وتمتمت كاتيا عندما رات الطبيب من بعيد في المرعى يبعث الى الامير اشارات يائسة:

— كم الساعة الآن؟ اعتقد أن بابا ينتظرني على العشاء.

تململ الامير وهم بالنهوض، فاستدارت كاتيا على عجل ومضت الى المنزل.

— ٣ —

اختص الله فولكوف بطباع متميزة كثيرة، لكن العناد الشديد كان في مقدمة تلك الطباع. ثم ان خطوبة الامير كراسنوبولسكي بددت قلقه في الحال، لاسيما وانها تداري كبرياءه، لان عائلة الامير تتحدرمن سلالة ريوريك، وكانت في حينه من حاشية القيصر. حالما تذكر فولكوف سلالة ريوريك (عندما عاد مع الامير من ضيعة ميلويه) شعر بالامتعاض متصورا ان الكسي بتروفيتش يمكن أن يتغطرس ويتكبر، فدفعه بكتفه وضغطه الى ركن العربة كي يؤلمه، الا ان الامير لم يفهم هذا التصرف الرقيق. لكن امتعاض



فولكوف لم يدم طويلا، وكيلا يتمادى في التفكير بالاهانة قرر في الحال ان يقدم مهراً مدهشاً للعريس وكاد يعلن عن قراره هذا، بيد ان امراة حمقاء اثارت الفضيحة فورا وصولهما الى فولكوف، وافسدت عليه الامور.

وعندما صب الكسندر فاديميتش جام غضبه على ساشا ادرك ان التهور والهياج لن يجديا نفعا، لكن السيل بلغ الزبى، فانزوى فولكوف في مكتبه كئيبا وجلس الى طاولة الكتابة.

«ساازوجها من هذا المحتال حتى لو كلفني ذلك حياتي» — فكر وراح يلوم الامير اشد ملامة، ثم غضب على ابنته أيضاً.

واخيرا قادته التاملات الطويلة الى فكرة غير متوقعة هي ان كل ما حدث سخف في سخف ولا توجد اية كارثة في العلاقات بين كاتيا والامير. فهل هو الشخص الوحيد الذي زنى؟ ليس عبثا ان العالم منقسم الى قسمين، فبدون ذلك يقتلنا الملل والضجر.

عند ذاك ضرب بقبضته على الطاولة وهتف «ساصالحهما!» ولكي يتهيأ لهذه المهمة ويحسن مزاجه اخذ يفكر عمدا بأمور قد تبعث على السرور.

التقط قلما وبحث عن الورق فعثر على ورقة ذرق عليها الذباب فرسم ارنبا.

— لماذا تهرب يا احول؟ — تمتم فولكوف — الا تريد ان ارسم لك ثعلبا؟ — ورسم ثعلبا خلف الارنب،وراح يكلمه.

— الا تريد لحم ارانب؟ انت ماكر، ولكن الا تخاف من الذئب؟ ها هو الذئب السميك الجبهة، ها هو يركض وذنبه منتصب كالخشبة. سياكلكما معا يا عزيزي. لكني ساطلق الكلاب عليك يا ذئب، كلابا اصيلة حادة الانياب. هيا يا كلاب، اهجمي عليه، هيا!

رسم فولكوف كلابا وتحمس لها حتى انه نهض قليلا عن مقعده وضربه بيده حتى تالمت، متصورا ان المقعد حصان رهوان ثم القى بالقلم جانبا وضحك وخرج من المكتب راضيا وامر، في طريقه، بدعوة الجميع لتناول العشاء.

اسرع ابنا الطباخة يبحثان عن الضيفين، بينما توجه فولكوف الى ابنته. كانت جالسة بملابسها على السرير.

— يا بنتي، انتهى الهرج والمرج على ما اعتقد، فتعالي نتعشى.

ارادت كاتيا ان ترفض، لكنه زمجر على نحو جعلها توافق في الحال.

— طيب، سآتي يا بابا.

وجد صبيا الطباخة الضيفين يجوبان المسافة بين العنبر والساقية جيئة وذهابا. عندما سمع الامير صوتا يناديه استدار بسرعة متوجها الى المنزل، اما الطبيب فاخذ يقنع الصبيين بانه لا يرغب في الاكل ويرجو ان يعدوا له الخيول. ومع ذلك اسرع ليلحق بالامير.

في غرفة الطعام الصغيرة استقبل الكسندر فاديميتش الضيفين قائلا:

— اعتقد، يا سيدي ان القوة كلها في البطن مهما جرى من احداث. تفضلا.

واوما بيده الى المائدة المستديرة وجلس قبل الآخرين ولف الفوطة حول عنقه.

دخلت كاتيا شاحبة جدا والظلال تحت عينيها. جلست الى المائدة بسرعة قبالة ابيها دون أن تنظر الى احد. كان محياها هادئا انوفا، بيد ان عرقا كان يدق وينتفض بالكاد قرب الحنجرة على جيدها المكشوف.

— ها هي ابنتنا المريضة، — قال فولكوف. — لكنك، يا كاتيا لم تسلمي على الامير...

— سلمت عليه، — اجابت كاتيا بحدة.

اشراب الكسي بتروفيتش واستطال في مقعده وكأنه يختنق. اما غريغوري ايفانوفيتش فقد خفض راسه واخذ يغرز الشوكة في السفرة.

الا ان فولكوف عنيد شديد المراس وليس من السهل امتطاؤه. امسك بشاربيه واستند الى المائدة واحتوى الجميع بنظرة من عينين مرحتين. واستمر الصمت. وزع كوندراتي الاطباق وصب النبيذ في الاقداح دون ان يسمع لخطواته حفيف. وكان الطبيب الذي تندت راحتاه، اول من تطلع الى رب الاسرة. كانت عينا فولكوف تومضان بضحكة لم يستطع السيطرة عليها.

— سخافة! — صاح وطبطب على المائدة — ما لكم منتفخي



الخدود كالفئران. فماذا حدث؟ اية مصيبة؟ لا داعي للاحزان يا كاتيا. طالما الدكتور موجود هنافانا اصرح انى بحاجة الى حفيد! اجل، هل انتما خجلان ايها المحتالون ها هي الامور تترتب... ولا جدال بعد الآن!

وبغية المزيد من التاثير غرق في قهقهة عالية حتى خيل اليه ان الجميع، حتى كوندراتي، سيمسكون بطونهم من شدة الضحك. الا ان عيني فولكوف شبه المغمضتين لاحظتا تماما ان القهقهة اخفقت. فقد ابتسم الامير ابتسامة متوترة، وهم الطبيب بايصال فخذ الدجاجة الى فمه، وظل جامدا على هذه الصورة وتجعدت جبهته بغضون عميقة تنم عن الالم. اما كاتيا فقد سلطت على ابيها عينين مفعمتين بالغضب والكآبة وقالت وهي تضبط نفسها بالكاد:

— كفاك يا بابا. ساذهب اذن — واحتقنت وجنتاها في الحال بلون وردي داكن. ثم نهضت.

— قفي! لاتذهبي! — صاح فولكوف بغضب شديد — ها انا اعلن الخطوبة. هذا هو العريس وهذه هي العروس. تعال ايها الامير واركع امامها واعتذر.

بهت لون الامير وشحب وجهه. نزع الفوطة على مهل ونهض ورفع كتفيه بتظاهر فارغ واقترب منها بمشية وقحة وانتشل يدها وضغط عليها وقال بصوت بغيض.

— آمل، يا عزيزتي، ان تسامحيني على ماضي.

سحبت كاتيا يدها ببطء، كما في الاحلام، وامتقع لونها حتى الاخضرار صفعت الامير على خده بكل قواها.

— ٤ —

على هذا النحو غير المتوقع اضطرب العشاء الذي اعد له فولكوف بكل دهاء. ظل الامير واقفا مطاطا الرأس ووجهه الى الباب الذي خرجت منه كاتيا على عجل. وغطا الطبيب وجهه براحتيه، بينما اهتاج فولكوف والشوكة والسكين بيديه وراحت عيناه تتراقصان.

– يا عم، كانت تنادي غيرك من السد.
– اخرس، ايها الصبي المزعج! – نهره السائس ونقر باصبعه على قفاه الحليق.

انحنى الطبيب على فم ساشا وحاول ان ينفخ الهواء فيه وهو يوسع صدرها ماسكا كتفيها بيديه. وفجأة ارتعشت شفتاها الباردتان، فاشاح الطبيب بوجهه على عجل وكأنه يخجل من قبلة مفاجئة. ودبت الحركة في بدن ساشا، فرفعوها واجلسوها. وسال الماء من فمها المفتوح. وزاغ بياض عينيها، وند عنها انين. فقال كوندراتي.

– ينبغي ان ننقلها الى كوخ البستاني. يا لها من حمقاء...

– ٥ –

في آخر الرواق الابيض وقفت كاتيا وظهرها الى الباب المغطى بالسجادة وقد ضغطت شفتيها بعناد كيلا ترد على ابيها وهو يحاول ان يمسك بيدها التي خبأتها خلف ظهرها. ووقف الامير تحت القنديل المعلق على مقربة منهما.

– سارغمك على الاعتذار له، – كرر فولكوف متلعثما لشدة الغضب. – من اين لك هذه العادة الجديدة؟ من علمك الضرب على الوجه؟ اعطني يدك. هيا. اقول لك. اعتذري له!

الا ان كاتيا التصقت بالسجادة الملونة وانفرطت ضفيرتها وتناثر شعرها على الكتف وبرزت ركبتها المكورة فشدت حرير الفستان الرمادي الذي طوق خصرها تحت النهدين الناتئين.

لاحظ الامير ذلك والقى نظرة على ركبتها فشعر بالالم المعهود في الصدر. شعوره بالالم شديد وواضح. فالركبة التي برزت صدفة قد عرت أمامه كل الاغطية، ولاحت كاتيا في تصوراته زوجة وامراة ومعشوقة. عض شفتيه اليابستين وتحرك على امتداد الجدار.

– هل تمزحين؟ أم يتراءى ذلك لي في المنام؟ – واصل فولكوف اقناعها. فلم يكن صادف ابداً مثل هذا القدر من المنغصات دفعة واحدة. وخيل اليه للحظة ان هذا حلم من الاحلام، و ضرب



الارض برجله وصاح: – اجيبي يا صخرة خرساء! – الا ان البنت ظلت صامتة، فكرر الاب قوله وهو يرتعش: – اعتذري، اعتذري!

– كلا، ابدا، اموت ولا اعتذر! – قالت كاتيا بسرعة.

ونظرت الى الامير وهو يقترب ببطء، فتحرك حاجباها. لم تفهم نظرته. على اي شيء يسلطها؟ ولماذا يقترب؟ فراحت تراقبه حتى اشرأب عنقها، ثم فهمت في الحال وتوردت وجنتاها ورفعت يدها...

هرع الكسندر فاديميتش نحو ابنته كي يمسك بيدها، لكنه افلتها فندت عنه صيحة غاضبة. اما الامير فقد اقترب منها وتمتم بصوت مكبوت:

– يا كاتيا، ارجوك، استعطفك. لا ترفضي طلبي.

كانت عيناه جامدتين متخشبتين فظيعتين، وكان وجهه متحشفا. وهتف فولكوف:

– الا ترين يا كاتيا؟! آه. اتركا الحماقات، يا عزيزي، وقبلا بعضكما!

لكن كاتيا خفضت راسها ولم ترد عليه. وعندما اراد ابوها ان يستحث الامير على التقدم نحوها تملصت وانزوت خلف السجادة على عجل وصفقت الباب واغلقته بالمفتاح.

– عجيب، كلا، لن تهربي! – زعق فولكوف.

مال بثقل كتفه على الباب، لكنه لم ينفتح، فراح يطرق عليه بقبضتيه، ثم استدار ورفسه بكعب حذائه.

– اتركها، لا داعي لذلك، فلنذهب، – همس الامير بانفعال شديد. – انا اعرف بم ستجيب. فلنذهب، لوجه المسيح.

وتعين على الامير ان يبذل جهداً كبيراً في اقناع فولكوف العنيد. واخيراً مسح هذا العرق من وجه وقال:

– هكذا، يا اخي، ليس من اليسير تزويج البنات. تلك قضية صعبة تجعل الانسان يتصبب عرقا. لكنني ارجوك ان تسكت ولا تتدخل. سادبر الامر بنفسي.

عندما انتهى الطرق على الباب وخفتت الخطوات ارتمت كاتيا على السرير وغرزت وجهها في الوسادة واحتضنتها بكلتي يديها.

– لقي ما يستحقه. حسنا فعلت، – كررت كاتيا وهي ترى

عيني الامير المتخشبتين الفظيعتين (وكان الوسادة شفافة يرى ما وراءها). كانت تخشى فهم ما قرأته فيهما فراحت تكرر تلك الكلمات الغاضبة، لكن هذه الكلمات فقدت حدتها ومغزاها، حتى لكان غضب كاتيا كله تجسد في التلويحة البشعة من يدها التي صفعت خد الامير، فصارت تلك الصفعة عروة وثقى ربطتها به باشد من رباط الحب.

«يا الهي، امح هذا اليوم من الوجود» – راحت تكرر بانزعاج، فهي لا ترى طريقا للخلاص. لقد تهشم حقدها وغضبها وغيرتها وارادتها الشماء، كما يتهشم الزجاج، بتلك الصفعة. والآن صار في مقدور الامير، طبعا، ان يأخذها كجارية له او يتركها، فهو الآن حر يفعل ما يشاء...

ولسعتها الذاكرة كاللهيب عندما ومضت فيها صورته وهو يشد ازرار سترته ويقترب منها قائلا. «آمل، يا عزيزتي...»
– «طبعا، كل ذلك تصنع الم يكن يتعذب آنذاك، عندما حدثني في التعريشة؟ ام انه كان يكذب؟ فهو لم يذكر ساشا آنذاك بكلمة... ثم هل هي جديرة بالحب؟!.. ليس ذلك حبا، بالطبع، بل تهتكا قطيعا لا يطاق! ابي كاد يخنق ساشا، وليس ذلك صدفة بالطبع».
ودوى صراخ ساشا في اذني كاتيا من جديد. فجلست بسرعة على السرير. «ثم ما قيمته اذا كان يسبب مثل هذه الآلام؟ فيم، يكذب؟ ماذا يريد؟ ماذا يريد من تلك ومن ساشا ومني؟.. من يحب منا؟ ما حاجته الي؟ هناك حاجة اذن، اليس كذلك؟ هل هو غريب علي؟ الم يحبني اطلاقا؟ ما العمل؟ اعرف بانه سيبقى مصرا، وسأتزوجه، انا اعرف ذلك. نعم، سأتزوجه، اتزوجه رغم انف الجميع، اتزوجه وآخذ ثاري، حتى لا يتجرأ على المقارنة بيني وبين هذه وتلك... سأتحمل الآلام عمدا. حب فاشل، فلا داعي له... لا اريد اي حب».

دلت كاتيا ساقيها بجواربها البيض من السرير واسندت خديها بيديها فتساقطت دموع غزيرة على فستانها وعلى ركبتيها. واحست بشدة اكثر ان لا مخرج لها الآن ولا حياة. كادت تصرخ لكنها كتمت صراخها وراحت تنتحب بحرقة ومرارة.

واخيرا روح البكاء الطويل عنها. ففتحت ببطء ازرار فستانها المدعوك وهي لا تزال تتأوه واقتربت من المرآة وكتفاها تنتفضان.



ورأت وجهها جديدا تماما في المرآة العميقة التي سلط عليها الضوء من الجانبين وهمست متمعنة فيه بيأس وقنوط. «ما اجملك يا كاتيا المسكينة!» وفيما بعد ظلت جالسة امام المرآة حتى ساعة متأخرة من الليل وهي تفكر بنفسها بحزن وهدوء وكأن فرحتها في الحياة انتهت بانتهاء هذا اليوم.

## القسمة والنصيب

– ١ –

بقي الامير في ضيعة فولكوفو، خصصت له الغرف الامامية واحضرت حاجياته المنزلية من ضيعته في ميلويه. لازم هذه الغرف ولم يغادرها الى اي مكان. كان منذ الصباح يضطجع على الاريكة حليق الذقن، مهندما، بكامل بزته، ويقضي الوقت في التفكير وفي تفحص اظافره. وعندما يلوح من الباب رأس الكسندر فاديميتش العائد بأنباء عن سير المفاوضات مع ابنته يتظاهر الامير بالنوم.

كان الكسي بتروفيتش يدرك تماما ان بقاءه هنا، قرب كاتيا، هو ملاذه الوحيد والوسيلة الاخيرة لخلاصه. وكان يدرك ايضا ان كل يوم جديد من مكوثه في فولكوفو يزيد من الامل في موافقة كاتيا. فقد اخذت الالسن في القضاء كله تلوك نبأ الصفعة ونبأ ساشا وتضيف اليهما تفصيلات تجعل النساء يهربن من الغرف لدى سماعها. ثم ان هذا الوضع بدا ملائما جدا لالكسندر فاديميتش نفسه. كان يتوجه في الصباح الى ابنته ويجلس على المقعد قرب النافذة ويقول:

– تفو. رائحة المساحيق تزكم الانف. ماذا؟ تتجملين؟ – وكان يتأوه ردا على نظرة كاتيا اللامبالية. ويواصل كلامه: – لا ادري ماذا تريد هؤلاء الفتيات؟ هل تريدين ملاكا من السماء؟ لنأخذ المرحومة والدتك. كانت امرأة انيقة للغاية بتربية انجليزية، لكنني الححت عليها فتزوجتني مع انها بكت كثيراً بالفعل. تلك هي القضية يا بنتي. ستبكين قليلا، لكنك ستصبحين اميرة.

كان يترك ابنته ويتوجه الى الكسي بتروفيتش ويجلس على الاريكة قرب رجليه، اذا لم يكن هذا يتظاهر بالنوم، ويهزه من ركبته قائلا:

– مقاومتها تضعف. شيطانة، والحق يقال. لماذا افرطت بالتهتك؟! طالما اخطات كان يجب عليك ان تصمت. الشيء الوحيد الذي لا افهمه هو لماذا لم تخطبها حتى الآن؟ لو فعلت لعقدنا القران حتى تتمكنا من السفر الى الخارج.

– حقا، انا ايضا لا افهم لماذا لم اخطبها سابقا؟ – كان الامير يجيب، ثم يضحك مع نفسه بعد ذهاب فولكوف.

جرى اللقاء الاول بين الخطيبين على مصطبة في البستان. جاء فولكوف بالامير في البداية، ثم جاء بكاتيا، وهتف: اوه!، العجول دخلت توت العليق»، وانصرف راكضا كانما ليطرد العجول.

---

ظل الامير وكاتيا صامتين امداً طويلا. فهي تعبث باطراف منديلها، بينما انشغل هو بالتدخين. واخيرا القى بالسيجارة واشاح بوجهه وقال:

– لو رضيت بي طائعة واجبتني من تلقاء نفسك لما تزوجتك. – بهت لون كاتيا وشحب وجهها وتشوشت اهداب المنديل بين اصابعها المضطربة. ظلت صامتة.

وقال الامير بصوت خافت كئيب.

– فلننه المسالة، ونعقد القران.

طفت صبغة الخجل والغضب على وجنتي كاتيا، فاستدارت نحوه بحدة وصرخت فيه:

– اكرهك! انت تعذبني! تقتلني عمدا! الم تجد غيري في هذه الدنيا؟

– كاتيا، انت ذكية جدا، ويجب ان تفهمي كل شيء – قاطعها الامير على عجل – هل نعقد القران في الاسبوع القادم؟

– نعم، – اجابت بصوت يكاد لا يسمع ونهضت، وقفت لحظة ثم مضت – لا تلوي على شيء.



## – ٢ –

اعتاد الناس من قديم الزمان على تناول «الطرشي» بعد الولائم.

الا ان اي طبق من هذا النوع ما كان بوسعه ان يطفيء اوار وليمة الزفاف في ضيعة فولكوفو، حيث اجتمع كل اهالي القضاء تقريبا. تقاطرت العربات من كل شاكلة وطراز وهي تنهب دروب القرى وطرق البريد كما لو كانت مسرعة الى سوق حافلة بالمرح والمسرات. من اين للقضاء، يا ترى، بهذا العدد الكبير من النبلاء؟!

لم تتسع كنيسة كوليفان الصغيرة الا للشيوخ والعجائز والسيدات والبنات. اما سائر الضيوف فقد توزعوا على جانبي مدخل الكنيسة حاملين الزهور والهرطمان لينثروها على الاميروالاميرة.

كان الاب فاسيلي في غفارة مذهبة يرتل الكلام بصوت معسول، بينما وقف العروسان جنبا الى جنب على منديل ارجواني، وحمل الايقونة قربها غلام بقميص ازرق. وسرت بين السيدات همهمة ولغط خافت. وكانت كاتيا، والشمعة بيدها، تتطلع الى اللهيب برزانة واطمئنان. وهمست السيدات: – ما اروعها! ملاك!

وبدا الامير الشاحب قمينا في البدلة السوداء الطويلة، ولاحت عليه امارات الجد وهو يؤدي مراسيم القران بكل اهتمام.

عندما قدم له القس كاس النبيذ لمس حافتها بشفته، بينما تجرعت كاتيا الكاس حتى الثمالة، دفعة واحدة، وكان العطش الم بها وانشد الكورس «ابتهج يا اشعيا»، واخذ القس يد العريس ويد العروس وربط بينهما. دفعت كاتيا بركبتها ثوب الحرير ومضت بسرعة حول المقرا وهي تجرجر اطراف ثوبها، وجهد الامير للحاق بها فانتبه الجميع الى انه يعرج بشكل ملحوظ تماما. وتوصلت السيدات الى استنتاج قاطع:

– كلا، انه ضئيل بالمقارنة معها.

تحرك الركب والعروسان في مقدمته من الكنيسة الى فولكوفو. وعندما خرجوا من قرية كوليفان رات كاتيا الدكتور زابوتكين يتسلق السياج ويلوح لها بمنديل. فاشاحت بوجهها على عجل.

في الصالة الكبرى استقبل الكسندر فاديميتش العروسين بايقونة قديمة عليها وجه المخلص، باركهما وامر باحضار المهر على مرأى من الضيوف. جلب اربعة فتيان يرتدون قمصانا حمراء قانية صينية فضية كبيرة عليها قطع نقدية ذهبية مرصوفة بشكل اعمدة. وقال فولكوف:

– هذا ما لدينا، فلا تعتب علينا يا امير.

وبعد التبريك مضى الامير والاميرة الى بابين مختلفين واستبدلا ملابسهما هناك، ثم التقيا في البستان وجلسا على ضفة البركة حتى تم تجهيز عربتهما. هرع بعض الضيوف متزاحمين من داخل المنزل واشرأبت اعناق البعض الآخر من النوافذ وودعوا العروسين بصيحات وهتافات صاخبة وترقرقت الدموع في عيني فولكوف. استمرت الوليمة حتى الغروب. وفي الصالة المجاورة التي حومت فيها كاتيا قبل شهر في ضوء القمر تعالت انغام الموسيقى في الغسق...

الا ان عدد الرجال القادرين على تحريك سيقانهم تضاءل تماما. واضطرت الفتيات الى الرقص مع بعضهن البعض. وانزوى المنكتون في غرفة التدخين وتعالت قهقهتهم هناك. وجلس الشيوخ والعجائز الى مائدة القمار الخضراء. وعند منتصف الليل تعب قائد جوقة الموسيقيين من التلويح بعصاه حتى تأرجح وهوى على الطبل وتشبث به فتدحرج معه كالجثة الهامدة.

وبذلك انتهى الرقص. وارتحلت السيدات مع بناتهن، بينما ظل الشبان والازواج (بدون زوجاتهم) ليبيتوا الليل في الضيعة. لكنهم لم يعرفوا للنوم سبيلا حتى الصباح، بعضهم صرف الوقت في لعب الورق، وبعضهم اخذ يجوب المنزل في هرج ومرج. وفي البستان استعرض الاخوان رتيشيف عضلاتهما، ولم يعد الكسندر فاديميتش يعرف ما يتعين عليه ان يفعل، فراح تارة يفصل بين الاخوين الهائجين وتارة يجلس الى مائدة القمار ويتطلع سدى الى ورق اللعب والشموع ويستعيد على الدوام شيئا ما من الذاكرة.

ولم يهدىء عربدة الضيوف لا بزوغ الفجر الشاحب ولا نهار يوليو القائظ. ولم يغادر آخرهم منزل فولكوف الا في اليوم



الثالث، حيث ركبوا عرباتهم بجيادها المتكاسلة وانطلقوا بها دون ان يميزوا الدروب والطرقات، وراحت نواقيسها المجلجلة تثير رعب الفلاحين الذين يخلعون قبعاتهم ويشيعون كل عربة بنظرات طويلة ويقولون:

– يا له من شيطان عجول!

## – ٣ –

تسلق الدكتور زابوتكين السياج وظل يلوح بالمنديل مشيعا ركب العروسين وانطبعت على وجهه امارات الارتياح الصادق لان الامور سارت في آخر المطاف كما يرام. عاش الطبيب كل تلك الفترة عيشة الحنان والرضا من نفسه ومن الآخرين. تحسس هذه الحالة النفسية منذ ان نقل ساشا الى كوخ البستاني ووضعها على السرير الخشبي وظل جالسا لوحده قرب هذه المرأة الشابة النائمة. كان البصيص المنبعث من ذبالة شمعة في قنينة وضعت على البرميل ينير جدران الكوخ الخشبية وبيوت العناكب في اركانه والنافذة المحطمة التي يغطيها لباب صقيل قاتم، كما ينير ساشا الراقدة تحت معطف فرائي قصير بين الفرن والجدار، وهي ترتعش احيانا وتسحب المعطف لتتدثر به جيدا فتتكشف ساقاها العاريتان او يزاح طرف المعطف، وعند ذاك ينهض الطبيب ليعدل لها وضعيته بكل حرص وعناية. كان ينحني عليها ويتفرس في وجهها طويلا. وهو وجه مطواع حتى في النوم، وخيل اليه انه رأى واحب في زمن ما هذه القسمات الواضحة العزيزة على القلب. وشعر بالاطمئنان وانحسرت كل احداث هذا اليوم الى خانة بعيدة في الذاكرة، واضحى من الغريب التفكير الآن بعالم آخر غير هذا الكوخ البالي وساشا النائمة فيه.

كان يعاود الجلوس قرب الذبالة ويحجب الضوء براحته وينصت الى ساشا وهي تتنفس او يستمع الى تململ طير يستيقظ بين الشجيرات، او الى اوراق الحور الرجراج التي تبعث حفيفا غير متوقع. وكان النسيم يهب من النافذة فيضطرب لهيب الذبالة، وعندذاك يبدو وجه ساشا متجهما في الظلال

المنزلقة على موقي العينين. ويخيل للطبيب انه ملزم بحب هذا الهدوء الذي ينطوي على مغزى سحري خفي، وان عليه أن يصبح هادئا رقيقا مثل الظلال على وجه ساشا.

وفكر غريغوري ايفانوفيتش: «يبدو ان ياسها والمها شديدان جدا طالما هرعت، دون ان تشتكي، والقت بنفسها في البركة لتواجه النهاية بأسرع ما يمكن. فمن انا، ياترى، بالمقارنة مع هذه الآلام؟ مجرد بعوضة تافهة. كيف تطاولت على اناس اثرياء سعداء حتى التخمة؟ كيف جئت اليهم بسحنتي المحتقنة وكبريائي الفارغة؟.. شيء مقرف للغاية! اما هي فسوف تستيقظ وتسالني: كيف يمكن العيش الآن؟ فبم اجيب؟ ساكون عبدا لك طول العمر. هذا ما ينبغي ان اجيب به. تلك هي المسالة اذن بسيطة واضحة. امامك واجب في الحياة: اخدم هذه المرأة، ابذل جهدك لتجعلها تنسى...»

لم ينتبه غريغوري ايفانوفيتش الى نفسه ولم يلاحظ انه يفكر بكلام مسموع. تململت ساشا فالتفت ورآها تتطلع اليه بعينين سوداوين واسعتين. فهل ارتعبت من هذه التمتمة يا ترى؟ ام انها تذكرت ما حدث لها قبل حين؟ او انها لا تزال ضعيفة جدا؟ وعلى اية حال فقد ثنت ساقيها وسحبت المعطف حتى الحنك وند عنها انين.

جلس الطبيب قرب راسها في الحال ومسد شعرها وحدثها بكل ما كان يفكر به.

— سيدي العزيز، الافضل ان تتركني. لست بحاجة لشيء، وانا ممتنة لك كل الامتنان، — اجابته ساشا وانتحبت، وبكى غريغوري ايفانوفيتش ايضا. بكت هي بلوعة ومرارة، وبكى هو عطفا عليها.

قضت ساشا الايام الاولى بعد عودتها الى الخان، وكانما نسيت كل شيء. كان الطبيب يتردد عليها يوميا ويسالها هل هي بحاجة الى مساعدة منه، ثم يجلس على درجات المدخل ليدخن سيجارة. اما ساشا فتقول له عندما تمر قربه: «ادخل الغرفة يا غريغوري ايفانوفيتش، والا ستاكلك البراغيث». كانت آنذاك



تمارس على الدوام شؤون الحوش والمنزل. وذات مرة وجد الطبيب ساشا قرب سياج الحديقة. كانت تتطلع الى السهب شاردة البال ووجهها ساكن وعيناها كئيبتان وعلى راسها منديل اسود. وقالت:

— اريد ان ارحل، لم اعد اتحمل.

عندذاك احس الطبيب بأن حياته فقدت مغزاها. فحزن اشد الحزن وحار في امره فلم يستطع الا ان تمتم:

— ساشا، اذا كنت لا تنفرين مني كثيرا فاقبلي بي زوجا.

ساشا تتذكر بغموض ما حدثها به الطبيب في تلك الليلة، واتضح لها الآن «انه تعيس». اسفت له واحست فجاة بالعطف عليه كطفل صغير.

اخذت تتردد على منزل الطبيب كل يوم. غسلت ارضية المنزل والنوافذ والابواب، وصارت ترتق له الشراشف والبياضات واصلحت بنفسها فرن الحمام المتداعي على الشاطىء المنحدر. سخنت الحمام وطلبت من غريغوري ايفانوفيتش ان يستحم. وعندما عاد دافئا متعبا سعيدا كانت ساشا تنتظره والسماور يغلي والارضية مغسولة والمنزل نظيف يفوح فيه عطر القصعين ورائحة الشمعة المشتعلة في الركن.

لكن ساشا هزت راسها عندما شرع يتكلم عن الزفاف، وقالت:

— لا داعي لذلك يا غريغوري ايفانوفيتش، حرام، حرام.

وفيما بعد لاحظت ان نومه ساء، وانه متالم، يرتجف حالما تلمسه صدفة. فوافقت على الزواج.

بكت وانتحبت حتى كاد راسها يتفطر الما، ومع ذلك وافقت. فلا احد، على ما يبدو، بقادر على مقاومة النزعة الانسانية. اواخر الصيف عقد الاب فاسيلي قرانهما وهو راض كل الرضا. وفي حفلة الزفاف احتسى ثلاثة اقداح، بل وادى رقصة شعبية: كان الطبيب يصفق له، بينما راح الاب فاسيلي يطبطب بقدميه وينشد: «ارقصي يا دار، ارقصي يا نار».

— ٤ —

بحفلتي الزفاف انتهى الصيف على نحو موفق حسب الظاهر. اقام غريغوري ايفانوفيتش مع ساشا في منزله منتظراً انتهاء بناء مستشفى الناحية.

اجرت ساشا الخان لشخص آخر وكرست كل اوقاتها لزوجها جاهدة ان تفهمه وترضيه ولا تستثيره بمظهرها القروي ومع ان اهالي القرية صاروا في الحال يسمونها «عقيلة الدكتور»، فقد ظلت ترتدي المنديل وفساتين الشيت القاتمة. فهم غريغوري ايفانوفيتش ذلك ولم يلحف عليها بالتبديل. كان يقرأ عليها شيئا ما كل يوم ويحاول ان لا يخفي عليها اية قضية واية فكرة. لقد بذل جهده ليكونا جناحين لطير واحد.

اما الاميرة والامير كراسنوبولسكي فكانا يتجولان في اوربا ويبعثان بطاقات البريد من مختلف المدن، الامر الذي ادهش فولكوف القليل المعرفة في الجغرافية. بالامس، مثلا، وصلت رسالة من ايطاليا، واليوم من فرنسا. وقال فولكوف لكوندراتي: «يقفزان كالبراغيث»، فاجاب كوندراتي معبرا عن احترامه للاميرة والامير: «تس...».

بعد ان فرغ فولكوف من مشاغل الحصاد شرع بترميم دار الامير في ضيعة ميلويه. انهمك عدد من عمال الطلاء والملاط ولصق ورق الجدران والنجارين بضرب المطارق في الصالات العالية السقوف، وفاحت في كل مكان رائحة الصمغ والجير ونشارة الخشب. كان فولكوف نفسه ياتي الى ضيعة الامير منذ الصباح، ويطلق صيحات عالية بغية احلال النظام، حتى نعته العمال «بالمدفعي» دون ان يخشوا شيئا على الاطلاق.

في اواخر سبتمبر، حيث ينتعش القضاء كله بافتتاح سوق الخيل المركزية وتبدأ الحفلات الساهرة ورحلات الصيد وولائم الزفاف، انجز الكسندر فاديميتش بسرعة اعمال الترميم في مليويه واخذ ينتظر العروسين. وفجاة توقفت الرسائل من الخارج. فكر فولكوف: «ربما ارتحلا الى امريكا». وبعد بضعة أيام استلم البرقية التالية: «انا عائدة. كاتيا».



اضطرب فولكوف اشد الاضطراب وانتقى ثلاثة من افضل الجياد البيضاء كالثلج (هدية منه للعروسين بمناسبة العودة) وظل مترددا امداً طويلا، فقد كان راغبا جدا في الذهاب بنفسه الى محطة القطار لاستقبالهما، لكنه عدل عن ذلك واوصى الحوذي قائلا بلهجة صارمة وهو ينقر باصبعه على جبهة هذا الاخير: «خذ بالك. اسرع بكل ما تستطيع، وحالما توصل الامير والاميرة الى منزلهما عد باقصى السرعة. ولا تنس ان تقول لهما ان هذه الخيول هدية مني». ولكن حالما اختفت الجياد وراء الهضبة اكتاب فولكوف وجلس قرب النافذة محزونا. فقد شعر بالاسف لابنته؛ زوجتها بلا تفكير، بينما هي بنت طيبة طيعة يتيمة... اغواني الشيطان آنذاك. يا الهي، واضح ان الامور ليست على ما يرام... ما كان يجب ان ازوجها من هذا الرجل...»

في المساء، عاد الحوذي على ظهر حصان من اسطبل الامير. قفز حالما وصل المدخل ومضى مباشرة الى فولكوف الذي كان راسه يهتز من شدة الانفعال:

— ماذا؟ هل اوصلتهما؟

— نعم يا الكسندر فاديميتش، بالسلامة والحمد لله.

— هل وصلا مسرورين؟

— لا باس، والحمد لله...

— والامير، كيف حاله؟

— اعتقد اني لم اره...

— كيف لم تره؟ لماذا انت صامت؟! اجب والا قطعت رقبتك!

— الامير لم يعد. اوصلت الاميرة وحدها.

فغر فولكوف فاه دون ان يتزحزح من مقعده. ودخل كوندراتي حاملا الشموع. فحول فولكوف بصره اليه وقال:

— مصيبة يا كوندراتي ايفانوفيتش...

— ماذا حدث؟

— اذهب الآن الى هناك واستفسر بنفسك... آه، يا الهي، حدث ما كنت اتوقعه واخشاه...

— ٥ —

عادت كاتيا فعلا بدون زوجها. استقبلها وكيل الضيعة، فتوجهت الى الصالة وخلعت معطف السفر والقبعة والوشاح، وظلت واقفة عند النافذة تتطلع طويلا الى المتنزه والى نهر الفولغا في الاسفل والى المروج فيما وراء النهر. ظلت واقفة وقتا طويلا، ثم تنهدت والتفتت الى الوكيل الذي كان ينتظر بمهابة وقد شد جاكيته الازرق بقدر المستطاع على بطنه المترهل كيلا يقذي العيون.

— سيعود الامير بعد فترة، — دمدمت كاتيا عابسة — تأخر لاداء بعض الاعمال. فقدم تقريرك بخصوص المزرعة والمنزل الي، ارني كل السجلات...

وسألها الوكيل:

— هل ترغبين، يا صاحبة المعالي، في تفقد المنزل اولا ام ينبغي لي ان احضر السجلات؟

— كلا، السجلات فيما بعد. — قالت ومضت تتفقد جميع الغرف والصالات مستفسرة عن مكتب الامير وغرفة نومه وغرفة الاستراحة المحببة اليه...

الصالات في الدور الارضي باردة عالية السقوف. صعدت كاتيا الى الدور الاول لتتفقد غرف الامير، لكنها اكتفت بالقاء نظرة خاطفة عليها، وامرت بغلق جميع الغرف السفلية والعلوية، ما عدا صالة الطعام، حتى الربيع، واختارت لنفسها صالة بنوافذ ملونة وفيها بيانو والى جانبها غرفة صغيرة بيضاء تماما. واعدوا لها سريرا وغسالا قرب مدفاة حجرية مزخرفة اسطوانية الشكل كالبرج...

عندما انصرف الوكيل والصرير ينبعث من جزمته عادت كاتيا الى الصالة وجلست الى منضدة صغيرة وراء الاعمدة واستندت بكوعيها على سطحها الصقيل كالمرآة (فانعكست عليه يداها الجميلتان بردنين ضيقين حتى المرفق) ولمست وجنتها باصابعها المتشابكة وراحت تتطلع من جديد الى المتنزه والنهر والمروج.

غدا وجهها نحيلا واسود شعرها الوفير المصفوف بتقليعة



تاجية حول الرأس. وبدا فستان السفر القاتم المزين بالدانتيلا حول العنق رزينا دافئا كما تعودت المرأة التي لا تسمح لنفسها لا بحركة طائشة ولا بفكرة خطرة اذا كان ذلك يعكر صفوها وهدوءها.

اشجار البستان وراء النافذة ذاوية بدأت اوراقها تتساقط. بين صفوف الشوح القاتمة تتموج برقة اشجار البتولا باوراقها المخلخلة الصفراء، واغصانها الرفيعة المتدلية التي تلوح من خلالها السماء. وامتدت اغصان القيقب العتيق في الفسحة العريضة وبدت كقوائم الوحوش، واكتست الشجرة كلها بلون ارجواني صارخ كما لو كانت ستغفو، متجهمة، في سبات عميق. وكانت اشجار الزيزفون لا تزال خضراء، لكن اشجار الحور العالية نزعت اوراقها تماما، فاستقرت تلك الاوراق البرنزية على المماشي وعلى الاعشاب المحشوشة. تطلعت كاتيا الى هذا الذبول العام والى عبارة تزحف على النهر الازرق في الاسفل وفكرت بان هدوءا طويلا، طويلا جدا، سيحل.

استقر رأيها نهائيا على عدم تذكر الاشهر الثلاثة الماضية. صممت على حبسها في صندوق مقفل، وقررت ان تعيش حياة رشيدة صارمة.

تنشقت روائح الذبول مع الهواء الذي تسرب من النافذة المواربة، واحست بقطرة ساخنة سقطت على وجنتها. وقالت:

— لا داعي للبكاء، طالما عزمت فلا مجال للتراجع.

التفتت بسرعة وهي تبحث عن المنديل، ثم نهضت واخذت حقيبتها واخرجت منها المنديل ومسحت عينيها وصبت عطرا على اصبعها ورطبت صدغيها ودقت الجرس، فدخل الوصيف. طلبت منه ان يجلب لها ملف الاوراق من حقيبة العفش.

حل الغسق. وهو ما تخشاه كاتيا اكثر من سواه. وقفت وظهرها الى النافذة تنتظر متى يشعلون الشموع. احضر الوصيف الملف المصنوع من جلد احمر فاخر، ثم صعد على الكرسي واخذ يشعل الشموع الواحدة تلو الاخرى في الثريا المعلقة فوق الطاولة.

وفي الحال غمر الضوء السقف المزخرف والجدران البيضاء

والقى ظلالا مائلة الى الزرقة وراء الاعمدة وأنار بلمع دافيء الطلاء الذهبي على تعاريجها.

جلست كاتيا الى الطاولة الكبيرة وفكرت قليلا ثم كتبت: «الكسي، انا اسامحك. فكرت مليا طول الطريق وقررت بان نعيش معا، فهذا ضروري من أجلاستقراري وهدوئي. سنعيش كصديقين، كأخ مع اخته».

قرأت ما كتبته وطرقت بكعب حذائها على الارضية الخشبية ورفعت الورقة المخشخشة كي تمزقها، لكنها عدلت عن رأيها ودستها في الظرف.

في تلك الاثناء فتح باب البلوط العالي ببطء ولاح بين دفتيه وجه متغضن حليق. وهتفت كاتيا:

– كوندراتي!

هرع اليها مكفكفا دموعه ومال على كتفها.

فاخذت كاتيا راس العجوز من صدغيه وقبلته قائلة:

– اهلا بك. كيف حالكم يا عزيزي؟ وبابا؟

– يا كاتيا الحبيبة، اوحشتنا. كيف تكون حال العجوزين بغيابك؟ نفكر فيك طول الوقت.

– صحيح؟ هذا ما تصورته. طبعا، كان يجب ان اذهب الى بابا راسا، وليس الى هنا. لكن الامر صعب علي جداً يا كوندراتي.

– والامير العزيز، اين هو؟ – سأل كوندراتي هامسا.

– لا ادري، يا كوندراتي، لا ادري. استولى الحقد علي بعض الشيء.

اخرجت المنديل من الحقيبة مجددا وانتحبت. داعب كوندراتي شعرها وهو يتفرس في وجهها. فقالت له.

– هجرني، ياكوندراتي.

– يا الهي!..

عندما هدأت بعض الشيء حدثته بكل ما جرى. غرق كوندراتي في صمت طويل وشفتاه ترتعشان، ثم قال وهو يقضم اصبعه.

– ها هو على حقيقته اذن! كلا، يا عزيزتي، لن نسكت عنه.

لم ترغب كاتيا في قضاء الليل في منزل الامير، فوصلت مع كوندراتي الى ضيعة ابيها عند منتصف الليل. انفعلت كاتيا منذ



ان وصلت السد وتنشقت روائح البرك واعشاش الزيغان التي تعودت عليها. وأنار مصباحا العربة القنطرة على الساقية، ثم ركن العنبر قرب المدخل الذى بدا لها صغيرا ضيقا. كانت النافذتان الاولى والثانية مضيئتين، فلمحت كاتيا في احداهما رأس ابيها منحنيا.

– خذ بالك، لا تخبره بشيء، هل انت فاهم؟ – همست على عجل وهي تسحب ردن كوندراتي.

## – ٦ –

هرع الكسندر فاديميتش ممسكا بردائه لاستقبال ابنته في المدخل، وعندما سألها: «يا بنتي، يا فرحتي، ماذا حدث؟» كذبت عليه وقالت ان الامير تخلف في بطرسبورغ لامر لا يقبل التأجيل.

صدقها فولكوف، فهو انسان لا يعرف الريبة ولا يفهم تحايل الآخرين. ثم انه لم يسأل عن تفاصيل القضية التي جعلت الامير يتخلف عن المجيء. فتلك امور لا تخص فولكوف نفسه، ولا يعرفها الا الله، ولو سأل عنها لربما وقع في ورطة كما تقع الحشرة في بيت العنكبوت.

خاطب ابنته في الحال «بالاميرة العزيزة» ورافقها الى غرفة الطعام الصغيرة، حيث ينفث سماور ضخم بخاره حتى السقف.

– ما احلاك، انت، والله، بنت من ارومة اصيلة، – قال الكسندر فاديميتش وادار ابنته من كتفيها. وصب لها الشاي بنفسه وعرض عليها مختلف الماكولات.

كادت الدموع تترقرق في عيني كاتيا، لكنها حبستها بان ضيقت جفونها بشدة. وقال الاب:

– استولت علي الكآبة طول الوقت لغيابك. فانا لم اتعود على البقاء وحيداً... لم اتردد على احد حتى زعلوا مني جميعا. ثم حدثت مصيبة اشتريت آلة بخارية، وسحبناها عبر جسر كوليفان، لكنه لم يتحمل فانخسف بها، ولا تزال مدخنتها بارزة من تحت الماء حتى الآن. ولكن حدثيني انت يا عزيزتي، كيف كانت رحلتك؟ لقد نعتكما بالبراغيث. والامير؟ آ، نسيت. ماذا؟ هل ستنامين على

سريرك السابق؟ اظنك تعبانة بعد السفر اليس كذلك؟ والله، يا كاتيا، انا مسرور جداً لرؤيتك.

بعد احتساء الشاي اقتاد فولكوف ابنته الى غرفة صباها وهو يثرثر منفعلا. واخذت الكآبة تنتاب كاتيا بعد ان كانت فرحة جدا في الطريق. فان اباها وكلماته وكل ما حواليها بدا لها كالحا كابيا. فاما انها تعودت على حياة اخرى، واما انها خرجت عن ذلك العمر. وعندما تمنت لابيها نوما هادئا وهي تقف عند الباب المغطى بالسجادة ادركت تماما انها وحيدة ولا احد ينقذها من وحدتها القاتلة.

لم تطرا على الغرفة اية تغيرات. انتفض قلب كاتيا بشدة عندما دخلت الغرفة ورات مستلزمات الزينة والمقاعد والسرير من خشب بتولا كاريليا، وحتى خفها لا يزال على السجادة. وبدلا من الارتياح السابق ورائحة العطور وطراوة الماء المنسكب اكتنفت منكبيها قشعريرة موات عندما خلعت فستانها وجلست على السرير وراحت تتطلع في النافذة المعتمة.

خيل اليها ان فتاة اخرى مرحة عذراء عاشت هنا، وماتت، فشعرت بالاسف الشديد عليها. وتذكرت اباها بشكل يثير الشفقة ايضا. فقد حاول قدر المستطاع ان يرضيها، وثرثر مضطربا عن صغائر الامور، لكنها اغاظته، على ما يبدو، بلامبالاتها وذهابها للنوم في ساعة مبكرة، فلم تقبله، ولعله يتنهد الآن في مكتبه.

نهضت كاتيا وهمت بالذهاب الى ابيها لتقول له انها تحبه حبا جما وانها نفسها بحاجة الى الملاطفة والحنان. لكنها هزت راسها ثم رقدت تحت الشراشف الندية.

وفكرت، «ليس عندي اخت مع الاسف. والا لنمت معها الآن وقبلت شعرها الناعم واوضحت لها» ان الحياة عسيرة جداً، جداً، على المرأة».

قضت كل الايام التالية في كآبة وادعة هادئة. كانت تسير في المنزل ببطء، وتأن وتستمع باسمة الى ابيها وقد عاد اليه بعض من مرحه وعرض عليها الرسائل واليوميات التي يراجعها (وتلك هواية جديدة من هواياته الغريبة). كانت تجلس على مصطبة في البستان وترفع راسها وتتطلع الى ورقة ذابلة تعلقت



بنسيج عنكبوت وراحت تتارجح عليه دون ان تسقط. وبدت الاشجار مسبوكة من الذهب على خلفية السماء الزرقاء الداكنة، كما يحدث عادة في ايام الصحو الدافئة النادرة في بداية الخريف.

وبعد ذلك ارتحلت الى ضيعة ميلوبه. فقد كان صعبا عليها ان تخفي الحقيقة عن ابيها. انقضى الوقت بشكل رتيب لا يعكره شيء. واستعد الاقطاعيون لزيارة الاميرة الشابة، فقيل لهم بانها مريضة. زعل الاقطاعيون. بينما اخذ سوروبا يروج مختلف الاشاعات خفية.

—٧—

كانت كاتيا تنتظر جوابا من زوجها. وكيلا تفكر به ولاتضجر كثيرا، اخذت تتردد على مرافق الضيعة كل يوم في معطف مخملي مذيل بفرو رمادي.

زحف الخريف. في الصباح يتساقط ندى متجمد على الاعشاب الذاوية ويجعل خضرتها رمادية اللون. ويظل هذا الندى امداً طويلا على السطوح وعلى درابزونات الشرفة وعلى اوراق الاشجار وعند البئر التي يستقون منها بدلاء خشبية غميقة، ماء باردا جدا تفوح منه رائحة الطين والطحالب.

كانت كاتيا تعرج على الاسطبل كل صباح فيرد السواس على اسئلتها بمرح ويبتسمون لها كما لو كانت بنتا صغيرة. وعندما يراها الوكيل في الحوش ينحني باحترام من بعيد ويمضي مهموما الى العنبر، مثلا، والمفاتيح تجلجل في يده. (لقد كرهته كاتيا، بينما حمل هو غيظا عليها لانها لم تدعه الى مائدتها). وبعد ان تسال كاتيا الراعي عن الغنم وعما اذا اختطف الذئب واحدة منها ليلة البارحة تلقي نظرة على حظيرة الماشية وارضها المغطاة بالسرقين والروث. وكانت الحالبة تجلس على مصطبة واطئة وتحلب احدى البقرات فيشخب اللبن ساخنا في وعاء معدني، ثم تترك حلمات الضرع وتمسح فمها وتحني راسها تحية لسيدتها. ذات مرة سالت الحالبة من كاتيا عن عمرها وخاطبتها قائلة. انت. انت، يا آنسة، كالثمرة الريانة.

وفي الحوش، قرب جناح الخدم، انهمكت ثمان من خادمات المياومة بفرم الملفوف في طست خشبي مستطيل. واستمر قرع

السكاكين بشدة طوال النهار. كانت رؤوس الملفوف ملقاة على سفرة، بينما جلس القرفصاء، قربها صبيان قذران يقضمان باسنانهما الحادة سيقان الملفوف الباردة.

لمحت الخادمات السيدة قادمة فالتفتن نحوها بخدودهن الموردة وصدرت عنهن همهمة. تطلعت كاتيا في الطست الذي تفوح منه رائحة الملفوف العسلي والثوم وسالت هؤلاء الفتيات المكتنزات هل فرمن الكثير ثم ابتسمت لهن قائلة:

– كلكن غير متزوجات، أليس كذلك؟

– كلنا، ما عدا فروسكا الحولاء، فهي ستتزوج قريبا. لكن كل العريسين هربوا، فهم يخافون ان لا ترى زوجها في الظلام بعينها الحولاء.

وتعالت قهقهتهن على فروسكا الدميمة. وبعد ان ابتعدت كاتيا عنهن فكرت بحزن بانها ستقضي هذا اليوم ايضا وحيدة.

وفي البيت تجوب الغرفة جيئة وذهابا وقد شبكت يديها وراء ظهرها، او تجلس قرب المدفاة وتلامس بظهرها وقفاها قرميدها الدافىء وتتطلع في النافذة الى السماء التي تسبح فيها غيوم محملة بالثلوج قادمة من الشمال.

سقط الثلج دفعة واحدة. ففي الصباح التالي غطى كل الاعشاب ومصاطب البستان وارتفع كالوسائد على القرم والجذامير. وراتدت الاشجار حلة من الندى المتجمد الناصع. وانسكب على الغرف العالية السقوف ضوء ابيض بارد كالحليب. وسخنت الافران والمدافىء، وفرشت البسط على الارضية، وتركت جزمات اللباد آثارا على الثلج أمام الباب الخارجي.

افاقت كاتيا في ذلك الصباح وفرحت اشد الفرح لهذا الضوء الصافي، وللثلج على النافذة، وللنار المشتعلة في المدفاة، فاسرعت في ارتداء معطف الفرو وجزمة اللباد وخرجت راكضة من الباب الزجاجي الى البستان.

قرصها الصقيع من وجنتيها. وخلفت الجزمة آثارا عميقة على الثلج تعرت فيها الاعشاب المتجمدة. والتقطت كاتيا حفنة من الثلج وضحكت.

– ما اروعه ، يا الهي، ما اروعه !



واوحى لها هذا الثلج، والاشجار المرحة البيضاء التي تلوح قممها الساكنة المكسوة بالثلج والمغمورة بضوء الشمس من وراء السفوح، ان المصيبة ستمر بسلام.

وكما كانت سابقا، في ضيعتها، لملمت اذيال معطفها وتنورتها واختارت موضعا املس وانزلقت على المنحدر الثلجي الى النهر. ارادت ان تتسلق المنحدر من جديد وهي تضحك لكن ضحكتها تحولت الى لهاث واقتربت من النهر. الضفاف متجلدة تماما. وما بعدها، على امتداد النهر كله ، قطع جليدية رمادية بلون الرصاص، تجرى مزبدة مخشخشة. ارتجفت كاتيا من البرد وجلست تحت شجرة ووجهها الى النهر. ثم نبح كلب في الاعالي. وسمعت صوت الوصيف يدعوها لتناول الطعام.

على اثر النباح فر ارنب من بين الشجيرات على مقربة منها. فضحكت من جديد وهي ترى الكلب ينداح من التلة، كشليلة، ويلاحق الارنب الرعديد.

كل شيء في هذا النهار يفرح كاتيا، وهي تنتظر وصول ابيها في اول طريق يشق على الثلج. الا انه لم يصل، فتعين عليها ان تقضي المساء وحيدة في مقعد قرب المدفاة.

وشعرت كاتيا بقشعريرة ربما كان سببها الدوار الذي الم بها في الصقيع او شدة تسخين المدفاة دبت تلك القشعريرة في بدنها بعد ان سرت من القفا الى الظهر... غرزت كاتيا نفسها في اعماق المقعد واتقدت وجنتاها، ووضعت ساقا على ساق وهي تبتسم وتتطلع الى اللهيب... تذكرت الكسي بتروفيتش عندما قبلها لاول مرة (في موسكو)، وكان شاحبا عنيدا، وقال لها كلمات لا داعي للتفكير فيها الآن بالطبع، في وحدتها القاتلة.

انتبهت كاتيا الى نفسها وهمت بالنهوض، لكن الخدر استولى عليها وقيد حركاتها، فانساقت للذكريات وكأن شخصا اخذ يفتح الضوء امامها ويحجبه ليعرض عليها صورا مختلفة. تلاحقت الذكريات والروائح التي تثير الانفعالات، عاد الى الذاكرة كل ما كانت تكبته في دخيلتها امدا طويلا بالترويض الصارم. اغلقت عينيها بشدة ووضعت يدها على صدرها، فلسعتها الاحلام كالزوبعة واغشت بصرها.

## — ٨ —

حل الشتاء الحقيقي واخذت الزوابع الثلجية تعصف بالنهر المتجلد وتلوي اشجار الصفصاف العارية وترغمها على الصفير، ثم تنداح الى الحقول والسهوب وتعبث بالثلوج وتكومها اكواما على شجيرة متجمدة او كدس من الدريس أو على عابر سبيل تعثر وسقط.

في هذا الشتاء انكب غريغوري ايفانوفيتش على المطالعة، فقرا الكثير من الكتب والمجلات التي اوصى عليها من بطرسبورغ. كان في بادىء الامر يتصفح المجلات ويلقي نظرة على المقالات فيها ويضع خطوطا بالقلم الرصاص تحت بعض السطور يفكر كثيرا بهذا الخصوص، وبعد ذلك يتلو على ساشا الاقاصيص ويبحث فيها عن جواب للسؤال. كيف ينبغي للمرء ان يعيش؟

وبعد ان اقدم في الصيف الماضي على التضحية اطمأن باله ولكن لامد قصير. فالتضحية لم تكن حقيقية في الواقع بل كانت شبيه باللذة والارتياح. اما هو فيريد القيام بالكثير.

كان ذلك عهد القلاقل والاضطرابات، عهدا لا يشبه العهود السالفة. وكانت الجرائد تنشر احيانا مقالات جريئة تحتبس لها الانفاس. وبالمقارنة معها بدت سنوات الحياة الطلابية في قازان لهو صبيان، حتى ان مقالة في احدى الصحف، (وهي صحيفة لم يستلمها في الناحية الا المشتركون، بينما بيع العدد الواحد منها في بطرسبورغ بخمسين روبلا) فتحت عيني غريغوري ايفانوفيتش فراى ان هناك طريقا قويما يصلح لمن عنده ضمير. وهو طريق ان يضحي المرء بحياته في سبيله.

اضطرت ساشا، ساعتها، ان تسهر الليالي وهي تستمع الى زوجها الذي يجوب الغرفة ويدلي بالادلة والبراهين على نمط الحياة التي ينبغي للانسان النزيه أن يعيشها. كان ظله يلاحقه على الجدار، وكانت ساشا، بين الحين والاخر، تنظر الى الظل مرتعبة وهي تنصت الى اقوال زوجها المتحمس جدا للبدء بالحياة الجديدة دون تاخير، لكن ذلك انتهى بغتة على نحو مؤسف.

في ليلة باردة عاصفة جلس غريغوري ايفانوفيتش يقرا امام



طاولة من خشب الصنوبر، وكانت ساشا منهمكة باعداد الشاي خلف الستار. حزر الدكتور ذلك من فرقعة الصحون والاكواب.

في الخارج كانت الزوبعة تلطم ركن المنزل فينبعث صفير حاد وكان ابليس جالس القرفصاء على السطح يتشكى ويتذمر من شدة البرد.

وقالت ساشا من وراء الستار.

— ما اشد الزوبعة، قد تدفن احدا في السهب والعياذ بالله.

تطلع الطبيب الى النافذة المتجلدة بعد ان حجب ضوء القنديل براحة يده. كان الجليد الشائك الملتصق كالريش على الزجاج يشع احيانا بلمع ازرق منبعث من القمر وهو يغوص ثم يحلق في الفجوات بين الغيوم التي يتناثر منها الثلج في عنان السماء...

وقال غريغوري ايفانوفيتش:

— افكر طول الوقت بان شخصا ذكيا نزيها يجلس الى مكتبه في بطرسبورغ ويسجل افكاره بينما انا هنا، على بعد الفي كيلومتر، اشاطره تلك الافكار، شيء مدهش، اليس كذلك؟ فهل يحق لي، ياترى، ان اظل متفرجا مكتوف الايدي؟

— من هو؟ — سألت ساشا — هل هو من ابناء الناحية، ام انك تعرفت عليه بالصدفة؟

— آه، انت لا تفهمين. — اجابها الطبيب ووضع يديه على الكتاب. — اسمعي يا ساشا انا لا اعيش بصورة صحيحة. اسباب الراحة كثيرة والهدوء اكثر. انني اعيش بلا نزاهة، بلا ضمير! هل انت فاهمة؟ لا يحق لي ان اعيش بارتياح، في حين يهلك الآخرون هناك بدلا عني. يجب ان «نرفع رؤوسنا». هذا ما يقوله الكتاب... وواجبك هو ان تشجعيني وتلهبي حماسي بدلا من ان تسحبيني الى الوراء، الى المستنقع. على هذا النحو تتصرف النساء الحقيقيات...

ارتجف صوت الطبيب من شدة الانزعاج. خرجت ساشا من وراء الستار ووقفت قرب كرسي زوجها وشبكت يديها واسبلت جفونها وقالت بصوت خافت:

— اعذرني يا غريغوري ايفانوفيتش...

كان ينبغي له آنذاك ان يبتسم ويوضح الامور لساشا، فلو فعل لفهمته تماما. لكنه لم يفعل ذلك، بل زعل على نفسه لسبب

ضعفه وراح يتهم زوجته بانها، كما يعتقد الآن هي التي وفرت له «اسباب الراحة المبتذلة».

في تلك الاثناء، حملت الزوبعة رنين اجراس، وصر الثلج وتناهت انفاس جياد تقترب. فقالت ساشا وهي تمضي من جديد الى ما وراء الستار.

– هل ستذهب يا غريغوري ايفانوفيتش في هذه الزوبعة؟ المصيبة انك قد تطمر بالثلج.

– تظنينني مرتاحا لهذه الطلعات؟ ربما اصيب احد الاقطاعيين بالتخمة لا اكثر. – دمدم الطبيب وازاح شعره الى الخلف واغلق الكتاب ونهض، ثم دفع بركبته الباب الملتصق حتى فتحته بصعوبة.

اندفع بخار كثيف الى الدهليز ولم يعد بالامكان رؤية شيء الا ان شخصا ما قد دخل. تفرس غريغوري ايفانوفيتش في وجهه فتراجع وندت عنه صرخة. كاتيا واقفة امامه على العتبة.

معطفها الاسود مغطى بالثلج، ووجهها يوهج تحت القلنسوة، واهدابها بيضاء. اغلقت الباب وخلعت القفاز الدافيء وطبطبت بقدميها وقالت.

– لم تتوقع وصولي، اليس كذلك؟ كدت اضل الطريق. كنت ذاهبة الى والدي، لكن العاصفة اشتدت ولم يعد بالامكان عبور جسوركم. رايت ضوءا في منزلك فعرجت. ممكن؟

فكت ازرارها الكبيرة. وانتبه الطبيب اخيرا فساعدها في خلع معطفها كان دافئا في الداخل وتفوح منه رائحة الفرو والعطور، ثم اخذ منها القلنسوة.

كان شعرها مضغوطا تحت القلنسوة، فعدلته وصففته ثم جلست الى المائدة. وسألت:

– اين ساشا؟

– هناك، – اجاب الطبيب واوما براسه الى الستار. – كنا نطالع واردنا ان نشرب الشاي. – وتطلع الى كاتيا بنظرة جانبية وكانه على استعداد للاختباء او الهرب.

– ساشا، هذه انا، تعالي، – قالت كاتيا وهي تعدل الدانتيلا على فستانها القاتم، وضحكت فجاة.



فتح الطبيب فمه وتنفس بعسر.

ظهرت ساشا اخيرا وعلى كتفيها بلوزة سوداء وقد شبكت يديها تحتها، وحيت كاتيا بان حنت رأسها فقط ببطء وتادب ولياقة، فطوقت كاتيا عنقها بيدها وقبلتها وقالت:

– لا تزالين جميلة كما كنت! كيف حالك؟ بخير؟

– شكرا لك، الحمد لله، بخير، – اجابت ساشا على مهل دون ان ترفع بصرها.

قبلتها كاتيا مرة اخرى، ساشا ظلت جامدة كالصخر، فرفعت كاتيا يدها عنها والقى الطبيب نظرة الى المراتين وانكمش وجهه متالما، فقد ادرك مدى ثقل هذا اللقاء على ساشا. ومع ذلك استطاع، وهو منكمش الوجه، ان يقارن بينهما: ساشا غليظة ثقيلة، وكاتيا رشيقة في كل شيء، في حركاتها وشعرها الناعم المصفوف الى اعلى وفستانها الرقيق الرائع وحتى صوتها متميز كالموسيقى..

استنكر غريغوري ايفانوفيتش افكاره هذه ورفضها، لكنه عجز عن التصنع والتظاهر بمظهر اللامبالاة، فقد رات عيناه تلقائيا ما لا داعي لرؤيته، وما يعتبر خطيئة – تجعدات الشعر وزاويتي الفم المرتفعتين وطيات الفستان الململمة على صدرها.

واخيرا بدا عرق ما يرتعش تحت ركبته ويدغدغه كالفارة. شعر بامتعاض شديد حتى قال بصوت خشن:

– ماذا؟ هل ستحضرين السماور اخيرا؟

استدارت ساشا ببطء، ومضت الى ما وراء الستار. وكان واضحا انها اخذت تعدل وضعية مدخنة السماور وتنفخه ليستعر. وفاحت رائحة الدخان. انشغلت كاتيا بتصفح كتاب ثم القت به على الطاولة، واستندت اليها بمرفقها وقالت:

– كتبت لك مرتين ورجوتك ان تحضر. كنت متوعكة. فلماذا لم تات؟

– لم اتمكن، – اجاب الطبيب.

احضرت ساشا السماور ومسحت الاكواب بهدوء وتركيز دون ان ترفع بصرها.

– انا وحيدة اياما بكاملها، اسمع صفير الريح... وافكر، افكر... يا الهي، لم افكر بهذا القدر طول عمري! اما في منطقتكم

حتى الريح اخف والطف. والله ... تعجبني اماكنكم هذه... بل واحسدكم عليها، - ضحكت كاتيا فجاة وتطلعت في عيني غريغوري ايفانوفيتش مباشرة حتى انكمش عنقه وغاص راسه بين كتفيه عاجزا عن التخلص من النظرة المنبعثة من عينيها الرماديتين الباردتين الغريبتين وقالت: - هل تتذكر كيف حلقت راسك بشكل مضحك؟ حدثني كوندراتي فيما بعد كيف قص شعيراتك النافرة بالمقص...

احس الطبيب بان وجهه يحتقن ويلتهب وبانه يكاد يسلم الروح. واخيرا قال له ساشا وهي تلتفت الى الباب:

- احضر قلة اللبن التي في طرف الدهليز فانا في الشبشب

- ثم خاطبت كاتيا قائلة: - عندنا بقرتان، واحدة مبقعة والثانية بنية، وعجل صغير. حظيرة كاملة.

«الا ترين؟ الا تفهمين؟» - قالت عينا الطبيب. خرج الى الدهليز البارد وراح يتحسس الرف عشوائيا. كان يعرف موضع القلة المطلوبة، لكنه اراد متعمدا ان يسقط شيء ما من الرف، لكن شيئا لم يسقط، فاخذ القلة وهمس واقفا في الظلام: - «آه، يا للشيطان!» واراد ان يهشم القلة الفخارية اللعينة، لكن وجهه انكمش واكتفى بان تمطق بلسانه عارفا بان الخطيئة اقترفت وان التعاسة (وربما السعادة؟) قريبة.

- هذه القلة ام غيرها؟ - قال بصوت غليظ، ووضعها امام ساشا وانزوى وجلس في الظل.

عندما دخل الطبيب الغرفة من الدهليز اشتم روائح عطرية مركزة. وفكر بان تلك ليست عطورا، وانما هي رائحة شعر كاتيا ويديها وفستانها.

كانت تحتسي الشاي على مهل، وشفتاها حمراوان، حمراوان جدا. وانزوت ساشا خلف السماور منهمكة بمسح الاكواب. وفكر الطبيب بان ساشا غدت بدينة وعنيدة وموتورة.

«وفيما بعد ستزداد بدانة. ثم انها تعتبرني ملكا لها. وتتصور بانها شرفتني. تظل جالسة موتورة، وانا احضر القلل. آه، يا للحقارة! وانا ايضا سافل دنيء اذا اردنا الحقيقة!»



وسالته كاتيا عما اذا كانت اشغاله كثيرة فاجاب وهو يتطلع بنظرة جانبية منحرفة بان اشغاله كثيرة فعلا:

- اجوب القضاء طول الوقت حتى لم اعد شبيها بالبشر. حياتنا، كما تعلمين، ليست مثل حياة الامراء. فنحن نغوص في السرقين حتى الركب. ولا مجال للبطر.

سقط صحن من يد ساشا في تلك اللحظة وتهشم. فقالت كاتيا متأوهة:

- يا للاسف! - قالت ذلك بمشاطرة متكلفة مفتعلة جعلت الطبيب ينفعل ويخاطبها فجاة بصوت مرتعش:

- الم تشاهدي الفقر في السابق؟ انظري اذن، هذا هو الفقر!

- ماذا بك؟ ماذا؟ - همست ساشا ورفعت بصرها نحوه مرتعبة.

ارتعشت ملعقة الشاي في يد كاتيا وطقطقت على الكوب. انسحب الطبيب الى المدفاة واستدار وزم شفتيه.

- الفقر في كل مكان، اكثر من اللازم، ومع ذلك فالحماس ملتهب، ولن تطفئوه به، لن تطفئوه! لا اريد ان اغيظك يا كاتيا، ولكن يؤلمني انك جئت لتضحكي علينا. اسمحي لي ان اقول بانه لا موجب للضحك. يوجد شيء اهم بكثير، وهو عصب حياتنا! نعم، حياتنا فوارة كاللهيب! فنحن نعيش بالافكار! وهذا الفقر كله تفاهة بالمقارنة معها. لا يهمني اطلاقا ان حياتي الشخصية غير موفقة. ليكن ولكنك ترين امامك مناضلا جديدا.

واسترسل غريغوري ايفانوفيتش في الحديث وقال الكثير من هذا القبيل. استمعت اليه كاتيا منكسة الراس. واخيرا، عندما جلس على المصطبة وكانه يريد ان يجد بنفسه راس الشليلة في هذه الكلمات المشوشة، نهضت كاتيا وتمتمت:

- اخطأت فهمي. فانا أعيش وحيدة تماما، ولا احد اتبادل معه كلمة. واليوم تذكرتك مع ساشا وتصورتكما من اعزائي فجئت بزيارة الود والصداقة، ولكن يبدو ان محاولتي ذهبت عبثا. فوداعا يا صديقي. الاقدار ارادت غير ما اردت.

ارتدت معطفها وشدت ازراره ببطء، ودست يديها في القفاز الوبري الابيض وابتسمت بحزن واومأت براسها مودعة وخرجت. ظل الطبيب عاجزا عن النطق. فكل ما قاله قبل لحظة فر من

دماغه كالاعصار. وشبكت ساشا يديها تحت بلوزتها من جديد وقالت بصوت خفيض:

– ما كان ينبغي ان تسيء اليها، يا غريغوري ايفانوفيتش، فهي ضيفة على اية حال.

وعند ذاك هرع الى الحوش بقميصه الاسود حاسر الراس.

كان القمر قد فرغ من جولته السماوية واخذ يسبح ببطء، بدرا صافيا، في لجة باردة شاهقة. وكانت الجياد الرمادية الثلاثة المشدودة الى الزحافة المسقفة ترن باجراسها بين حين وآخر. وتكدست كومة كبيرة من الثلج الازرق الفاتح عند مدخل المنزل. ركض الطبيب نحو كاتيا واقدامه تغوص في الثلج حتى الركبتين. وكانت هي واقفة قرب الزحافة تنظر اليه.

– كاتيا، ما كنت اريد ان اسيء اليك... يا الهي، يا ربي، افهميني، ارجوك.

– انا افهمك، – رفعت راسها وتطلعت الى القمر.

– كاتيا، هل تسمحين بمرافقتك؟

– نعم.

عاد الطبيب الى المنزل راكضا والقى بمعطفه القصير على كتفيه وقال لساشا بصوت خائف مستعجل:

– اريد ان ارافق كاتيا، فلا يجوز ان تذهب لوحدها، لا سيما واننا اسانا اليها. ساعود في ساعة متاخرة، وربما في الصباح. – وظل منكمشا في الباب. لمت ساشا الاواني ولم تجبه. فسالها:

– لماذا انت صامتة؟ الا تريدين ان ارافقها؟

– انت حر، يا غريغوري ايفانوفيتش، افعل ما تراه ضروريا.

– اية حرية هذه؟ – تنحى عن الباب وارتعش صوته. – لا اطيق مثل هذه الاجوبة... افلا يمكنني ان ارافقها؟ ها؟

– ما الذي يزعلك في اجوبتي، يا غريغوري ايفانوفيتش؟

جلس على المصطبة في الحال وضغط صدغيه بقبضتيه.

– شيء لا يطاق!

رنت الاجراس وراء النافذة، فقد صعدت كاتيا الى الزحافة. قفز الطبيب وقال بياس وقنوط:



– لا تزعلي، لوجه المسيح، لا استطيع ان اذهب وانت بهذه الحال.

– لا تهتم. سأتحمل – اجابته ساشا ومضت الى ما وراء الستار.

– يا للشيطان، لن اذهب! – جار الطبيب، ومع ذلك قفز الى الخارج فورا.

كانت الجياد قد تحركت، فصاح غريغوري ايفانوفيتش: – تمهلي، تمهلي! – وركض للحاق بمؤخرة الزحافة العريضة وهو يغوص في الثلج.

## – ٩ –

تسرب ضوء القمر من كوة الزحافة عبر حبات الجليد الملتصقة بالزجاج ولاحت قفار الثلوج الباهتة المنبسطة حتى الافق. صرير الثلج ينبعث من تحت الزحافة. والاجراس ترن بصوت رتيب كما لو كانت من زجاج. وفي المنعطفات يلوح من العتمة محيا كاتيا الرقيق القسمات والمطوق بفرو اشيب، وتومض في عينيها شرارات القمر.

كان غريغوري ايفانوفيتش يتطلع اليها ويفكر بانه قضى عمره كله من اجل هذه اللحظة بالذات. والآن، ليس هناك ما يحول دون التطلع الى هذا الوجه الساحر، ولا شيء يمنعه من ان يعب من روائح الثلج والعطور والفرو الدافيء التي تجعل النفس تنتشي والراس يدور.

ولاح وجه كاتيا من جديد في الضوء الازرق وهي تقول له:

– الا تدري بان زوجي هجرني؟

انتفض غريغوري ايفانوفيتش وفكر فيما يتعين عليه ان يرد به على هذا السؤال، وبدأ فجأة، كما لو كان ينتظر مجرد اشارة للبداية، يتحدث بصوت جديد، بصوت خاص متميز، لكنه صوته الحقيقي – وهو واثق من ذلك – وقال لها انه راى في الصيف الماضي كيف تصاعدت الغيوم من النهر وسبحت الى ما وراء الغابة، وعند ذاك امتلأ قلبه بالحب، وراى كاتيا تقترب من الضفة في الزورق وادرك بانه يحبها هي بالذات. وتحدث عن النحل الذي حوم على الاعشاب، وقال ان حبه كان كبيرا وضاءا لدرجة تفوق تحمل

الانسان، كما خيل اليه، فاراد ان يوزعه على السماء والارض والبشر.

— وساشا؟ — سالته كاتيا فجاة بصوت خافت.

كان وجهها في تلك اللحظة غريبا، باهر الجمال لحد مؤلم جعل الطبيب يئن ويميل الى داخل الزحافة. لمست كاتيا كتفه فاختطف يدها والصق شفتيه بالقفاز الناعم الفواح. وتمتم:

— احبك. اسمحي لي ان اموت من اجلك...

امسك بيدها وظل يكرر هذه الكلمات بصوت مكبوت، والزحافة تتراقص على تضاريس الطريق فتجعل راسه يهتز، يعلو وينخفض وكانه يحيي احدا. وبدا وجهه منفعلا دميما.

استولت الكآبة على كاتيا. ارادت ان تضحك على غريغوري ايفانوفيتش وتقول له بانها لم تكن متوجهة الى ابيها، بل جاءت اليه خصيصا لتعذبه بسبب الغضب والضجر الذي انتابها، وهي تشفق عليه لانه شخص تافه، وحبه مضحك مثل هزات راسه هذه، وهو حب لا يستحق في الواقع الا الموت. لكنها لم تقل شيئا من هذا القبيل. كل ما كانت تريده هو ان تبكي بلوعة ومرارة...

وتمتم غريغوري ايفانوفيتش:

— انظري الي... احبيني ولو للحظة.

عند ذاك سحبت كاتيا يدها منه بشدة. فلم يقاومها وانزلق منحنيا حتى قدميها ولمس ركبتيها بوجهه. فاظلمت الدنيا في عينيها واشتدت كآبتها.

لم يلاحظا كلاهما ان الزحافة اخذت تميل ثم انحدرت مسرعة الى اسفل. عجز الحوذي عن جعل الجياد الفتية تنعطف الى الطريق العام اثناء الهبوط، فارخى لها العنان لتنطلق من التلة مباشرة الى جليد النهر.

اخترقت الجياد كثبان الثلج شاقة لنفسها الطريق بصدورها حتى وصلت النهر المتجلد. فطقطق الجليد متكسرا ومالت الزحافة وانغرزت فيه وبقبق الماء الاسود في داخلها.

صرخت كاتيا. وفتح الطبيب بسرعة الباب الايمن الذي لم يمسه الماء بعد. وراحت الجياد البيضاء تفرفط في الماء الجاري الازرق الذي تتراقص عليه بقع من ضوء القمر بين الكتل الجليدية الرقيقة.



كان الحصان الاوسط قد تشبث بالجليد بسنبكيه الاماميين، ثم صهل فجاة بصوت مستجير كسير. وشخر الحصان الايسر الذي لم يظهر فوق الماء الا رأسه. واخذ التيار يجرف الحصان الايمن.

وصرخ السائس وهو ينهض على مقعده:

— غرقنا!

احتضن الطبيب كاتيا في العتمة وكانها كنز ثمين ودفعها من الزحافة قائلا: «لا تخافي، لا تخافي...» امسكت بضلع في اعلى هيكل الزحافة وسحبت نفسها اليه فمالت الزحافة بشدة وغاص غريغوري ايفانوفيتش في الماء حتى الخصر.

## العودة

### — ١ —

استقل الكسي بتروفيتش الباخرة من ميناء ريبينسك، وشغل قمرة من الدرجة الثانية ولم يغادرها منذ عدة ايام. لازم الفراش ليس بسبب توعك في صحته او اضطراب بل لمجرد عدم الحاجة الى التحرك والكلام. كل ما كان يفعله هو الشراب والنوم.

كانت آخر مائة روبل لديه ملفوفة بقصاصة من جريدة في جيب سترته المدعوكة. حاول ان يخدع نفسه بانه لا يدري لماذا استقل الباخرة ولماذا يرتحل عليها. استسلم لكآبة شديدة واحس بقذارة نتنة كانه كلب مريض ينسلخ شعره نتفا.

بعد عام من حياة التهتك والفجور هبط الكسي بتروفيتش الى الدرك الاسفل الذي لا يوجد تحته الا الموت في ماوى المشردين. وصار يشعر الآن ببعض الارتياح، وبشيء من اللذة اللاذعة. ضميره لا يؤنبه وذاكرته لا تثقل عليه بشيء، ثم انه لم يعد لديه وقت للذكريات. كان يستيقظ في قمرته ويسعل مرارا ليتخلص مما ترسب في الحلقوم، ثم يتجرع الفودكا ويجلس الى الطاولة امام المرآة يتثاءب او يشغل نفسه بورق اللعب حتى يستولي عليه النعاس من جديد بفعل السكر...

قبيل الزفاف قال الامير لكاتيا في البستان وهو يكلمها بخصوص عقد القران انه ما كان ليتزوجها لو انها رضيت به طائعة. في تلك

اللحظة فهمت كاتيا انه بحاجة الى «ضحية». كان الامير بحاجة الى «ضحية» فعلا، ولكن من نوع متميز خاص (لم تتاكد كاتيا من ذلك بشكل تام). كان بحاجة الى «ضحية» حية دافئة ومتكررة على الدوام. هناك ضحايا هالكة ما انزل الله بها من سلطان. يضحي المرء بنفسه بالكامل فيهلك ويختفي. وعندما تطفو ذكرياته على السطح تغدو مبعثا لتقريع الضمير والشعور بالوضاعة. الا ان هناك ضحايا ملتهبة تومض بالفرحة الخاطفة وتظل ذكرياتها مدعاة للاسف على عدم تكرارها مرة اخرى. اما الامير فما كان بوسعه ان يعيش الا بقرب امراة محبة بقلب معذب وارادة ضعيفة، امراة على استعداد دائم لتستسلم له كليا مقابل كلمة فيها رقة وحنان. ولا بد له ان يتحسس، على الدوام، ملامة رهيفة وثقلا لذيذا وحزنا خفيفا لعجزه عن ان يمنحها بالقدر الكامل السعادة التي تستحقها. وهو يغوص بكل جوارحه في هذا الحب الحزين وتتشبع به كل مساماته كشراب شيطاني مر رائع.

على هذا النحو كانت علاقاته مع ساشا. لكنها عندما تحولت من ضحية هادئة وادعة الى ضحية هالكة ميئوس منها ارتعب جدا. وخيل اليه آنذاك ان كاتيا هي المنقذ الوحيد. كانت فتاة محبة رقيقة رائعة. وكان الامير يتصور ان زواجهما سيغدو «ملاذه الاخير على الارض، ملاذا حزينا حزن مياه الخريف الراكدة».

لكن الصفعة التي تلقاها فجرت فيه الحقد والهياج. فهي تذكره بماضيه مع فارق واحد هو ان القول الفصل بيده هذه المرة، فهو المسيطر وهو الذي يقرر المصير.

في الايام الاولى لرحلة شهر العسل كان الكسي بتروفيتش كانما يخشى ان تفيق كاتيا وتدرك فظاعة زواجهما، فالتزم بالتادب واللياقة والمجاملة التي تبلغ حد الاهانة. ولكنها عندما غدت امراة شعرت فجاة، ودون توقع سابق، بانها متيمة بزوجها وكانما خرجت توا من عتبة الغسق الى نور يغشي الابصار. كان ذلك احساسا ساخنا بذاتها وبانوثتها ودمها الذي يغلي ويفور. بهت الماضي كله امام هذا الشعور وصار رمادا لا يستحق الذكر.

وجذبت كاتيا زوجها الى دوامة الحب الانثوي الاول. وحلت بالنسبة للامير، دون توقع ايضا، ايام الهيام والفرحة المنفعلة



والاهتمامات المحببة السعيدة بصغائر الامور. وخيل اليه ان حياة ثانية بدات لديه فلا يرى غير عيني كاتيا المفعمتين بالاعجاب يقرب من الجنون، ولم يعد الماضي بالنسبة له ماضيا ولا المستقبل مستقبلا، لا شيء هناك غير تلك النظرة الانثوية المنفعلة التي لا قعر لها ولا قرار.

لم تستمر طويلا تلك السعادة التي تفقد المرء رشده. اخذ الكسي بتروفيتش يفهم بانه لن يتحمل هذا التوتر الشديد فارتبك وتحير. وحدث اول شجار بينهما. شعرت كاتيا بالاهانة والخجل لان حبها قوبل ببرود يقرب من السخرية. وادركت بان الشقة بينها وبين زوجها واسعة وكانهما شخصان غريبان. حدث ذلك مساء في فندق قديم في البندقية. كان الامير واقفا قرب النافذة المطلة على قناة ضيقة اصطبغت بحمرة المغيب المطير. وكاتيا تبكي مستلقية على الاريكة.

— بالله عليك يا كاتيا، لا تبكي. فلم تحدث اية مصيبة، — قال الامير بصوت خافت. — اردت ان تقبليني اما انا فكنت شارد الذهن. ذلك كل ما في الامر. كنت افكر باننا لم نر شيئا في البندقية ما عدا الملاهي. اليس كذلك؟ اعتقد ان ظلام المساء جعلك حزينة لا اكثر. او اننا تعبنا...

كل هذا صحيح، ولا يستحق البكاء.

لكن كاتيا نفسها لا تدري ما هو سبب حزنها الشديد وكان الشمس غابت الى الابد وراء الافق البحري البعيد وكان هذا الغسق الكئيب سيظل مخيما طول العمر ولا امل في انجلائه.

في الاسفل انزلق جندول اسود بلا ضجيج. وراى الامير وهو متكئ بمرفقيه على رف النافذة كيف يشق القارب بصدره المدبب صفحة الماء المائل الى الاحمرار. رفعت السيدة الجالسة فيه راسها بعد ان خلعت نظارتها والتفتت الى صاحب القارب فعرفها الامير. كانت تلك السيدة هي موردفينسكايا.

ابتعد عن النافذة كالملسوع ونظر الى كاتيا. كانت جالسة مطاطاة الراس. وبدا المنديل على ركبتيها ابيض في الغسق. احس الامير بعطف شديد على هذه الشابة الطاهرة التي لم تفهم شيئا على الاطلاق. جثا على ركبتيه امام الاريكة واخذ يدها وضغط

شفتيه عليها، لكن اليد كانت جامدة وكانت شفتاه باردتين. وفهم انه لم يكن يحبها، بل يحب تلك، وليس بوسع اية ضحية ان تغرق هذا الحب وتذوبه.

في اليوم التالي غادر الزوجان كراسنوبولسكي البندقية الى روما ومنها الى جنوة ونيس وباريس.

لم يكن الامير قادرا على الجزم بان التي مرت كالشبح في الجندول الاسود هي موردفينسكايا. اذ ربما انخدع بشبه جاء صدفة. ورغم ذلك انفتح في دخيلته باب المخبأ السري الذي اغلق باحكام وطواه النسيان منذ تلك الليلة التي طوقته فيها آنا سيميونوفنا بشراك الملاطفة والاغراء وسممته بالقبل. صار يعرف الآن انه كان كل تلك الفترة يخدع نفسه، وان ذلك الخداع المتقن انهار من نظرة واحدة القت بها امرأة وانه سيسكت على كل شيء، حتى ضربة السوط على العينين، وينساه في مقابل لقاء مع موردفينسكايا، وانه لا يمتلك ارادة ولا انفة ما عدا القلب المعذب المستعد في كل لحظة ليشتعل بنار الحب القاتلة.

في تلك اللحظة صار سواء بالنسبة له اذا كانت كاتيا ستتركه او ستبقى حتى الرمق الاخير تعاني الآلام تحت جنحه او تتحول، مثل ساشا، الى ضحية هالكة. ظلت صامتة تنتابها الاحزان، لكنها لم تجرؤ بعد على ان تسأله عن سبب تغيره المفاجيء هذا.

في باريس كان الامير احيانا يترك كاتيا اياما بكاملها وحيدة في الفندق كانت تجلس عند النافذة وتنتظر. في ساحة الاوبرا، في الاسفل، تتقاطع مسيلات العربات والمركبات، ويسرع المارة ويتعالى صفير ودوي وضجيج العجلات ولغط الناس. لا يفصلها عن هذا الهرج والمرج الا فضاء قليل، لكنها تتحسس الوحدة والاهانة بشكل اكثر شدة وقساوة.

عاد الكسي بتروفيتش، عدة مرات، في ساعة متأخرة جدا. وكانت كاتيا تنظر باكتئاب الى وجهه النحيل وعينيه المعذبتين وكأنما لا تبصران. كانت تضغط على اصابعها وتكرر مقنعة نفسها: «لا احبه، لا احبه، ليكن ما يكون، فليهلك». وكان الامير يعتذر ويطلب الصفح ويقول لها انه طاف المدينة طول النهار، وكانت كلماته مشوشة مضطربة غامضة... وبعد ذلك يرقد، عادة، على



السرير ويمد يديه فوق البطانية ويغمض عينيه متظاهرا بالنوم.

فهمت كاتيا من كل هذه المتاهة شيئا واحدا هو ان زوجها يسعى باصرار الى مقابلة شخص ما وهو يبحث عنه في المطاعم والمسارح والحانات والحوانيت وينتظره في مختلف المقاهي ويتجول في الشوارع على امل اللقاء به. حاولت كاتيا ان تعرف ذلك الشخص فسألت الامير عنه واستعطفته ان يخبرها وهددته وبكت لكنه كان يلوذ بالصمت. ذات مرة قبيل انبلاج الفجر جلست كاتيا على السرير وتطلعت الى وجه الامير الذي كان اقرب الى الخضرة بسبب انعكاسات الفجر ونظرت الى عينيه الغائرتين الكابيتين، ثم امسكت رأسها بكلتا يديها وتمتمت: — انا لا افهم شيئا، لا افهم على الاطلاق... كل ذلك شبيه بالجنون... كذب في كذب!

— نعم يا كاتيا، جنون وكذب...

لم تضبط كاتيا نفسها اكثر، وانهارت انفتها امام المذلة. قفزت من السرير وركضت حافية الى النافذة وصاحت مهددة بانه اذا تركها وحيدة في هذه الغرفة ولو مرة فسوف ترمي نفسها الى الشارع تحت عجلات المركبات. كان يأسها شديدا غير متوقع حتى بدا وكأن الامير قد استعاد رشده واخذ يهدئها ويقول بجهد كبير ان الوقت حان للعودة الى الديار، الى روسيا...

السبب في ذلك كله هو ان الكسي بتروفيتش راجع السفارة عندما وصلا الى باريس واستفسر عن آنا سيميونوفنا فقالوا له هناك «نعم، موردفينسكايا موجودة لوحدها في باريس، لكن عنوانها غير معروف». وعند ذلك بدأ يبحث عنها في كل ارجاء المدينة، ورآها بالفعل مرتين من بعيد، لكنه لم يتمكن من الاقتراب منها: فقد كانت مع شاب فارع القامة يبدو من مظهره انه صاحب اسطبل لخيول السباق.

وخلال الاسبوع الاخير لم يصدفها الكسي بتروفيتش في اي مكان. لعلها سافرت الى الجنوب، الى بياريس او نيس، فقد بدأ الموسم هناك.

اما في بطرسبورغ فقد حل الخريف وسبحت الغيوم البليلة فوق المدينة. وفاحت رائحة الحديد والصدأ. حتى ان المارة

برجوههم الجادة العابسة والذاوية بسبب الارهاق العصبي لم يفتحوا مظلاتهم. لقد تعودوا على البلل: فلتمطر السماء ما شاء لها ان تمطر.

في احد هذه الايام نقلت العربة الزوجين كراسنوبولسكي من محطة فارشافسكي الى الفندق على شارع موروسكايا. لم تكن كاتيا راغبة بالتوقف في بطرسبورغ لكن الامير ادعى بوجود اشغال لديه هناك فبدات ايام رتيبة مملة. المطر يتساقط رذاذا، والضوء الكهربائي الاصفر ينير الغرفة طول النهار، والامير يغيب فترات قصيرة، ويقضي ما تبقى من الوقت على الاريكة صامتا تارة، ومنفعلا لاتفه الامور تارة اخرى. واحيانا يقترح على كاتيا زيارة اقربائهما، لكنها ترفض ذلك رفضا باتا. ذات مرة خرج الكسي بتروفيتش منذ الصباح ولم يعد لا في النهار ولا في الليل ولا حتى في اليوم التالي.

واليكم ما حدث. عندما خرج من الفندق في الصباح استأجر حوذيا كعادته وتوجه الى شارع شباليرنايا. وعند ما سارت العربة بمحاذاة دار موردفينسكي اغلق الامير عينيه من شدة الانفعال: فالنوافذ التي كانت بالامس مطلية بالطباشير صارت اليوم مغسولة نظيفة والستائر مرفوعة وقد نورت عدة مصابيح كهربائية في داخل الصالة. صرف الامير الحوذي عند الركن الى مدخل الدار. انتفض قلبه بشدة حتى امسكه بيده. دق الجرس ودخل الدار وسلم بطاقته الشخصية الى الوصيف، ولم يكن يفكر في ما سيحدث فيما بعد — هل سيخرج اليه زوجها ام ستاتي بنفسها؟ وكيف يتعين عليه ان يتصرف في الحالتين؟

تاخر الوصيف ولم يعد طويلا. ففكر الامير: «حقير، ابقاني في الدهليز متعمدا». ظهر الوصيف بعيدا، في داخل احدى الغرف والقى على الامير نظرة — وقحة طبعا — واختفى. فار الدم في رأس الكسي بتروفيتش، فالتقط من رف المرآة قفازا نسائيا اسود ومزقه شطرين. وظهر الوصيف من جديد وبيده منشة ملونة ينفض بها الغبار. وصاح به الامير: «مغفل!»، وانداح صوته في الغرف الواحدة تلو الاخرى. وتناهى رنين جرى من مكان ما واختفى الوصيف. فصفق الامير الباب الخارجي بكل ما اوتي من قوة وخرج راكضا.



المطر يتساقط رذاذا في الخارج، وتسبح سحب من الضباب على السطوح، والهواء الصدىء ينخر العظام. راح الامير يجرجر قدميه على الرصيف. كان يتوقع كل الاحتمالات ما عدا الوصيف والمنشة.

وفكر الامير: «يجب ان انسى نفسي الآن واغوص في لجة اقذر». لقد ادرك بوضوح ان تلك هي النهاية. فان سنة ونصفا من التوتر الفظيع تكللت اخيرا بمنشة الغبار والمطر الصدىء، ما كان بالامكان طبعا، توقع نهاية اخرى لانه هو نفسه قمىء، نحيل تافه، واذا اشتد المطر سيجرفه الى الساقية جنب الرصيف ويحمله الى انابيب المجاري تحت الارض. آنذاك تذكر كاتيا، ولكنه فكر: «كلا، فهي بعيدة، مستحيل. يجب ان اذهب الى الخمارة».

عند المفترق التفتت اليه امراة مرعبة في وشاح بذيل فرائي وكان احد نثر الدقيق على وجهها، وخاطبته بصوت اجش:

— لماذا انت مهموم الى هذا الحد يا عزيزي. تعال الي.

اشماز الامير حتى الغثيان، لكنه تبعها في الحال.

اقتادته المراة الى غرفة نتنة متصدعة الجدران. جلس دون ان يخلع معطفه وقبعته الى طاولة بلا شرشف وراح ينظر الى صور جنود متطوعين معلقة على الجدار فوق اريكة حمراء بالية. ورأى عبر شق الباب امراة اخرى شبه عارية بشعر مرسل. وعندما لمحت الامير ينظر اليها كشفت عن اسنانها المسوسة وخرجت. وظهر على اثرها شاب فارع القامة في قميص احمر قان، شعره اجعد وتحت عينيه جيوب منتفخة. وعلى كتفه سير تدلى منه اكورديون. انحنى محييا ونفض شعره ووضع رجله بجزمته الصقيلة على كرسي وبدأ يعزف، فقال الامير:

— نعم، انشدونا، وسادفع لكم.

لملمت المرأة ذات الشعر المرسل اطراف ردائها الاصفر وطقطقت باصابعها وانشدت بصوت جهوري غير متوقع. التفت الامير اليها واخذ قنينة لا يعلم الا الله كيف ظهرت على الطاولة. جلست قربه الامرأة ذات الوجه المرطب بمساحيق بيضاء، وراحت تحدق في فمه. عيناها مدمعتان بلا اهداب. عدلت تسريحتها المضغوطة، ففرت بقة من تحت شعرها المستعار.

ضحك الامير باشمئزاز وقال، – «طيب» – وشرب قدحا حتى الثمالة. كان للنبيذ تاثير فوري شديد. ودوى صوت المغنية. «لن اعكر بالاغنية الصاخبة نوم الصبية الفاتنة الهنيء...» اخذ الامير يحتسي قدحا بعد آخر من نبيذ حلو مقرف. واخذت اصوات الاوكرديون تبتعد. حاول ان ينهض لينتزع، اخيرا، هذا الشعر المستعار المليء بالبق، لكنه ترنح ثم هوى على الارضية متشبثا بالمراة.

عندما استيقظ وجد نفسه على سرير حديدي في غرفة غير غرفة الامس. الم به صداع شديد. وظل يتذكر طويلا، وهو جالس على الحشية القذرة، ما حدث له بالامس، ثم خرج مترنحا الى الدهليز الغاص بالصور والحقائب. وعلى احد الكراسي راى صورة نصفية لجنرال. وبدافع من الفضول فتحت عجوز متغضنة الوجه باب المطبخ ومدت راسها من شق الباب ونظرت اليه ثم توارت. خرج الامير من المنزل ولاحظ انه متعدد الادوار مبني من الطابوق، بينما منزل الامس خشبي. وقال: «الشيطان وحده يعرف ما حدث». ظل يجرجر قدميه امدا طويلا وكان عاجزا حتى عن استدعاء حوذي وعن التفكير بالوجهة التي يسير فيها. وفي الأمام اسرع مشعل الفوانيس فاولعها الوحد تلو الآخر. تطلع الكسي بتروفيتش الى اللمع الاصفر عند قدميه وهز راسه ومال حزينا الى الجدار البليل. ثم دس يده في جيبه ليخرج السجائر فلم يجد فيه لا السجائر ولا حافظة النقود.

تذكر زوجته من جديد. ولاحظ بارتياح هذه المرة ان التفكير فيها غدا يسيرا لذيذا لانه غاص في الاقذار والاوساخ حتى العنق. اما موردفينسكايا فقد امحت من الذاكرة وكان صورتها ذابت في وحل الشارع. ولعل كل ما كان مرتبطا بها قد انتهى ومات في تلك الليلة المقرفة. فاثار ذلك غبطته وسروره حتى لكانه اجتاز قسما من الطريق العسير وتجاوز اصعب مرحلة مؤلمة.

اخيرا وصل الى الفندق ملوثا بالاوحال ومبللا حتى العظام، لكنه هادىء تماما. لم يعرفه البواب فقهقه الامير. ذلك يعني انه تغير كثيرا في غضون ليلة البارحة. عند عتبة الغرفة خلع قبعته الاسطوانية المدعوكة ومسد شعره براحة يده وطرق الباب.



كانت كاتيا واقفة وسط الغرفة ملفعة بمنديل وبري ابيض. وجهها شاحب تماما وعيناها متسعتان لا اثر فيهما للدموع.

– اين كنت تتسكع؟ – سالته والقت عليه نظرة متفحصة ثم اشاحت بوجهها – يا للفظاعة!

تمتم الامير دون ان يجتاز العتبة:

– كاتيا، عزيزتي، تبللت حتى العظام. ولا استطيع الجلوس، اخشى أن الوث شيء في غرفتك... ولكن من حسن الحظ ان ذلك حدث على هذه الصورة. – نقل بدنه من ساق الى ساق وابتسم بمرارة. – لا ادري هل سالتقي بك مرة اخرى. ولكنني تخلصت يا كاتيا.

– انت تهذي، ينبغي لك ان ترقد – غمغمت على عجل.

– كلا، تظنينني سكران؟ ساشرح لك كل شيء الآن.

تنهد الامير وجال ببصره في الغرفة وتطلع الى جزمته الوسخة، وبعد ذلك القى على محيا كاتيا نظرة خاطفة بحنان بالغ يقرب من الاستغاثة ثم غض بصره وشرع يقص عليها كل ما حدث اولا باول، وبدا بشبح المراة التي رآها في الجندول في البندقية.

مضت كاتيا، وهي تستمع اليه، نحو الاريكة وجلست، فقد خانتها قدماها. فهمت كل شيء، حتى ما كان صباح اليوم. لكن ما ظل غامضا بالنسبة لها هو سبب اختفاء موردفينسكايا من ذاكرة الامير وكيفية نسيانه لها. اما بالنسبة لالكسي بتروفيتش فان ذلك وحده هو المهم الآن. تحدث عن نفسه وكانما يتحدث عن انسان جديد، وكان ذاك الذي كان بالامس قد تلاشى الى الابد بعد ان كان عدوا غريبا. وبدا له ذلك كله واضحا طيبا فاطمان وصفا ضميره. ولم يعد يفهم لماذا تحدق كاتيا في وجهه بمثل هذا الغضب الشديد.

– ولكن هل فكرت في انا؟ – صاحت به اخيرا فتورد وجهها.

– ماذا يتعين علي ان افعل؟ كيف ساعيش معك؟

– انت؟ آه، نعم...

حقا، كان كل هذا الكلام يجري وكان القصد منه ان تغدو كاتيا الآن، في هذه اللحظة بالذات، ضحية ملتهبة وتقدم كل طهارتها، كل طاقاتها الانثوية الرائعة، لتملأ بها فؤاد الامير الخاوي.

فهم الكسي بتروفيتش ذلك وشعر بتقزز شديد من نفسه لم

يشعر بمثله فيما مضى ابدا. فمن هو في الحقيقة يا ترى؟ هل هو خفاش يمتص دماء الآخرين حتى يشبع ويهوي على الارض؟

– كاتيا، انني اتركك، اتركك الى الابد. فيما بعد ستفهمين كل شيء. – غمغم بهذه الكلمات ثم استولت عليه فجاة حالة من الاعجاب المنفعل الشديد حتى انعقد لسانه وتعذر عليه الكلام لحظة

– عزيزتي... تذكري، تذكري انني مخلص دوما، مهما حدث، مخلص لك حتى الموت. وداعا.

انحنى الامير حتى كاد يلامس الارض وخرج. وفي اليوم ذاته سلم زوجته كمبيالات بقيمة ضيعته كلها وتخويلا كاملا بالتصرف. ولم ياخذ الا بضعة آلاف. وفي نفس تلك الليلة سافر الى موسكو.

لم يكن يعرف على وجه التحديد ماذا سيفعل في موسكو. نزل في فندق متواضع، وظل في الايام الاولى ينتظر تكرار لحظة الاعجاب المنفعل الذي يتحول الى فرحة عارمة لامد طويل. لكنه اخذ يتضح شيئا فشيئا ان المعجزة لن تحدث، وان حياته الماضية التي تساهلت معه لحظة لا تزال معلقة فوق رقبته كالسيف الذي يمكن ان ينهال عليها في اية لحظة. عندذاك حلت ايام الكآبة التي لا تطاق ولم يعد يرى مخرجا آخر سوى الموت. فالعودة الى زوجته مستحيلة، ثم انه لم يكن يعرف اين كاتيا وماذا جرى لها بعد ان هجرها.

اشتدت الكآبة، حتى صار بوسعه ان يشير الى موقعها على وجه التحديد تقريبا – وسط الصدر تحت العظم الاوسط بين الضلوع. ففي هذا الموضع شعر بالضيق في الصباح وبثقل كثقل الرحى في المساء.

ولايخف الألم الا بعد كأس من النبيذ. بدا الامير يشرب الكونياك ثم انتقل الى الفودكا. وعندذاك صار يتردد عليه معارف جدد غريبو المظهر، لكنهم جميعا طيبون. وهو لا يتذكر اسماءهم، اما ملامحهم فكانت تتبدد في آخر النهار على اية حال. كان صعبا عليه ان يميز بين الرجال والنساء، ثم ما اهمية ذلك؟ كانوا يلعبون القمار كثيرا وكان الامير يخسر حتى لم يبق معه من النقود الا القليل.

اثناء هذه الغيبوبة والنسيان المطبق حدث لقاء خاطف غير ذي بال، لكنه انطبع في ذاكرته. كان الامير قد مر نهارا قرب كنيسة



ايفيرسكايا التي بدت وكأنها جزيرة يلتقط المارة انفاسهم عليها فيخلعون قبعاتهم ويرسمون شارة الصليب على صدورهم وينظرون الى الايقونة القائمة الشموع. توقف الامير هو الآخر واخذ يتذكر الصلوات لكنه لم تحضره ولا واحدة منها، فظل يتطلع الى لهيب الشموع المتراقص والى لمع انعكاسه الدافىء على اطار الايقونة. وفي تلك الاثناء تناهى اليه من الخلف صوت مرح: «لوجه المسيح تصدق على ابن السبيل». اخرج الامير قراطة والتفت. فراى راهبا متدروشا يبتسم له بوجه مجدر نحيل وعينين صافيتين بزرقة فاتحة. نظر الامير فيهما وابتسم هو الآخر، وخيل اليه ان الراهب يعرف شيئا في منتهى الاهمية ولا بد له هو ايضا ان يعرف ذلك الشيء....

– خذ هذه القراطة، – قال الكسي بتروفيتش – تعال الي فيما بعد وساعطيك روبلا كاملا.

لا يتذكر الامير جيدا. هل جاء هذا الدرويش ام لا، لكنه تصور ان العينين الزرقاوين الفضوليتين لمعتا لحظة بين لاعبي القمار عبر سحب الدخان.

حل الربيع. كان الامير تواقا الى التفكير في كاتيا، وكيلا يفكر بها ادمن على الشراب باشد من السابق. ذات مرة جاء اليه بغرفته في الفندق تاجر قال انه من اهالي منطقة الفولغا وادعى بانه يعرف الامير وضيعته هناك واخذ يساله عن احواله وحدثه بالمناسبة عن الفاجعة التي وقعت شتاء قرب الضيعة.

كان حديث التاجر مشوشا جدا، ومع ذلك امكنه ان يفهم منه ما حدث على شاطىء الفولغا آنذاك، في تلك الليلة الشتوية.

هوت الزحافة من التلة وانزلقت الى النهر المتجمد فتكسر تحتها جليده وغاصت حتى منتصفها دون ان تنقلب، اذ امسك بها الحصان الاوسط بعد ان تشبث بالجليد بقائمتيه الاماميتين. تسنى للسائس ان يقطع المشدات. غرق احد الحصن وظل الحصان الآخر يصارع الغرق. زحف السائس على العريشين حتى بلغ الجليد الصلب وامسك بذيل الحصان فتمكن من انقاذه. امتطاه واسرع به في خط مستقيم الى ضيعة ميلوبه طلبا للنجدة.

ظلت كاتيا مغميا عليها فوق سطح الزحافة. ووقف غريغوري ايفانوفيتش على ضلع مقعد الحوذي والماء يغطيه حتى الخصر

(فالمقعد غاص في الماء ايضا، الا ان الطبيب، على ما يبدو، كان يخشى الصعود الى السطح) واحتضن كاتيا ووضع راسه على صدرها وهو يحملق في عينيها المفتوحتين.

تساقط الثلج غزيرا من جديد واشتدت الريح، وانداحت كالدخان على امتداد النهر، وترسب «الغبار» الثلجي على وجه كاتيا الجامد كوجوه الموتى. ارتعب الطبيب حتى رفع راسه وصرخ، وحاول الحصان الاوسط ان يتملص من اسار الجليد لكن قواه خانته. وكانت الزحافة تهتز وتتمايل في الريح القارسة. وفجاة رفعت كاتيا اعلى بدنها وخفضت ساقيها بجواربها الخفيفة ونشرت يديها ثم احتوت راس الطبيب وضغطته الى صدرها وكانها تخشى ان تفلته. ظلا صامتين بهذه الوضعية حتى هرع اليهما الخدم من ضيعة ميلوبه ومعهم حبال واوتاد. نزلوا من جيادهم قرب الفجوة المائية في النهر المتجلد ظانين بان الاميرة والطبيب ماتا متجمدين لكنهم لاحظوا ان كاتيا تحرك راسها قليلا وتنظر اليهم وهم يغرزون الاوتاد ويلقون الحبال الى ما وراء الزحافة ويسحبون الحصان الاوسط من الماء الى الجليد.

وفجاة حدث شيء غير مفهوم: عند حافة الجليد وبعد ان امسك الرجال الاميرة بايديهم القوية رفع غريغوري ايفانوفيتش راسه وفتح فمه وقال كلاما متقطعا فهم منه الجميع: «كلا، لا تمسوها» ومد بدنه ويده نحو كاتيا وان وهوى على الماء بصيحة مرعبة دون ان ينحني ويلتوي، وغاص في الحال تحت الجليد وكانه جلمود صخر.

وضع الرجال الاميرة في زحافة صغيرة وغطوها بمعاطف الضان واوصلوها الى ميلوبه. وفي اليوم التالي نقل فولكوف ابنته الى ضيعته.

كان مصرع الدكتور زابوتكين اشد ما صعق الامير في هذه الحادثة. وكلما اطال التفكير فيه ازداد قناعة بان مقتله لم يكن صدفة بل تضحية واعجابا بالموت.

انفعل الامير اشد الانفعال، ولم يكن واثقا من ان كاتيا لا تزال على قيد الحياة. وبدا له ان البقاء في موسكو مستحيل. لف المائة روبل الاخيرة في قصاصة جريدة وتوجه الى ياروسلافل، ومن هناك استقل الباخرة.



فكر مرة بان يتسلل الى احدى القرى المجاورة لضيعة ميلوبه كي يتقصى اخبار كاتيا، ولكنه عدل عن هذه الفكرة فيما بعد. كل ما كان يتوق اليه هو ان يمر بالضيعة ويتنشق ذاك الهواء ولو مرة واحدة، ومن ثم فليكن الطوفان. واهلا بالموت حتى وان كان اثر ادمان شديد.

- ٢ -

الكسي بتروفيتش راقد على جنبه في قمرة انفرادية جدرانها ملبسة بالصفيح ومطلية بدهان جوزي. قرب الباب يسيل الماء في الغسال. وستارة النافذة المعدنية تهتز. وضوء الشمس المنعكس على الماء يتسرب عبر شقوق الستارة ويتراقص على السقف الابيض بقعا متموجة مضطربة.

على الطاولة الصغيرة امام المرآة دورق فودكا وصحون وتبغ في قصاصة جريدة، و على الارضية حقيبة مفتوحة خالية تقريباً و معطف عند القدمين.

تكتكة الماكنة الرتيبة تبعث النعاس في قيظ الصيف، وسرعان ما يتسلم المرء للنوم على الفراش الناعم يهدهده النسيم المنساب من النافذة. الكسي بتروفيتش يشخر بين حين وآخر، ووجهه متورد كوجوه السكارى. لم ياكل شيئا تقريبا خلال الآونة الاخيرة. كان يشرب طوال الوقت ويتذوق طعاما لا يجد لذة فيه. وعندما يلهب الكحول معدته ويجف حلقه يستيقظ منكمش الوجه ويمد يده الى قنينة العصير ويمتص جرعة ثم يستدير نحو الجدار ويثني ركبتيه.

في الرحلات النهرية تتفتح شهية الانسان، فما يكاد ينتهي غداء الظهيرة حتى يبدأ طعام العصر. وعندما سمع الامير طرقا على باب القمرة فكر في نفسه «حبذا لو تناولت الآن شيئا مملحا» وهتف بصوت ناعس. «آوو» وفتح عينيه.

الا ان الطرق على الباب تكرر. وقال الامير بصوت مرتج:

- احضر لي، يا عزيزي، دورقا ابرد وشيئا مما يؤكل..

وفكر من جديد: «حبذا تناولت شيئاً مملحا، قطعة من السلمون المتبل مثلا، حتى اواصل الشراب..

الا ان الطرق على الباب استمر.

– ماذا تريد يا شيطان؟ – صاح الامير وخفض قدميه من السرير وازاح مزلاج الباب.

فتح الباب بحذر ودخل الدرويش يرتدي قلنسوة تتدلى منها ضفيرة على قفاه. ولاحت أطراف اصابعه من ردني غفارته وخاطب الامير.

– وتقول اني شيطان! مرحبا! – انحنى قدر ما يتمكن البدن من الانحناء ثم جال ببصره باسما في القمرة ومحتوياتها المبعثرة.

تطلع الامير مرتعبا في العينين الزرقاوين الصافيتين على الوجه المجدور الضئيل. وعلى العموم كان الراهب المتدروش ضئيلا مهلهلا لم يبق في مظهره ما يستحق الذكر.

وتابع الدرويش كلامه:

– جئت اطلب الصدقة. قبطان السفينة رجل طيب قال لي: «اجمع الصدقات ولكن لا تسرق شيئا». فما الذي يجعلني اسرق اذا كان الناس يتصدقون علي؟ وقال عنك انك مدمن. لكنك لست مدمنا ميئوسا منه، اليس كذلك؟ فانا اعرفك جيدا.

جلس جنبه ووضع يده على ركبتي الامير فابتعد هذا قليلا وجحظت عيناه المنتفختان.

– لو لا الكآبة لما تحول الانسان الى خنزير، أليس كذلك يا عزيزي؟ – سأله الدرويش فجأة.

هز الامير رأسه وندت عنه تنهدة قصيرة وأجاب:

– لا حياة اسوأ من حياتي! – ثم انتبه الى نفسه وقال غاضبا.

– يا هذا، هل دعوتك انا؟ فلماذا تتطفل؟ اذهب، ارجوك. فالدنيا ضيقة حتى بدونك.

– لن اذهب اجابه الدرويش – يبدو انك افرطت في الشراب. لن اتركك اطلاقا.

نفض الكسي بتروفيتش رأسه واختلطت عليه الامور وغامت عيناه. ثم قال بصوت كئيب:

– هل يعقل انك مجرد خيال في تصوراتي؟ ذلك يعني ان اموري سيئة. اسمع، أنت تشرب الفودكا؟

– ما الداعي لشربها؟

رفع الكسي بتروفيتش بصره الغائم من جديد، وكان وجه الدرويش يعوم في جو القمرة.



– اشرب والا قتلتك! – صاح الكسي بتروفيتش بهياج، لكن الدرويش ظل يبتسم. خارت قوى الامير فرقد واغمض عينيه.

– عجيب! الى اي حال وصلت؟! – قال الدرويش بعد لحظة بصوت عال متشدد على غير المتوقع:–سأسقيك خمرا من نوع آخر. ستبقى شبعان من خمري وستظل على قيد الحياة... اسمع ما اقوله لك... اعطتك الاقدار كثير، لكنك ضيعت كل ما اعطتك. ضيعته لتجد الكثير، بل لتعثر على الخلود. انهض واتبعني حيثما اشير عليك.

«لا ترفع صوتك، سافعل كما تقول، ولكن الافضل ان تذهب»

– فكر الامير. انحنى عليه الدرويش ومسد رأسه، فضيق الامير جفونه. واضاف الدرويش:

– تعال معي يا عزيزي. اقول لك صادقا. – انذر نفسك. ستصل الباخرة قريبا الى اوندوري، وهناك انزل، وستجدني على الشاطئ. فكر في الامر جيدا وتعال الي. هل انت فاهم؟

ظل واقفا بهدوء، ولعله انصرف فيما بعد. فقد طقطق مزلاج الباب.

بقي الكسي بتروفيتش راقدا يستجمع افكاره بشق الانفس كي يفهم هل كان الدرويش يتكلم معه حقا ام ان ذلك مجرد رؤيا؟

صرف وقتا طويلا وهو على هذه الحال. البقع الضوئية على السقف انطفأت من زمان وخيم الظلام في القمرة، وسرعان ما اشتعل مصباح خافت فوق المرآة واخذ يتوهج. وقال الامير:

– سخافة. بالامس رأيت على هذه الصورة ايضا فارسا في طاقية صفراء.

هبط من السرير والقى نظرة على نفسه في المرآة ومضى يجرجر قدميه بصعوبة الى استراحة الدرجة الثانية. جلس في الركن دون ان ينظر الى أحد. ثم استند الى الطاولة بمرفقيه واغلق اذنيه براحتيه كيلا يسمع لغط الحاضرين. احضر الوصيف دورق فودكا باردة وطبقا من سمك السلمون. صب الامير الفودكا في قدح ترسب عليه البخار وخلطها بقليل من الفلفل وشرب على مهل ثم زفر نفسا مخمورا والقى نظرة شزراء على طبق السلمون.

زارت الباخرة آنذاك وبدأت تستدير. ازاحت الريح ستارة النافذة وقال احد الجالسين عند الطاولة المجاورة بلهجة واثقة:

— اوندوري...

نهض الكسي بتروفيتش في الحال وسأل بصوت خافت: — حقا؟

— ثم خرج الى متن الباخرة المظلم.

اضطرب الماء الاسود تحت الباخرة وهي تستدير نحو المرسى. وفي ضوء كوتها تهادى على الموجة قارب فيه صبيان، احدهما يجذف، والآخر يعزف على البالالايكا. ثم ابتلع الظلام القارب.

مال الامير الى عمود الدرابزون وراح ينظر الى مبنى ادارة الملاحة الذي اقترب، وراى كيف القوا بحبال المرسى على سقفه فاثارت دويا، وكيف مد ملاح وثلاثة رجال باسمال بالية السلالم الخشبية فتراكض عليها بخطوات واسعة حمالون على رؤوسهم اكياس كقلنسوات الرهبان.

ثم هرع من باطن الباخرة مسافرون على اكتافهم حقائب وعلى ظهورهم صناديق واخذوا يدسون التذاكر في يد الملاح.

حدق الكسي بتروفيتش باهتمام وارتعش فجاة عندما راى بين الرجال والنساء العينين اللتين يعرفهما جيدا. وفي الحال حجبتهما بالة صوف.

هبط الامير مستعجلا واندس بين الجمهور وهو يتلفت بنفاد صبر ويعض شفتيه.

اسرع من المرسى الى الشاطىء، حيث جلست فلاحات قرب صينيات تنيرها فوانيس واخذن ينادين المسافرين ويعرضن عليهم بالحاح خنوصا محمرا او رغيف خبز.

وعلى رمال الشاطىء اختلط الامر على الكسي بتروفيتش في الزحام بين الناس والاكياس والعفش. الشيء الوحيد الذي يتذكره هو ان يجد شخصا ما ويسأله عما ينبغي فعله. خيل اليه مرة ان شخصا يعرفه تمام المعرفة انحنى الى احدى الصينيات. وبعد ذلك خيل اليه ان احدا لوح له بيده من بعيد، بين العربات.

— يستدرجني — همس الكسي بتروفيتش وتوجه محني الظهر، بطريق ملتو، نحو تلك العربات.

وفي تلك الاثناء زارت الباخرة مبتعدة، واطفئت الانوار فيها.



— ٣ —

— هيه، تمهلوا، انتظروا! — صاح الامير في اثر الباخرة المبتعدة وهو يعرج على المرسى.

اعترض طريقه حمال قصير القامة عريض المنكبين.

— الباخرة اقلعت يا سيد!

واقترب منه الملاح والبائعات ورجل قميء مهموم بلحية مدببة. احاطوا به من جميع الجهات وامطروه وابلا من الاسئلة. من أين جاء والى اين هو مسافر؟ الم يترك نقودا في الباخرة؟ هل هو متزوج؟ تاوهوا وهزوا رؤوسهم. وكان الرجل المهموم اكثرهم تألما وكانه هو الذي تخلف عن الباخرة. وقربت امراة وجهها من انف الامير واعلنت فجاة بصوت ملؤه الفرح والدهشة.

— سكران!..

عاد الهدوء اليهم جميعا في الحال واخذوا يعاملون الامير باريحية ومشاطرة.

الا انه اشمأز وانقبض من تلك التساؤلات الحمقاء، وشق لنفسه طريقا بين الجمهور وابتعد سائرا على الشاطىء.

وفكر: «سأسقط في مكان ما وانفق. يا ليت. فلا احد بحاجة الي. سامشي ما دمت قادرا على المشي. يا للاسف! آه، لم اكن اتوقع هذه النهاية».

سار الامير في بادىء الامر على امتداد الشاطىء الرملي الذي داعبته ببطء امواج خفيفة خلفتها الباخرة. وسرعان ما واجهته رمال متموجة فتعثر واستدار من النهر باتجاه الهضبة ومنها الى المروج.

وعندما تسلق الهضبة بشق الانفس راى النجوم المنثرة بكثرة على صفحة السماء. العشب محشوش ومكدس في اكوام. توقف لحظة وانصت الى قرقرة سمانة في مكان قريب، ثم اغذ السير باسرع مما على الشاطىء. فالقدمان لا تغوصان هنا في الرمال.

وفكر اخيرا: «لم هذه العجلة وكان احدا يطاردني؟» وتذكر فجاة بانه لم يلتفت الى الوراء، ولا مرة واحدة. فارتعب لهذه الفكرة حتى جلس القرفصاء في الحال والتفت ببطء، والقى عبر كتفه نظرة الى الوراء.

لاح من وراء الهضبة خلفه، على الحقل الرمادي في ضوء النجوم، شبح قاتم في قلنسوة مدببة. كان ذاك هو الدرويش.
«يلاحقني. يجب ان اختبئ» — فكر الامير واسرع محني الظهر الى اقرب كومة من اكوام الدريس وانبطح هناك وثنى ركبتيه وحاول ان يحبس انفاسه. فاحت من الاعشاب الذابلة رائحة البنج والبصل البري. كاد الامير يختنق. وفجأة مر الدرويش قربه على عجل، وخيل الى الامير انه راى لمعان عينيه الازرق.
وفكر الامير خائفا: «يا للشيطان. وقعت في داهية! هل سيراني أم لا؟ مر والحمد لله... كلا، عاد من جديد. يتحاشاني كأني وحش... ليتني لا اصرخ... ربما هذه رؤيا تتكرر من جديد. ربما وانا راقد في قمرتي وارى حلما... كلا، هذه ارض، وهذا دريس... وتلك هي النجوم. يا نجوم، يا نجوم، يا عزيزاتي، كنت دوما مغرما بكن... يا الهي، انني أؤمن بك الآن».
امسك الكسي بتروفيتش قلبه وادار رأسه وند عنه انين. في تلك اللحظة ظهر الدرويش من خلف كومة الدريس وجلس قربه ومسد كتفه. نهض الامير بحدة واطلق صرخة مرعبة ثم سقط على ظهره في الحال. كانت عيناه المفتحتان الواسعتان مفعمتين بالجنون.
— لا تخف، — خاطبه الدرويش بصوت خفيض — الا ترى كيف انقلبت سحنتك؟ لماذا اختبأت عني؟
— لن اختبئ بعد الآن، — غمغم الامير بصعوبة. — انني اعرفك. التقينا قرب كنيسة افيرسكايا. وقد فعلت ما امرتني به...
ابتسم الدرويش، وخيل للامير ان شاربيه الصغيرين ازيحا الى الجانبين وظهر من تحتهما لسانه، كما عند الحرذون، ظهر واختفى...
نهض الامير في الحال وهم بالفرار الا ان الدرويش امسك به وجعله يرقد على الدريس من جديد وقال:
— احمق، والله، احمق. لا حيلة في الامر، سننام على العشب. حاولت في البداية ان ندبر امورنا في احدى العربات، وكان بالامكان ان ننام فيها... ولكن، نم، يا عزيزي، وساغني لك.
رقد على الدريس قرب الامير، وبعد قليل انشد بصوت متأن رقيق:



غفوت قليلا
في مرفأ الاحلام السحرية
ورأيت في المنام
حصانا يعدو بي في السهوب
سقطت قبعتي
وواجهت الموت
فلا مفر من المصير...
وقالت امي،
حصان غريب
يعدو،
عليه عروس
في فستان ابيض،
أليس عروسك؟

٤

انغرز شعاع شمس الصباح في جفون الامير المغمضة فاستيقظ واعتدل معتمدا على ساعديه، فند عنه انين، لان بدنه كله يؤلمه.
والى جانبه جلس الدرويش على الدريس وقد وضع سكينا ورغيفا وبصلتين على فوطة.
راح يقضم البصلة الثالثة باسنانه البيضاء، وتراقصت غضون مرحة على وجهه المجدر حول العينين الزرقاوين وتحت الشاربين المنتوفين. وسأله:
— هل زايلك الغثيان؟ خذ، تجرع. احتفظت بها لك خصيصا، ولن اعطيك اكثر، والله...
خلع قلنسوته واخرج من باطنها قنينة صغيرة فيها جرعة من الفودكا الدافئة وسلمها الى الامير. فاخذها منه وهو يحاول بصعوبة ان يتذكر ما حدث. عندما تجرع الفودكا صفا ذهنه وتحرك دمه. نهض وعدل بدلته المدعوكة ولمس رقبته التي حكتها الياقة المركبة فخلعها والقى بها جانبا. وقال له الدرويش:

– سترتاح نفسك. تنشق الآن الهواء الطلق، الا ترى الى اي حد اصفر وجهك؟

– هل اقتدتني انت من الباخرة؟ – سأله الامير.

– أنا.

– لماذا؟ فانا مسافر لقضاء بعض الشؤون.

– سخافة. اية شؤون يمكن أن تكون لديك؟

– لماذا اقتدتني؟

– لتعيش. فما الذي تفعله في الصيف؟ أنت لا تستطيع ان تعمل، لانك اعرج نحيل. اما في الشتاء، عندما يشتد البرد، فالعيشة تصبح اصعب. وعندذاك ساحاول، يا عزيزي، ان ادخل السجن. سأخفي الهوية واقول لهم اني لا اعرف اقربائي وليس عندي مأوى. وسوف يطعمونني. وعندما ياتي الربيع اقول لهم الحقيقة. لقد ضربوني مرارا على هذا التصرف. تلك هي الحياة!

استمع اليه الامير باهتمام بالغ وقطب حاجبيه، فقد بدا له الدرويش بغيضا، لكن في كلماته وضوحا وقوة. وفكر: «فليذهب الى الشيطان. ولو ذهب، فماذا بعد؟ هل اعود الى الباخرة؟ والى اين ارتحل؟ ولماذا؟ هل اذهب معه؟شيء مضحك مع ذلك. فكيف يمكن لي ان اتسكع في الدروب؟». وسأله مقلصا جفونه:

– هل تعرف مع من تتكلم؟

غمز الدرويش بخبث وقال:

– لو كنت السلطان العثماني نفسه فهذا سواء بالنسبة لي.

وفكر الامير: «الشيطان وحده يعرف ما هذا. سخافة. يبدو انني سأتسكع معه فعلا. وسأنفق في مكان ما، انا السلطان العثماني!». وقال بفتور:

– حدثني اكثر. كيف سنتسكع؟

وهكذا سارا عبر الحقل المحشوش متوجهين الى ما وراء الغابة البعيدة التي شهقت فوقها غيوم بيضاء.

كانت الغيوم تسبح ببطء من وراء الغابة وتحوم فوق الحقل وتلقى عليه ظلالا باردة ومتنقلة، ثم تلتف حول سمائه وتتكوم على الطرف المقابل من الارض. ارتفعت الشمس مشيرة الى الساعة



التاسعة تقريبا. وفي الافق الرمادي تراقص الشرر على صفحة النهر الازرق الممتد الى ما وراء التلال الطباشيرية.

وقال الدرويش وهو يستدير باتجاه النهر ثم باتجاه الغابة:

– لن يستطيع احد ان يطردني من هنا. فانا كالجرذي، لي حق مشروع ان اعيش حيث اريد. هل تعرف كيف يعيش جرذان الحقول؟

وطفق يتحدث عن حياة جرذان الحقول. واصطاد جندبا ولمس لعابه. وصفق لسمانة طارت من تحت قدميه، وهتف:

– خذي، يا قصيرة الذيل!

سار الامير خلفه على بعد خطوات، وضيق جفونه، فقد خيل اليه ان الارض ستنتهي قريبا وانهما سيحلقان في الهواء البلوري حتى الغيوم، واعلى منها، الى حيث الريح والشمس، ولا شيء غيرهما.

وسرعان ما تعب من المشي فجلس على حافة الدرب وطلب طعاما.

رقد على ظهره بعد الاكل وفكر: «شيء مدهش، مدهش جدا. السماء صافية زرقاء. فلاتجول حقا، الا يتجول الناس في كل الارجاء... الريح ستبدد كل ما يزيد عن الحاجة. نعم، الريح والغيوم! اما انهم ضربوني، فما اهمية ذلك؟ ضربوا الدرويش ايضا. لحظة، فلاتذكر. ماذا قال لي قرب كنيسة ايفيرسكايا؟ طبعا، بدأ هذا التجوال انذاك، من هناك، وبدأت هذه الحرية وهذا اليسر، وهذا العالم البلوري كله. مدهش: لا داعي لتذكر شيء ولا التعود على شيء...»

بلغا الغابة مع حلول المساء، وباتا الليل في مستودع القش عند فلاحة اكتفت بان سألتهما عما اذا كانا من اللصوص املا.

وفي الصباح تيمما شطر الحقول من جديد. الجودار الناضج يتموج على الجانبين، والجنادب تقفز من تحت الاقدام ملتجئة اليه. بدأ الامير يتشكى من الم في رجليه. فخلع الدرويش الجزمة منهما وخبأها في المخلاة ولف قدمي الامير بلفائف صوفية. فالمشي فيها سهل ومريح. كان الامير يفعل كل ما يقوله له الدرويش. يسير برجله العرجاء، متعكزا على عصا ويفكر بان حياته كلها ظلت هناك، في القمرة الصفراء، وليس امامه هنا الا الريح التي تصفر بين السنابل واعمدة الغبار المتصاعد بعيدا. وعلى طرف الحقل عربة

يتصاعد قربها الدخان، ووراء الافق الرمادي المتململ كبحر سرابي تقيم كاتيا ولا يرى لها اثر من هنا.

— هل تعلم ان لي اختا اسمها كاتيا تقيم في هذه الانحاء؟ — قال الامير ذات مرة وهو راقد في حقل الجودار يتطلع الى السنابل الذهبية التي تتمايل فوق راسه على صفحة السماء.

— سنذهب اليها هي ايضا، — اجابه الدرويش. — الصيف طويل، والانسان، يا عزيزي، كالسحابة، ما عليه الا ان ياخذ عصاه ويسير كيلا يتعول على المنزل، ولا يمتلىء دناءة.

الا ان الامير لم يسمع هذه الحكمة حتى نهايتها. فقد راح يكرر مع نفسه «سنذهب اليها هي ايضا». وسيذهبان اليها معا، معا من كل بد.

كان الدرويش يتحاشى القرى الكبيرة التي يوجد فيها شرطي او مامور شرطة. فاضطر الامير الى النوم ليلا في الوهاد التي يوقظه فيها صباحا صياح الخطاف المدبب الجناحين، او في البيادر او تحت عربة ما في الحقل.

وصار الامير يدهش من نفسه ويتعجب لانه لم يعد يشمئز من القمل والاوساخ وروث الخيل عندما يهوي متعبا في اي مكان يصادفه وينهض في الصباح مرحا بقوى متجددة.

وفي كل مكان حظي الجوالان بمعاملة بسيطة من الناس الذين لم يسالوهما عن هويتهما، بل كانوا في اغلب الاحوال يستمعون الى احاديث الدرويش ويفهمونها كل على طريقته الخاصة: بعضهم يضحك منها ولا يصدق بها، وبعضهم يدهش «لسعة العالم» وبعضهم يكتفي بهزة من راسه. ويصادف ان تتنهد فلاحة ما دون ان تعرف السبب. كانوا ينعتون الامير «بالسيد» ويشفقون عليه، في حين يدهش الكسي بتروفيتش كذلك لكثرة هذه الشفقة عند بسطاء الناس.

وقال الدرويش ذات مرة:

— امثالنا كثيرون يجوبون الدروب. يعيش الواحد منهم ولديه كل ما يحتاج اليه، ومع ذلك يشعر بالملل. انا نفسي مررت بهذه المرحلة. كنت اشرب الفودكا بشكل مرعب. وكان يحدث ان انبطح على الارضية وقربي خابية وقدح اشرب ولا آكل شيئا حتى اسود



جلدي. ادمنت على الشراب وصرت ارى ما لا يقبله العقل: يخرج من تحت السرير، مثلا، حصان عار بقرنين وبوزه كراس الطير. تعذبت كثيرا، ورايت الكثير. وفي مثل الحال يصل الامر بالبعض الى الانتحار بطلقة مسدس، طلقة واحدة، وكفى. فما اكثر الذين ينتحرون. قد يحدث ان يقدم البعض على القتل بسبب الضجر. فيتصور الواحد منهم انحياته فيما بعد ستكون مثلما هي اليوم: ياكل وينام ثم يموت،ولا يبقى له الا ان يفسق بجنون لكي يؤثر عليه الفسق اشد التاثير وينغزه كالابرة. فما الذي يمنعه في هذه الحالة من ان يطعن شخصا بسكين؟.. ويطعنه ، والله ، بالفعل. اذ ان ذلك بسيط للغاية اذ استولت عليه الرغبة لحد الجنون. اما البعض ممن تعز عليهم انفسهم فيلجاون الى التطواف والتجوال. ثم انني شخصيا اصطحبت كثيرين. في الصيف الفائت تبعني شخص مثلك، ظل يطوف معي فترة طويلة ثم التجا الى السلطات واعترف لها بانه قاتل.

— صحيح، كل هذا صحيح، — اجاب الكسي بتروفيتش (كانا يتحدثان قرب كومة عالية من قش الموسم الفائت على تلة يتطلعان منها الى قرية في الاسفل لاحت على صفحة المغيب كخط قاتم من سطوح المنازل والمداخن واعواد بيوت الزرازير). — فانا الآن، اعرف على ما يبدو، لماذا اطوف. وربما انظهر وتصفو سريرتي، وعندذاك...—لاذ بالصمت فجاة واشاح بوجهه واغرورقت عيناه بالدموع. ولكي يستر اضطرابه اضاف بضحكة فاترة.

— اما انت فتتسكع عمرك كله كالطفيلي، انت طفيلي حقا.

— في رايي هذه اقوال سخيفة. — اجابه الدرويش — فلكل ماله. هناك اشخاص يشعرون بفرح كبير وهم جلوس على كراسيهم، وهناك اشخاص يشعرون بفرح كبير ايضا عندما يجوبون المدينة في العربات ويعزفون على الاكورديون. لا ضير في ذلك. الضرر كل الضرر فياضطراب الذهن وتشوشه. ما ادراك؟ ربما انا ايضا هارب من ضميري؟..

في اليوم العاشر وصلا الى الفولغا من جديد. وبعد الحوار قرب كومة القش لم يعد الدرويش يغني. بل غرق في تاملاته مطاطا الراس. وغرق الكسي بتروفيتش هو الآخر في تاملات واضحة مفرحة. خيل اليه ان الماضي كله هوس وهلوسة، ككابوس خانق وهاهو

الآن يسير في الشمس بين الجودار، ويشعر بحب غامر لم يشعر بمثله في السابق ابدا...

في قرية مطلة على النهر، تبعد عن ضيعة الامير زهاء ثلاثين كيلومترا، احتجز الشرطي الدرويش وتفحص هوية الامير وهزراسه وقال:

— طيب، اذهب، لكننا لا نسمح بالتجول دون عمل... فخذ بالك، يا ابن الكلب، اذا وقعت في يدي مرة اخرى ساحبسك.

اخذ الكسي بتروفيتش الهوية وترك القرية الى اجمة البلوط على ضفة النهر. وعندما خيم الظلام لمعت انوار المدينة كالنجوم على تلال الضفة الاخرى.

كل شيء هادىء مالوف: سكون الاجمة وخرير الماء وهذه الانوار اللماعة كالنجوم. رقد الامير على العشب في الظلمة واستسلم للبكاء. «عزيزتي كاتيا، يا زوجتي الحبيبة».

## الفصل الاخير

### — ١ —

في مساء اليوم التالي اندفع الناس من مبنى فندق كراسنوف الذي يشغله مسرح المدينة. بلل المطر الرصيف المعبد بالاسفلت والمضاء بمصباح معتم. لفظ باب الفندق جمهورا متحاشكا سرعان ما توزع على الرصيف. اسرع البعض عائدين الى بيوتهم، وتوجه البعض الآخر الى المطاعم ظل عدد من الرجال هناك للتفرج على السيدات والآنسات. شق الاقطاعيون القادمون من الارياف النائية طريقهم بخشونة وهم يتدافعون بالمرافق ويكررون: «معذرة، معذرة». اما اقطاعيو الناحية فقد تنحوا بتأدب وراحوا يتجاذبون اطراف الحديث بشأن موضوع المسرحية. وعندما خرج كبير النبلاء الذي يتحلى بكل مزايا التربية الانجليزية بالاضافة الى البدانة ترك البواب موقعه وهرع صائحا باعلى صوته . «احضروا العربة!»

وقف الموظفون على جانبي المدخل يتفحصون الوجهاء بفضول. وتزاحم طلاب في قبعات بروسية الطراز عند الباب ليمتعوا انظارهم



برؤية الاوانس ويهتفوا للممثلة التي ادت الدور الرئيسي في المسرحية.

وعلى الرصيف البليل سارت السيدات والاوانس وزوجات الموظفين والتجار متلفعات بالوشاحات والشيلان رافعات اطراف التنورات.

واخيرا ظهر في الباب فولكوف وكاتيا. فهمس الطلاب:

— انظروا، كراسنوبولسكايا!

حتى موشينكين، وهو موظف قصير القامة بشاربين طويلين للغاية، قفز مرتبكا وكانه ظهر من تحت قدمي كاتيا ورفع رأسه مندهشا.

حقا، كانت كاتيا في منتهى الجمال بمعطفها الابيض وقبعتها الصغيرة المضفورة من بنفسج اصطناعي. محياها العاجي صارم التقاطيع وشفتاها مزمومتان بأنفة واستعلاء وعيناها متسعتان متقدتان.

كانت منفعلة للمسرحية. فكل كلمة فيها تتحدث عن ماضي كاتيا نفسها. وكان الرجال ينظرون من المتصورات ومن القاعة الى مجلس كراسنوبولسكايا بوقاحة وخسة. فكانت تتعذب لهذه النظرات التي ظنتها متعمدة.

خلع البواب قبعته وسأل من فولكوف:

— على من انادي يا صاحب المعالي؟

— بيوتر، يا اخي، بيوتر. ناده باعلى صوتك — اجاب فولكوف.

فزعق البواب في طول الساحة وعرضها:

— بيو.. تر! احضر العربة!

عندما صعدت كاتيا العربة بعد ابيها علق فستانها بالمقبض والتفتت. «كاتيا!» — سمعت صوتا يناديها عن كثب فانتفضت وحملقت في تلك الجهة ثم رفعت راحتها في الحال وغطت عينيها وهبطت في المقعد العميق. وتحركت العربة.

كان الامير واقفا قرب عمود المصباح الكهربائي حاسر الرأس في ثياب بالية مهلهلة وفي بقية من حذاء ممزق. اشرأب بعنقه وشيع العربة المنطلقة بنظراته وراح يكرر كلمة واحدة لا غير: «كاتيا...»

وقال له شرطي:

– ماذا تفعل هنا؟ اذهب، هيا.
ما ان ابتعد الامير عن عمود الكهرباء حتى راى سوروبا يتطلع فيه عبر نظارته المنفردة بفضول ما بعده فضول.
– لم هذا الزي المتنكر؟ – ياامير هتف سوروبا وامسك بذراع الكسي بتروفيتش ثم نادى حوذيه وحمل الامير بالقوة على الصعود الى المركبة الانجليزية الصقيلة رغم محاولته للتملص من قبضته. وغمغم الامير: «هذا يلزمني، اتركني وشاني لا اريد الذهاب». وامر سوروبا الحوذي بالاسراع في اتجاه الهضبة كي يتمكن من بلوغ الضفة الثانية من النهر مع آخر عبارة.
هدا الكسي بتروفيتش وسكن محني الظهر في المركبة. كان يرد على الاسئلة باقتضاب ويحاول ضبط نفسه كيلا تصطك اسنانه من شدة القشعريرة التي انتابته. وادرك الامير ان سوروبا والآخرين سيفعلون بكل بساطة، طبعا، ما لن يتجرا عليه هو ابدا.
وقال فولكوف لابنته وهو يتمايل في العربة.
– الحقيقة انها مسرحية سخيفة. فعم كانوا يتصايحون؟ ذلك ما لا افهمه. واقول لك انني غفوت قليلا. اما انت، يا عزيزتي، فلايجوز لك ان تنفعلي. هل تشعرين بالتعب؟
– كلا، ابدا، يا بابا. – اجابت كاتيا، وضغطت قبضتيها بشكل غير ملحوظ. – الا انني لا اريد المبيت في المدينة. فلنذهب الى البيت.
– انت مجنونة! العمة اولغا تنتظرنا على العشاء. فكيف يجوز ان تغضب العجوز؟ ولكن لا تنفعلي، سناكل لقمة ثم نعتذر بسبب الاشغال ونرتحل. آه يا كاتيا، لا افهم شباب اليوم. رؤوسكم مليئة بالهوس والاباطيل. في السابق كانت الحياة ابسط.

– ٢ –

ما كان فولكوف يجانب الصواب عندما قال ان شباب اليوم مهووسون او «هوائيون» على حد تعبير العمة اولغا. فالعام الحالي كان عاما اسود بالنسبة له. ظلت كاتيا مريضة الشتاء كله، وما كادت تتماثل للشفاء، حتى فلت لسان كوندراتي وقال لها ان الطبيب غرق آنذاك تحت جليد النهر، وعند ذاك بدأ «الهواء» او الهوس



يجول ويصول في رأسها، حتى ان فولكوف اراد ذات مرة ان يترك المنزل ويهيم على وجهه... بعد ان نفد صبره ولم يعد يتحمل.
في الليل تاتي كاتيا الى والدها شبه عارية وهي ترتعش وتحدق في الاركان المظلمة وتجلس على الاريكة متربعة دون حراك وتحملق في لهيب الشمعة. ثم تجتاح وجهها رجفة متشنجة فتنتفض كالمصروعة وتصطك اسنانها. ثم تحدث اباها للمرة المائة عن كل ما جرى في تلك الليلة المشؤومة. ولكي يصرف انتباهها ولو قليلا عن تلك الاحاديث قال فولكوف لابنته بعد تفكير:
– اعتقد ان غريغوري ايفانوفيتش لم ينتحر بمحض ارادته، ولا علاقة لك انت بذلك. كان مقدرا له ان يموت.
– ماذا تقول؟ – سالت كاتيا وبدنها كله يختلج ويهتز – كان مقدرا له؟ يعني انه ضحية، اليس كذلك؟
وهدات فجاة وعاد اليها اطمئنانها. وذات مرة ذكرت الامير، ببساطة، بابتسامة مريرة على الشفتين لا اكثر. اطلق فولكوف شتيمة فلم تواصل كاتيا كلامها، ولكنها، على ما يبدو، كانت تفكر كثيرا ويحدثها قلبها بشيء. حل الربيع. وقال الاب مرة.
– كاتيا، عزيزتي، الا نزور العمة اولغا؟
– لم لا؟ – هزت كاتيا كتفيها.
اما ساشا فكان لتلك الفاجعة تاثير آخر عليها. عندما غادر غريغوري ايفانوفيتش البيت مع الاميرة ادركت ساشا بانه لن يعود، واذا عاد فسيكون غريبا عليها. وستكون هي غريبة عليه. وادركت كذلك ان حياتها معه كانت غلطة، فقد توجب عليها آنذاك، عند سياج البستان، ان تنصرف ولا توافق على الزواج. وقعدت وراء الستار وطفقت تفكر برداء العجائز الذي ستلبسه وبالدروب التي ستتسكع فيها ملتمسة الصدقة لوجه المسيح. واحست بانها لن تعيش في خضم العواطف كما كانت حتى الآن، بل في هذا التاثر المستكين الدائم امام السماء والارض والبشر.
عند الفجر سمعت طرقا على الباب فاقشعر بدنها وارتعشت كورقة حور. التقطت انفاسها وفتحت الباب فدخل الاب فاسيلي والقى عليها نظرة صارمة وقال.
– غرق، غرق غريغوري ايفانوفيتش.

طاطات ساشا راسها وغمغمت:

– رحمتك يا رب! – رسمت شارة الصليب وجلست على المصطبة، فلم تعد قدماها تحملانها.

قص عليها الاب فاسيلي كل ما حدثه به فلاح من قرية كوليفان كان قد شارك مع خدم الامير في انقاذ الاميرة من براثن النهر. استمعت ساشا الى القصة بهدوء، وقالت اخيرا:

– خذ، يا ابانا، هذه النقود واقم القداس على روح عبد ربه غريغوري، فهو لم يغرق، بل اغرقوه.

قضت ساشا الشتاء كله في منزلها دون ان تغير من عاداتها في رعاية الماشية والالتزام بالنظافة والترتيب. وفي المساء كانت تجلس الى الطاولة وتتطلع الى الكتب التي احبها غريغوري ايفانوفيتش، وعندما يشتد صفير الزوبعة الثلجية على السطح تقطب ساشا حاجبيها ظانة ان هذا الصفير هو نحيب روح غريغوري ايفانوفيتش التي لم يتسع لها الوقت كي تعلن التوبة.

وعندما حل الربيع غادرت القرية وقد شدت على راسها منديلا قطنيا اسود على طريقة الراهبات. ومنذ ذلك الحين لم يصادفها احد.

– ٣ –

اصرت كاتيا على الرحيل الى البيت فور انتهاء العشاء، ولم تجد نفعا لا توسلات العمة اولغا ولا غمزات الاب وتلميحاته. وعند الفجر جلست على سريرها متعبة للغاية وقد اخذ الانفعال منها مأخذه، جلست تنتظر عودة كوندراتي الذى انشغل باعداد الفراش لابيها.

كانت كاتيا تتصور وتتوقع دوما ان الامير يعد لها اهانة اخيرة، فصارت تستعد للدفاع. وهو في تصوراتها شخص يسخر منها دوما، بينما هي انسانة مهانة لا جريرة لها. وافضل وسيلة للدفاع طبعا هي اللامبالاة والاستهانة والهدوء «البارد» اثناء اللقاء، لكن كل هذه الابتكارات السخيفة لم تعد تصلح لشيء الآن.

فالامير التعيس النحيل بثيابه البالية عكر صفو افكارها واثار فضولها. لم يكن ظافرا منتصرا يسخر منها، بل كان يستجدي،



يستعطفها بان تتصدق عليه بنظرة وكان في تلك النظرة حياته او موته.

هذا ما تتصوره الآن، وقلبها يتفطر من اللوعة والالم. واغرب ما في الامر انها لم تعد تشعر بالاهانة الحاقدة كالسابق مع انها ترغب في هذا الشعور.

واخيرا جاء كوندراتي. فتح الباب برفق وسأل بلهجة مشوبة بالالغاز.

– ماذا تريدين يا سيدتي؟

– كوندراتي، لقد رأيت الامير. (سعل كوندراتي). انا لا افهم شيئا على الاطلاق... كان يستجدي، تعيسا نحيلا... ماذا؟ هل قتل احدا؟ ولماذا يتخفى؟

– محتمل انه قتل احدا. – اجاب كوندراتي.

– ارجوك لا تقل شيئا لبابا. اذهب الآن الى ميلويه او الى المدينة... اذهب الى اين تريد... – تعذر عليها الكلام لحظة. – ابحث عنه ولا تقل له اني ارسلتك... آه، لا فرق، قل له ما تريد... ولكن فليكف عن تعذيبي.

انصرف كوندراتي. ظلت كاتيا جالسة على السرير تنظر الى اشعة الشمس التي خلفت من خلال الاوراق لمعا على الارضية الخشبية العتيقة. وتناهى من البستان عبر النافذة المفتوحة صوت صفارية وهديل حمامة وزقزقة عصافير. كان البستان الاخضر المتفتح لا يزال نديا. وفي القسم العلوي من النافذة راحت ذبابة حمقاء تتخبط على الزجاج دون ان تنتبه الى ضرورة الهبوط الى اسفل. ولعل الذبابة تتصور ان السماء الزرقاء خلف خيشومها المتزلق على الزجاج والاشجار والفراشات البيضاء كالزهور والاطيار والندى مجرد حلم لن تبلغه الا بعد ان تضرب جداره براسها حتى الموت.

– ذبابة مزعجة! – قالت كاتيا وانزلقت من السرير وطبطبت على الزجاج بالمنشفة حتى طردت الذبابة الى البستان، ثم اشبكت يديها خلف ظهرها وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابا.

مر بذاكرتها شريط كامل لهذا العام المؤلم العسير. ولا اثر للفرحة فيه. لكنها الآن، وهي تستعيد الذكريات، لم تشعر بالالم

والقنوط، حتى لكأن كل ما حدث استكمل مساره وانحسر الى غياهب الضباب وتحول الى كآبة لذيذة. وظل باقيا لديها شعور بالحرية وبفرحة لا تعرف سببها كالتي تصادف عند اناس في عنفوان الشباب والحماسة.

دعكت كاتيا وجهها وعينيها براحتيها ونفضت رأسها وتطلعت فجأة بمنتهى الوضوح الى اعمق اعماق الروح.

وبعد تلك الاطلالة في الاعماق عاد اليها الاطمئنان وانطبعت على شفتيها ابتسامة رقيقة صافية. وتمتمت:

– طيب، انا مستعدة.

– ٤ –

تجمع كل خدم ضيعة ميلوبه في المطبخ ليستمعوا الى الوصيف فاسيلي وهو يحدثهم عن معالي الامير الذي وصل بصورة مباغتة ليلة البارحة ولا يعلم الا الله من اين جاء.

– رأيت متشردا يدخل المنزل فصحت به: الى اين انت ايها الاشعث؟ اما هو فقد انحنى لي وقال «مرحبا، يا فاسيلي. كيف الحال؟ كل شيء عندنا على ما يرام؟» وتسمرت في مكاني. فانا اراه امامي بثياب اسوأ من ثياب راعينا يفيمكا. وبعد ذلك رافقته الى الدور الثاني، الى غرفة النوم. اشار الى المقعد وسأل: «الاميرة جلست في كل مكان». واخذ ينظر الى المقعد وكأنها ينظر الى امرأة. لم اضبط نفسي وكدت انفجر ضاحكا. ثم قال: «اذهب، سادبر امرى بنفسي، ولكن سخن الحمام». واخذت ابص من شق الباب. فالى اي حد وصل. هوى على سرير الاميرة وعانق الوسائد. جاء متعطشا بعد ان نهشته نسوان المدينة. وهو الآن نائم. سينام يومين بكاملهما اذا لم نوقظه. نعم، خدمت عند اسياد كثيرين لكنني لم ار مثل هذه العجائب.

عدل فاسيلي صديريه الذي تتدلى منه سلسلتان واخرج حافظة السجائر التي اهداها له الامير في حينه واشعل سجارة ووضع رجلا على رجل.

– لا ادري كيف سيواجه الاميرة. سيكون ذلك صعبا جدا وستحدث عجائب كثيرة.



كان الفضول ينهش الجميع في المطبخ. وهرع آخرون من غرفة الخدم للاستماع الى فاسيلي. اما الامير فيغط في نوم عميق. وفجأة ظهر كوندراتي معبسا متربا من الباب الخلفي وسأل لاهثا:

– هل و.. صل.. الا.. مير؟

– وصل، ولكن ليس لدينا امر بايقاظه، – اجابه فاسيلي.

– هذا لايهمني، يجب ايقاظه.

اضطر كوندراتي الى السعال طويلا قرب عتبة غرفة النوم وطرق على الباب مرارا حتى غمغم الامير بصوت ناعس:

– ماذا؟ سانهض. نعم، نعم... – وبعد ذلك جلس على السرير فترة طويلة، على ما يبدو، ليستعيد حالته الطبيعية ثم قال بصوت آخر. – ادخل.

دخل كوندراتي مزموم الشفتين. حدق فيه الكسي بتروفيتش عدة دقائق، ثم قفز من السرير وهرع اليه واجلسه على كرسي وشحب لونه وارتعش لدرجة جعلت الخادم العجوز ينسى كل الكلمات الشائنة التي اراد ان ينهال بها على معاليه، فاشاح بوجهه وعلك بفكيه واكتفى بان قال:

– الاميرة طلبت مني ان اسأل عن صحتك. كادت تموت في الشتاء. وهي لا تريد ان تراك ابدا.

– كوندراتي، هل ارسلتك بنفسها؟ – امسك الامير بيده.

واضح انه ليس لدي ما اجيبك به طالما تصرفت بنذالة. كل ما امروني به اسأل عن صحتك.

لاذ الامير بالصمت طويلا. ثم استند بمرفقيه على الطاولة وانتحب. اعتصر الالم قلب كوندراتي، لكنه ضبط نفسه وقال متراجعا نحو الباب:

– هذا كل ما عندي.

– لا تذهب، تمهل – غمغم الامير واشرأب بعنقه عبر الطاولة – ساكتب لها.

واخذ يسطر حروفا مرتعشة بريشة صدئة:

«عزيزتي كاتيا... (كتب هاتين الكلمتين ثم شطبهما) لا اطلب منك شيئا ولا اتجرأ على شيء... لكنك الانسان الوحيد الذي احبه في هذا العالم. كان لي رفيق، وهو الآن في السجن، وقد

علمني كيف احب... عندما افكر فيك يمتلئ فؤادي بالنور والفرحة وبسعادة لم اعرفها في السابق ابدا... واضح انني لا املك الحق في... ومع ذلك سامحيني... اذا كنت تستطيعين ان تسامحيني... فسآتي زاحفا على الركبتين...»

— ٥ —

قبيل المساء وصل سوروبا الى ضيعة فولكوف (فقد تردد عليها كثيرا الصيف) وتوجه مباشرة الى مكتب الكسندر فاديميتش واخذ يتحدث عن الامير بمنتهى الاستياء. الا ان فولكوف القمه حجرا:

– اعرف كل شيء، واعتبر ذلك مصيبة كبرى شاب لها شعري، لكني ارجوك، يا سيدي، ان لا تذكرني بعد الآن بهذا الفاسق. – اقترب من النافذة وغير مجرى الحديث وطفق يتكلم عن الزراعة.

في تلك الاثناء دخل كوندراتي الحوش على عربة بعجلتين

«اين كان هذا العجوز العبيط؟» – فكر فولكوف ومد بدنه عبر النافذة وصاح به:

– اين كنت؟

هز كوندراتي رأسه واقترب بعربته من النافذة واوضح لسيده بانه جاء برسالة الى السيدة. فقال فولكوف: «هكذا اذن!» واغلق النافذة ومضى الى ابنته.

اضطرب سوروبا اشد الاضطراب، فقد حزر ان الرسالة من الامير.

وما ان مرت دقيقة حتى دخل فولكوف مهرولا لاهثا محتقن الوجه في حالة من الهياج الشديد.

– خالية! – صاح وهو يهز المحبرة – اين القلم؟ – التقط بسرعة القلم الذي قدموه له وكتب في الحال: «س.م» (سيدي المحترم) على نفس الورقة التي رسم على صفحتها الاخرى قبل عام ارنبا وثعلبا وذئبا وكلابا. ثم غاص في المقعد ومسح حبات العرق على جبينه.

وسأله سوروبا بحذر:



– ماذا حدث؟ خبرني، فربما استطيع مساعدتك.

– وقاحة، ابعد حدود الوقاحة! – زعق فولكوف – كلا، لابد ان ارد على هذا السافل. – وكتب. «س.م. تعوزني الكلمات المناسبة للتعبير عن وقاحة تصرفك». بعث قصاصة يعتذر فيها وكأن شيئا لم يكن! سأرد عليه من كل بد: «ابنتي ليست خادمة حتى ترسل لها قصاصة ورق. افلا يمكنك ان تاتي بالفعل زاحفا (ووضع خطا تحت هذه الكلمة) وتركع تحت نافذتها وتطلب الصفح منها؟..»

– أليس في ذلك خشونة كبيرة؟ – قال سوروبا وهو يقرأ عبر كتف فولكوف بنظارته الفردية المتقافزة على عينه. – مع ان امثال هؤلاء الاشخاص القليلي الادب لا يمكن وقفهم عند حدهم بغير هذه الصورة. انصحك ان توكل محاميا. ولكن كيف حال كاتيا؟ هل هي متألمة؟

– ماذا؟! – زعق فولكوف بصوت اعلى – تبكي طبعا. وانت؟ ما شأنك انت؟ اغرب عني!

الا ان كاتيا لم تبك. كانت تنتظر عودة كوندراتي، فتقف ازاء النافذة وتشد قبضتيها تارة او تجلس في المقعد العميق تارة اخرى وتاخذ كتابا وتقرأ فيه طوال الوقت جملة بعينها: «عند ذاك نهض يوري المفعم بالغضب النبيل وعدل قامته وهتف. – كلا، ثم كلا». وتلقي بالكتاب جانبا وتكرر مع نفسها: «يجب ان اكون متشددة». وفي تلك الاثنا، تحلق افكارها وتهوم بعيدا، وترى من جديد كرة المصباح الكهربائي وتحتها، على الاسفلت البليل، ذاك الشخص في حالة يرثى لها بعينيه السوداوين المتسعتين في جنون... كانت كاتيا تغطي وجهها بيدها وتنهض وتجوب الغرفة من جديد وتاخذ الكتاب وتقرأ: «عند ذاك نهض يوري المفعم بالغضب النبيل...» يا الهي، متى يعود كوندراتي، النهار يمتد كالدهر ولا اثر لكوندراتي!

واخيرا تناهت من الرواق خطوات الاب الثقيلة، وفتح الباب بصخب على مصراعيه ودخل كوندراتي مع فولكوف والرسالة بيده.

شحب وجه كاتيا حتى غدا كالليمون، وضغطت شفتيها. مزق الاب الظرف ودس الورقة بيدها. فاخذت تقراها ببطء. وقبل ان تتم قراءتها فهمت كل شيء... كل المشاعر التي اعتملت في قلب

الامير عندما حبر هذه السطور المعوجة الباكية. وهدات اعصابها
واطمانت نفسها. سلمت الرسالة لوالدها. فقراها على عجل وسال
بصوت جاف من شدة الانفعال:
– هل ستردين عليه بنفسك؟
– لا ادري. كما تشاء. بالنسبة لي سواء...
– سارد عليه انا اذن – جار فولكوف – سارد عليه...
فليزحف على ركبتيه... يتفاخر بانه سيزحف على ركبتيه...
فليزحف اذن!
– معاليه في اسوا حال، – تدخل كوندراتي بحذر –فهو
متالم جدا.
– اخرس!... اعرف بنفسي ما يلزم! – زعق فولكوف ودس
رسالة الامير في جيب سرواله وخرج من الغرفة راكضا...
ونادته كاتيا:
– بابا، تمهل... سارد عليه بنفسي! – وهمت بالتوجه الى
الباب راكضة، لكنها توقفت واسبلت يديها، وخاطبت كوندراتي
قائلة: – كل شيء، سواء. فليكن ما يكون.
واجابها الوصيف العجوز:
– سياتي اليك زاحفا على ركبتيه. فهو في حالة ستجعله
يزحف اليك.
بعثوا الجواب الى الامير مع تباشير فجر اليوم التالي. وكانت
كاتيا تعرف ما كتبه ابوها،ومع ذلك فهي مطمئنة صافية الذهن.

– ٦ –

سبحت فوق ضيعة فولكوفو منذ الصباح، غيوم رمادية كالدخان.
وفاحت روائح مركزة من السنابل والاعشاب، وتصاعدت اعمدة
الغبار على الدروب، وانداحت الرعود منسحبة الى ما وراء
الهضبة، ولمعت البروق، لكن المطر لم يهطل بعد، فلعله ينوي
مباغتة سطح المنزل والبستان والحقول بوابل غزير دافئ.
جلس فولكوف عند نافذة العلية المطلة على مدخل الدار



والمحفوفة باغصان البتولا واغلق احدى عينيه وحملق بالاخرى
في منظار مسلط على الطريق.
تسلق الصبيان من ابناء الخدم سطح مستودع العربات
وراحوا ينظرون في نفس الاتجاه الذي يمتد فيه الطريق مطوقا
الهضبة كالحزام ثم يضيع في بحر السنابل.
في بوابة المستودع المفتوحة على مصراعيها ينتظر حصان
رمادي مشدود الى عربة خفيفة جلس حوذيها على جذع قرب الجدار
وهو يربت على جزمته بالسوط. خرجت الحالبة من السرداب
ووضعت دلو اللبن على العشب واخذت تتطلع هي الاخرى وقد
شبكت يديها في اعلى مئزرها.
وصل فلاح في حنطور وخلع قبعته وانحنى لسيده في النافذة
ثم نزل وظل واقفا دون حراك. كان الجميع ينتظرون.
تمددت كاتيا بملابسها على السرير وغرزت وجهها في الوسادة.
فقد عاد الرسول الذي حمل الجواب الى ميلويه وافاد بان الامير
بدا زحفه.
وقبل ثلاث ساعات توجه كوندراتي للقائه. في تقدير فولكوف
لا بد للامير الآن من تسلق الهضبة الرملية التي ياتي بعدها
صفصاف الشاطئ، وهي هضبة الجياد تلاقي صعوبة كبيرة في
سحب المركبة اليها.
وفجاة صاح الصبيان على السطح:
– ها هو قادم، قادم!
اسرع فولكوف الى ابنته وهو يخف بخفه. الا انها كانت قد
خرجت الى المدخل، وقد انفرطت ضفائرها وانساب شعرها على
ظهرها. تشبثت بعمود المدخل واخذت تحدق بتوتر في ابعد جزء من
الطريق.
وسال الفلاح الواقف قرب الحنطور من الحالبة:
– من ينتظرون يا عمتي؟ القائمقام؟
– ربما. الله اعلم! – اجابت المراة ورفعت الدلو وانصرفت.
ظهر على الطريق من وراء الهضبة شخص يسير ماشيا، فصاح
الصبيان من جديد.
– امراة، امراة متسولة...

وعندذاك تركت كاتيا العمود وهبطت الى الحوش ونادت الحوذي: – اسرع بالعربة!

اندفع الحصان الرمادي من بوابة المستودع وجلجلت العربة فقفزت كاتيا اليها وانتزعت العنان من يد الحوذي وساطت به الحصان فانطلق مخلفا عاصفة من الغبار.

ظلت سحابة الغبار معلقة فوق الطريق امدا طويلا ثم غيرت اتجاهها وتحولت الى عمود حلزوني راح يدور في الحقل مثيرا الرعب في قلوب الوسواسيين، فهم يعتقدون بانه لو ضرب احد هذا العمود الدوار بسكين لتناثر في الحال مخلفا قطرة دم عليها.

في منتصف الطريق الصاعد الى الهضبة الرملية بين شجيرات الصفصاف المتباعدة ركع الامير الكسي بتروفيتش على ركبتيه ويداه على الرمل وقد تدلى راسه ووجهه يتصبب عرقا وانفاسه تتلاحق بصفير وعروق رقبته منتفخة زرقاء.

ووقف كوندراتي خلفه ممسكا بلجام حصان اشقر يهز راسه ليتخلص من ذباب الخيل. وقف كوندراتي يتنهد ويتحسر ويتطلع الى الامير بنظرة ملؤها الشفقة والعطف.

حوم الذباب حول الامير ايضا، الا ان كوندراتي كان ينشه ويمنعه من ان يحط عليه. وقال:

– كفاية، يا سيدي، انهض، فالهضبة عالية. اركب الحصان وعندما تلوح فولكوفو من بعيد يمكنك ان تزحف من جديد، فالطريق هناك منحدر.

قوم الكسي بتروفيتش ظهره بصعوبة وحرك ركبته المحكوكة التي تخثر عليها الدم في سرواله الممزق ومضى بسرعة زاحفا الى الامام. وما كاد يتقدم بضع خطوات حتى سقط من جديد. كان وجهه رماديا وعيناه شبه مغمضتين وقد التصقت خصلة شعر بجبهته وتعمقت الغضون حول شفتيه.

وكرر كوندراتي:

– لا تزال المسافة بعيدة، اركب الحصان، ارجوك، لخاطر المسيح!



تطلع الامير باكتئاب الى الهضبة الرملية و..، تسمر.

فقد اندفعت كاتيا هابطة من الهضبة وهي تستحث الحصان الرمادي بسيور العنان. وما ان رات زوجها حتى انحرفت بالعربة بشدة وقفزت منها قبل ان تتوقف وهرعت اليه. جلست القرفصاء امامه ورفعت وجهه على عجل، فاعتدل الامير وامسك يدها بقوة وقرب وجهه من وجهها قدر ما يستطيع وحدق في عينيها الرائعتين المغرورقتين بالدموع...

– احبك، احبك طبعا، – قالت لزوجها وساعدته على النهوض.

## سنة ١٩١٢

ترجمة خيري الضامن

# طفولة نيكيتا

**الاهداء**

الى ولدي
نيكيتا الكسييفيتش تولستوي
مع وافر الاحترام.

المؤلف

## صباح مشمس

تنهد نيكيتا وفتح عينيه الناعستين. الشمس مشرقة عبر دانتيلا الجليد على زجاج النوافذ. عبر النجيمات الرائعة والاوراق العريضة المرسومة عليه بالفضة المتجمدة. الضوء في الغرفة ناصع البياض كالثلج، ومن طست الغسال قفزت بقعة ضوئية الى الجدار وظلت ترتعش معلقة هناك.

حالما فتح نيكيتا عينيه تذكر ما قاله النجار باخوم مساء أمس:

– ساطليها جيدا واصب الماء على أسفلها حتى يتجمد وعندما تستيقظ في الصباح ستكون جاهزة، فخذها.

مساء امس اعد النجار الاعور المجدر الوجه مصطبة – زحافة تلبية لطلب ملح من نيكيتا. وقد صنع الزحافة على النحو التالي:

في مستودع العربات، على منضدة النجارة، بين نشارة الخشب الفواحة الملتوية في حلقات لا تعد ولا تحصى، نجر باخوم لوحين بينهما اربع قوائم وعالجها بالمسحل حتى غدت صقيلة. قطع حافة اللوح الأسفل بشكل مائل من طرفه البارز الى الأمام كيلا



ينغرز في الثلج، وفي اللوح العلوي حفر ثقبين للساقين كي يسهل الجلوس عليه. وطلى اللوح الأسفل من تحت بالسرقين وصب عليه الماء، ثلاث مرات في الصقيع حتى تجمد وغدا كالمرآة، وربط حبلا الى اللوح العلوي يستخدم في سحب الزحافة وفي توجيهها عندما تنزلق بسرعة من المرتفعات.

الزحافة جاهزة الآن طبعا وهي تنتظر عند المدخل. تلك هي عادة النجار باخوم اذا قطع على نفسه عهدا «بكلام شرف».

جلس نيكيتا على حافة السرير واخذ يتسمع السكون يعم المنزل. لم يستيقظ احد بعد على مايبدو. واذا ارتدى ملابسه على عجل، دون ان يغتسل وينظف اسنانه طبعا، فيمكنه ان يخرج الى الحوش من الباب الخلفي. ومن هناك الى النهر. على ضفاف النهر المنحدرة اكوام ثلج كثيرة، فاجلس على زحافتك واهبط بها محلقا...

ترك نيكيتا سريره وسار على اطراف أصابعه في المربعات الشمسية الساخنة على ارضية الغرفة...

فتح الباب آنذاك ولاح منه رأس في نظارة وحاجبين أشقرين نافرين ولحية شقراء صارخة. غمز الراس باحدى عينيه وقال:

– نهضت ياشيطان؟

## اركادي ايفانوفيتش

كان ذو اللحية الشقراء، اركادي ايفانوفيتش معلم نيكيتا، قد عرف كل شيء منذ الأمس، فاستيقظ هذا الصباح قبل المعتاد. وهو داهية وحازم الى حد مدهش. دخل غرفة نيكيتا ضاحكا وتوقف عند النافذة ونفخ الهواء الحار من فمه على الزجاج حتى غدا شفافا وعدل نظارته وتطلع الى الحوش، وقال:

– قرب المدخل زحافة ممتازة.

لاذ نيكيتا بالصمت وعبس، فلا مهرب اذن من تنظيف الأسنان وغسل الاذنين والرقبة فضلا عن الوجه. ارتدى نيكيتا ثيابه واغتسل فعانقه اركادي ايفانوفيتش من كتفيه واقتاده الى غرفة الطعام. جلست ام نيكيتا عند المائدة وراء السماور، وكانت

في فستان رمادي دافىء. لمست وجه نيكيتا* وتطلعت بعينيها الصافيتين في عينيه وقبلته.

– هل نمت نوما هادئا يا نيكيتا؟

ثم مدت يدها الى المعلم وسألت برقة:

– وانت يا اركادي ايفانوفيتش، كيف نمت البارحة؟

نمت، بالطبع، نوما جيدا – اجاب باسما لشيء لا يعلمه الا الله وتحرك شارباه الأشقران وجلس الى المائدة وصب القشدة السائلة في الشاي وقذف قطعة سكر في فمه وامسك بها بأسنانه البيضاء، وغمز لنيكيتا من وراء النظارة.

اركادي ايفانوفيتش شخص لا يطاق، فهو يمزح ويغمز بعينيه دوما ولا يتكلم بصراحة ابدا، بل بتلميحات ينقبض لها القلب. سألته ماما، مثلا، بوضوح تام «كيف البارحة؟» فبماذا أجاب؟ «نمت، بالطبع، نوما جيدا». وتعني «بالطبع» هذه «ان نيكيتا اراد ان يفر الى النهر بدون شاي الصباح تهربا من الدروس، وانه بدلا من ترجمة النص الالماني جلس مساء ساعتين مع النجار باخوم في مستودع العربات».

صحيح ان اركادي ايفانوفيتش لا يتشكى ابدا، لكن نيكيتا مضطر دوما الى الحذر والاحتراس.

اثناء احتساء الشاي قالت أمه ان الصقيع اشتد في الليل وتجمد ماء البرميل في الدهليز، ويتعين على نيكيتا ان يرتدي القلنسوة الواقية من الثلج عندما يذهبان للنزهة.

فقال نيكيتا:

– ماما، الحر شديد، والله.

– ارجوك، البس القلنسوة.

– انها تقرص خدي. اختنق بها، يا ماما وسأصاب بالبرد.

القت الأم نظرة صامتة على المعلم وعلى ابنها.

وقالت بصوت مرتجف:

– لا ادري كيف وصلت الى هذا الحد من المشاكسة.

– حان وقت الدرس، فلنذهب – قال المعلم ونهض بحزم ومسح يديه على عجل وكأنما لا يوجد على وجه البسيطة شيء امتع من حل مسائل الحساب واملاء الحكم والأمثال التي تجلب النعاس.



في غرفة واسعة بيضاء على أحد جدرانها خارطة لشطري الكرة الأرضية جلس نيكيتا الى مكتب تغطيه بقع الحبر ومختلف الرسوم. فتح اركادي ايفانوفيتش كتاب الحساب وقال بصوت نشيط:

– طيب، اين توقفنا امس؟ – ورسم بالقلم الرصاص الحاد السن خطا تحت رقم المسألة المطلوبة.

«باع بزاز عدة أذرعة من القماش الازرق بـ ٣ روبلات و ٦٤ كوبيكا للذراع الواحد ومن القماش الاسود...» – قرأ نيكيتا، وتصور في الحال، كما هي عادته دوما، هذا البزاز الذي اطل عليه من كتاب الحساب بسترة طويلة متربة ووجه اصفر كئيب، وهو نحيل باهت اغبر. حانوته معتم كجحر في الارض، وعلى الرف المسطح المغبر قطعتان من القماش. مد البزاز يديه العجفاوين الى الرف واخذ القطعتين وتطلع الى نيكيتا بعينين كابيتين جامدتين كعيون الموتى.

– بم تفكر يا نيكيتا؟ – سأله اركادي ايفانوفيتش – مجموع ما باعه البزاز ثمانية عشر ذراعا، فكم ذراعا باع من القماش الازرق وكم من القماش الأسود؟

انكمش وجه نيكيتكا وانضغط البزاز على الجدار حتى غدا مسطحا، وغطى الغبار قطعتي القماش ثم اطبق عليهما الجدار...

وقال المعلم: «يا عيب الشوم!»، واخذ يشرح ويكتب الأرقام بالقلم الرصاص بسرعة ويضربها ويقسمها ويكرر: «باليد واحد، باليد اثنان» وخيل لنيكيتا ان رقم «واحد» ورقم «اثنان»، خلال عملية الضرب، قفزا بسرعة من الورق الى اليد واخذا يدغدغان راحتها، كيلا ينساهما. وأزعجه ذلك كل الازعاج، في حين يلمع شعاع الشمس في نافذتي غرفة الدراسة المتجلدتين ويدعوه: «الى النهر، هيا».

واخيرا انتهى درس الحساب، وبدأ الاملاء. سار المعلم على امتداد الجدار وطفق يملي بصوت متميز ناعس لا يتكلم الناس به مطلقا:

– «... كل الحيوانات الموجودة على الأرض تكدح وتعمل على الدوام. التلميذ مجتهد ومطيع...».

انهمك نيكيتا في الكتابة وقد تدلى طرف لسانه، وراحت الريشة تصر وتقذف حبرا.

وفجأة اصطفق باب المنزل وتناهى من الرواق وقع جزمة متجلدة. خفض اركادي ايفانوفيتش الكتاب واخذ ينصت. تعالى صوت الأم فرحا من قريب:

– ماذا؟ جلبت البريد؟

دس نيكيتا راسه في الدفتر كيلا ينفجر ضاحكا. ثم كرر مرتلا:

– مجتهد ومطيع كتبت، «ومطيع».

عدل المعلم نظارته:

– وهكذا، كل الحيوانات الموجودة على الأرض مجتهدة ومطيعة... لماذا تضحك؟.. هل نفطت حبرا؟.. بالمناسبة سناخذ فرصة قصيرة للاستراحة.

ضم اركادي ايفانوفيتش شفتيه وهدد الصبي باصبعه الطويل كالقلم وخرج من الغرفة على عجل. وفي الرواق سأل ماما:

– هل هناك رسالة لي الكسندرا ليونتيفنا؟

حزر نيكيتا ممن ينتظر المعلم رسالة. لكن الوقت ضيق ولا يجوز تفويت الفرصة. ارتدى معطفه الفرائي القصير وجزمته اللباد وقبعته ودس القلنسوة تحت الخوان كيلا يعثر عليها احد وخرج راكضا.

## اكوام الثلج

الحوش الفسيح ملفع عن آخره بثلج هش ناصع لماع عليه آثار بشرية عميقة زرقاء، وآثار متكررة لقوائم الكلاب. الهواء الصقيعي الحاد يلسع الانف وينغرز في الخدين كالأشواك. بدت الحظائر والعنابر ومستودع العربات اوطأ من المعتاد وكأنما نبتت في الثلج وارتدت قبعات بيضاء. امتد خطان زجاجيان خلفتهما زحافة ساعي البريد من المنزل عبر الحوش الى الخارج.

هبط نيكيتا على مدرج المدخل والثلج يصر تحت قدميه، ووجد في اسفله الزحافة الجديدة المنجورة من خشب الصنوبر والمشدودة بحبل مفتول من الألياف. تفحصها وتأكد من متانتها



وجربها فاذا هي تنزلق بيسير ثم حملها على كتفه واخذ معه المعول، فقد يحتاج اليه، وركض في الطريق على طول البستان حتى السد الذي تنتصب ازاءه صفصافات ضخمة شاهقة الى عنان السماء وعريضة باغصان مكسوة بالندى المتجلد و كأن كل غصن منها مصنوع من الثلج. استدار نيكيتا نحو اليمين، الى النهر، وحاول ان يسير على آثار خلفها آخرون في الطريق، اما في الأماكن المغطاة بثلج لم تمسه قدم فقد سار نيكيتا بالمقلوب، الى الخلف، كي يضلل اركادي ايفانوفيتش.

على ضفاف نهر تشاغرا الشديدة الانحدارتجمعت خلال الأيام الفائتة اكوام كبيرة من الثلج الهش. وفي بعض الأماكن اطلت تلك الاكوام كالرؤوس على النهر. حالما يضع المرء قدمه على احدها يتهاوى ويسقط متدحرجا الى الأسفل شلال من الثلج وسط عاصفة من «الغبار».

والى اليمين يتلوى النهر كالظل الأزرق بين الحقول الخالية البيضاء. وعلى ضفة النهر العالية الى اليسار تلوح المنازل السوداء وشواديف الآبار في قرية سوسنوفكا وفوق السطوح يتصاعد دخان أزرق ويذوب في الأعالي. وعلى المنحدر الثلجي الذي تنتشر فيه بقع صفراء وخطوط من الرماد الذي جرفوه صباح اليوم من الأفران والمدافىء تحركت اشباح صغيرة. اولئك هم أصحاب نيكيتا اولاد «طرفنا». وفي مكان ابعد، عند منعطف النهر، لاحت اشباح باهتة لصبيان آخرين، هم اولاد «راس القرية» الخطرون جدا. ألقى نيكيتا بالمعول جانبا ووضع الزحافة على الثلج وامتطاها وامسك بالحبل بشدة واعطاها دفعة برجليه او دفعتين وراحت الزحافة تتزحلق هابطة من تلقائها. صفرت الريح في اذنيه وتصاعد نثار الثلج من الجانبين. وانطلقت الزحافة الى الأسفل كالسهم. وفجأة حلقت في الهواء عند نهاية الثلج فوق المنحدر ثم حطت على جليد النهر وتضاءلت سرعتها بالتدريج وتوقفت.

ضحك نيكيتا ونزل من الزحافة وسحبها الى الشاطىء المرتفع وهو يغوص في الثلج حتى الركبتين. وعندما تسلق الشاطىء شاهد في الحقل الثلجي ليس بعيدا من هناك شبح اركادي ايفانوفيتش أسود واطول من البشر العاديين كما خيل اليه. التقط نيكيتا المعول

والقى بنفسه على الزحافة وتزحلق الى الأسفل وركض على الثلج الى المكان الذي تطل فيه أكوام الثلج كالرؤوس فوق النهر.

صعد الى قاعدة احد الرؤوس واخذ يحفر فيها كهفا. لم يبذل جهداً كبيراً في حفر الكهف، فالثلج يتقطع بيسر تحت المعول. دخل الكهف وسحب الزحافة اليه واخذ يرصف المدخل بكريات ثلجية متراصة تنشأ منها جدار. انسكب في داخل الكهف ضوء خافت ازرق من شق في الجدار و شعر نيكيتا بالمتعة والارتياح.

جلس هناك يفكر: مامن أحد غيره من الصبيان يمتلك مثل هذه الزحافة الرائعة. اخرج سكينه الصغيرة واخذ يحفر بها على لوحها العلوي اسم «فيفيت».

– نيكيتا، اين اختبأت؟، – سمع صوت معلمه.

دس السكين في جيبه وتطلع عبر الشق في جدار الثلج فراى اركادي ايفانوفيتش واقفا على الجليد في الأسفل وراسه الى الأعلى.

– اين انت يا شيطان؟

عدل المعلم نظارته وتقدم صاعدا صوب الكهف، لكنه سرعان ما غاص في الثلج حتى الخصر.

– اخرج، ساجرك من هناك على اية حال.

صمت نيكيتا، فحاول اركادي ايفانوفيتش ان يتقدم نحوه لكنه غاص في الثلج من جديد. ودس يديه في جيبه وقال:

– ترفض الخروج؟ ابق اذن. لكن ماما استلمت رسالة من سامارا... فوداعا، انا ذاهب...

– اي رسالة؟ – سال نيكيتا.

– هيه ! يعني انك هنا.

– خبرني، ممن الرسالة؟

– انها حول مجيء بعض الأشخاص في العيد.

تطايرت كريات الثلج في اعلى الجدار في الحال. وبرز راس نيكيتا من الكهف. وضحك اركادي ايفانوفيتش مرحا.



## رسالة الاسرار

اخيرا قرات ماما الرسالة اثناء الغداء. وهي من بابا.

«عزيزتي الكسندرا، اشتريت ما اتفقنا على اهدائه لذلك الصبي الذي لا يستحق، على ما اعتقد، ان نهدي له هذا الشيء الرائع. – اخذ اركادي ايفانوفيتش يغمز بعينيه ويكرر الغمز لدى سماع هذه الكلمات. – والشيء المذكور كبير فارسلوا زحافة اضافية من اجله. واليك نبأ آخر: آنا ابولوسوفنا بابكينا تنوي زيارتنا مع الاطفال في العيد...»

– اما الباقي فلا اهمية له. – قالت ماما وردت على كل اسئلة نيكيتا بان اغمضت عينيها وهزت رأسها: – لا ادري.

وصمت اركادي ايفانوفيتش ايضا ولوح بيديه ولسان حاله يقول: «لاادري». وعلى العموم كان اركادي ايفانوفيتش طول النهار مرحا اكثر من المعتاد ويتكلم لا على التعيين ويخرج من جيبه بين الحين والآخر رسالة يقرا منها سطرين ويزم شفتيه. يبدو ان لديه هو الآخر سرا.

قبيل حلول الظلام هرع نيكيتا عبر الحوش الى جناح الخدم الذي يتبعث من نافذتيه المتجمدتين ضوء يستقر على الثلج البنفسجي. كان الخدم يتناولون العشاء. صفر نيكيتا ثلاث مرات، وبعد دقيقة خرج صديقه الحميم ميشكا كورياشونوك حاسر الراس في جزمة لبادية ضخمة ومعطف فرائي قصير القاه على كتفيه، وفي الحال، وراء ركن الجناح، حدثه نيكيتا همسا عن الرسالة وساله عن نوعية الشيء الذي يمكن ان يجلبون من المدينة.

قال ميشكا كورياشونوك واسنانه تصطك من البرد:

– شيء كبير جدا. وليقبض الله روحي ان لم يكن كما اقول. البرد شديد، انا ذاهب. ولكن، اسمع، نريد ان نضرب أولاد راس القرية غدا. هل تذهب معنا؟

– بالطبع.

عاد نيكيتا الى المنزل وجلس يطالع «الفارس المقطوع الراس».

وعند المنضدة المستديرة تحت المصباح الكبير جلست ماما واركادي ايفانوفيتش يطالعان ايضا. ووراء الفرن الكبير اخذ جندب ينشر حطبة: – تر – تر، تر – تر. وانبعث صرير من خشبة الارضية في الغرفة المجاورة المظلمة.

الفارس يجوب البراري مقطوع الراس وترتطم رجلاه بالاعشاب العالية. بزغ القمر احمر فوق البحيرة، واحس نيكيتا بان الشعر يتحرك على قفاه. التفت بحذر فراى ظلا رماديا يمرق وراء النوافذ السوداء. رآه، والله رآه. رفعت ماما راسها عن الكتاب وقالت:

– الريح تشتد، تهب زوبعة في الليل.

## الحلم

راى نيكيتا حلما في المنام، نفس الحلم الذي راه عدة مرات.

انفتح باب الصالة بيسر وهدوء. على الارضية ظلال مائلة الى الزرقة تنعكس من النوافذ السوداء التي تعلق القمر وراءها بدرا منيرا كبيرا. تسلق نيكيتا طاولة لعب الورق عند الجدار بين النافذتين وراى:

قرب الجدار المقابل الأبيض كالطباشير يتمايل رقاص مستدير في هيكل ساعة مستطيل. الرقاص يتمايل و ينعكس عليه ضوء القمر. وفوق الساعة في اطار على الجدار شيخ عابس يدخن غليونا، والى جنبه عجوز تتطلع، مزمومة الشفتين في قلنسوة خفيفة ووشاح. وعلى امتداد الجدار من الساعة حتى الركن اقعت مقاعد عريضة مخططة كل منها باربع قوائم ويدين ممدودتين. وفي الركن انبطحت اريكة واطئة كجذع شجرة. المقاعد والاريكة جلوس بلا وجوه ولا عيون وهي تحدق في القمر دون حراك.

خرج قط من تحت الاريكة، من بين الشراشيب. مطط ظهره وقفز على الأريكة ومضى طويلا اسود بذيل متدل. قفز من الاريكة الى المقاعد وتمشى عليها، على امتداد الجدار، وهو يتلوى ويدس



راسه تحت مساندها. وعندما بلغ المقعد الاخير قفز منه الى الارضية الخشبية واقعى امام الساعة و ظهره الى النوافذ. والرقاص يتمايل. القى الشيخ والعجوز نظرة شزراء على القط. وعند ذاك نهض القط واستند بقائمته الامامية الى هيكل الساعة وحاول ان يوقف الرقاص بقائمته الاخرى. الهيكل غير مزجج. والقط يكاد يلمس الرقاص.

يا ليت نيكيتا يصرخ! لكنه لا يستطيع. فقد تجمد بلا حراك، يا للفظاعة، ستحل المصيبة، يا للفظاعة...

استقر ضوء القمر على الارضية بمستطيلات جامدة. كل ما في الغرفة ساكن هادىء على قوائمه. اما القط فقد استطال وخفض راسه وضغط اذنيه وهو يحاول ان يمسك بالرقاص، واذا لمسه بقائمته سيتوقف. نيكيتا متاكد من ذلك، وفي تلك اللحظة سيتحطم كل شيء، ويتمزق ويدوي ثم يختفي كالغبار، ولن تبقى هناك لا الصالة ولا ضوء القمر.

ومن شدة الخوف اخذ الزجاج يرن ويفرقع في دماغ نيكيتا، ودبت القشعريرة كالرمل على بدنه كله... استجمع نيكيتا قواه وهرع الى الارضية بصراخ مستغيث! وفجاة انخسفت الأرضية وغارت في الأعماق. جلس نيكيتا وتطلع حواليه. في الغرفة نافذتان متجلدتان يلوح عبر زجاجهما قمر غريب اكبر من المعتاد. وعلى الارضية قعادة وجزمة.

«الحمد لله!» – رسم نيكيتا شارة الصليب على عجل ودس راسه تحت الوسادة. كانت الوسادة دافئة ناعمة محشوة عن آخرها بالاحلام.

وما ان اغمض نيكيتا عينيه حتى راى نفسه من جديد واقفا على الطاولة في تلك الصالة. والرقاص يتمايل في ضوء القمر والشيخ والعجوز ينظران شزرا. وراس القط يلوح ثانية من تحت الأريكة. الا ان نيكيتا مد يديه هذه المرة وقفز من الطاولة وفرفط محركا رجليه بمنتهى السرعة وكانه يطير محلقا او يعوم فوق الارضية. ما اروع التحليق في الغرفة. وعندما لمست قدماه الارضية فرفط بيديه وارتفع ببطء الى السقف واخذ يطير بتحليق متعرج على

طول الجدار. وراى الطنف المزخرف قريبا من انفه وعليه غبار رمادي دقيق وفاحت هناك رائحة مقبولة. ثم راى الصدع المفطور في الجدار، وهو يعرف هذا الصدع جيدا لانه متعرج كنهر الفولغا على الخارطة وبعد ذلك راى مسمارا عتيقا وغريبا جدا عليه اصل من حبل مقطوع تعانقه ذبابات ميتة.

دفع نيكيتا الجدار بقدمه فحلق ببطء عبر الغرفة صوب الساعة. في اعلى هيكلها مزهرية برونزية وفي قاع المزهرية شيء لم يتسن له ان يتفحصه. وفجأة خيل لنيكيتا ان صوتا يقول له «خذ ما في المزهرية».

اقترب نيكيتا من الساعة وهم بان يدس يده في المزهرية، لكن العجوز الشريرة امتدت بسرعة من اطار اللوحة على الجدار وامسكت راس نيكيتا بيديها العجفاوين. تملص منها، لكن الشيخ نزل من اللوحة الاخرى خلفه ولوح بغليونه الطويل وضرب نيكيتا على ظهره ضربة جعلته يطير الى الارضية و يئن ويفتح عينيه.

الشمس تلمع و تتطاير منها الشرر عبر دانتيلا الجليد على الزجاج. وازاء السرير وقف اركادي ايفانوفيتش يهز كتف نيكيتا ويقول:

– انهض، انهض، الساعة التاسعة.

عندما جلس نيكيتا على السرير يدعك عينيه غمز المعلم عدة مرات وراح يفرك يديه على عجل:

– اليوم يا اخي، لن ندرس.

– لماذا؟

لان «لماذا» تتكون من لام وما وذا. يمكنك ان تمرح قدر ما تريد اسبوعين كاملين. انهض.

قفز نيكيتا من السرير واخذ يرقص على الأرضية الدافئة:

– عطلة الميلاد! – نسي تماما ان اسبوعين طويلين من السعادة يبدآن اليوم. وعندما رقص نيكيتا امام معلمه نسي شيئا آخر، نسي الحلم والمزهرية التي فوق الساعة والصوت الذي همس في اذنه : «خذ ما في المزهرية».





انهالت على راس نيكيتا اربعة عشر يوما من الحرية يفعل خلالها كل ما يشاء، حتى شعر بالملل بعض الشيء.

اثناء احتساء شاي الصباح خلط الحليب والخبز والشاي والمربى فيما يشبه العصيدة، فشبع منها حتى اضطر الى الجلوس صامتا بعض الوقت. حدق في صورته المنعكسة على السماور وظل مندهشا امدا طويلا اوجهه المشوه الطويل على امتداد السماور كله. ثم فكر بانه لو اخذ ملعقة شاي وقطعها قسمين لنشأ من احدهما قارب ومن الآخر عود ينبش به شيئا ما.

واخيرا قالت ماما: «الأفضل ان تذهب للتنزه يا نيكيتا».

ارتدى ملابسه متمهلا وسار في الرواق الطويل المريح الدافيء الذي تفوح منه رائحة الافران واخذ يرسم باصبعه خطا على امتداد الجدار المجصص. في القسم الجنوبي من المنزل، الى يسار الرواق، تقع غرف السكن الشتوية المدفأة، والى اليمين من جهة الشمال، خمس غرف صيفية فارغة لحد النصف وبينها صالة. افران التدفئة الضخمة المزخرفة في هذا القسم لا يسخن الا مرة في الا سبوع، والثريات البلورية هناك ملفوفة بالشاش، وعلى ارضية الصالة كومة من التفاح الذي تفوح رائحته العسلية العفنة بعض الشيء، فيعج بها كل النصف الصيفي من المنزل.

فتح نيكيتا بصعوبة باب البلوط بدفتيه الثقيلتين وجاب الغرف الخالية على اطراف اصابعه. لاح البستان الملفع بالثلج عبر النوافذ نصف الدائرية. كانت الأشجار تنتصب ساكنة باغصان متدلية بيضاء، وعلى جانبي سلم الشرفة تنوء شجيرات الليلاك بثقل الثلج. وفي الفسحة الخالية بدت آثار زرقاء لأرانب برية. وعلى غصن قرب احدى النوافذ جثم غراب اسود يشبه الشيطان براسه الكبير. نقر نيكيتا باصبعه على زجاج النافذة فمال الغراب على جنبه ثم حلق ناثرا ثلج الأغصان بجناحيه.

بلغ نيكيتا ابعد غرفة، وهي غرفة ركن المنزل، وفيها تنتصب على امتداد الجدران خزانات ملفعة بالغبار تلمع عبر زجاجها مجلدات

الكتب القديمة. وفوق المدفأة الجدارية المزخرفة علقت صورة لامراة رائعة الجمال في بزة خيالية مخملية سوداء وقفاز متسع الطرف وبيدها سوط. خيل لنيكيتا انها كانت تسير ثم التفتت اليه والقت عليه نظرة باسمة ماكرة من عينيها المستطيلتين الثاقبتين.

جلس نيكيتا على الاريكة وراح يتطلع الى المراة مسندا ذقنه بقبضتيه. كان بوسعه ان يجلس بهذه الهيئة ويتطلع اليها طويلا. فبسببها – كما سمع من امه غير مرة– حدثت لجد ابيه مصائب كثيرة. صورة ذلك الجد المسكين معلقة هنا ايضا، فوق احدى خزانات الكتب انه شيخ نحيف ذو أنف مدبب وعينين غائرتين، وقد امسك رداءه عند الصدر بيده المزينة بالخواتم، وجنبه قرطاس من البردي مطوي لحد النصف وريشة بطة. كل الدلائل تشير الى انه شيخ تعيس للغاية.

عرف نيكيتا من ماما ان ذلك الجد كان ينام في النهار عادة ويطالع ويكتب في الليل، ولايتمشى الا عند الغروب. وفي الليل كان الخفراء يتجولون حول المنزل ويطقطقون بالخشخاشات ليطردوا الطيور الليلية عن النوافذ حتى لا تخيف الجد.

ويقال ان البستان امتلا حينذاك باعشاب كثيفة عالية. وكان المنزل غير ماهول وقد اغلقت كل مبانيه ماعدا هذه الغرفة. وتفرق الخدم وظل الجد في حال يرثى لها.

ذات مرة افتقدوه. لم يجدوه لا في مكتبه ولا في المنزل ولا في البستان. بحثوا عنه اسبوعا بكامله دون ان يعثروا له على اثر. وبعد حوالى خمسة ايام استسلم ورثته رسالة منه وصلت من سيبيريا وكلها الغاز: «كنت انشد الهدوء في الحكمة فوجدت السلوى في احضان الطبيعة». والسبب في كل تلك الظواهر الغريبة هو هذه المراة في بزة الخيالة تطلع اليها نيكيتا بفضول وانفعال.

حط الغراب من جديد على الغصن وراء النافذة فتناثر الثلج من تحته. هز راسه و فتح منقاره ونعب. فشعر نيكيتا بالخوف، وخرج من الغرف الخالية راكضا الى الحوش.



## عند البئر

وجد نيكيتا صاحبه ميشكا كورياشونوك وسط الحوش قرب البئر التي غدا الثلج المتجلد حولها أصفر وقد داسته الاقدام. كان ميشكا جالسا على حافة البئر يبلل بالماء طرف قفاز جلدي دس فيه يده.

ساله نيكيتا لماذا يفعل ذلك فاجابه ميشكا:

كل اولاد راس القرية يبللون القفازات. وسنفعل مثلهم. فهي تتجلد وتصبح صالحة للعراك. هل ستذهب معنا الى راس القرية؟

– متى؟

– بعد الغداء. لكن لا تخبر ماما.

– سمحت لي ماما بالتنزه، لكنها منعتني من العراك.

– كيف منعتك؟ واذا هاجموك؟ اتعرف من الذي سيهاجمك؟ ستيوبكا كارناوشكين. ستسقط من اول ضربة يسددها لك.

– ستيوبكا لن يغلبني سيسقط من ضربة واحدة بخنصري – قال نيكيتا ومد خنصره نحو ميشكا.

تطلع اليه ميشكا ثم بصق وقال بصوت اجش:

– قبضة ستيوبكا مسحورة. في الاسبوع الفائت ذهب مع ابيه الى قرية اوتيوفكا لشراء الملح والسمك وهناك قراوا تعويذة عليه. فليقبض الله روحي لو كذبت.

غرق نيكيتا في التفكير. الأفضل، طبعا، الا يذهب الى راس القرية، لكن ميشكا سيتهمه بالجبن. وسأل نيكيتا:

– كيف قرأوا التعويذ؟

بصق ميشكا من جديد:

– قضية بسيطة. خذ في البداية سماخا والطخ يديك به و كرر ثلاث مرات: «قل اعوذ برب الناس... من شر الوسواس الخناس». هذا كل ما في الأمر...

القى نيكيتا على كورياشونوك نظرة ملأها الاحترام. وفي تلك الاثناء صرت بوابة الحوش واندفعت منها الأغنام كشليلة رمادية

كثيفة متدحرجة. حوافرها تطقطق كالخرز والياتها تهتز نائرة بعرا كالبندق. تزاحم القطيع عند البئر، وهرعت الاغنام ثاغية تتنافس على الوصول الى المشرب وتحطم بابوازها طبقة الجليد الرقيقة وتشرب وتحمحم. سلط خروف وسخ كث نظرة من عينيه البيضاوين البلقاوين على ميشكا وضرب الارض باحدى قوائمه فقال له ميشكا: «طفيلي»، فهجم عليه الخروف، الا ان ميشكا قفز عبر المشرب وتمكن من الفرار.

وركض نيكيتا وميشكا في الحوش وهما يضحكان ويتحرشان بالخروف الذي طاردهما ثم عدل عن ذلك وفكر قليلا واطلق ثغاءا كئيبا:

– انتما طفيـــــليا آآآآن.

وعندما تناهى من الباب الخلفي صوت ينادي نيكيتا لتناول الطعام قال له ميشكا كورياشونوك:

–خذ بالك، لا تخدعنا. تعال الى راس القرية.

## المعركة

توجه نيكيتا وميشكا كورياشونوك الى راس القرية باقصر طريق عبر البستان والبركة المتجمدة. كانت الريح قد كنست الثلج على جليد البركة. توقف ميشكا لحظة هناك، اخرج سكينه الصغيرة وعلبة ثقاب وجلس القرفصاء متنشقا بصفير واخذ ينقب الجليد الازرق على بقعة بداخلها فقاعة بيضاء تنعت هذه الفقاعة في لغتهم «بالقطة»، وهي عبارة عن غاز عفن يتصاعد من قاع البركة ويتجمد في طبقات الجليد بشكل فقاعات. وبعد ان ثقب ميشكا حفرة في الجليد اشعل عود الثقاب وقربه من الثقب فاشتعلت «القطة» واندلع لسان من اللهيب الاصفر الساكن فوق الجليد.

وقال ميشكا:

– خذ بالك، لا تخبر احدا بذلك. في الاسبوع القادم سنذهب الى البركة السفلى و نشعل «القطط». اعرف واحدة منها هناك كبيرة جدا ستظل مشتعلة طول النهار.



ركض الصبيان على جليد البركة واجتازا البردي الاصفر المطروح وبلغا الضفة الاخرى ودخلا القرية.

تساقط ثلج كثير هذا الشتاء، وهو قليل بين الاحواش التي تخترقها الريح بطلاقة، لكن اكوامه عالية جدا، اعلى من السطوح، على عرض الشارع بين تلك المنازل.

كان منزل سافوسكا الاعزب الابله مغطى بالثلج عن آخره، ولا يرى منه الا المدخنة. وقال ميشكا ان كل اهالي القرية انتخوا لازاحة الثلج عن منزله بالمعاول قبل ثلاثة ايام، اما هو الاحمق فقد سخن الفرن في الليلة التي طمرت الزوبعة فيها منزله بالثلوج وطبخ حساء من الخضر ثم اكل وصعد لينام على دكة الفرن. وجدوه نائما فايقظوه وجروا اذنه لحماقته.

القرية خالية هادئة. والدخان يتصاعد من مداخن بعض المنازل. الشمس الباهتة تنير على ارتفاع منخفض الوادي الابيض واكداس القش والسطوح الملفعة بالثلج. بلغ نيكيتا وميشكا منزل ارتامون تيورين الفلاح المخيف الذي يخشاه كل اهالي القرية لقوته الخارقة وانفعاله السريع. رأى نيكيتا في النافذة الصغيرة لحية ارتامون الشقراء كالمكنسة. كان جالسا عند المائدة ياكل من قصعة خشبية. وعلى زجاج النافذة الاخرى التصقت ثلاثة انوف بوجوه منمشة تنظر الى الخارج. اولئك هم ابناء ارتامون: سيومكا وليونكا وارتامون الصغير.

اقترب ميشكا من المنزل واطلق صفيرا فالتفت ارتامون وهو يمضغ الطعام بفمه العريض وهدد ميشكا بالملعقة. اختفى الصبيان الثلاثة ثم ظهروا في الحال على مدخل المنزل متمنطقين بأحزمة من القماش فوق معاطفهم الفرائية القصيرة. وقال ميشكا بعد ان ازاح قبعته حتى مالت على اذنه:

– هيه، يا جبناء... تجلسون في البيت من الخوف.

– نحن لا نخاف – أجاب سيومكا، وقال ليونكا:

– بابا لا يسمح لنا باتلاف الجزمات.

وقال ارتامون الصغير:

– قبل قليل ذهبت الى اولاد راس القرية وناديتهم، فقالوا انهم غير زعلانين.

ازاح ميشكا قبعته الى اذنه الاخرى وتنحنح وقال بحزم:
– فلنذهب لنتحرش بهم. سنلقنهم درسا.

واجاب الاخوة الثلاثة: «طيب». وتسلقوا جميعا تلة الثلج التي اعترضت الطريق. من هنا، وراء منزل ارتامون، يبدأ راس القرية.

فكر نيكيتا بان راس القرية غاص بالأولاد، لكنه خال الآن وهادىء، سوى بنتين ملتفتين بمنديلين صوفيين سحبتا زحافتيهما الى تلة الثلج، ثم جلستا عليهما ومدتا جزمتيهما الى الامام وامسكتا بالحبلين وزعقتا وتزحلقتا عبر الشارع قرب العنبر، ثم عبر الشاطىء المنحدر، الى جليد النهر.

وصاح ميشكا من تلة الثلج وصاح معه ابناء ارتامون ونيكيتا:

– هيه، يا اولاد راس القرية!

– سنلقنكم درسا!

– اختباوا، خافوا!

– اخرجوا سنضربكم!

– تقدموا من جهة واحدة، يا اولاد راس القرية! – صاح ميشكا وهو يصفق بقفازه.

ظهر على الطرف الآخر من التلة اربعة من صبيان راس القرية. صفقوا وعدلوا قبعاتهم ومسحوا جنوبهم بقفازاتهم واخذوا يصيحون:

– نحن نخاف؟

– ممن نخاف؟

– من هذه الضفادع؟ انعقي يا ضفادع!

وتسلق هذا الطرف من التلة صبيان جدد هم اليوشكا ونيل وفانكا ابو الاذنين السوداوين وبتروشكا ابن اخ الاعزب الابله، وصبي صغير جدا ببطن كبير ملفوف بمنديل امه بشكل علامة ضرب. ومن الطرف الآخر ظهر ايضاً خمسة او ستة صبيان جدد واخذوا يصيحون:

– هيه، يا اولاد، تعالوا الى هنا وسنمسح النمش من وجوهكم!

ومن هذا الطرف صاح ميشكا كورياشونوك:

– حدادون عور، صنعوا حدوة للفأرة!

وجاء الجواب:

– ضفادع!



تجمع من كلا الجانبين زهاء اربعين صبيا. لكنهم كانوا متهيبين يقذفون كريات الثلج ويغمزون من بعضهم البعض. ويصيحون من ذاك الطرف: ضفادع! «ويردون عليهم من هذا الطرف: «حدادون عور»! وكان هذا النعت وذاك مهينين. وفجأة ظهر بين اولاد راس القرية صبي قصير القامة عريض المنكبين افطس الانف. دفع اصحابه يفسحوا له المجال وهبط من التلة متمايلا متبخترا وامسك جنبيه بيديه وصاح:

– ياضفادع! فليتقدم اشجعكم وجها لوجه!

كان ذاك هو ستيوبكا كارناوشكين الشهير بقبضته المسحورة.

قذف اولاد راس القرية قبعاتهم الى الاعلى واخذوا يطلقون صفيرا حادا. هدا صبيان هذا الطرف، وتلفت نيكيتا حواليه. كان الاخوان المنمشون معبسين، وتراجع اليوشكا وفانكا ابو الاذنين السوداوين الى الوراء، و اخذ الصبي الصغير الملفوف بمنديل امه ينظر بعينيه المستديرتين الى كارناوشكين وهو على اتم استعداد للبكاء، وغمغم ميشكا كورياشونوك وهو يشد حزامه على بطنه:

– طرحت اولادا اقوى منه فهل هو بطل الأبطال. لا أرغب في بدء العراك، والا ساغضب وافرك انفه.

اقتنع ستيوبكا كارناوشكين بان احداً لا يريد الاشتباك معه فلوح لاصحابه بان ينصرفوا... تناثروا منزلقين في التلة الثلجية وهم يتصايحون ويصفرون.

واطلق ابناء ارتامون سيقانهم للريح، وتبعهم ميشكا وفانكا ابو الاذنين السوداوين، واخيرا لحق بهم سائر الصبيان. وركض نيكيتا ايضاً. اما الصبي الصغير الملتف بمنديل امه فقد جلس على الثلج و انتحب.

اجتاز اولاد «طرفنا» حوش ارتامون وحوش تشيرنوخوف و ارتقوا كومة من الثلج. التفت نيكيتا فرأى اليوشكا ونيل وخمسة من اولادنا منبطحين على الثلج. ربما سقط بعضهم، وربما انبطح البعض الآخر من الخوف. فشروط العراك تمنع ضرب الراقدين..

شعر نيكيتا بالاهانة والخجل حتى اختنق بعبراته. فقد جبنوا ولم يدخلوا المعركة. توقف وشد قبضتيه ورأى في الحال

ستيوبكا كارناوشكين الافنط الواسع الفم راكضا صوبه واطراف شعره تتطاير من تحت قبعته الفرائية العالية.

خفض نيكيتا راسه وخطا للقائه وضربه في صدره بكل ما يستطيع. نفض ستيوبكا راسه فسقطت قبعته وجلس على الثلج وقال:

– ماذا بك؟ كفاية...

توقف اولاد راس القرية في الحال، واسرع نيكيتا صوبهم، فاطلقوا سيقانهم للريح. لحق اولاد «طرفنا» بنيكيتا متصايحين «حطمناهم!» وهجموا على الاعداء هجمة رجل واحد. فر اولاد راس القرية وطاردهم نيكيتا واصحابه على امتداد خمسة احواش تقريبا حتى انبطحوا جميعا مستسلمين.

عاد نيكيتا الى طرفه لاهثا منفعلا يتطلع حواليه ليرى هل بقي احد يمكن الاشتباك معه. وسمع صوتا يناديه. كان ستيوبكا كارناوشكين ينتظره وراء العنبر. اقترب منه نيكيتا، فالقى عليه ستيوبكا نظرة شزراء و قال:

– ضربتني بقوة. هل تريد ان نتصاحب؟

– بالطبع – اجاب نيكيتا على عجل.

تطلع الصبيان الى بعضهم البعض باسمين. وقال ستيوبكا:

– فلنتبادل.

– موافق.

فكر نيكيتا بافضل ما لديه ليسلمه الى ستيوبكا فاعطاه السكين الصغيرة مع اربع شفرات. دسها ستيوبكا في جيبه و اخرج منه كعبا مثقلا بالرصاص المصبوب.

– خذ لا تضيعه فهو ثمين.

**هكذا انتهى المساء الممل**

في المساء انشغل نيكيتا في تصفح مجلة «نيفا»* وقراءة الشروح تحت الصور. و لم يكن فيها الكثير مما يستحق الاهتمام.

* مجلة ادبية شهرية فيما تعنى الكلمة اسم نهر يجري في لينينغراد. **الناشر.**



– صورة امراة في مدخل الدار ويداها عاريتان حتى المرفق، وفي شعرها زهور، وعلى كتفها وعند قدميها حمام. وخلف السياج رجل كشر عن اسنانه و البندقية تتدلى من كتفه.

و اكثر ما يثير الفجر في هذه الصورة هو تعذر فهم السبب الذي جعلهم يرسمونها. فقد جاء في الشرح: «من منكم لم ير الحمام الاليف، اخلص اصدقاء الانسان؟ (فوت نيكيتا ما كتب من تفاصيل عن الحمام). من لا يحب نثر الحب امام هذه الطيور في الصباح؟ الرسام الالماني الموهوب هانز فورست اختار احدى هذه اللحظات. ايلزا الشابة، ابنة القس، محبوبة الحمام. حالما خرجت من الدار تطايرت الحمامات وحطت عند قدميها فرحة مسرورة. انظروا حطت حمامة على كتفها، وتلتقط حمامات اخرى الحب من يدها. اما الجار الشاب الصياد فيمتع انظاره خلسة بهذا المنظر».

وتصور نيكيتا ايلزا هذه منهمكة باطعام الحمام، ثم ماذا؟ لا شيء تفعله بعد اطعام الحمام. سيقتلها الملل. وابوها القس جالس على كرسي في احدى الغرف يتثاءب من الملل ايضا. اما الجار الشاب فقد كشر عن اسنانه وكأن بطنه يوجعه، وسيظل مكشرا وهو يسير على الطريق وبندقيته لا تطلق النار طبعا. السماء في الصورة رمادية كالحة وضوء الشمس رمادي كالح.

بلل نيكيتا القلم الرصاص بلعابه و رسم لبنت القس شاربين.

في الصورة التالية منظر مدينة بوزولوك: عجلة مكسورة قرب عمود المسافات على الطريق، وفي مكان ابعد تلوح منازل خشبية وكنيسة ومطر يتساقط مائلا من غيمة.

تثاءب نيكيتا واغلق المجلة واتكأ واخذ يتصنت.

في الجماليون ينبعث صفير حادة تارة ودوى متواصل اجش تارة اخرى ماهو الوجه يعبس فتتكور الشفتان ويدوي الصوت الاجش – «ووووو...»، ثم يتحول الى صوت رفيع حزين يصفر بمنخر واحد كخيط رقيق، ثم تتكور الشفتان ويعود الصوت الاجش.

على المنضدة المستديرة مصباح باباجور من الفرفوري الابيض.

تهادت خطوات اقدام ثقيلة وراء الجدار في الرواق لعلها

خطوات الوقاد. اهتزت الشراريب البلورية في اسفل الاباجور باعثة رنينا رقيقا.

انحنت ماما على المجلة شعرها ناعم بلون الرماد، اجعد عند الزلف، حيث تبدو شامة كحبة الدخن. ومن حين لآخر تقطع الصفحات بابرة الحياكة. غلاف المجلة بني فاتح بلون الطابوق. في مكتب بابا خزانة مليئة بهذه المجلدات التي تحمل جميعا عنوان «بشير اوربا». ما اغرب الكبار! لماذا يحبون كل ما هو ممل. فان قراءة مثل هذه المجلة تشبه طحن الطابوق.

على ركبتي ينام القنفذ الاليف اخيلكا وقد وضع انفه البليل كانوف الخنازير على قائمتيه. عندما يذهب الناس للنوم يجول في الغرفة طول الليل بعد ان يشبع من النوم نهارا، ويخشخش باظافره ويشخر ويتشمم كل الاركان والزوايا ويدس راسه في جحور الفئران.

حرك الوقاد وراء الجدار فتحة الفرن الحديدية وتناهت هسهسة الجمر وهو يقلبه ويخلطه. وفاحت في الغرفة رائحة الملاط الدافيء والارضية المغسولة. جو الغرفة ممل بعض الشيء، لكنه مريح. اما ذاك الذي في الجماليون فقد استمر على صفيره جاهدا: «يووووو».

– ماما، من الذي يصفر هناك؟ – سال نيكيتا.

رفعت ماما حاجبيها دون ان تحيد ببصرها عن المجلة. اما اركادي ايفانوفيتش الذي كان مشغولا بتخطيط الدفتر فقد قال فورا بكلمات متلاحقة وكانه كان ينتظر هذا السؤال:

– عندما نتكلم عن الجماد يجب ان نستعمل اسم الاستفهام «ما» و ليس «من».

«يووووو» – استمر الدوي في الجماليون رفعت ماما راسها وانصتت وهزت كتفيها وتلففت بالمنديل الوبري. اما القنفذ فقد استيقظ و تنشق بانفه منزعجا.

وعند ذاك تصور نيكيتا كيف تسرب الثلج الى كوة الجماليون البارد المعتم. تحت الواح السقف الهائلة التي بنى الحمام اعشاشه بينها تتكدس في الجماليون بقايا الارائك والكراسي والمقاعد العتيقة البالية بنوابضها المكشوفة الصدئة. وعلى احد هذه المقاعد، قرب مدخنة الفرن، جلست «الريح» مشعثة الشعر مغطاة



بالغبار وبيوت العناكب. الليل طويل. والجماليون بارد، وهي جالسة هناك وحيدة وادعة تسند ذقنها بيدها وتقول: «ووووو» مللت، «ووووو».

ترك نيكيتا كرسيه وجلس قرب ماما. ابتسمت بحنان و جذبته اليها وقبلت رأسه:

– الم يحن وقت النوم يا ولدي؟

– كلا ياماما، نصف ساعة اخرى، ارجوك.

مال نيكيتا براسه على كتف امه. صر الباب في طرف الغرفة و ظهر القط فاسكا منتصب الذيل قنوعا كالناسك المتعبد. فتح فمه الوردي واطلق مواء خافتا. و ساله اركادي ايفانوفيتش دون ان يرفع راسه عن الدفتر:

– ماذا تريد يا فاسكا؟

اقترب فاسكا من ماما وتطلع اليها بعينين خضراوين مداهنتين يتوسطهما شقان ضيقان و اطلق مواء اعلى. فتململ القنفذ منزعجا من جديد. وخيل لنيكيتا ان فاسكا يعرف شيئاً يريد ان يقوله. والا لما جاء الآن.

عوت الريح في الجماليون عواء مستميتا. وفي تلك الاثناء تناهت من وراء النافذة صيحة غير عالية وصريرالثلج واصوات. نهضت ماما على عجل. وتدحرج اخيلكا من ركبتيها وهو يشخر.

هرع اركادي ايفانوفيتش الى النافذة وتطلع باهتمام وهتف:

– وصلوا!

– يا الهي! – تمتمت ماما بانفعال – هل وصلت آنا ابولوسوفنا في هذه العاصفة؟..

بعد لحظات رأى نيكيتا كيف انفتح الباب الثقيل الملبس باللباد و اندفعت منه الى الرواق سحابة من البخار الصقيعي، ثم ظهرت امراة مكتنزة فارعة القامة ترتدي معطفين من الفرو ومنديلا والثلج منثور عليها بغزارة. وقد امسكت بيد صبي يرتدي معطفا رماديا ذا ازرار لماعة وعلى راسه قلنسوة واقية من الثلج. وطقطقت خلفهما جزمة لبادية متجلدة. فقد دخل حوذي بلحية متجمدة وعلى جانبي انفه اصابع من الجليد الاصفر بدلا من الشاربين وعلى جفونه رموش كثة بيضاء، كان يحمل طفلة بمعطف أبيض من

فرو الماعز. راسها مائل على كتف الحوذي و عيناها مغمضتان، ووجها رقيق ماكر.
عندما دخلت المراة الطويلة هتفت بصوت عال أجش:
– استقبلي ضيوفك يا الكسندرا ليونتيفنا – و رفعت يديها لتحل عقدة المنديل – لا تقتربي مني، والا ستبردين. ما اسوا طريقكم، والحق يقال،.. حتى قرب بيتكم انزلقت بنا الزحافة الى الشجيرات.
تلك هي آنا ابولوسوفنا بابكينا صديقة ماما. وهي تقيم في سامارا بصورة دائمية. اما ابنها فكتور فراح ينظر الى نيكيتا شزرا وهو ينتظر ان يخلعوا القلنسوة عن راسه. اخذت ماما من الحوذي البنت النائمة وخلعت قبعتها الفرائية فتناثر من تحتها فورا شعر ذهبي فاتح وقبلتها وقالت:
– عزيزتي ليليا، وصلتم.
تنهدت البنت وفتحت عينيها الزرقاوين الواسعتين ثم تنهدت مرة اخرى لتستيقظ نهائيا.

## فكتور وليليا

استيقظ نيكيتا وفكتور بابكين في الصباح الباكر. جلسا على سريريهما في غرفة نيكيتا يتطلعان الى بعضهما البعض عابسين. وقال نيكيتا:
– انا اتذكرك.
– وانا اتذكرك جيدا – اجاب فكتور على الفور – كنت عندنا مرة في سامارا. واتذكر انك اكلت لحم البط المحمر بالتفاح حتى انتفخت بطنك و سقوك زيت الخروع.
– لا اتذكر ذلك.
– انا اتذكره.
لاذ الصبيان بالصمت. وتثاءب فكتور عمدا. وقال نيكيتا بلهجة تنم عن الاستهانة:
– معلمي اركادي ايفانوفيتش صارم جدا، خنقني بالدروس. وهو يقرا الكتاب، مهما كان، في نصف ساعة.



ابتسم فكتور ساخرا:
– انا اتعلم في المدرسة، في الصف الثاني. المعلمون عندنا صارمون حقا، حتى انهم يتركونني دوما بلا غداء.
– ماقيمة ذلك؟ – قال نيكيتا.
– كيف؟ البقاء بلا غداء صعب مع انني استطيع ان لا آكل الف يوم.
– ماذا تقول؟ هل جربت؟ – ساله نيكيتا.
– لم اجرب بعد. ماما تمنعني.
تثاءب نيكيتا وتمطط:
– هل تعلم؟ قبل ثلاثة أيام تفوقت على ستيوبكا كارناوشكين.
– ومن هو؟
– اقوى ولد في القرية. سددت له ضربة سقط بعدها فورا ثم اهديت له سكيني الصغيرة مع اربع شفرات. واهداني كعبا مصبوبا بالرصاص ساريك اياه فيما بعد.
هبط نيكيتا من السرير واخذ يرتدي ملابسه على مهل.
– اما انا فاستطيع ان ارفع قاموس ماكاروف بيد واحدة – تمتم فكتور بصوت مرتعش كئيب ينم عن استسلامه. اقترب نيكيتا من التخت ازاء الفرن المزخرف، وقفز اليه دون ان يلمسه بيديه ثم ثنى ركبته وقفز من التخت الى الارضية بقدم واحدة وقال وهو يتطلع باهتمام في عيني فكتور:
– يمكن ان نطير اذا فرفطنا بارجلنا بسرعة كبيرة جدا.
– شيء بسيط. فالكثيرون عندنا في الصف يطيرون.
ارتدى الصبيان ملابسهما وتوجها الى غرفة الطعام، حيث تفوح رائحة الخبز الساخن و البقسماط، ويتصاعد من السماور الصقيل بخار يصل الى السقف ويجعل زجاج النوافذ غائما. جلست ماما واركادي ايفانوفيتش عند المائدة و معهما ليليا اخت فكتور التي وصلت نائمة ليلة البارحة، وهي في الحوالي التاسعة من العمر ومن الغرفة المجاورة دوى صوت آنا ابولوسوفنا الأجش: «اعطوني منشفة».
كانت ليليا ترتدي فستانا ابيض بشريط حريري ازرق

معقود على ظهرها. وعلى شعرها الذهبي الاجعد شريط آخر ازرق ايضاً مشدود بشكل فراشة.

تقدم اليها نيكيتا واحتقن وجهه وصفق قدما بقدم. التفتت ليليا اليه ومدت له يدها وهي جالسة على الكرسي وقالت بمنتهى الجدية:

– مرحبا يا صبي. – ارتفعت شفتها العليا.

وخيل لنيكيتا انها ليست بنتا حقيقية. فهي جميلة جدا، وخصوصا عيناها الزرقاوان الاكثر سطوعا من الاشرطة، اما رموشها الطويلة فكأنها من حرير. لم تعد تعير نيكيتا اهتماما بعد ان سلمت عليه، فتناولت بكلتا يديها كوب الشاي الكبير و اخذت تشرب منه. جلس الصبيان جنبا الى جنب عند المائدة. واتضح ان فكتور يشرب الشاي كالطفل الصغير. فقد انحنى على الكوب وراح يرتشف الشاي بشفتين طويلتين. وضع قطع السكر خلسة في الكوب حتى صار الشاي كثيفا، عند ذاك طلب بصوت متكاسل ان يضيفوا الى الشاي ماء. دفع فكتور نيكيتا من ركبته وسأل هامسا:

– اختي تعجبك؟

لم يرد نيكيتا وتوردت وجنتاه.

– خذ حذرك منها – همس له فكتور – فهي تخبر ماما بكل شيء.

انتهت ليليا من شرب الشاي ومسحت فمها بالفوطة ونزلت من الكرسي على مهل واقتربت من الكسندرا ليونتيفنا وقالت بكل تأدب:

– شكرا لك يا خالتي.

ثم مضت الى النافذة وصعدت الى المقعد البني الضخم واخرجت من جيبها علبة صغيرة فيها ابر وخيوط واخذت تخيط. ولم يعد نيكيتا يرى منها غير الشريط الكبير المشدود بشكل فراشة و خصلتين متدليتين يتحرك بينهما طرف لسانها الممتد قليلا. فهو يساعد ليليا في الخياطة.

اختلطت افكار نيكيتا وتشوشت. اراد ان يستعرض امام فكتور كيفية القفز من فوق ظهر الكرسي، لكن لم تلتفت اليه، بينما قالت ماما:



– نيكيتا، فكتور اذهبا الى الحوش ولا تشوشا علينا.

ارتدى الصبيان ملابسهما وخرجا الى الحوش. الصباح ضبابي ناعم. الشمس المائلة الى الاحمرار معلقة على ارتفاع منخفض فوق غيوم متعددة الطبقات وطويلة كحقول من الثلج. وفي البستان انتصبت الأشجار بلون وردي تقريبا والندى المتجمد يغطيها. الظلال الباهتة على الثلج مشبعة بنفس ذلك الضوء الدافيء. السكون المطبق في كل مكان، لا يعكره سوى شاروك وكاتوك اللذين وقفا جنبا الى جنب قرب المدخل الخلفي ينبحان على بعضهما، ادار كل منهما رأسه نحو الآخر وكان بوسعهما ان ينبحا بعواء لاهث وانياب مكشرة امدا طويلا جدا حتى يرميهما احد الخدم بقفازه، وعند ذاك يقفان على قوائمهما الخلفية ويكادان يختنقان من شدة الغضب ويشتبكان في عراك يتطاير له شعرهما نتفا. كانا يخافان من الكلاب الاخرى ويكرهان المتسولين، وبدلا من حراسة المنزل في الليل ينامان قرب مستودع العربات.

وسأل فكتور:

– ماذا سنفعل؟

تطلع نيكيتا الى غراب اشعث حلق غاضبا من البيدر الى حظيرة الماشية. لم يكن نيكيتا راغبا في اللعب، فقد انتابه حزن لا يعرف سببه.

– اقترح الذهاب الى صالة الاستقبال ومطالعة شيء ما على الاريكة، الا ان فكتور قال له:

– اسفي عليك، يبدو انك لا تصلح الا للعب مع البنات.

– لماذا؟ – سأله نيكيتا وقد احمر وجهه.

– انت تعرف لماذا.

– لا تضايقني انا لا اعرف اطلاقا. فلنذهب الى البئر.

مضيا الى البئر. وكانت الأبقار قد خرجت من البوابة المفتوحة متوجهة الى المشرب قربها، وعلى مسافة ابعد كان ميشكا كورياشونوك يطبطب بسوط الرعاة الطويل فتنبعث منه اصوات كطلقات البندقية، ثم صاح فجأة:

– بايان، بايان، خذ بالك يانيكيتا!

التفت نيكيتا فرأى الثور الطويل الرمادي الوردي ذا الجبهة

العريضة الجعداء والقرنين القصيرين يتجه نحوهما بعد ان ترك القطيع.

«مو – و» – اطلق بايان خوارا متقطعا وضرب جنبه بذيله.

– اهرب يا فكتور! – صاح نيكيتا وسحب فكتور من يده وركضا نحو المنزل.

انطلق الثور يلاحق الصبيين بسرعة. «مو – ووو!».

التفت فكتور وصرخ وسقط على الثلج وغطى رأسه بيديه. وكان الثور على بعد خمس خطوات عنه. وعند ذاك توقف نيكيتا وقد فار الدم في عروقه من شدة الغضب، خلع قبعته وركض نحو الثور وانهال عليه ضربا بالقبعة:

– اذهب من هنا، اذهب!

توقف الثور وخفض قرنيه. وهرع ميشكا كورياشونوك اليه وساطه في جنبه. فاطلق بايان خوارا مستغيثا واستدار عائدا الى القطيع. واصطكت اسنان نيكيتا من شدة التهيج والانفعال. ارتدى قبعته والتفت فراى فكتور قرب المنزل يلوح له بيده. تطلع نيكيتا عفويا الى النافذة الثالثة على يسار المدخل. وراى فيها عينين زرقاوين مشدوهتين وفوقهما شريط الفراشة الزرقاء. صعدت ليليا الى رف النافذة ونظرت صوب نيكيتا، وابتسمت فجاة. اشاح نيكيتا بوجهه في الحال، ولم يلتفت الى النافذة بعد ذلك. فقد غمرته فرحة عارمة، وصاح:

– فكتور، هيا نتزحلق من التلة!

ظلا يتزحلقان من التلة الثلجية طول الوقت، حتى الغداء، وهما يقهقهان و «يتشيطنان». وبرقت في ذهن نيكيتا فكرة عابرة:

«عندما اعود الى البيت قرب النافذة، هل التفت اليها املا؟ كلا، سامر ولن التفت».

## علبة الكارتون

حاول نيكيتا اثناء الغداء الا ينظر صوب ليليا، مع ان محاولاته هذه لا موجب لها على اية حال، لأن آنا ابولوسوفنا جلست بينه و بين ليليا في بلوزة مخملية حمراء بدون ردنين وراحت تلوح



بيديها وتتكلم بصوت ثخين عال جعل الشراريب البلورية في الاباجور تهتز وترن. وجلجل ذلك الصوت:

– كلا، ثم كلا. علمي ابنك يا الكسندرا ليونتيفنا في المنزل. فالنظام في المدرسة مشوش الى درجة. ولو كان الأمر بيدي لاخذت المدير من خناقه وطردته حالا... يا فكتور – خاطبت ابنها فجاة – لا يجوز لك ان تسمع ما تقوله ماما عن الكبار. يجب عليك ان تحترم الرؤساء. خذي يا الكسندرا ليونتيفنا، معلمينا مثلا. ما اشد حماقتهم، واحدهم اغبى من الثاني. اما عن معلم الجغرافية... ما لقبه يا فكتور؟

– سينيتشكين.

– كلا ليس سينيتشكين، بل سينيافكين. انه غبي لدرجة لا توصف. زار احد البيوت مرة، وعندما خرج اخذ بدلا من القبعة قطة نائمة على الصندوق في الدهليز وارتداها... وضعها على راسه. فكتور، كيف تمسك الشوكة و السكين؟ عدل وضعيتهما، ولا تتمطق... اقترب من المائدة. اجل، يا الكسندرا ليونتيفنا، ماذا اردت ان اقول لك؟.. نعم، تذكرت. احضرت معي حقيبة مملوءة بمختلف الالاعيب لشجرة الميلاد غدا يجب ان يلصقها الاطفال.

– اعتقد يجب ان يبدأوا من اليوم، والا فلن يكفينا الوقت. – قالت ماما.

– طيب، افعلوا ما تريدون. اما انا فساذهب لكتابة الرسائل. شكر لك يا صديقتي على الغداء.

مسحت آنا ابولوسوفنا شفتيها بالفوطة و ازاحت الكرسي بصخب و مضت الى غرفة النوم وفي نيتها ان تكتب رسائل، لكن نوابض السرير هناك سرعان ما صرت وزمجرت بشكل مرعب وكان فيلا هوى عليه.

رفعوا السفرة من المائدة الكبرى في غرفة الطعام وجلبت ماما اربعة مقصات وبدات تعد صمغ النشاء على النحو التالي: «احضرت من دولاب الصيدلية المنزلية في الركن علبة النشاء، ونثرت منه في قدح ما لا يزيد عن ملعقة شاي وصبت عليه ملعقتين من الماء البارد واخذت تخلطه حتى تحول الى عصيدة. وعند ذاك صبت على

العصيدة ماء يغلي من السماور وهي تخلطه طول الوقت بالملعقة حتى صار النشاء شفافا كالمهلبية، وتحول الى صمغ ممتاز.

وجلب الصبيان الحقيبة الجلدية ووضعاها على المائدة. فتحتها ماما و انهمكت باخراج محتوياتها: اوراق مذهبة، صقيلة ومحببة، واوراق فضية، وزرقاء، و خضراء و برتقالية و ورق مقوى انجليزي وعلب فيها شموع و شمعدانات صغيرة لشجرة العيد وسميكات ذهبية وديكة وعلبة فيها كريات زجاجية منفوخة تربط بخيوط. وعلبة فيها كريات ملونة مضغوطة من اربعة جوانب وباعلى كل منها عروة فضية، وعلبة اخرى فيها مفرقعات ورقية و حزم من الخيوط الذهبية والفضية و فوانيس بزجاج لدائني ملون ونجمة كبيرة. وكان الاولاد يطلقون صيحات الفرح و الاعجاب كلما فتحت ماما علبة. وقالت ماما وهي تدس يديها في الحقيبة:

– توجد اشياء لطيفة اخرى، لكننا لن نفتحها الآن. تعالوا نلصق الملاعيب.

انهمك فكتور بلصق السلاسل الورقية وانشغل نيكيتا بلصق الاكياس للحلويات، واخذت ماما تقص الورق والكارتون. وسألت ليليا بلهجة مؤدبة:

– هل تسمحين لي يا خالتي بان الصق علبة كارتون؟

– الصقي يا عزيزتي ماتريدين.

اخذ الأولاد يعملون صامتين فيسمع زفيرهم وشهيقهم ويمسحون ايديهم الملوثة بالنشاء على البستهم. وحدثتهم ماما آنذاك ان الاعيب شجرة الميلاد لم تكن موجودة في السابق. وكان الاطفال مضطرين ان يصنعونها كلها بانفسهم. كان هناك اولاد تفننوا في لصق حصن كامل بابراجه و سلالمه الحلزونية وجسوره التي ترفع وتخفض. وقد رات ماما ذلك بنفسها. كانت امام الحصن بحيرة مصنوعة من زجاج مرآة مطوقة بطحلب اصطناعي. وفي البحيرة يسحب اثنان من طيور التم قاربا ذهبيا.

كانت ليليا تعمل بصمت وهدوء وهي تستمع الى الحديث وتساعد نفسها بطرف لسانها في اللحظات الحرجة. كف نيكيتا عن لصق الاكياس واخذ يتطلع اليها عندما خرجت ماما وعلق فكتور على الكراسي زهاء عشرة اذرعة من السلاسل الملونة. وسالها نيكيتا:



– ماذا تلصقين؟

ابتسمت ليليا دون ان ترفع راسها، وكانت تقص نجمة من الورق المذهب وتلصقها على الغطاء الازرق.

– ماحاجتك الى هذه العلبة؟ – سأل نيكيتا بصوت يقرب الى الهمس.

– هذه العلبة لقفازات العرائس – اجابته ليليا بجد – انت صبي لن تفهم ذلك. – رفعت راسها والقت على نيكيتا بنظرة من عينيها الزرقاوين الصارمتين. ازداد وجهه احمرارا بالتدريج حتى غدا ارجوانيا في آخر الأمر. فقالت له:

– وجهك احمر كالبنجر.

وانحنت من جديد على العلبة. و طفت على وجهها مسحة من المكر.

جلس نيكيتا ملتصقا بالكرسي. ولم يعد يعرف ما يقول. وماكان بوسعه ان يغادر الغرفة باية حال. ضحكت البنت عليه، لكنه لم يزعل ولم يشعر بالغيظ. وظل ينظر اليها لا غير. وفجاة سالته ليليا، دون ان ترفع راسها، بصوت آخر وكان بينهما سرا يتحدثان عنه:

– هل تعجبك هذه العلبة؟

– نعم، تعجبني.

– تعجبني انا ايضا – تمتمت وهزت راسها فاهتزت خصلاتها مع الشريط. ارادت ان تضيف الى ذلك شيئا، الا ان فكتور اقترب في تلك اللحظة ودس راسه بينهما وسال بمنتهى السرعة:

– اي علبة؟ اين العلبة؟.. سخافة، علبة عادية استطيع ان اصنع عشرات مثلها.

– والله يا فكتور ساشتكى لماما واقول لها انك تعيقني عن العمل – غمغمت ليليا بصوت مرتعش، وحملت الصمغ والورق الى الطرف الآخر من المائدة.

وغمز فكتور لنيكيتا:

– قلت لك خذ حذرك منها، فهي نمامة.

وفي ساعة متاخرة من الليل سال نيكيتا بصوت مكبوت من

تحت البطانية التي غطا رأسه بها وهو راقد على السرير في الغرفة المظلمة:
– فكتور نمت؟
– كلا... لا ادري... ماذا؟
– اسمع يا فكتور... اريد ان اخبرك بسر رهيب... فكتور... لا تنم... اسمع، فكتور...
– غوم – غوم، فو – فو – اجابه فكتور.

## ماذا في الزحافة الاخيرة؟

في الفجر سمع نيكيتا وهو بين اليقظة والنوم طقطقة في مدافىء المنزل واصطفاق الباب في آخر الدهليز فقد كان الوقاد يحضر حزم الحطب و السرقين المجفف.
استيقظ نيكيتا من فرط السعادة وكان الصباح صحوا قارسا. تجمدت النوافذ وتكدس الجليد بشكل طبقة سميكة من الاوراق العريضة. وكان فكتور لا يزال نائما. رماه نيكيتا بالوسادة، فاطلق الصبي خوارا قصيرا وسحب البطانية وغطى بها رأسه. حملت الفرحة نيكيتا على ترك السرير بسرعة، فارتدى ملابسه وفكر: الى اين؟ وجرى الى اركادي ايفانوفيتش.
كان المعلم قد استيقظ توا وشرع يقرأ مستلقيا نفس الرسالة التي قرأها ثلاثين مرة. وعندما وقع بصره على نيكيتا رفع ساقيه مع البطانية ثم صفق السرير بهما وهتف:
– حالة نادرة! نهض نيكيتا قبل الجميع!
– ما اروع الصباح يا اركادي ايفانوفيتش.
– الصباح، يا اخي رائع حقا.
– اردت ان اسألك يا اركادي ايفانوفيتش – قال نيكيتا وهو ينبش ضلع الباب باصبعه – هل تعجبك عائلة بابكين؟
– اي منها بالتحديد؟
– الصبي والصبية.
– طيب... واي منهما بالتحديد؟
قال المعلم ذلك بصوت عادي، ولكن بمنتهى السرعة. اتكأ



على الوسادة وتطلع الى نيكيتا. نظرته خالية من الابتسام، لكنها نظرة متمعنة للغاية. يبدو ان، هو الآخر، يعرف شيئا. اشاح نيكيتا بوجهه فجاة وترك الغرفة راكضا، ثم تفكر قليلا ومضى الى الحوش.
الدخان الازرق معلق كالاعمدة المتجمدة فوق جناح الخدم، فوق الحمام في المنخفض، وابعد منه فوق القرية كلها وراء الحقل الابيض. خلال الليل استقرت على الاشجار طبقة سميكة من الندى المتجلد، وتدلت على البركة اغصان ثلجية ثقيلة من اشجار الحور الاسود الضخمة، ولاحت تلك الاغصان بوضوح على خلفية السماء الزرقاء الجامدة. كان الثلج يلمع ويصر، وكان الهواء القارس يلسع الانف ويجعل الرموش تلتصق.
كان شاروك وكاتوك ينبحان على بعضهما عند كومة من الرماد يتصاعد منها دخان خفيف قرب المدخل. وسار ميشكا كورياشونوك يحمل هراوة على خط مستقيم عبر الحوش نحو نيكيتا وهو يغوص في الثلج. كان يريد ان يلعب بدحرجة كريات الجليد. وفي تلك الاثناء ظهرت على الطريق الى يمين القرية قافلة من الزحافات التي لاحت الواحدة تلو الاخرى من المنخفض وانزلقت واطئة قاتمة على الثلج، على طول البركة السفلى نحو السد.
وضع ميشكا كورياشونوك ابهام قفازه على منخاره وتمخط. ثم قال:
– قافلتنا قادمة من المدينة محملة بالهدايا.
انزلقت الزحافات على السد تحت طاق هائل من اشجار الصفصاف في حللها الثلجية. وتناهى صرير الثلج وهسيس بطون الزحافات ولهاث الخيول.
وكما هي العادة كان الخادم الاقدم فكتور، وهو عجوز قصير القامة عريض المنكبين، اول من دخل الحوش في مقدمة القافلة على ظهر فرسه الشقراء الضخمة فيستا. تهادى فكتور بخفة جنب الزحافات في جزمة لبادية متجلدة وملفوفة بحبل معطفه القصير مفتوح الازرار وقد غطى الندى المتجمد ياقته الفرائية المرفوعة الى اعلى وقبعته ولحيته وحاجبيه. اما فيستا التي اسودت من العرق فكان جنباها يرتفعان ويهبطان وهي تتنفس بطلاقة والبخار

يتصاعد منها كالدخان. التفت فكتور دون ان يتوقف وصاح بصوت مبحوح قوي مخاطبا من في الزحافات الخلفية:

– هيه، استديروا نحو العنابر، ما عدا الزحافة الاخيرة اوصلوها الى المنزل.

في القافلة ست عشرة زحافة. الجياد تجري بانتعاش وقد فاحت رائحة عرق الخيل وتناهى هسيس بطون الزحافات واصوات السياط والبخار يتصاعد فوق القافلة.

وعندما تركت الزحافة الاخيرة السد واقتربت لم يتمكن نيكيتا في الحال من معرفة ما تحمله. كانت تحمل شيئا كبيرا ذا شكل غريب، اخضر اللون بخط احمر طويل. انتفض قلب نيكيتا. فعلى الزحافة الاخيرة التي شدت اليها من الخلف زحافة اضافية قارب محني المقدمة يصر ويتمايل وقد لاح مجذافان اخضران وصارية ذات نهاية نحاسية.

تلك هي، اذن، الهدية الموعودة في رسالة الأسرار!

## شجرة الميلاد

سحبوا شجرة شوح كبيرة متجمدة وادخلوها صالة الاستقبال. ظل النجار باخوم امدا طويلا يطرق ويشذب بفأسه قاعدتها الصليبية. واخيرا رفعوا الشجرة فاتضح انها عالية حتى ان قمتها الخضراء الفاتحة انحنت تحت السقف.

كان البرد ينبعث من الشجرة، الا ان اغصانها المتهدلة اخذت تتخلص بالتدريج من بقايا الجليد وتنتصب منفوشة، ففاحت رائحة الصنوبر في المنزل كله. حمل الاطفال الى صالة الاستقبال اكوام السلاسل الورقية وعلب الزينة وقربوا الكراسي واخذوا يعلقون الالاعيب عليها. وسرعان ما اتضح ان تلك الالاعيب قليلة. وتعين عليهم ان يجلسوا من جديد للصق الاكياس وتلوين الجوز بالذهب وشد البقسماط وتفاح القرم بخيوط فضية. صرف الاولاد المساء كله في هذا العمل حتى خر راس ليليا بشريطه المدعوك على مرفقها وغفت على هذه الصورة عند المائدة.

حلت عشية عيد الميلاد. زينوا الشجرة ونثروا خيوط العناكب



الذهبية عليها وعلقوا السلاسل الورقية ووضعوا الشموع في القراصات الملونة. وعندما فرغوا من التزيين قالت ماما:

– والآن اذهبوا يا اولادي ولا تدخلوا صالة الاستقبال حتى المساء.

تناولوا طعام الغداء ذلك اليوم بعجالة وفي ساعة متأخرة. اكتفى الصغار بتناول كعكة «شارلوتكا» فقط. عم الهرج و المرج المنزل. وكان الصبيان يتراكضان من ركن لآخر ويلحقان على الجميع بسؤال واحد: متى يأتي المساء؟ وحتى اركادي ايفانوفيتش الذي ارتدى سترة سوداء طويلة الاذيال وقميصا منشى كورق المقوى لم يقر له قرار. كان يجوب الصالة من نافذة الى اخرى وهو يصفر من حين لآخر. ومضت ليليا الى امها.

الشمس تزحف نحو الافق ببطء، فظيع، فهي تتورد وتكتسي بغيوم رمادية، ويستطيل ظل البئر البنفسجي على الثلج. واخيرا امرت ماما الاولاد بان يرتدوا حلة العيد. وجد نيكيتا على سريره قميصا حريريا ازرق مطرزا بشكل اغصان الشوح على الياقة والاذيال والردنين، وحزاما مفتولا ينتهي بشراريب وسروالا مخمليا. ارتدى نيكيتا ملابسه وهرع الى ماما. مشطت شعره الى جهتين بينهما مفرق واحتضنته من كتفيه وتفرست في وجهه واقتادته الى مرآة الابنوس الكبيرة.

راى نيكيتا في المرآة صبيا مهذبا انيقا. فهل يعقل ان هذا الصبي هو نيكيتا؟

– آه، يا نيكيتا – تمتمت ماما وهي تقبل رأسه يا ليتك تبقى هكذا دوما.

خرج نيكيتا على اطراف اصابعه الى الرواق وراى البنت تتهادى متبخترة في حلة بيضاء. وكانت ترتدي فستانا شفافا فاخرا، و على راسها شريط ابيض كبير، وتتدلى ست خصلات ثقيلة على جانبي وجهها الذي تغير كليا هو الآخر، وتستقر على كتفيها النحيلتين. اقتربت من نيكيتا والقت عليه نظرة متعالية وقالت:

– لماذا ارتعبت؟ تصورتني شبحا؟ – ومضت الى المكتب وجلست على الاريكة دون ان تخفض قدميها.

تبعها نيكيتا وجلس على الطرف الآخر من الاريكة. الحطب

يستعر ويطقطق في مدفأة الغرفة ويتساقط نثاره متفحما. ويتراقص ضوء مائل الى الحمرة على ظهور المقاعد الجلدية وعلى ركن اطار ذهبي معلق على الجدار وعلى تمثال بوشكين بين خواني الكتب.

جلست ليليا بلا حراك. ما اروع وجنتها وانفها الصغير النافر في الضوء المنعكس من المدفأة. وجاء فكتور في بدلة زرقاء بازرار فاتحة وياقة مطرزة ضيقة يصعب معها حتى الكلام.

جلس على احد المقاعد وصمت هو الآخر. ومن صالة الاستقبال المجاورة تناهى همس ماما وآنا ابولوسوفنا وهما تحلان صررا وتضعان شيئا ما على الارضية. حاول فكتور ان يبص من ثقب المفتاح لكن الثقب كان مسدودا بورقة من الجهة الاخرى.

ثم اصطفق باب في الرواق وتهادت اصوات وخطوات صغيرة كثيرة. فقد جاء اولاد من القرية. وكان لابد من الاسراع اليهم، الا ان نيكيتا عاجز عن الحركة. وعبر نقوش الجليد على النافذة شع ضوء دافىء مائل الى الز رقة. وقالت ليليا بصوت رفيع:

— بزغت نجمة.

في تلك الاثناء فتح باب المكتب، وقفز الاولاد من الاريكة. شجرة الميلاد مشتعلة بعدد كبير جدا من الشموع من أرضية صالة الاستقبال حتى سقفها. كانت منتصبة كشجرة من اللهيب يلمع فيها الذهب والشرر والاشعة الطويلة. الضوء ينسكب منها كثيفا دافئا يفوح برائحة الصنوبر و الشمع و المندرين والحلوى العسلية.

وقف الاولاد مشدوهين بلا حراك. فتحت ابواب اخرى على صالة الاستقبال ودخل صبيان وصبيات القرية وتزاحموا قرب الجدار. كانوا جميعا في جوارب صوفية بعد ان خلعوا جزماتهم اللبادية. وكانوا يرتدون قمصانا حمراء ووردية وصفراء، ومناديل صفراء وحمراء وبيضاء.

وعند ذاك عزفت ماما على البيانو الحان رقصة البولكا والتفتت بمحياها الباسم صوب شجرة الميلاد وانشدت:

سيقان الكراكي طويلة
ضيعت الدرب، ضلت الطريق...



مد نيكيتا يده صوب ليليا، فمدت له يدها وظلت تتطلع الى الشموع وانعكست في عينيها الزرقاويين في كل منهما، شجرة ميلاد. وقف الاولاد جامدين.

هرع اركادي ايفانوفيتش الى حشد الصبية والصبيات واخذهم من ايديهم وحام معهم في رقصة سريعة حول الشجرة. رفرفت اذيال سترته ، ثم سحب راكضا صبيين آخرين. ثم نيكيتا وليليا و فكتور، واخيرا انخرط جميع الاطفال في رقصة صاخبة حول الشجرة. وانشد اولاد القرية:

جمعت الذهب، كنزته
جمعت الفضة كنزته ...

انتزع نيكيتا مفرقعة من الشجرة ومزقها فوجد فيها طربوشا بنجمة. وطقطقت المفرقعات الاخرى في الحال، وفاحت رائحة البارود، وتعالت خشخشة الطرابيش الورقية.

وكان من نصيب ليليا مئزر ورقي بجيبين. ارتدته واحمرت وجنتاها كتفاحتين، وكانت شفتاهاملطختين بالشوكولاته. كانت تضحك طوال الوقت و تنظر بين حين وآخر الى العروس الكبيرة الجالسة تحت الشجرة والى السلة التي فيها ثياب العروس.

تحت الشجرة اكياس ورقية فيها هدايا للصبيان والصبيات ملفوفة بمناديل ملونة. استلم فكتور فوجا من الجنود مع مدافع وخيام. واستلم نيكيتا سرجا جلديا حقيقيا و لجاما و سوطا.

وتعالت اصوات تكسير الجوز والقشور التي تطقطق تحت الاقدام وانفاس الاطفال المبهوتة وهم يفتحون اكياس الهدايا.

وعزفت ماماعلى البيانو من جديد، ورقص الاطفال حول الشجرة منشدين، لكن الشموع بدأت تحترق فاخذ أركادي ايفانوفيتش يطفئها متقافزا حول الشجرة التي بهتت و احلولكت. واطبقت ماما غطاء البيانو وطلبت من الجميع انيذهبوا الى صالة الطعام لاحتساء الشاي.

الا ان اركادي ايفانوفيتش لم يهدأ هنا ايضا، فقد شكل سلسلة هو في مقدمتها ووراءه خمسة و عشرون طفلا وركض بهم في طريق غير مباشر عبر الرواق الى صالة الطعام.

و في الدهليز انفصلت ليليا عن السلسلة وتوقفت لتلتقط انفاسها وهي تلقى على نيكيتا نظرة من عينين ضاحكتين. كانا واقفين قرب مشجب المعاطف، فسالته ليليا:

– لماذا تضحك؟

– انت تضحكين وليس انا – اجابها نيكيتا.

– فلماذا تنظر الي؟

احمر وجه نيكيتا، لكنه اقترب منها و انحنى عليها، دون وعي منه ، وقبلها. فردت عليه في الحال بكلمات متلاحقة:

– انت صبي طيب. لم اقل لك ذلك كيلا يعرفه احد. فهذا سر بيننا – استدارت وركضت الى صالة الطعام.

بعد الشاي رتب اركادي ايفانوفيتش لعبة الغرامات لكن الاطفال تعبوا و اكلوا كثيرا فلم يعودوا يفهمون اصول اللعبة جيدا. واخيرا غفا طفل صغير جدا في قميص مشجر، فهوى من الكرسي واخذ ينحب بصوت عال.

واعلنت ماما عن انتهاء الحفلة، فخرج الاولاد الى الرواق حيث كانت معاطفهم و جزماتهم مصفوفة على طول الجدار. ارتدوها وهرعوا من المنزل الى الصقيع متزاحمين.

رافق نيكيتا الاولاد حتى السد. و عندما عاد الى المنزل وحيدا كان القمر ينير السماء في هالة بهيجة شاحبة.

وكانت الاشجار على السد وفي البستان تنتصب هائلة بيضاء وكانها قدنمت وسمقت في ضوء القمر. والى اليمين انبسطت صحراء بيضاء ذابت اطرافها في عتمة صقيعية تفوق الوصف. والى جنب نيكيتا كان ظل طويل ضخم الراس يحرك ساقيه ماشيا.

خيل لنيكيتا انه يسير في المنام، في مملكة مسحورة. فالنفس لا تشعر بمثل هذه الفرحة الغريبة الا في مملكة مسحورة.



## خيبة فكتور

تصادق فكتور في هذه الايام مع ميشكا كورياشونوك ورافقه الى البركة السفلى لاشعال «القطط». فاشعلا «قطة» رهيبة وانطلق اللهيب من تحت الجليد باعلى من قامة الانسان. ثم انشأ على الترعة وراء البركة قلعة مكونة من برج ثلجي حوله سور بطيقان و بوابة. وبعد ذلك كتب فكتور رسالة الى اولاد «راس القرية:»

«يا اولاد راس القرية، انتم حدادون عور كل ما صنعتموه هو حدوة للفارة. سنضربكم ضربة تظلون تتذكرونها الى الأبد. تعالوا. نحن ننتظركم في القلعة. القومندان فكتور بابكين، التلميذ في الصف الثاني».

دقوا الرسالة بمسمار على عصا، و حملها ميشكا كورياشونوك الى القرية وغرزها على كومة ثلج قرب منزل ارتامون. تسلق سيومكا وليونكا وارتامون الصغير واليوشكا وفانكا ابو الاذنين السوداوين و بتروشكا، ابن اخ الاعزب، كومة الثلج قرب العصا وراحوا يهددون اولاد راس القرية امدا طويلا ويرمونهم بكسر الجليد، ثم ذهبوا مع ميشكا كورياشونوك وتحصنوا معه في القلعة.

امر فكتور باعداد كتل و كريات ثلجية رصفوها داخل القلعة على طول الأسوار وغرزوا على البرج عصا في اعلاها حزمة من البردي و ظلوا ينتظرون.

جاء نيكيتا و تفقد التحصينات ودس يديه في جيبيه وقال:

– لن ياتي اليكم احد. قلعتكم لا تصلح لشيء، فلن العب معكم. انا ذاهب الى البيت.

– هذا الفارس لا يتحمل فراق البنت! – صاح فكتور من سور القلعة.

وقهقه اولاد ارتامون واطلق فانكا ابو الاذنين السوداوين صفيرا باصبعه المعقوف. فقال نيكيتا:

– لو اردت لنثرتكم جميعا من قلعتكم، ولكن لا اريد ان الوث يدي – ومد لسانه لفكتور و مضى نحو المنزل عبر جليد البركة. رموه بكريات الثلج فلم يلتفت.

لم يطل انتظار الصبيان في القلعة. فمن جهة القرية، من وراء

اكداس القش الملفعة بالثلوج لاح اولاد «رأس القرية». ساروا صوب القلعة مباشرة وهم يغوصون في الثلج حتى الركب. وكانوا زهاء خمسة عشر صبيا.

و تباهى فكتور بانه سيحول عظام اولاد «راس القرية» الى حطب. وقال ذلك وهو يتنشق بصفير من انفه المحمر في الصقيع. وكانت عيناه تتراقصان. اقترب اولاد «رأس القرية» واخذوا مواقعهم امام بوابة القلعة وجلس بعضهم على الثلج. وجاء معهم الصبي الصغير الملتف بمنديل امه. جاءوا وفي مقدمتهم ستيوبكا كارناوشكين الذي تفحص القلعة واقترب من سورها وقال:

— اعطونا هذا الصبي ذا الأزرار الفاتحة لنفرك اذنيه بالثلج...

شهق فكتور مهموما. وهمس له ميشكا: «اقذفه بكتلة ثلجية!» رفع فكتور كتلة من الثلج و القاها عليه فاخطاه. انسحب كارناوشكين عائدا الى اصحابه، وكانوا قد نهضوا واخذوا يصنعون كريات من الثلج. و انطلقت من القلعة كتل ثلجية صوبهم. و كان اولاد ارتامون يرمون تلك الكتل بتصويب جيد. فقد اسقطوا في الحال الصبي الصغير الملتف بمنديل امه. واخذ اولاد «رأس القرية» يردون على الرمي بالمثل. وانطلقت الكريات الثلجية كثيفة من كلا الجانبين. سقطت صارية البرج، وهوى فانكا ابو الاذنين السوداوين من فوق السور واستسلم للعدو. وفجاة طارت طاقية فكتور وضربته كتلة ثلجية اخرى في وجهه. وتعالى صياح اولاد «رأس القرية» وزعيقهم وصفيرهم، فقد هجموا لاقتحام القلعة...

فتحوا ثغرة في السور فهرب حماة القلعة عبر البردي على جليد البركة.

**ماذا في المزهرية على ساعة الحائط؟**

لم يفهم نيكيتا سبب عزوفه عن اللعب مع الصبيان. عاد الى المنزل وخلع ثيابه ومضى من غرفة الى اخرى فسمع ليليا تقول:

— ماما، اعطيني، من فضلك، خرقة نظيفة، فان ساق العروس الجديدة فالينتينا تؤلمها وانا قلقة على صحتها.



توقف نيكيتا واحس بفرحة غامرة من جديد، كما في كل هذه الأيام. كانت تلك الفرحة كبيرة جدا حتى خيل اليه ان صندوقا موسيقيا يجول في داخله وتنساب منه الحان مرحة رقيقة.

دخل نيكيتا المكتب و جلس على الاريكة. في نفس المكان الذي جلست فيه ليليا امس الاول، وراح ينظر بعينين شبه مغمضتين الى زجاج النوافذ والى النقوش المختلفة التي رسمها الجليد عليه. هذه النقوش الرقيقة الغريبة كانما جاءت من المملكة المسحورة التي يبث منها الصندوق السحري موسيقى صامتة. هذه النقوش عبارة عن اغصان واوراق واشجار واشباح غريبة لوحوش و بشر. احس نيكيتا وهو يتطلع الى النقوش ان كلمات تتراصف من تلقاء ذاتها وتغني. وبسبب هذه الكلمات المذهلة والانشاد المدهش انتصب الشعر على هامة راسه واخذ يدغدغه.

نزل نيكيتا من الاريكة بحذر وبحث في مكتب ابيه عن قصاصة ورق واخذ يكتب قصيدة باحرف كبيرة:

يا غابتي السحرية
تملؤك الاطيار
والوحوش والافراخ الهمجية...
ما اشد حبي لك
يا غابتي السحرية...

الا انه وجد صعوبة في اضافة شيء الى هذه السطور. أخذ يحدق في السقف ويقضم القلم. ثم ان الكلمات التي كتبها لم تكن نفس الكلمات التي صدحت تلقائيا قبل قليل.

قرا نيكيتا القصيدة، فاعجبته على كل حال. طوى الورقة بحرص عدة طيات ودسها في جيبه ومضى الى غرفة الطعام حيث جلست ليليا تخيط قرب النافذة. تندت يده الممسكة بالورقة في جيبه، لكنه لم يجد الشجاعة ليعرض القصيدة عليها.

قبيل المساء عاد فكتور بوجه ازرق من البرد وانف متورم، وصفقت آنا ابولوسفنا يدا بيد:

– حطموا له انفه من جديد! مع من تعاركت؟ اجبني فورا.

– لم اتعارك، انفي تورم بنفسه – اجاب فكتور عابسا ومضى الى غرفته وارتمى على السرير.

جاء نيكيتا ووقف ازاء المدفاة الحجرية. اتيرت في السماء المائلة الى الخضرة بضع نجوم كان احدا لسعها بابرة. وقال نيكيتا:

– هل تريد ان اقرا لك شعرا عن الغابة؟

هز فكتور كتفيه ووضع ساقيه على ظهر السرير:

– بلغ ستيوبكا كاراوشكين ان الافضل له ان يتحاشاني.

– في هذا الشعر وصف لاحدى الغابات – قال نيكيتا – وهي غابة لا ترى بالعين لكن الجميع يعرفونها... اذا اصابك حزن اقرأ هذا الشعر وستبدد حزنك فورا. يصادف ان ترى في المنام شيئا رائعا لا تعرف ما هو، لكنه رائع حقا، وعندما تستيقظ وتحاول ان تتذكره لا تستطيع... هل تفهم؟

– كلا. – اجاب فكتور – لا افهم ولا اريد الاستماع الى اشعارك.

تنهد نيكيتا. ظل واقفا قرب المدفاة برهة ثم انصرف. في الدهليز الواسع المنار بالحطب المستعر في المدفاة جلست ليليا على صندوق مغطى بجلد ذئب قبالة المدفاة وراحت تراقب اللهيب المتراقص.

جلس نيكيتا جنبها على الصندوق. الدهليز يعبق بروائح الدفء ومعاطف الفرو وبنفح عسلي حزين ينبعث من الحاجيات القديمة التي تعج بها جرارات الخوان الضخم. وقالت ليليا متألمة:

– تعال نتحدث. قص علي شيئا ممتعا.

– هل تريدين احكي لك الحلم الذي رأيته مؤخرا؟

– نعم، حدثني عن هذا الحلم، ارجوك.

طفق نيكيتا يقص عليها الحلم الذي رأى فيه القط والصورتين اللتين دبت فيهما الحياة، وحدثها عن تحليقه تحت السقف وعما



رآه هناك. استمعت اليه ليليا باهتمام وفي حضنها العروس المضمدة الساق.

عندما فرغ من حديثه التفتت اليه بعينين جاحظتين من الخوف وحب الاستطلاع، وسألته بهمس:

– ماذا في المزهرية؟

– لا ادري.

– فيها شيء هام حتما.

– ذلك مجرد حلم.

– مع ذلك، كان يجب التاكد منه. انت صبي ولا تفهم شيئا في هذه الأمور. ولكن هل عندكم مزهرية مثل تلك في الواقع؟

– عندنا ساعة بالفعل، ولكنني لا اتذكر المزهرية. الساعة موجودة في مكتب جدي، وهي معطلة.

– فلنذهب لنراها.

– المكتب مظلم.

– سنأخذ مصباحا من شجرة الميلاد. احضر المصباح ارجوك.

مضى نيكيتا راكضا الى صالة الاستقبال وانتزع من الشجرة مصباحا بزجاج لدائني ملون وعاد به الى الدهليز.

ألقت ليليا منديلا وبريا كبيرا على كتفيها، وخرج الاثنان خلسة الى الرواق وتسللا الى النصف الصيفي من المنزل. نوافذ الصالة المعتمة العالية السقف مغطاة بندى متجلد كثيف، واستقرت عليها ظلال الاغصان في ضوء القمر. الصالة باردة تفوح فيها عفونة التفاح. دفتا باب البلوط في الغرفة المجاورة المظلمة مواربتان. وسألت ليليا:

– الساعة هناك؟

– كلا، في الغرفة الثالثة.

– نيكيتا، الا تخاف؟

سحب نيكيتا دفة الباب فانبعث منها صرير كالانين اجتاح سائر الغرف الخالية. تشبثت ليليا بيد نيكيتا. وارتعش المصباح فتراقصت اشعته الحمراء والزرقاء على الجدران.

دخلا الغرفة المجاورة على اطراف الاصابع. كان ضوء القمر قد تسرب من النوافذ واستقر على الأرضية الخشبية بشكل مربعات

مائلة الى الزرقة. وعلى امتداد الجدار انتصبت المقاعد المخططة، وفي الركن الاريكة الواطئة كجذع شجرة. ألم الدوار بنيكيتا، وخيل اليه انه راى هذه الغرفة قبلا كما هي الآن.

— ينظران الينا — همست ليليا مشيرة الى الشيخ و العجوز في الصورتين القائمتين على الجدار.

اجتازا الغرفة راكضين وفتحا الباب الثاني. كان المكتب مغمورا بضوء القمر الساطع. والزجاج يلمع على دفات خزائن الكتب وتلمع اجلدتها المذهبة. ومن فوق المدفأة الحجرية تطلعت اليهما المراة في بزة الخيالة مغمورة بالضوء وعلى شفتيها ابتسامة كلها الغاز.

— من هذه؟ — سالت ليليا وهي تقترب من نيكيتا. فاجابها همسا:

— هذه هي.

هزت ليليا راسها. ثم التفتت وهتفت فجاة:

— المزهرية، انظر يا نيكيتا، هذه هي المزهرية!

بالفعل. ففي اعماق الغرفة، بين ضفيرتين خشبتين على ساعة الابنوس العتيقة برقصها الثابت، مزهرية برونزية براس أسد. لم يكن نيكيتا قد لاحظ وجودها في السابق، لكنه عرفها الآن، فهي نفس المزهرية التى رآها في المنام.

قرب كرسيا من الساعة وصعد عليه و استطال على اطراف اصابعه ودس اصبعه في المزهرية فلمس في قاعها غبارا وشيئا صلبا.

— وجدتها — هتف وقفز الى الارضية بقبضة مضغوطة.

في تلك الاثناء هر عليه من وراء خزانة الكتب القط فاسيا الذي قفز بعينين بنفسجيتين براقتين. كان يتصيد الفئران في المكتبة.

لوحت ليليا بيديها واطلقت ساقيها للريح، وركض نيكيتا في اثرها. كان مرتعبا جدا وكان يدا مجهولة لمست شعره. ركض القط فاسيا هو الآخر خافضا ذنبه، فمرق على مربعات ضوء القمر وسبق نيكيتا و ليليا دون ان يحسا به.

هرعا الى الدهليز وجلسا على الصندوق قرب المدفأة وهما



يلهثان من الخوف. توهجت وجنتا ليليا. وسألت هي تتطلع في عيني نيكيتا مباشرة:

— ماذا؟

عند ذاك فتح اصابعه فرات ليليا على راحته خاتما رفيعا بفص أزرق. وصفقت يدا بيد صامتة. ثم قالت:

— خاتم!

— خاتم سحري! — قال نيكيتا.

— ماذا سنفعل به؟

قطب نيكيتا حاجبيه، واخذ يدها والبس الخاتم على سبابتها. فقالت له:

— كلا، لماذا تعطيني اياه؟ — تطلعت الى الفص و ابتسمت وتنهدت ثم احتضنت نيكيتا في رقبته وقبلته.

احتقن وجه نيكيتا فاضطر الى الابتعاد عن المدفأة. ثم استجمع قواه وتمتم:

— وهذه لك ايضا — اخرج من جيبه الورقة المطوية المدعوكة التي سجل عليها قصيدة الغابة وسلمها الى ليليا.

فتحت الورقة واخذت تقراها محركة شفتيها. ثم قالت متاملة:

— اشكرك يا نيكيتا. هذا الشعر اعجبني كثيرا.

## المساء الأخير

اثناء احتساء شاي المساء، تبادلت ماما النظرات مرارا مع آنا ابولوسوفنا وهزت كتفيها. وغرز اركادي ايفانوفيتش وجهه الخالي من أي تعبير في كوبه حتى يخيل اليك انه لن ينطق بكلمة ولو ذبحته. فرغت آنا ابولوسوفنا من احتساء الكوب الخامس مع القشدة والفطائر الساخنة وابعدت الاكواب والصحون عنها ونظفت البقعة التي امامها من فتات الطعام ووضعت باطن يدها الكبيرة على السفرة وقالت بصوتها الاجش:

— كلا، ثم كلا، ياعزيزتي الكسندرا ليونتيفنا، مادمت قد قلت فلا جدال في اقوالي. اذا كان صاحبك حلوا فلا تاكله كله. اسمعوا يا اولاد — استدارت وغرزت سبابتها في ظهر فكتور كيلا يجلس

محدودبا – غداً الاثنين، وقد سيتم ذلك طبعاً. انهوا الشاي واذهبوا للنوم فورا. ففي فجر غد سنرتحل.

كور فكتور شفتيه صامتا ومدهما حتى تجاوزتا انفه. وغضت ليليا بصرها بسرعة وانحنت على الكوب. اما نيكيتا فقد غامت عيناه في الحال وداهمتها اشعة تنبعث من لسان المصباح. اشاح بوجهه و اخذ ينظر الى القط قاسيا.

ربض القط على الأرضية النظيفة ومد قائمته الخلفية كالمسدس وراح يلعقها وقد ضيق جفونه. لم يكن يشعر بالضجر ولا بالمرح. وهو غير مستعجل في الذهاب الى اي مكان. وفكر في نفسه: «غداء بالنسبة لكم انتم البشر، يوم عمل. ستبداون من جديد بحل مسائل الحساب وكتابة الاملاء، اما انا فلم اعيد في الاعياد ولم انظم الأشعار ولم اتبادل القبلات مع البنية. ساكون غدا ايضا في اطيب حال».

فرغ فكتور وليليا من احتساء الشاي. تطلعا الى حاجبي امهما الكثيفين اللذين بدآ يتحركان فنهضا وودعا الحاضرين وخرجا مع نيكيتا من غرفة الطعام. وهتفت آنا ابولوسوفنا:

– فكتور!

– نعم يا ماما.

– كيف تسير؟

– كيف؟

– كانك تجرجر قدميك على مطاط. اخرج بسرعة ولا تتسكع في الغرفة فالباب امامك. عدل ظهرك... اي نفع ينتظر منك في الحياة؟ لا ادري والله!

انصرف الأولاد. في الدهليز الدافىء المعتم حيث يتعين على الصبيين ان يستديرا الى اليمين توقف نيكيتا امام ليليا وقال وهو يعض على شفتيه:

– هل ستاتين الينا بالصيف؟

– ذلك يتوقف على ماما – اجابت ليليا بصوت رفيع دون ان ترفع بصرها.

– هل ستكتبين لي؟

– نعم. ساراسلك يا نيكيتا.



– وداعا اذن.

– وداعا يا نيكيتا.

هزت ليليا راسها فتحركت الفراشة عليه ومدت اطراف اصابع يدها لنيكيتا وانصرفت لا تلوى على شيء في مشية مؤدبة وقامة معتدلة. فلم يفهم نيكيتا شيئا وهو يشيعها بنظراته، اذ انها «ذات طبع متحفظ جدا» كما قالت عنها آنا ابولوسوفنا.

ظل فكتور يدمدم متذمراً وهو يجمع الكتب و اللعب في سلة ويخلع صوراً ما ويخبئها في علبة، ثم راح يبحث عن سكينه الصغيرة تحت المنضدة. اما نيكيتا فلم ينبس بكلمة. خلع ملابسه على عجل وغطى راسه بالبطانية متظاهرا بالنوم.

خيل اليه ان كل ما في العالم قد انتهى. ومن خلال النعاس الذي اثقل على جفنيه ظهرت الفراشة الهائلة لآخر مرة كظل على الجدار، ولن ينسى صورتها بعد الآن مدى العمر. وسمع بين اليقظة والنوم اصواتا، واشخاصا اقتربوا من سريره، ثم ابتعدت الأصوات. ورأى اشجارا كبيرة ذات أوراق عريضة دافئة ودربا ضيقا مائلا الى الاحمرار عبر حشائش كثيفة تفسح المجال امامه بسهولة. وشعر بلذة مدهشة في هذه الغابة الغريبة الحمراء تقريبا في الضوء واراد ان يبكى لحزن انتابه ولم يكن يعرف الحزن من قبل. وفجأة برز من بين اوراق راعي الحمام رأس أحد الهنود الحمر المتوحشين في نظارة مذهبة. وصاح بصوت عال: «آ، لا تزال نائما».

فتح نيكيتا عينيه. كان وجهه مغمورا بضوء الصباح الساخن وامام السرير وقف أركادي ايفانوفيتش يداعب انفه، هو، بطرف قلم الرصاص.

– انهض، انهض يا شيطان.

## الفراق

في يناير بعث فاسيلي نيكيتيفيتش والد نيكيتا، رسالة جاء فيها:

«...يؤلمني جدا ان قضية الميراث ستؤخر عودتي لأمد طويل

يا عزيزتي الكسندرا. فمن اللازم ان اسافر الى موسكو لمراجعة القضية. وعلى اية حال ساكون معكم في الصوم الكبير...»

حزنت ماما حزنا شديدا لهذه الرسالة وعرضتها في المساء على اركادي ايفانوفيتش وقالت:

– تبا لهذا الميراث اذا كان يسبب كلهذه المشاكل. الشتاء كله نعيش في الفراق. حتى يخيل الي ان نيكيتا بدأ ينسى اباه.

اشاحت بوجهها واخذت تحدق في النافذة المتجلدة المعتمة. وخلفها ليل بهيم وصقيع شديد جعل اشجار البستان تطقطق والواح سقف الجاليون تبعث بين الحين والآخر طقطقة عالية يرتجف لها الجميع، والعصافير تقع على الثلج فيجدونها ميتة في الصباح. مسحت ماما عينيها بالمنديل بحركة خفيفة. فقال اركادي ايفانوفيتش:

– نعم، ما اشد الفراق – غمغم بهذه الكلمات متأملا، ولعله كان يفكر بالفراق الذي يعاني منه شخصيا. فقد امتدت يده لتلمس الرسالة في جيبه.

كان نيكيتا آنذاك يرسم خريطة امريكا الجنوبية. فقدجرى بينه وبين ماما اليوم حديث طويل اعربت فيه ماما عن قلقها و اعتقادها بانه تكاسل خلال العيد وتدهور الى حالة تؤهله، على مايبدو، ليكون من الكتبة في الناحية او عمال التلغراف في محطة بيزينتشوك للقطار. وقالت ماما: «في المساء ارسم امريكا الجنوبية بدلا من الصور السخيفة».

انهمك نيكيتا في رسم امريكا وراح يفكر: هل يعقل انه نسي بابا؟ كلا. وفي البقعة التي تتقاطع فيها خطوط الطول والعرض على نهر الامازون راى وجه ابيه المرح بوجنتيه الموردتين وعينيه البراقتين واسنانه اللماعة ولحيته القاتمة المنفرجة الى شطرين، وسمع صوته العالي يقهقه. كان يستطيع ان يتطلع طول ساعات الى فم ابيه، وهو يتحدث، فيتملكه ضحك شديد. كانت ماما كثيرا ما تلوم بابا على خلو باله وطيشه، لكن السبب في ذلك هو خفة طباعه ومرحه. فمثلا، يخطر على باله فجأة ان الضفادع التي تعج بها البرك الثلاث في الضيعة تهلك بلا فائدة، فيستغرق خلال امسيات بكاملها في الحديث عن كيفية تربيتها وتسمينها ورعايتها



ثم ارسالها في براميل الى باريس. وقال لماما التي اضحكها هذا الحديث حتى تساقطت الدموع على خديها: «انت تضحكين الآن، لكنك سترين اني ساجمع ثروة من الضفادع». امر بابا بتسييج بقع في البركة وطبخ عصيدة لاطعام الضفادع واحضر بعض تلك الضفادع الى المنزل حتى هددته ماما بان يختار واحدا من اثنين، فاما هي واما هذه الضفادع التي تخشاها حتى الموت. وقالت بانها لن تعيش في بيت مليء بهذه الحيوانات المقرفة. ذات مرة سافر بابا الى المدينة وبعث من هناك عربات محملة بابواب بلوط واطر نوافذ عتيقة ومعها رسالة: «عزيزتي الكسندرا! تسنى لي صدفة ان اشتري مجموعة رخيصة جدا من الابواب والنوافذ. وقد جاءت بالمناسبة لانك كنت تحلمين ببناء جناح على تلة الحور. هل تذكرين؟ وقد تكلمت مع المعماري فنصحني ببناء جناح شتوي ليكون بالامكان العيش فيه شتاء ايضا. وانا مسرور مسبقا. فان منزلنا واقع في منخفض ولا يرى من نوافذه اي منظر». بكت ماما. كانت مدينة لاركادي ايفانوفيتش برواتب الشهور الثلاثة الماضية. فمن اين تاتي بالنفقات الجديدة؟.. رفضت بناء الجناح رفضا باتا، وظلت الابواب والنوافذ تتفسخ في المستودع. واستولت على بابا، مرة، فكرة ساخنة لتحسين الزراعة وكانت تلك مصيبة اخرى. فقد اوصى على آلات من امريكا، وذهب بنفسه للأشراف على نقلها من محطة القطار، وكان غاضبا، وهو يعلم العمال على كيفية قيادتها، ويصيح على الجميع: «على مهلكم يا ملاعين!».

وبعد فترة قصيرة سألته ماما:

– كيف حال آلتك العجيبة لحزم السنابل؟

– ماذا؟ – قال بابا وهو ينقر على النافذة باصبعه. – آلة ممتازة.

– رايتها في المستودع.

هز بابا كتفه ومسد لحيته بشطريها الاثنين على عجل وسألته ماما بصوت وديع:

– هل تعطلت؟

– ليس الذنب ذنبي – قال بابا متأنفا – الامريكان البلهاء يبتدعون آلات تتعطل كل دقيقة.

رسم نيكيتا نهر الامازون وروافده وراح يفكر بابيه فامتلأ فؤاده بالحب والمرح الرقيق. ضميره لا يؤنبه، وماما غير محقة عندما قالت ان نيكيتا نسي اباه.

وفجأة طقطق الجدار كطلقة المسدس. ندت عن ماما صرخة وسقطت الحياكة على الارضية. وهر القنفذ اخيلكا تحت الخوان ونفث الهواء من منخره غاضبا. تطلع نيكيتا الى اركادي ايفانوفيتش الذي تظاهر بالمطالعة لكن عينيه مغمضتان في الواقع مع انه ليس نائما. وشعر نيكيتا بالعطف عليه: مسكين، ذهنه مشغول دوما بخطيبته فاسا نيولوفنا المعلمة في المدينة. فما أصعب الفراق!

اسند نيكيتا خده بقبضته وما اخذ يفكر بفراقه هو. هاهو الكرسي الذي جلست ليليا عليه قرب المائدة. وهي الآن غير موجودة. فما اشد حزنه! كانت هنا وارتحلت. وهاهي البقعة التي خلفتها على المائدة عندما سال الصمغ من يدها. وعلى هذا الجدار كان يستقر ظل شريطها. «مرت الأيام السعيدة بلمح البصر». اختنق نيكيتا من هذه الكلمات الحزينة جدا التي ابتدعها توا. وكيلا ينساها سجل تحت خريطة امريكا: «مرت الأيام السعيدة بلمح البصر»، واستمر يرسم. مال بنهر الامازون الى جهة غير صحيحة فمده عبر باراغواي واورغواي الى ارخبيل ماجلان:

— اعتقد انك محقة يا الكسندرا ليونتيفنا. فهذا الصبي يستعد ليكون من عمال التلغراف في محطة بيزينتشوك — قال اركادي ايفانوفيتش بصوت هادىء يقشعر له البدن. وكان يتطلع من زمان الى ما يفعله نيكيتا بالخريطة.

## مشاغل الأيام

اخذ الصقيع يشتد يوما بعد يوم. الريح القارسة تعبث بالأشجار فيتساقط منها الندى المتجلد. واكتست الثلوج بطبقة جليدية صلبة صارت الذئاب الجائعة المرتجفة تمشي عليها في الليالي فرادى وازواجا حتى تقترب من الضيعة.

ويتحسس شاروك وكاتوك وجود الذئاب فيطلقان صأصأة كئيبة اقرب الى العواء ويختبآن تحت مستودع العربات ويعويان من هناك بصوت رفيع مقرف: ووو...



كانت الذئاب تعبر جليد البركة وتقف بين البردي وتتشمم روائح الضيعة الماهولة تتشجع وتمر عبر البستان وتقعى على ثلج الفسحة امام المنزل وتنظر بعيونها البراقة الى النوافذ المتجلدة المعتمة وترفع ابوازها في الظلمة القارسة وتشرع بالعواء بصوت واطىء في البداية، وكأنها تشتكي وتنوح، ثم يرتفع العواء تدريجيا ويعلو بلا انقطاع حتى تجهد الحناجر الجائعة وتخدش اصواتها الآذان.

وخوفا من عواء الذئاب يغرز شاروك وكاتوك بوزيهما في القش تحت مستودع العربات حتى يكادان يفقدان رشدهما. وفي جناح الخدم كان النجار باخوم يتململ على دكة الفرن متدثرا بفرو الغنم ويدمدم ناعسا:

— ياالهي، اغفر لنا ذنوبنا.

كانت الأشغال في المنزل سائرة على قدم وساق. الجميع ينهضون من النوم في ساعة مبكرة، حالما تنساب من النوافذ السوداء المائلة الى الزرقة خطوط قرمزية من ضوء الفجر، ويتكشف شيئا فشيئا الزجاج المزخرف بالجليد وتظل اعاليه زرقاء.

تصطفق فتحات مدافىء المنزل وافرانه، ويظل فانوس الكيروسين المصفح مشتعلا في المطبخ وتفوح رائحة السماور والرغيف الساخن. لم يكونوا يطيلون الجلوس لاحتساء شاي الصباح. وبعده تنظف ماما المائدة في غرفة الطعام وتضع عليها ماكنة الخياطة. وتأتي خياطة المنزل صوفيا التي تستأجر من قرية بيوستراقكا. وهي مجدرة الوجه مائلة على جنبها، وقد تسوست سن من اسنانها الامامية لأمعانها في قطع الخيوط بها وكانت تخيط مع ماما ثيابا للاستعمال اليومي ايضا. كانتا تتحدثان همسا اثناء الخياطة وتمزقان القماش فينبعث منه صوت كالفرقعة. كانت صوفيا عبوسا وكأنها تركت وراء الدولاب سنين عديدة فعثروا عليها ونفضوا الغبار عنها واملسوها لتخيط الثياب.

ركز اركادي ايفانوفيتش خلال هذه الايام على الدروس وقام بطفرة — حسب تعبيره المحبب — حيث شرع بتدريس الجبر وهو مادة جافة للغاية.

فاثناء دراسة الحساب يمكن على الاقل التفكير بمختلف الاشياء المسلية، وان كانت غير نافعة يمكن التفكير، مثلا، بالاحواض الصدئة التي تطفو فيها فئران ميتة وتصب فيها ثلاثة انابيب، او بشخص ما في سترة لدائنية وانف طويل يخلط ثلاثة انواع من البن ويشتري يضع اوقيات من النحاس، اوبذلك البزاز المنحوس وقماشه الأسود والازرق. اما الجبر فليس فيه ما يمكن التعلق به وليس فيه شيء حي على الاطلاق، سوى رائحة الصمغ المنبعثة من جلد الكتاب، بالاضافة الى انعكاس وجه اركادي ايفانوفيتش، المستدير كالابريق، في المحبرة عندما ينحني على كرسي نيكيتا ليشرح له الغاز.

واثناء دروس التاريخ يقف اركادي ايفانوفيتش وظهره الى المدفاة الحجرية. وعلى خلفية قراميدها البيضاء تبدو سترته السوداء ولحيته الشقراء ونظارته المذهبية على اروع ما يكون. وعندما تحدث المعلم عن بيبين القصير الذي استعرض قوته في سواسون رفع يده وشق الهواء براحته وقال مخاطبا نيكيتا:

— لاحظ ان اناسا مثل بيبين القصير كانوا يتميزون بارادة لاتقهر وبسالة منقطعة النظير. وهم لا يتكاسلون عن العمل مثلما يتكاسل البعض، ولا يحملقون كل لحظة في المحبرة التي لم يكتب عليها شيء، بل ولم يكونوا يعرفون الكلمات المخجلة مثل «لا استطيع» و «تعبت». ولم يدعكوا جباههم باصابعهم بدلا من استيعاب الجبر. ولذا لا يزالون حتى الآن قدوة لنا... تلفظ الكلمات الأخيرة وهويرفع الكتاب بعد أن دس اصبعه في منتصفه.

وبعد الغداء تقول ماما للمعلم عادة:

— اذا كانت درجة الحرارة اليوم ايضا عشرين درجة تحت الصفر فلن يذهب نيكيتا للتنزه.

و كان اركادي ايفانوفيتش يقترب من النافذة وينفخ على الزجاج في البقعة التي يوجد المحرار وراءها ويقول:

— واحد و عشرون ونصف يا الكسندرا ليونتيفنا.

— حقا؟ هذا ما تصورته. اشغل نفسك بشيء يا نيكيتا.

مضى نيكيتا الى مكتب ابيه وجلس على الاريكة الجلدية القريبة من المدفاة وفتح كتاب فينيمور كوبر السحري.



كان السكون مخيما على غرفة المكتب الدافئة حتى سمع نيكيتا دويا خفيفا في اذنيه. فما اغرب القصص التي يمكن ان يبتدعها في وحدته هذه على الاريكة وسط ذاك الدوي. كان الضوء الابيض ينساب عبر زجاج النوافذ المتجلد. قرا نيكيتا في كتاب كوبر، ثم قطب حاجبيه واخذ يتصور امدا طويلا، بلا بداية ولا نهاية، تلك البرارى الشاسعة الخضراء التي توشوش اعشابها متموجة في الريح، والجياد الرقطاء التي تصهل منطلقة باقصى السرعة ورؤوسها المرحة ملتوية. ويتصور الشعاب المعتمة في جبال كورديليراس والشلال الابيض يطل عليه بلا حراك من فوق صخرة جبلية تشبه راس السكر زعيم الهنود الحمر من قبيلة الهورون مزينا بالريش وبيده بندقية طويلة. ويتصور نيكيتا نفسه في خضم الغابة جالسا على حجر بين اصول شجرة هائلة وقد اسند خده براحته، والدخان يتصاعد من موقد امامه. الهدوء يخيم على الغابة فيسمع نيكيتا دوي اذنيه وهويبحث هنا عن ليليا التي سرقوها منه غدرا. اجترح مآثر كثيرة وحمل ليليا مرارا على حصان هائج وتسلق صخور الشعاب واطلق النار بمهارة فاصاب زعيم الهورون وارداه قتيلا، لكن هذا الأخير كان يقوم من جديد ويقف في مكانه المرة بعد المرة. ظل نيكيتا ينقذ ليليا طوال الوقت دون ان يكف لحظة عن انقاذها.

وعندما يسمح الصقيع وماما لنيكيتا بمغادرة المنزل كان يتجول في الحوش وحيدا. فقد عافت نفسه الالعاب السابقة مع ميشكا كورياشونوك، ثم ان ميشكا نفسه صار يلازم جناح الخدم وقتا اطول ويلعب الورق هناك، اذ يسحبون الخاسر من شعره جزاء له.

كان نيكيتا يقترب من البئر ويتذكر: من هنا رأى في نافذة المنزل الشريط الازرق الوحيد من نوعه في الدنيا. النافذة خالية الآن. ولكن شاروك وكاتوك نبشا قرب مستودع العربات زاغا ميتا من تحت الثلج. انه نفس الزاغ الذي انحنت عليه ليليا وقالت: «انظر يا نيكيتا، هذا طير ميت، اسفي عليه». انتزع نيكيتا الزاغ من الكلبين وحمله الى ما وراء مبنى السرداب ودفنه في الثلج.

وعندما سار نيكيتا على السد تذكر كيف مر هنا في الليل بعد انتهاء حفلة عيد الميلاد وتمشى تحت اشجار الصفصاف الهائلة

الشفافة في ضوء القمر وكان ظله ينزلق جنبه ، فلماذا عجز آنذاك عن ادراك ماحدث له؟ كان يتعين عليه ساعتها ان يغمض عينيه ويتحسس تلك السعادة باهتمام كبير.

اما الآن فالريح الشائكة توشوش بين الصفصافات المتجمدة السوداء، والتلة الجليدية على البركة مغطاة كليا بالثلج. وقد تزحلق منها هو وليليا آنذاك على زحافتين. فكانت ليليا صامتة بعينين شبه مغمضتين وقد تشبثت بجنبي الزحافة قدرما تستطيع. لقد محا الثلج كل الاثار.

مضى نيكيتا على طبقة جليدية الى ما وراء الحوش حيث كومت الريح من جهة الشمال تلالا من الثلج بارتفاع سطوح الاكواخ. ومن هنا يلاحظ الحقل الابيض المستوى كبادية تندمج مع السماء في الافق الصقيعي الملفع بالضباب. وكانت الريح تدوم كالدخان، وتتلاعب باذيال معطفه الفرائي ويتطاير الثلج من قمة التلة. لم يكن نيكيتا يعرف السبب الذي جعله يتوقف هنا وينظر الى هذه البادية البيضاء.

لاحظت ماما الحزن باديا على نيكيتا، فتحدثت بهذا الخصوص مع اركادي ايفانوفيتش. قررا الغاء دروس الجبر وجعل الصبي ياوي الى الفراش في ساعة مبكرة و «زقه» بزيت الخروع، على حد تعبير المعلم الذي لا يدل على ذكاء مطلقا.

طبقت كل هذه الاجراءات فتحسن مزاج نيكيتا كما لاحظ المعلم. الا ان الطبيب الحقيقي وصل بعد ثلاثة اسابيع: انه الربيع برياحه الشديدة الرطبة التي هبت من الجنوب و لفت الحقول والبستان والضيعة بغلالة من الضباب الرمادي وحملت غيوما ممزقة مسعورة تجري بسرعة جنونية على ارتفاع منخفض فوق سطح الأرض.

## غربان القيظ

يوم الأحد اجتمعوا يلعبون الورق في جناح الخدم. العامل فاسيلي وميشكا كورياشونوك والراعي الصغير ليكسيا وارتيوم، الفلاح الفارع القامة جدا والمحدودب الظهر بانفه الطويل المقوس.



وهو اعزب لا يمتلك حصانا، لذا مارس العمل الفلاحي بالاجرة طول عمره، وكان يريد ان يتزوج من زمان الا ان البنات لا يرضين به زوجا. قبل ايام اخذ يلاحق بنظراته حالبة الابقار دونياشا، وهي فتاة جميلة موردة الوجنتين. كانت طول النهار تنطلق كالمكوك بين الحظيرة ومبنى السرداب والمطبخ وهي تجلجل بدلاء الزنك الاسطوانية، وتفوح منها دوما رائحة اللبن الطازج الطيبة. وعندما يتساقط الثلج يخيل للرائى ان حباته تغلى بفحيح على وجنتيها. كانت فتاة ضحوكا. حالما يراها ارتيوم، اينما وجد، سواء كان يحمل العصافة والتبن من البيدر او ينظف مرابض الغنم، يغرز المذراة في الارض ويتوجه صوبها على قدمين طويلتين كقوائم الجمل. يقترب منها و يخلع قبعته و ينحني لها:

— مرحبا، دونياشا.

— مرحبا – تجيبه دونياشا وتضع دلويها و تغطي فمها بطرف المئزر.

— الا تهتمين بغير الحليب، يادونياشا؟

عند ذاك تجلس دونياشا القرفصاء، فان ساقيها لا تحملانها من شدة الضحك، ثم تاخذ الدلوين و تنطلق على الممشى المتجلد بين الثلوج الى مبنى السرداب وتلقى بالدلوين على الارضية بصخب وتقول لمدبرة المنزل فاسيليسا بكلمات تتناثر بمنتهى السرعة: «الجمل طلب مرة اخرى ان اتزوجه، ياالهي، سامورت من الضحك» وتقهقه بصوت رنان يسمعه كل من في الحوش.

دخل نيكيتا جناح الخدم. كانوا يطبخون حساء الباجة من رؤوس الخراف، وتفوح رائحة طيبة من لحم الغنم والرغيف المخبوز. عند الباب الذي علق قربه غسال خزفي بصنورة فوق طست بدت آثار الثلج الذي كان عالقا بجزماتهم. جلس باخوم على مصطبة قرب الفرن، و تهدل شعره الأسود على جبهته المجدرة و على حاجبيه المقطبين. كان يخيط جزمته: يغرز المخرز في الجلد بحذر و يميل برأسه و يضيق جفونه و يثقب ثغرة ويدس فيها طرف الخيط المشمع، ممسكا الجزمة بين ركبتيه، ثم يسحب الخيط من طرفيه. نظر الى نيكيتا شزرا. كان غاضبا

جدا، لانه تشاجر اليوم مع الطباخة. فقد نشوت لفافات قدميه قرب الفرن لتجف فاحترقت اطرافها.

تحلق اللاعبون حول المائدة في قمصان نظيفة بمناسبة يوم الاحد، وشعر مصفف مدهون. وكان ارتيوم الشخص الوحيد في سترة بالية وشعر اشعث، فلا احد يعتنى به ويغسل قمصانه:

كان اللاعبون يطرقون الورق القواح ويكررون:

– غطيت العب بعشرة.

– غطيت العب بخمسين

– وهذه الورقة، هل رايتها؟

– وانت؟ هل رايت هذه؟

– كل ورقاتي رابحة.

– آه!

– يا ويلك يا ارتيوم!

– كيف؟ يا ويلي انا؟ – قال ارتيوم وهو يحدق في الورق مندهشا – غير صحيح. اخطاتم.

– مد انفك.

– اخذ ارتيوم ورقتين، في كل يد ورقة، وغطى بهما عينيه.

وبدا فاسيلي يضرب انف ارتيوم الطويل بثلاث ورقات ضربات طويلة. بينما راح سائر اللاعبين ينظرون ويحسبون عدد الضربات، ويصيحون بارتيوم غاضبين كيلا يتحرك و يتململ.

جلس نيكيتا يلعب فخسر في الحال وتلقى خمس عشرة «ضربة» على الانف. وفي تلك الاثناء وضع باخوم الجزمة و ادوات الترقيع تحت المصطبة وقال بخشونة:

– يعود البعض من صلاة الظهر، اما هؤلاء الذين لم يرسموا شارة الصليب على جباهم فلا شغل لهم غير لعب الورق وانتظار اللقمة الدسمة... ياستيبانيدا – صاح ونهض متوجها نحو الغسال – اعدي المائدة!

في المطبخ سقط غطاء القدر من يد الطباخة المرتعبة. وجمع الخدم الورق. استدار فاسيلي الى الركن صوب الايقونة الورقية الملوثة بآثار الصراصر ورسم شارة الصليب على صدره.



احضرت الطباخة ستيبانيدا قصعة خشبية تحتوي على رؤوس الخراف. كان يتصاعد منها بخار فواح حجب وجه الطباخة فاشاحت عنه. جلس الخدم صامتين جديين الى المائدة والتقطوا الملاعق. بدا فاسيلي يقطع الخبز ويوزعه بشرائح طويلة عليهم ثم ضرب القصعة بملعقته ايذانا ببدء الغداء. كان حساء الباجة لذيذا.

لم يجلس باخوم الى المائدة. اخذ قطعة من الخبز ومضى الى نفس المصطبة قرب الفرن. قدمت له الطباخة بطاطس ساخنة وناولته المملحة الخشبية. فهو لا ياكل لحما اثناء الصيام وقال لها وهو يسحق بحذر حبة بطاطس يتصاعد منها البخار ويدس نصفها في المملحة:

– احرقت لفافاتي. انت فلاحة حمقاء، لا اكثر...

خرج نيكيتا الى الحوش. وكان النهار ملفعا بالضباب، والريح ندية ثقيلة. وبرزت من تحت الثلج الرمادي المحجب كالملح بقايا الروث الصفراء. كان درب الزحافات المنعطف صوب السد والملئ بالروث والبرك اعلى من الثلج. و كانت جدران الاكواخ المبنية من الجذوع وسطوح القش القاتمة والاشجار العارية والمنزل الخشبي الكبير غير المطلي عبارة عن كتلة رمادية سوداء واضحة المعالم.

مضى نيكيتا الى السد. ومن بعيد تناهى اليه حفيف الاشجار البليلة الذي يشبه خرير الماء عبر بوابات السد. كانت قمم اشجار الصفصاف المتمايلة ملفعة بغيوم ممزقة تحلق على ارتفاع منخفض. و بين تلك الغيوم على الاغصان العارية المهتزة حومت طيور سوداء تنعق باصوات قلقة منبعثة من اعماق الحنجرة.

وقف نيكيتا ورفع راسه وفغر فاه. خيل اليه ان هذه الطيور ظهرت من الريح الرطبة الكثيفة التي حملتها مع الغيوم، وتشبثت باغصان الصفصاف المتمايلة وراحت تنعق لتخبرنا عن شيء غامض مخيف ومفرح. واحتبست انفاس نيكيتا وانتفض قلبه.

تلك هي غربان القيظ المهاجرة تعود مع اول عاصفة ربيعية الى اماكنها القديمة، الى اعشاشها المخربة. فقد لاحت تباشير الربيع.

ظلت الريح البليلة تعصف ملتهمة الثلوج طول ثلاثة ايام. وعلى الهضاب تعرت الارض المحروثة باخاديد سوداء. والهواء مشبع برائحة الثلج الذائب والروث وعرق الدواب. وعندما تفتح بوابة الحظيرة تخرج الابقار الى المشرب وهي تتزاحم بخوار عال وقرونها تتلاطم وتطقطق. وكان الثور بايان يجول ويصول هائجا ويعب من ريح الربيع. وجد ميشكا كورياشونوك وليكسيا صعوبة كبيرة في دفع الماشية بسيوطها وحملها على العودة الى مرابطها الغاصة بالسرقين. ثم تفتح بوابة الاسطبل وتخرج الخيول ناعسة، كانها ثملة، بشعرها الذي تغير لونه و احلولك وعفراتها القذرة المسترسلة وبطونها المنتفخة. ولدت فيستا مهرا في زريبة انفرادية قرب الاسطبل. وكانت الزيغان المبتلة تحلق فوق السطوح وتنعق صاخبة متحيرة. وفي المنطقة الخلفية، وراء مبنى السرداب، تنهش الغربان الجيف التي تعرت من تحت الثلج. اما الأشجار فقد ظلت تبعث حفيفا ثقيلا مقلقا. وفوق السد وعلى الصفصاف وبين الغيوم تحلق غربان القيظ ويتعالى نعيقها.

الم بنيكيتا صداع استمر كل هذه الايام. كان يجوب الحوش والدرب الموحلة. ناعسا قلقا، ويمضي الى البيدر الذي تفوح من اكوام العصافة و التبن فيه رائحة غبار القمح والفئران. كان معتكر المزاج مهموما وكان شيئا فظيعا سيحدث، شيئا يستحيل فهمه والتسامح معه. كل ما حواليه – الارض والدواب و الماشية والطيور – لم يعد مفهوما بالنسبة له و لا عزيزا عليه. كل ذلك غدا غريبا عدائيا مشؤوما. سيحدث شيء غير مفهوم اطلاقا، خطيئة فظيعة. ومع ذلك، ورغم النعاس والدوار اللذين يلاحقانه بسبب الريح و روائح الجيف و سنابك الخيل والروث والثلج الهش، استولى عليه حب الا ستطلاع وجذبته تلك الاشياء.

عندما عاد الى المنزل مبللا مستوحشا تفوح منه رائحة كرائحة الكلاب حدقت فيه ماما بنظرة متفحصة مستنكرة لا اثر فيها للرقة والحنان. لم يفهم السبب في غضب ماما. فتعكر مزاجه وتعذب اكثر. لم يفعل ما يسيء خلال هذه الأيام،ومع ذلك كان قلقا



وكانما هو ايضا مذنب في جريمة تقترف دون أي مبرد على وجه البسيطة.

سار نيكيتا على امتداد اكوام الدريس من الجهة غير المعرضة للريح. لاتزال موجودة في هذه الاكوام الجحور والمغارات التي حفرها الفلاحون و الفلاحات في اواخر الخريف عندما انجزوا درس آخر حزم القمح. وفي هذه الجحور و المغارات تحت الأكوام كانوا ينامون ليلا. وتذكر نيكيتا الاحاديث التي سمعها هناك، في ظلمة القش الدافيء الفواح. وبدت له تلك الاكوام مخيفة.

اقترب نيكيتا من قمرة محراث قائمة في الحقل على مقربة من البيدر. وهي كمنزل خشبي صغير بعجلات. بابها معلق على رزة واحدة، وهو يبعث صريرا كئيبا. كان «المنزل» خاليا. صعد اليه نيكيتا على سلم من خمس عيدان عرضانية. وفي الداخل نافذة صغيرة من اربع زجاجات. والثلج لا يزال يغطي الأرضية. وعلى رف عند الجدار، تحت السقف، بقيت من الخريف الماضي ملعقة خشبية مقطومة وقنينة زيت نباتي فارغة ومقبض سكين. والريح تصفر فوق السطح . وقف نيكيتا يفكر بانه الآن وحيد لا يحبه احد و الجميع غاضبون عليه . كل شيء على وجه البسيطة رطب اسود شرير. وانسدلت غشاوة على عينيه واختنق بعبراته: كيف لا وهو وحيد في هذا العالم، وحيد في القمرة الخالية؟..

– يا الهي – تمتم نيكيتا بصوت كالهمس واقشعر بدنه وكان نملا باردا يسرى على ظهره. – ياالهي، ساعدني لتتحسن حالي من جديد، و اجعل ماما تحبني، و اجعلني اطيع معلمي... و اجعل الشمس تشرق والعشب ينمو... والغربان لا تنعق بهذه الصورة المخيفة... والثور بايان لا يزأر كالوحش... يا الهي، ساعدني و خفف علي من جديد.

تمتم نيكيتا بهذه الابتهالات وهو يحني ظهره ويقومه ويرسم شارة الصليب باستعجال، وتطلع الى الملعقة والقنينة ومقبض السكين فخفف عليه ذلك فعلا. ظل واقفا دقائق اخرى في هذا «المنزل» المعتم بنافذته الصغيرة ثم مضى الى البيت.

حقا، ساعده المنزل ذو العجلات. ففي الدهليز عندما كان يخلع معطفه مرت ماما قربه والقت عليه بنظرة متفحصة كعادتها

في هذه الايام، ومن عينين رماديتين صارمتين، لكنها ابتسمت بحنان ومسدت شعره براحتها وقالت:

— ماذا؟ شبعت من التجول؟ تريد شايا؟

## مفاجاة وصول فاسيلي نيكيتيفيتش

واخيرا هطل المطر غزيرا في الليل، وراح يطرق بشدة على النافذة وعلى السطح المعدني فايقظ نيكيتا حتى جلس على السرير يستمع باسما.

ما اروع حفيف المطر في الليل. فهو يطرق باستعجال على زجاج النافذة: «تم، تم، تم»، وتتلاعب الريح المتقطعة باشجار الحور في الظلمة امام المنزل.

قلب نيكيتا المخدة لتكون صفحتها الباردة الى اعلى ورقد من جديد وتقلب تحت البطانية الصوفية ليتخذ افضل وضعية ممكنة. «كل شيء سيكون باروع شكل... شكل...» — فكر وهو يغوص في غيوم الكرى الناعمة الدافئة.

انقطع المطر في الصباح، لكن السماء لا تزال ملبدة بسحب رمادية ثقيلة تتحرك من الجنوب الى الشمال. تطلع نيكيتا عبر النافذة وندت عنه صرخة استغراب. فلم يبق اثر للثلوج. الحوش الفسيح مغطى ببرك زرقاء تترجرج في الريح. عبر البرك، على العشب البني المدعوك، يمتد ممشى ممسوح بالروث لم تلتهمه مياه الامطار بالكامل بعد. اغصان الحور البنفسجية الناقعة تتراقص بمرح واستعجال. ومن جهة الجنوب، بين السحب الممزقة، ظهرت بقعة من السماء اللازوردية تغشى زرقتها الابصار وانطلقت بسرعة رهيبة صوب الضيعة.

اثناء احتساء الشاي كانت ماما تتطلع الى النوافذ بانفعال بين حين وآخر. وقالت للمعلم:

— لم يصل البريد من خمسة ايام. انا متحيرة... لماذا بقى حتى بدات الفيضانات؟ ستتعطل الطرق اسبوعين... ما أشد طيشه!

فهم نيكيتا ان ماما تقصد اباه. فقد كانوا ينتظرون وصوله



ساعة بعد اخرى. مضى اركادي ايفانوفيتش ليستفسر من وكيل الضيعة عن امكانية ارسال شخص على ظهر حصان لاحضار البريد. ولكنه عاد في الحال الى غرفة الطعام وقال بصوت عال يختلف عن صوته العادي:

— يا سادة، انظروا ماحدث!.. الماء يبقبق ويوشوش.

فتح نيكيتا باب المدخل على مصراعيه. الهواء الطلق النفاذ مشبع بخرير الماء الذي يتلوى ويجري بشدة. جداول الثلج الذائب تتراكض في كل الاخاديد والسواقي و القنوات الى المنخفضات. طفحت تلك المنخفضات بمياه الربيع وراحت تلفظها الى النهر. حطم النهر جليده وطفح على الضفاف وتلاطمت الكتل الجليدية فيه والشجيرات التي اقتلعها من الجذور، وجرى فوق السد ليسقط كالشلال في الوهدات العميقة وراءه.

البقعة اللازوردية المسرعة صوب الضيعة مزقت كل الغيوم وبددتها. و انسكب من السماء ضوء بارد مائل الى الزرقة. وصارت البرك في الحوش زرقاء بلا قاع، وارتسمت معالم الجداول ببقع ضوئية تتراقص فوقها، وراحت البحيرات الهائلة في الحقول والمنخفضات الجارية تعكس حزما من اشعة الشمس.

— يا الهي، ما اروع هذا الهواء — تمتمت ماما وهي تضغط يديها على صدرها تحت الوشاح الوبري. وجهها يبتسم و عيناها الرماديتان تبعثان وميضا اخضر. عندما تبتسم ماما تغدو اجمل من كل البشر على الأرض.

طاف نيكيتا حول الحوش ليرى ماذا حدث. الجداول تجري في كل مكان و تختفي احيانا تحت اكوام الثلج الرمادي المحبب. وتتهاوى تلك الاكوام منسحقة تحت قدميه. المياه في كل جهة تتجه اليها. والضيعة كجزيرة في بحر. تمكن نيكيتا من الوصول الى ورشة الحدادة الواقعة على الرابية. وركض على المنحدر الناشف الى المنخفض. كان الماء الصافي الفواح الناشيء عن ذوبان الثلوج ينساب ويجري ساحقا اعشاب العام الفائت. اغترف نيكيتا من هذا الماء وشرب.

وفي مسافة ابعد، على طول المنخفض لم يذب الثلج بعد. وكان مغطى ببقع صفراء وزرقاء، يشق الماء مجراه فيه تارة

وينساب فوقه تارة اخرى. وليحفظ الله الخيالة من الوقوع في هذه العصيدة الثلجية. سار نيكيتا على العشب بامتداد الماء: ياليته يعوم في مياه الربيع من منخفض الى منخفض، قرب الضفاف الرخوة التي بدات تجف، عبر البحيرات اللماعة المترجرجة في ريح الربيع.

على الطرف الثاني من المنخفض ينبسط حقل مستو، عار في بعض المواضع ومغطى بالثلج في بعضها الآخر، و الجداول المائية تلمع فيه. ومن بعيد، عبر الحقل يسير ببطء، خمسة خيالة على ظهور جياد بلا سروج. التفت اولهم وصاح، على ما يبدو، وهو يلوح بشليلة من الحبال. انه ارتامون تورين عرفه نيكيتا من حصانه الابقع. وكان الخيال يحمل على كتفه وتدا. كانوا متجهين صوب قرية خومياكوفكا الواقعة على الضفة الثانية من النهر وراء المنخفضات. وكان منظرهم وهم يخوضون في المياه على ظهور الجياد، بعيدا عن الطريق، يبعث الدهشة والاستغراب.

بلغ نيكيتا البركة السفلى التي تصب فيها مياه المنخفض. عبر غشاوة عريضة على ثلج اصفر. المياه تغطي كل جليد البركة وتنساب عليه بموجات قصيرة. ومن اليسار يتناهى حفيف أشجار الصفصاف الهائلة العريضة الناقعة. وعلى اغصانها العارية جثمت غربان القيظ متمايلة مهتزة وقد تبللت حتى العظام خلال الليل.

ظهر «فارس» بين جذوع الأشجار العوجاء على السد. كان يضرب الفرس الهزيلة بكعبيه ويتمايل ويحرك مرفقيه. انه ستيوبكا كارناوشكين. صاح بنيكيتا وقال له شيئا وهو مسرع قربه في برك الماء والرذاذ ونتف الثلج الوسخ تتطاير من تحت سنابك الفرس.

واضح ان شيئا ما قد حدث. ركض نيكيتا الى المنزل فوجد عند المدخل الخلفي فرس كارناوشكين تتنفس بعسر محركة جنبيها المنتفخين، وقد لوت راسها صوب نيكيتا. وما ان دخل المنزل حتى سمع صرخة قصيرة مرعبة اطلقتها امه. ظهرت في الرواق بوجه ملتو متشنج و عينين بيضاوين جاحظتين من شدة



الخوف ووراءها ظهر ستيوبكا، و من باب جانبي آخر هرع اركادي ايفانوفيتش. كانت ماما مسرعة في الرواق وكأنها تطير ولا تسير.

— اسرعوا، عجلوا — صاحت ماما وهي تفتح باب المطبخ على مصراعيه — ستيبانيدا، دونياشا اركضا الى جناح الخدم... فاسيلي نيكيتفيتش يغرق قرب خومياكوفكا».

كان افظع ما في ذلك كلمة «خومياكوفكا». اسودت الدنيا في عيني نيكيتا: ففي الرواق فاحت فجاة رائحة بصل مقلي. وقالت ماما فيما بعد ان نيكيتا ضيق جفونه كالارنب وصرخ. لكنه لا يتذكر هذا الصراخ. امسك به اركادي ايفانوفيتش و اقتاده في الحال الى غرفة الدراسة.

— كيف لا تخجل يا نيكيتا؟ وتعتبر نفسك رجلا؟ — كرر المعلم وهو يضغط بكل قواه على يدي الصبي في اعلى المرفقين.
—ماذا بك؟ عيب! ماذا بك؟.. فاسيلي نيكيتيفيتش سيأتي قريبا... يبدو انه سقط في ساقية وتبللت ثيابه لا اكثر... لكن هذا الاحمق ستيوبكا ارعب ماما... اقسم بالله، سافرك اذنيه الاثنتين...

ومع ذلك راى نيكيتا ان شفتي اركادي ايفانوفيتش ترتعشان وان بؤبؤي عينيه اصبحا كنقطتين.

ثم ان ماما ركضت بالمنديل وحده الى جناح الخدم مع انهم جميعا علموا بالحادث و تجمهروا منفعلين صاخبين قرب مستودع العربات وراحوا يشدون الحصان القوي الجموح «الزنجي» الى زحافة بدون مزلقين حديديين ويتصيدون افراس الركوب من الاسطبل المكشوف، وسحب بعضهم كلابا من سقف القش وتراكض بعضهم الآخر حاملين المعاول و الحبال. وركضت دونياشا من المنزل و بين يديها معطفان من فرو الغنم. وجاء باخوم الى ماما وقال لها:

حاولي يا الكسندرا ليونتيفنا ان ترسلي دونياشا الى القرية لشراء الفودكا. حالما تحضره الى هنا يجب ان يشرب الفودكا...

— ساذهب معكم يا باخوم.

— كلا، اذهبي الى البيت، والا ستصابين بالبرد.

جلس باخوم على جانب من الزحافة وأمسك العنان بشدة وصاح الشابين المتشبثين بلجام الحصان: «اتركاه!» اقعى «الزنجي» بين العريشين و شخر ثم انطلق يجر الزحافة بيسر عبر الاوحال والبرك. وعلى اثره انطلق الخدم يتصايحون ويستحثون بالحبال جيادهم التي كانت تتدافع فيما بينها.

شيعتهم ماما بنظراتها امدا طويلا، ثم اطرقت براسها ومضت الى المنزل على مهل. جلست عند النافذة في غرفة الطعام حيث يلوح الحقل وصفصاف خومياكوفكا وراء الهضبة. نادت نيكيتا فهرع اليها وطوق رقبتها ومال براسه على كتفها، على المنديل الوبري...

– المصيبة ستهون ان شاء الله يا عزيزي – تمتمت ماما بصوت متقطع خافت والصقت شفتيها بشعر نيكيتا وظلت على هذه الحال امدا طويلا.

كان اركادي ايفانوفيتش يتردد على الغرفة مرة بعد اخرى ويمسح نظارته ويفرك يديه. خرجت ماما الى المدخل مرارا مؤملة ان يصلوا، وكانت تعود الى مقعدها عند النافذة دون ان تبعد نيكيتا عنها.

تحول ضوء النهار الى بنفسجي قبيل المغيب، وارتسمت في اسفل زجاج النوافذ، عند الاطر، نقوش ثلجية كاغصان الشوح. فالبرد يشتد مع اقتراب الليل. وفجاة طقطقت سنابك قرب المنزل ولاح «الزنجي» والزبد يرغي على جنبي خطمه، وظهر باخوم جالسا على حافة الزحافة، وفي الزحافة نفسها، تحت كومة من المعاطف، لاح بين فرو الضان وجه فاسيلي نيكيتيفيتش قرمزيا باسما وعليه اصبعان جليديان كبيران بدلا من الشاربين. نهضت ماما بسرعة وندت عنها صرخة وارتعش وجهها، وهتفت:

– حي! – انفرطت الدموع من عينيها اللامعتين.

## هكذا غرقت

جلس بابا، فاسيلي نيكيتيفيتش، على مقعد جلدي ضخم قرب المائدة المستديرة في غرفة الطعام. كان يرتدي برنسا وبريا ناعما وجزمة لبادية منفوشة. شارباه ولحيته الكستنائية الرطبة ممشطان



الى الجانبين، وجهه المرح الاحمر ينعكس على السماور الذي يطقطق الشرر في قسمه السفلي ويغلي الماء فيه بصخب متميز خاص، شانه شأن كل احداث هذا المساء.

ضيق فاسيلي نيكيتيفيتش جفونه من شدة الارتياح ومن الفودكا التي احتساها، ولمعت اسنانه البيضاء. كانت ماما في نفس الفستان الرمادي والمنديل الوبري، ولكنها بدت على غير عادتها، فلم تتمالك نفسها عن الابتسام وراحت تمطط شفتيها وحنكها يرتعش. وارتدى اركادي ايفانوفيتش نظارته العاجية الجديدة المخصصة للمناسبات. جلس نيكيتا على الكرسي وثنى ركبتيه واتكأ ببطنه على المائدة وراح يحدق في فم ابيه. كانت دونياشا تدخل الغرفة راكضة كل دقيقة، فتاخذ شيئا اوتجلب شيئا وهي تحملق في سيدها. واحضرت ستيبانيدا على مقلاة حديدية فطائر كبيرة مما يخبز على جناح السرعة. كان الدهن يوشوش ويفح في تلك الفطائر، فما الذها وما احلاها! كان القط فاسيا يتمشى مرفوع الذنب ويتخطر ويحوم حول المقعد الجلدي ويحك ظهره وجنبه وقفاه عليه ويطلق مواء اعلى من المعتاد. و كان القنفذ اخيلكا يبص من تحت الخوان ببوزه الشبيه بسحنة خنزير، واستقرت اشواكه ممسدة من الجبهة باتجاه الظهر. مما يدل على انه هو ايضا يشعر بالرضا والارتياح.

التهم بابا فطيرة ساخنة لذيذة – عفارم ياستيبانيدا! – وطوى فطيرة ثانية بشكل انبوبة والتهمها – عفارم ياستيبانيدا! – وارتشف جرعة كبيرة من الشاي مع القشدة ومسد شاربيه وضيق احدى عينيه، وقال:

– الآن اسمعوا، ساحكي لكم كيف غرقت. – وطفق يحكي القصة كاملة. – غادرت سامارا اول امس وفي الحقيقة، يا الكسندرا، – اكتسى وجهه بمسحة جدية للحظة – كانت هناك فرصة نادرة للشراء بثمن بخس للغاية. فقد الح علي برزدونين بان اشتري منه حصانه الكميت الغامق اللورد بايرون. وقلت له: ما حاجتي الى حصانك؟ فقال: «تعال وانظر اليه». وعندما رايت الحصان اغرمت به. ما اجمله وما اذكاه! نظر الي بعين بنفسجية وكاد يقول: اشترني. اما برزدونين فقد الح على ان اشتري منه،

بالاضافة الى الحصان، زحافة وطقما... يا عزيزتي، الست زعلانة علي بسبب هذه المشتريات؟ – اخذ بابا يد ماما – اعذريني! –تأثرت ماما حتى اطبقت جفونها: فهل تستطيع ان تزعل عليه اليوم حتى وان اشترى رئيس البلدية بوزدونين نفسه. – هكذا، اذن، امرت بان يجلبوا لي اللورد بايرون. وفكرت: ماالعمل؟ فانا لا اريد ان اترك الحصان وحده في سامارا. حزمت مختلف الهدايا في الحقيبة – ضيق بابا احدى عينيه بمكر – واعدوا لي بايرون عند الفجر فغادرت سامارا لوحدي. في البداية كان الثلج لا يزال منتشرا في بعض الاماكن، و بعد ذلك صار الطريق موحلا حتى تصبب العرق من حصاني، وخارت قواه. فعزمت على قضاء الليل في كولديبان عند الاب فوزدفيجينسكي. اطعمني الاب سمجة لا اطيب منه. وقال: «لن تصل الى اهلك يا فاسيلي نيكيتيفيتش. هذه الليلة ستذوب الثلوج في المنخفضات في كل بد». وقلت له باني سارتحل مهما كلف الأمر. وبقينا نتجادل على هذه الصورة حتى منتصف الليل. وسقاني بنبيذ عنب الثعلب. ما الذه! والله لو اوصلنا هذا النبيذ الى باريس لفقد الفرنسيون عقلهم... ولكننا سنتحدث عن ذلك فيما بعد. حالما رقدت على السرير هطل مطر غزير. فهل تتصورين، يا الكسندرا، مدى حزني واكتئابي: كيف اجلس على بعد عشرين كيلومترا عنكم ولا اعرف متى ساصل اليكم؟.. لعن الله الاب ونبيذه...

– فاسيلي – قاطعته ماما والقت عليه نظرة صارمة – ارجوك كل الرجاء ان لا تقوم بمثل هذه المجازفة بعد الآن...

– اعدك بشرفي – اجاب فاسيلي نيكيتيفيتش فورا – هكذا اذن... في الصباح انقطع المطر، ومضى الاب لصلاة الظهر، اما انا طلبت ان يشدوا بايرون الى الزحافة وتحركت. يا الهي!.. المياه تغطي كل الانحاء. لكن المياه اسهل على الحصان من الثلوج. سرنا بلا طريق، والماء يصل الى الركبة... سرنا كانما عبر البحيرات. – ما اجمل ذلك... الشمس مشرقة والنسيم عليل... وزحافتي تعوم. وقدماي مبللتان. ما اروع ذلك! واخيرا رايت صفصافنا من بعيد. اجتزت خومياكوفكا واخذت ابحث عن مكان اسهل لعبور النهر... ملعون بوزدونين – ضرب فاسيلي نيكيتيفيتش مسند



المقعد بقبضته. – سأريه اين يجب بناء الجسور! اضطررت الى قطع ثلاثة كيلومترات وراء خومياكوفكا، وهناك عبرنا النهر خوضا. عفارم على اللورد بايرون. فقد صعد بخفة الضفة العالية وفكرت: النهر عبرناه، فكيف سنعبر المنخفضات الثلاثة الأفظع من النهر؟ المنخفضات امامنا وليس هناك مخرج آخر. وصلنا الى المنخفض الأول. هل تتصورين، يا الكسندرا، انه غاص عن آخره بالمياه والثلوج. وعمقه، كما تعلمين، اكثر من ستة امتار.

– فظيع. – دمدمت ماما وقد شحب وجهها.

– حللت عدة الحصان ورفعت الطوق والسرج عنه، ووضعتها في الزحافة، ولم انتبه الى ضرورة خلع معطف الفرو الثقيل، وهذا ماكاد يؤدي الى هلاكي. وصعدت على ظهر بايرون. اعوذ بالله! في البداية تعنت الحصان وعاند. فمسدته ولاطفته. تشمم الماء وشخر. ثم تراجع قليلا واندفع نحو المنخفض، الى عصيدة الثلج وغاص فيها حتى الرقبة. فرفط بقوائمه عبثا دون ان يتقدم خطوة. نزلت من على ظهره وغصت انا ايضا فلا يرى غير راسي. واخذت اتحرك في هذه العصيدة ولا ادري هل كنت اعوم ام ازحف. وعندما رآني الحصان ابتعد عنه اطلق صهيلا حزينا وكانه يقول: لا تتركني! واخذ يفرفط ويقفز في اثري. لحق بي وضرب بقائمتيه الاماميتين معطفي المفتوح وسحبني الى تحت الماء. فرفطت بكل قواي والاعماق تمتصني والقاع بعيد. من حسن الحظ ان معطف الفرو كان مفتوحا فانخلع من تلقاء ذاته عندما كنت افرفط تحت الماء. وظل هناك، في المنخفض... عومت الى السطح واخذت اتنفس راقدا على العصيدة منشور اليدين والساقين كالضفدع. وسمعت بقبقة. التفت فرايت نصف بوز الحصان تحت الماء والفقاعات تتصاعد منه. فقد داس على عنانه. وتعين علي ان اعود اليه. حللت العنان وخلعت اللجام عنه. فرفع بوزه نترا وتطلع الي كالانسان. وبقينا نفرفط في العصيدة على هذه الصورة اكثر من ساعة. وشعرت بان قواي خارت واني اخذت اتجمد. بدأ قلبي يتجلد. وفي تلك اللحظة توقف الحصان عن القفز واستدار وطفا. يعني اننا وصلنا مع ذلك الى الماء الخالص من الثلج. وكان العوم في الماء اسهل، فحملنا التيار الى الضفة الاخرى. خرج

بايرون من الماء الى الاعشاب اولا، ولحقت به انا. امسكت بعفرته وسرنا نتمايل جنبا الى جنب. ولايزال امامنا منخفضان. لكنني رايت في تلك الاثناء فلاحين على ظهور الجياد...

تلفظ فاسيلي نيكيتيفيتش بضع كلمات غامضة اخرى وخر راسه فجاة. كان وجهه قرمزيا واسنانه تصطك وتنبعث منها طقطقة خافتة متكررة. ثم قال:

— لا باس، لا تهتموا. ارتخيت من سماوركم. — ومال على ظهر المقعد واسبل جفونه.

انتابته قشعريرة. فنقلوه الى السرير، واخذ يهذي...

## اسبوع الآلام

لازم بابا الفراش ثلاثة أيام في حمى شديدة، وعندما عاد الى رشده كان اول ما سال عنه هو اللورد بايرون. هل هو حي؟ و كان الحصان الجميل في صحة وعافية.

فاسيلي نيكيتيفيتش يتحلى بطبيعة مرحة حية. وهذه الطبيعة بالذات سرعان ما جعلته يغادر الفراش فلا مجال للرقاد في وقت بدات فيه المشاغل قبيل بذار الربيع. في ورشة الحدادة كانوا يصنعون سكك المحاريث ويصلحون ما تحطم منها ويستبدلون حدوات الخيل. وفي العنابر كانوا يقلبون القمح بالرفوش وينشرونه كيلا يتعفن، فيثيرون رعب الفئران ويستثيرون عواصف الغبار. وتحت الظلة يتعالى صخب المذراة. وفي المنزل حملة تنظيف. كانوا يمسحون النوافذ ويغسلون الارضية وينتزعون بيوت العناكب من السقف، ويحملون السجاجيد والمقاعد والارائك الى الشرفة وينفضون عنها آثار الشتاء. كل الاشياء التي تعودت على اماكنها خلال الشتاء، زحزحوها من تلك الاماكن ونفضوها من الغبار ثم وضعوها بترتيب جديد. اما الخيلكا الذي لايحب الهرج والمرج فقد اشتاط غضبا ومضى ليقيم في مستودع العفش.

ونظفت ماما بنفسها طقوم الطعام الفضية واطارات الايقونات الفضية وفتحت الصناديق العتيقة التي فاحت منها رائحة النفثالين، وتفحصت ثياب الربيع المدعوكة في الصناديق والتي بدت جديدة



بعد السبات الشتوي. وفي غرفة الطعام سلال فيها بيض مسلوق راح نيكيتا واركادي ايفانوفيتش يصبغان بعضه بنقيع قشور البصل فيغدو اصفر ويلفان بعضه الآخر بورق محزم ويلقيان به في ماء يغلي بالخل فيغدو مزركشا مزينا بالرسوم، ويصبغان البعض الثالث باللك وبلون ذهبي وفضي.

يوم الجمعة فاح المنزل كله برائحة الونيلية والهيل. فقد بداوا باعداد خبز الفصح وفطائره الاسطوانية وما ان حل المساء حتى رقدت على سرير ماما لترتاح تحت مناشف نظيفة، عشر فطائر تقريبا بعضها رفيع طويل وبعضها سميك قصير.

الطقس متقلب كل ايام هذا الاسبوع. تارة تتلبد السماء بغيوم سوداء وتتساقط حبات البرد، وتارة ينساب من السماء الصافية، من الاعالي الزرقاء، ضوء الربيع البارد، وتارة ثالثة تدوم عاصفة ثلجية رطبة. وفي الليل تتجمد مياه البرك في الخلاء.

يوم السبت خلت الضيعة، فقد ذهب نصف الخدم ونصف سكان المنزل الى قرية كولوكولتسوفكا على بعد سبعة كيلومترات لاداء صلاة الفجر الكبرى في كنيسة القرية.

كانت ماما متوعكة ذلك اليوم بعد متاعب الاسبوع. وافاد بابا بانه سيذهب للنوم فور انتهاء العشاء. اما اركادي ايفانوفيتش الذي كان طوال هذه الأيام ينتظر عبثا وصول رسالة من سامارا فقد انزوى في غرفته حزينا كالغراب واغلق الباب بالمفتاح.

واقترحوا على نيكيتا ان يذهب لحضور صلاة الفجر اذا اراد، وان يبحث عن ارتيوم ويخبره بان يشد الفرس افروديت الى العربة الخفيفة. فهذه الفرس قد جددت حداواتها الاربع. وكان من اللازم السفر قبل حلول الظلام والمبيت في كولوكولتسوفكا عند احد معارف فاسيلي نيكيتيفيتش القدامى، وهوالبقال بيوتر بيتروفيتش ديفياتوف. وقالت ماما: «بالمناسبة، بيته يعج بالاطفال، وانت وحيد دوما. الوحدة قاتلة».

قبيل المساء صعد نيكيتا الى العربة وجلس جنب ارتيوم الطويل الذي شد سترته البالية بزنار جديد استقر اسفل بطنه. وقال ارتيوم: «هيا، يا عزيزتي، اوصلينا» — وتحركت افروديت العجوز برقبتها المرتخية وعجيزتها العريضة وسارت في خبب بطيء.

اجتازت العربة الحوش ومرت بورشة الحدادة، ثم عبرت المنخفض الذي يبلغ ماؤه الاسود محورها. ولسبب ما كانت افروديت تنظر بين حين وآخر الى ارتيوم عبر عريش العربة.

اضواء المساء الزرقاء تنعكس في البرك التي قيدتها غشاوة جليدية رقيقة. وينبعث صرير من تحت السنابك، وتنتفض العربة. جلس ارتيوم صامتا وقد تدلى انفه الطويل. كان يفكر بحبه التعيس وبمحبوبته دونياشا. وعلى صفحة المغيب الباهتة، في السماء الخضراء، تلألأت نجمة صافية ككتلة جليدية.

## اولاد بيوتر بيتروفيتش

من حلقة حديدية في السقف يتدلى فانوس ينير الغرفة بلهب ازرق خافت تنبعث منه رائحة مقرفة. وعلى الأرضية حشيتان بقماش قطني تفوح منهما بدفء رائحة السكن والصبيان. تمدد عليهما نيكيتا مع اولاد بيوتر بيتروفيتش الستة، وهم فولوديا، و كوليا وليوشكا وليونكا الشاكي وصبيان صغيران لم تكن معرفة اسميهما بذات بال.

الاولاد الاكبر سنا يحكون القصص باصوات خافتة، اما ليونكا الشاكي فكان يلتقي صفعة من هنا وضربةمنهناك على اذنه او صدغه كي يكف عن التذمر والتشكي وغفا الصغيران وقد غرزا انفيهما في الحشية.

سابع اطفال بيوتر بيتروفيتش بنت منمشة الوجه بعينين ثاقبتين مستديرتين كعيون الطيور لا اثر فيهما للابتسامة، وانف صغير قاتم من النمش. اسمها آنا وهي بعمر نيكيتا. كانت تظهر بخفة من الرواق على عتبة باب الغرفة بين الحين والآخر. وعند ذاك ينهرها احد الصبيان قائلا:

– آنا، لاتتدخلي فيمالا يعنيك، والا سأقوم و...

وتختفي آنا بنفس الخفة التي تظهر بها. كان الهدوء يعم المنزل. ذهب بيوتر بيتروفيتش الى الكنيسة قبل حلول الظلام، فهو عمدة الابرشية.

وقالت زوجته ماريا ميرونوفنا للاطفال:



– اذا تصايحتم ساقطع رقابكم...

ومضت الى سريرها لتاخذ قسطا من الراحة قبيل صلاة الفجر. تلقى الاولاد أمرا بالنوم والهدوء. وتحدث ليوشكا ذو الوجه المستدير والشعر الأشعث وقد سقطت اسنانه الامامية، فقال:

– في عيد الفصح الماضي لعبنا لعبة الخبايا وغلبت مائتي بيضة. أكلت الكثير حتى انتفخ بطني.

ودمدمت آنا من وراء الباب خشية ان يصدق نيكيتا ماقاله ليوشكا:

– كذب، لا تصدق به.

– سأقوم، والله... – هددها ليوشكا.

وخيم الهدوء وراء الباب.

قال فولوديا، الابن الاكبر، وهو صبي اسمر اجعد الشعر جلس متربعا على الحشية:

– سنذهب غدا الى برج الكنيسة وندق النواقيس. حالما اهز النواقيس يهتز البرج كله. باليد اليسرى اهز النواقيس الصغيرة – درلين، درلين وبهذه اليد اهز الناقوس الضخم – بم، بم، ووزنه مليون كيلو.

– كذب– تناهى همس من وراء الباب.

التفت فولوديا التفاتة سريعة تطايرت لها خصلاته الجعداء. وقال:

– آنا!.. اخرسي!.. ابونا قوي جدا يستطيع ان يرفع الحصان من قائمتيه الاماميتين... انا طبعا لا استطيع ان افعل مثله بعد. ولكن تعال الينا، يا نيكيتا، في الصيف. وسنذهب الى البركة. بركتنا طولها ستة كيلومترات. استطيع ان اتسلق الشجرة الى قمتها، ومن هناك اقفز. الى الماء، راسي تحت ورجلاي فوق.

– وانا استطيع ان لا اتنفس تحت الماء مطلقا وارى كل شيء – قال ليوشكا – في الصيف الماضي سبحنا. عششت في راسي ديدان وبراغيث وخنافس ضخمة...

– كذب – تناهت من وراء الباب تنهدة لا تكاد تسمع.

– آنا ساسحبك من ضفيرتك!..

– بنت مزعجة جدا –قال فولوديا بامتعاض – تتحرش بنا دوما. وتثقل علينا، و بعد ذلك تشتكي عند ماما و تقول اننا نضربها.

وتناهى نحيب من وراء الباب. كان الصبي الثالث، كوليا، راقدا على جنبه متكئا على قبضته يتطلع الى نيكيتا طوال الوقت بعينين طيبتين حزينتين بعض الشيء، وجهه مستطيل وديع وشفته العليا بعيدة عن ارنبة انفه. وعندما يلتفت اليه نيكيتا تبتسم عيناه. ساله نيكيتا:

– هل تجيد السباحة؟

ابتسمت عينا كوليا، فاجاب فولوديا بلهجة مستهينة:

– انه مغرم بالمطالعة. في الصيف يعيش على السطح. عندنا هناك كوخ من البردي، وهو يتمدد فيه ويقرأ طول الوقت. بابا يريد ان يرسله الى المدينة ليتعلم. اما انا فساهتم بالشؤون الاقتصادية. ليوشكا لا يزال صغيرا، فليلعب. ليونكا الشاكي مصيبتنا. – سحب ليونكا من الشعر المنتصب كعرف الديك على هامته – انه صبي كريه يقول بابا: في بطنه ديدان.

– الديدان المخيفة في بطني وليس في بطنه – قال ليوشكا – لاني آكل اوراق راعي الحمام وبذور الاقاصيا، واستطيع ان آكل حتى افراخ الضفادع.

– كذب – تهاوى من جديد انين من وراء الباب.

– يا ويلك يا آنا! – هرع ليوشكا راكضا على الحشية صوب الباب ودفع اخاه الصغير الذي غمغم دون ان يستيقظ. لكن حفيفا مر في الرواق و كان اوراقا تتطاير. لم يبق أثر لآنا طبعا، فقد صر باب من بعيد. عاد ليوشكا وقال: – اختبات في غرفة ماما. لن تتخلص مني مع ذلك، ساحشو شعرها بالشوك.

– اتركها يا اليوشكا. لماذا تتحرش بها؟ – قال كوليا فانهال عليه اليوشكا وفولوديا وحتى ليونكا:

– نحن نتحرش بها؟ انها هي تتحرش بنا. حتى لو قطعنا الف كيلومتر و التفتنا نجدها وراءنا حتما... تكذب كل ما نقول ونفعل، وتذكرنا بما هو ممنوع علينا...

وقال ليوشكا:



– مرة جلست يوما كاملا في الماء بين البردي، كيلا اراها. حتى اكلني العلق.

وقال فولوديا:

– حالما جلسنا نتغدى قالت لماما حالا: «ماما، اصطاد فولوديا فارة وهي في جيبه». ربما كانت هذه الفارة اعز شيء علي.

و قال ليونكا:

– تحملق فينا دوما حتى تسيل دموعنا.

تشكى الصبيان لنيكيتا من آنا و نسوا تماما ان ماما امرتهم بان يرقدوا بهدوء ويصمتوا قبل صلاة الفجر. وفجاة تعالى من بعيد صوت ماريا ميرونوفنا ثخينا مهددا متوعدا:

– هل اكرر الف مرة؟

هدا الاولاد في الحال. وبعد ذلك اخذوا يرتدون جزماتهم ومعاطفهم هامسين متدافعين، و لفوا رقابهم بالاوشحة وهرعوا الى الشارع.

خرجت ماريا ميرونوفنا بمعطف جديد من القطيفة ووشاح مطرز بالورد. امسكت آنا بيد امها وقد لفت رأسها بمنديل كبير.

كانت السماء مرصعة بالنجوم في تلك الليلة. وتفوح رائحة التربة والصقيع الخفيف. وعلى امتداد البيوت القروية القائمة، على البرك المتجلدة التي تنعكس فيها نجوم السماء، سار الرجال و النساء والاطفال صامتين. وفي ساحة السوق، بعيدا، لاحت قبة الكنيسة الذهبية على صفحة السماء المعتمة. وتحت القبة، في ثلاث شرفات دائرية، الواحدة اوطا من الاخرى، انيرت سرج الزيت. يداعبها النسيم ويدغدغ لهيبها.

## قلب لا يلين

بعد صلاة الفجر عادوا الى المنزل. كانت المائدة جاهزة، والورود الورقية الحمراء تزهو بين اهرام القريشة العسلية والفطائر الاسطوانية وحتى على ورق الجدران حيث شكت بدبابيس، والكنارى يصاصيء في قفصه على النافذة مستثارا بضوء المصباح. بيوتر بيتروفيتش في سترة سوداء طويلة الاذيال.

سالت ضحكاته متقطعة بين شاربيه الملتويين، فتلك هي عادته، وصب للجميع نقيع الكرز في اقداح صغيرة. قشر الاولاد البيض المسلوق ولحسوا الملاعق. جلست ماريا ميرونوفنا متعبة دون ان تخلع الوشاح، وكانت عاجزة حتى عن تناول طعام الافطار بعد الصوم، وظلت تنتظر حتى تهدأ «الجوقة» اخيرا، كما تسمى اطفالها.

ما ان رقد نيكيتا على الحشية في ضوء المصباح الازرق والتحف بمعطف فرو الضأن حتى صدحت في اذنيه اصوات رفيعة ترتل بلهجة باردة بعض الشيء: «قام المسيح حقا قام...»...، ورأى من جديد الجدران الخشبية البيضاء تسيل عليها ابخرة الانفاس الباردة كالدموع وضوء الشموع الكثيرة امام اطارات الايقونات المذهبة. ومن خلال سحب البخور الزرقاء في الاعلى، تحت قبة الكنيسة الزرقاء المرصعة بنجوم ذهبية، اطلت حمامة منشورة الجناحين. ووراء النوافذ المشبكة ليل بهيم، بينما ترتل الاصوات وتفوح رائحة فرو الضأن والقماش وتنعكس اضواء الشموع فيآلاف العيون. ثم فتحت البوابة الغربية وحملت رايات القديسين محنية عند العتبة. وغفرت للناس في تلك الليلة كل الذنوب التي اقترفوها خلال العام. ومالت آنا بانف منمش وشريطين ازرقين فوق اذنيها على اخوتها لتقبلهم...

كان صباح اليوم الاول رماديا دافئا دقت فيه كل نواقيس العيد، ومضى نيكيتا واولاد بيوتر بيتروفيتش حتى اصغرهم الى عنبر القرية في المرعى الناشف، فوجدوا هناك حشدا مبرقشا صاخبا. الصبيان يلعبون الصقلولاق والكعب ويتشقلبون ويمتطون ظهور بعضهم البعض. وعلى الجذوع الملقاة عند جدار العنبر جلست البنات في شالات مبرقشة متنوعة وفساتين قطنية جديدة منقوشة. وبيد كل منهن منديل فيه بزر عباد الشمس او كشمش او بيض. كن يمضغن ويضحكن وينظرن بمكر من حين لآخر.

وعند الطرف، على الجذوع، قعد زير النساء بيتكا، ابن عمدة القرية، متراخيا مادا جزمته الفاخرة، دون ان ينظر الى احد. كان يعزف على الاكورديون برفق، وفجأة مطه بشدة وانشد: آه، ياليل، ياليل!..



وعند الجدار الآخر تحلقت جماعة تلعب الطرة - ياظ. في يد كل لاعب قطع نقدية متلاصقة ببعضها. والذي يأتي دوره يضرب الارض بقطعة من خمسة كوبيكات ويدوسها بنعله ويسحقها ثم يرفعها ويلقي بها الى اعلى: طرة ام ياظ؟

وهنا، على الارض، على اعشاب الموسم الفائت التي انبجست من تحتها زهيرات العماء الصفراء، جلست بنات يلعبن لعبة الخبايا. يخبئن بيضتين في كل كومة من العصافة، نصف الأكوام خالية، فاحزر اين البيضتين؟

اقترب نيكيتا من الاكوام و اخرج بيضة من جيبه، لكن آنا بادرته من الخلف، من فوق اذنه، والله وحده يعلم من اين جاءت، وقالت هامسة:

- لا تلعب معهن. فهن خداعات وسيغلبنك.

تطلعت آنا الى نيكيتا بعينين مستديرتين لا اثر للابتسام فيهما وتنشقت بانفها الصغير المنمش. مضى نيكيتا الى الصبيان الذين يلعبون الكعاب: الا ان آنا ظهرت هذه المرة ايضا في جهة لا يعلمها الا الله. وهمست له بطرف شفتيها الملتصقتين:

- لا تلعب معهم. يريدون ان يخدعوك. سمعت ذلك بنفسي.

اينما يتوجه نيكيتا كانت آنا تلاحقه كورقة لزجة وتهمس في اذنه. ولم يفهم السبب الذي يجعلها تفعل ذلك. فشعر بالخجل والامتعاض. لاحظ الصبيان يلتفتون اليه ويضحكون. وصاح به احدهم:

- تعلق بالبنت!

ذهب نيكيتا الى البركة الزرقاء الباردة. كان الثلج الوسخ الهش لايزال قابعا تحت ضفتها الطينية الشديدة الانحدار. وعلى مسافة ابعد كانت غربان القيظ تنعق فوق اشجار الاجمة العالية العارية...

- اسمع - همست آنا مجددا من وراء ظهره - اعرف جحر فارة هل تريد ان تراه؟

هز نيكيتا راسه غاضبا دون ان يلتفت. فهمست آنا من جديد:

– لن اخدعك، فليعم الله عيوني لو خدعتك. لماذا لاتريد ان ترى الفارة؟

– لا اريد.

– هل تريد ان تقتلع زهر العماء ونمسح به عيوننا فلا نرى شيئا.

– لا اريد.

– الا تريد ان تلعب معي؟

زمت آنا شفتيها. وتطلعت الى البركة والى مائها الازرق المترجرج، وتلاعب النسيم من جانب بضفيرتها المشدودة، واحمر طرف انفها المنمش المدبب وترقرقت الدموع في عينيها، وطرفت جفونها. وفي الحال فهم نيكيتا كل شيء: كانت آنا تلاحقه طوال الصباح لانه حدث لها نفس ما حدث له مع ليليا.

اسرع نيكيتا الى حافة الضفة، ولو لحقت به آنا هذه المرة ايضا لالقى بنفسه في البركة. كان في اقصى درجات الخجل والاضطراب. فلا يجوز ان تكون له مع احد، ما عدا ليليا، مثل تلك الكلمات الغريبة والنظرات الخاصة والابتسامات. واذا كانت له مع بنت اخرى فتلك هي الخيانة بعينها.

وقالت آنا:

– اخواني حذروك مني. ساشكوهم جميعا الى ماما... سألعب لوحدي... لست بحاجة الى احد... اعرف مكان شيء ممتع جدا...

استمع نيكيتا الى غمغمة آنا صامتا دون ان يلتفت. فقلبه لا يلين.

## الربيع

لم يعد بالامكان التطلع الى الشمس. فاشعتها تنسكب من فوق بحزم منفوشة تغشى الابصار. وفي السماء الزرقاء تسبح غيوم كاكوام الثلج وتفوح من نسيم الربيع رائحة العشب الطري واعشاش الطيور.

تفتحت براعم كبيرة على اشجار الحور الفواحة امام الدار. وراحت الدجاجات تئن في الشمس. وانبجست الاعشاب في تربة



البستان الساخنة ابرا خضراء تنز من تحت الاوراق العفنة، والمرج كله مرصع بنجيمات بيضاء وصفراء. ومن يوم لآخر يزداد عددالطيور في البستان. الشحارير السوداء تتراكض بين الجذوع، فهي ماهرة في المشي والجري. وبين اغصان الزيزفون اضطربت صفارية كبيرة ذات ريش اخضر موشى بزغب ذهبي اصفر على الجناحين وراحت تغرد بصفير معسول.

ما ان اشرقت الشمس حتى استيقظت على كل السطوح وفي كل بيوت الاطيار زرازير تزغرد بمختلف الاصوات، تارة كالبلابل وتارة كالقبرات، واحيانا كالطيور الافريقية التي سمعت تغريدها اثناء الهجرة شتاء ماوراء البحار كانت تلك الاصوات مجرد تقليد مضحك ناشز منفر. مرق نقار الخشب كمنديل رمادي عبر اشجار البتولا الشفافة وحط على جذع وتلفت ذات اليمين وذات الشمال وانتصب ريش قنبرته الحمراء.

وفي صباح الاحد المشمس عند البركة، ناح وقواق على الاشجار التي لم يجف الندى من اوراقها بعد. بارك بوقوقته الرقيقة الحزينة اليتيمة كل من يعيش في البستان، ابتداء من الديدان:

– تنعموا بالحياة والحب والسعادة، كو – كو، اما انا فساعيش وحيدا، كو – كو...

استمع البستان كله صامتا الى وقوقة الوقواق. واخذ الدعاسيق والاطيار والضفادع المندهشة دوما والجاثمة على بطونها، بعضها على المشى وبعضها على درجات الشرفة، تحسب الوقوقة وسني العمر التي تتنبأ بها لها. وصمت الوقواق اخيرا، وتعالت اهازيج البستان وحفيف الاوراق بمزيد من الفرح والابتهاج.

ذات مرة جلس نيكيتا على حافة الترعة قرب الطريق واتكأ على قبضته يراقب قطيع الخيل وهو يسير في المرعى الاخضر المنبسط على شاطئ البركة العليا. كانت الجياد الرصينة تطاطئ رؤوسها وتقضم العشب القصير على عجل وتذب بذيولها، اما الافراس فكانت تتلفت بعيون ساهرة على الامهار التي تتراكض على قوائمها الطويلة الضعيفة السميكة عند الركب وتحوم خببا

حول امهاتها خائفة من الابتعاد عنها. وكان الواحد منها يضرب امه بين حين وآخر عند الضرع و يرضع اللبن رافعا ذيله، فما احلى اللبن في هذا اليوم الربيعي!

و كانت الافراس الفتية تتملص في القطيع محمحمة متراقصة وتتراكض في المرعى مستشرسة هازة ابوازها، وتتمرغ احداها على الارض، وتزمجر اخرى مكشرة عن اسنانها لتعض من يتعرض لها.

وعلى الطريق اجتازت السد عربة خفيفة تقل فاسيلي نيكيتيفيتش في معطف من قماش غليظ. الريح تدفع لحيته الى جانب وعيناه مرحتان شبه مغمضتين، وعلى خده لطخة وحل. شد العنان عندما رأى نيكيتا وقال:

– اي حصان من هذا القطيع يعجبك؟

– لماذا؟

– بدون «لماذا»!

ضيق نيكيتا عينيه، مثل ابيه، واومأ باصبعه الى «كلوبيك» الاشقر القاتم، فهو معجب به من زمان ومبعث اعجابه اساسا هو رقة طباعه ووداعته والطيبة المدهشة التي تعلو سحنته. وقال:

– هذا.

– طيب. طالما يعجبك فليكن.

اغمض فاسيلي نيكيتيفيتش احدى عينيه وتمطق لحصانه القوي وهز العنان فانطلق هذا يجر العربة بخفة على الطريق المطروق. شيع نيكيتا اباه بنظراته: يبدو ان وراء هذا الحديث ماوراءه.

## رفع العلم

ايقظت شقشقة العصافير نيكيتا. فتح عينيه واخذ ينصت الى تغريد الصفارية المعسول ينساب كانغام الناي. النافذة مفتوحة، والغرفة مفعمة بعطر الاعشاب والطراوة، والاوراق المبللة تحجب ضوء الشمس.



اخترق النافذة نسيم فسقطت قطرات ندى على رفها. وتناهى صوت اركادي ايفانوفيتش من البستان:

– يا اميرال، هل ستفتح عينيك؟

– نهضت! – صاح نيكيتا وظل راقدا برهة: فما اروع الانصات الى صوت الصفارية في الصباح، وما اروع التطلع الى الاوراق المبللة عبر النافذة!

اليوم هو الحادي عشر من ايار، عيد ميلاد نيكيتا. ولذا تقرر رفع العلم بهذه المناسبة قرب البركة. ارتدى نيكيتا ثيابه على عجل – فلم يكن يريد للوقت ان يمضي بسرعة – ارتدى قميصا جديدا من الشيت الازرق المشجر وسروالا جديدا من قماش سميك لماع يتحمل التسلق على الاشجار مهما كانت اغصانها. ونظف اسنانه معجبا بسلوكه اشد الاعجاب.

وفي غرفة الطعام باقة كبيرة من سوسن الوادي على شرشف مكوي ناصع البياض. والغرفة كلها تعج برائحة تلك الزهور. جذبت ماما نيكيتا، ناسية رتبة الاميرال التي يحملها وراحت تتطلع في وجهه كانها لم تره منذ عام، ثم قبلته. مسد بابا لحيته وحملق بعينيه وافاد بلهجة رسمية:

– اتشرف يا صاحب المعالي باحاطتكم علما بان التقويم الشمسي الجديد وحسابات علماء الفلك في العالم كله تؤكد بانكم بلغتم اليوم العاشرة من العمر، ولذا فانا مكلف بان اسلمكم هذه السكين الصغيرة مع اثنتي عشرة شفرة وهي تصلح تماما للاستفادة منها في الشؤون البحرية، كما تصلح لتضييعها في اي وقت.

بعد الشاي توجهوا الى البركة. راح فاسيلي نيكيتيفيتش يعزف مارش البحرية بشفتيه وقد انتفخ خده وظهر عليه نتوء بارز.

غرقت ماما في قهقهة مرحة لهذا المارش وهي تلملم اذيال فستانها كيلا تتبلل بالندى. وخلفها سار اركادي ايفانوفيتش حاملا مجذافين وكلابا على كتفه.

وعلى ضفة البركة الهائلة المتعرجة، قرب المسبح، غرزت صارية العلم وفي اعلاها رمانة حديدية. وفي الماء ربض قارب

انعكست صورته على السطح بشكل خطوط خضراء وحمراء. وفي ظل القارب تسبح مخلوقات البركة – خنافس الماء واليرقات وافراخ الضفادع المذنبة وتتراكض على صفحة الماء عناكب بارجل ذات وسائد كالكلاكل. ومن الاعشاش على اشجار الصفصاف المعمرة تتطلع اناث الغربان الى اسفل.

على علم الاميرال صورة ضفدعة حمراء تقف على قائمتيها الخلفيتين في حقل اخضر. ربط فاسيلي نيكيتيفيتش العلم بالطرف الاسفل من الحبل وعزف بخده المنتفخ وسحب الحبل فتسلق العلم الصارية بسرعة وانفتح عندما بلغ رمانتها. وتطايرت غربان القيظ في اعشاشها ومن اغصان الصفصاف وهي تنعب مذعورة.

ركب نيكيتا القارب وجلس وراء مقوده، بينما شرع اركادي ايفانوفيتش يجذف. غطس القارب وتمايل وابتعد عن الضفة وانساب على صفحة البركة الصقيلة كالمرآة حيث انعكست اشجار الصفصاف والظلال الخضراء تحتها والاطيار والغيوم. انزلق القارب بين السماء والارض. وظهرت فوق راس نيكيتا سحابة متراصة من البعوض الذي اخذ يلاحق القارب. وصاح فاسيلي نيكيتيفيتش من الضفة:

– باقصى السرعة!

ولوحت ماما بيدها ضاحكة. واخذ اركادي ايفانوفيتش يجذف بكل ما اوتي من قوة ومن البردي الاخضر الذي لايزال واطئا انطلقت بطتان تقوقئان مرتعبتين في تحليق منخفض دون ان تنفصلا عن سطح الماء.

– هيا، الى المصادمة! عاش اميرال الضفادع، عاش..ش!

– هتف فاسيلي نيكيتيفيتش.

## جيلتوخين

جثم جيلتوخين على بقعة معشوشبة في الشمس في الركن بين مدخل المنزل وجداره وراح يبص مرتعبا في نيكيتا السائر نحوه. كان راس جيلتوخين مائلا الى الوراء ومنقاره الموشى عن



آخره بالاصفر يستقر على حوصلته السميكة. انتفض نافشا ريشه وسحب رجليه الى ما تحت بطنه. وعندما انحنى نيكيتا عليه فتح منقاره ليخيفه. اخذه نيكيتا بين راحتيه. كان زرزورا لايزال رمادي اللون. حاول، على ما يبدو، ان يطير من عشه الا ان جناحيه غير المتمرنين لم يقويا على حمله فوقع وانزوى في الركن على اوراق الهندباء الملاصقة للارض.

انتفض قلب جيلتوخين من الهلع، وفكر: «ما ان تخرج راسك حتى يلتهموك». فهو نفسه يعرف جيدا كيف تلتهم الديدان والذبان واليرقات.

قربه الصبي من فمه، فاسدل جيلتوخين الغشاوة على عينيه السوداوين وانتفض قلبه بشدة تحت الريش. الا ان نيكيتا اكتفى بان نفخ على راسه وحمله الى المنزل. يبدو انه شبعان فقرر ان ياكله فيما بعد.

عندما رات الكسندرا ليونتيفنا الزرزور اخذته بين راحتيها، مثلما اخذه نيكيتا، ونفخت على رأسه وقالت:

– مسكين، لا يزال صغيرا جدا. انظر الى منقاره، كله اصفر. سنسميه جيلتوخين، ابو المنقار الاصفر.

وضعوا الزرزور على رف النافذة المفتوحة المغطاة بالشاش عن آخرها من جهة البستان ولحد النصف من داخل الغرفة. قبع جيلتوخين في الركن فورا معلنا انه لن يسترخص حياته.

وراء غلالة الشاش البيضاء، في الخارج، ينبعث حفيف الاوراق وتتشاجر على الاغصان العصافير الوضيعة التي تتلصص عادة وتؤذي الآخرين. ومن الجهة الاخرى، من وراء الغلالة ايضا، تطلع نيكيتا الى جيلتوخين بعينين واسعتين متحركتين غامضتين ساحرتين. وفكر جيلتوخين: «هلكت، والله، هلكت».

الا ان نيكيتا لم ياكله حتى المساء واكتفى بان القى له بين الغلالتين ذبابا وديدانا. وفكر جيلتوخين «يسمنني» – والقى نظرة شزراء على دودة حمراء بلا عينين تتلوى كالافعى امام منقاره. – لن آكلها، فهي دودة اصطناعية كل هذا خداع وتضليل».

هبطت الشمس وراء الاشجار. والضوء الرمادي الناعس يشد الاجفان. غرز جيلتوخين مخالبه برف النافذة وتشبث به بشدة.

لم تعد عيناه تريان شيئا. صمتت الاطيار في البستان. وفاح شذى ناعس لذيذ من الاعشاب والرطوبة. وغاص الرأس في اعماق الريش. انتفش جيلتوخين غاضبا و انتصب ريشه تحوطا للطوارئ، وترنح قليلا الى الامام ثم الى الخلف وغفا.

ايقظته العصافير المشاكسة. كانت تتشاجر على غصن الليلاك. الاوراق البليلة معلقة في الضوء الرمادي. والزرازير تزقزق من بعيد باصوات رنانة مرحة لذيذة. «اكاد اموت جوعا. اشعر الغثيان من شدة الجوع» - فكر جيلتوخين ولمح الدودة التي انغرزت حتى النصف في شرخ رف النافذة، وقفز نحوها ونقرها من ذنبها وسحبها ثم ابتلعها: «لاباس بها، دودة لذيذة».

غدا الضوء اكثر زرقة. وغردت الاطيار. شعاع الشمس الدافئ الساطع ينساب على جيلتوخين من خلال الاوراق. وفكر: «سأعيش فترة اخرى». و قفز والتقط ذبابة وابتلعها.

دوى وقع اقدام. جاء نيكيتا. دس يده الهائلة من فوق الغلالة. فتح اصابعه ونثر على رف النافذة ذبابا وديدانا. انزوى جيلتوخين في الركن ورفع جناحيه وحملق في اليد بهلع شديد، الا انها ظلت معلقة فوق راسه ثم انسحبت الى ما وراء الغلالة. وتطلعت اليه من جديد عينان ساحرتان جذابتان لامعتان.

عندما انصرف نيكيتا استعاد جيلتوخين انفاسه واخذ يفكر: «لم ياكلني وكان بوسعه ان يفعل. يعني انه ليس من اكلة لحوم الطير. لاداعي للخوف منه اذن».

اكل جيلتوخين حتى شبع و نظف ريشه بمنقاره واخذ يقفز على امتداد الرف ويتطلع الى العصافير. استقرت نظرته على عصفور عجوز بريش منتوف على القفا وراح يتحرش به ويدير راسه ذات اليمين وذات الشمال ويصفر: فيويوت، شيليك - شيليك - فيويوت. اشتاط العصفور غضبا وانتصب ريشه وهجم على جيلتوخين بمنقاره مفتوح، لكن غلالة الشاش اعاقته «ماذا؟ هل بلغتني؟ تلك هي القضية اذن» - فكر جيلتوخين وراح يتمشى على الرف متبخترا.

ثم جاء نيكيتا من جديد. دس يده فارغة هذه المرة، وقربها كثيرا من جيلتوخين، فقفز هذا ونقره في اصبعه بكل قواه، ونط



مبتعدا واستعد للعراك الا ان نيكيتا فغر فاه وصاح: ها - ها - ها.

مر النهار على هذا المنوال. لم يكن هناك ما يثير الخوف، ثم ان الطعام جيد، ولكن... قاتل الله الملل. لم ينتظر جيلتوخين حلول الظلام فغفا ونام ليلته بارتياح.

وفي الصباح تناول طعامه واخذ يتفحص الغلالة وفي نيته ان يفر منها. جاب النافذة كلها فلم يجد شقوقا في اي مكان. وعند ذاك نط الى الصحن واخذ يشرب الماء. ارتشف قطرات بمنقاره ومال راسه الى الاعلى وراح يبتلع كرية مائية تدحرجت في حنجرته.

كان النهار طويلا. جلب نيكيتا ديدانا ونظف رف النافذة بريشة اوزة. وبعد ذلك خطر ببال العصفور الاصلع ان يتهارش مع الزاغ فدفعه هذا الاخير دفعة جعلته يغوص كالحصاة بين الاوراق ويبص من هناك متحفزا منتصب الريش.

وحط عقعق لسبب ما قرب النافذة ونعق مضطربا وهز ذيله دون ان يفعل شيئا يستحق الذكر.

وغرد ابو الحناء بصوت رقيق وتغني امدا طويلا بضوء الشمس الساخن والبرسيم العسلي، حتى شعر جيلتوخين بالحزن وبحشرجة في حنجرته. كان يريد ان يغرد ايضا، ولكن اين؟ هل يعقل ان يغرد من وراء الغلالة على النافذة؟!

جاب الرف من جديد ورأى حيوانا مرعبا يتسلل خلسة على قوائم قصيرة ناعمة وكانه يزحف على بطنه فوق الارضية. راسه مستدير بشوارب شحيحة منتصبة، وعيناه الخضروان ببؤبؤيهما الضيقتين تتقدان بحقد شيطاني. اقعى جيلتوخين بلا حراك.

قفز القط قاسيا وانشب مخالبه الطويلة في رف النافذة، وحدق عبر الغلالة في جيلتوخين وفتح فمه... يا الهي... في فمه انياب اطول من منقار جيلتوخين... ضرب القط الغلالة بقائمته القصيرة فمزقها... هبط قلب جيلتوخين وتهدل جناحاه... الا ان نيكيتا ظهر في تلك اللحظة، في الوقت المناسب، و امسك بالقط من جلده المرتخي و قذف به الى الباب. وولى قاسيا مغتاظا وفر يجرجر ذيله.

وفكر جيلتوخين بعد هذه الحادثة: «نيكيتا اقوى الوحوش».

وعندما اقترب منه نيكيتا ثانية سمح له بان يمسد رأسه، مع انه اغمى على ذيله من شدة هلعه.

وانتهى هذا النهار ايضا. وفي الصباح التالي راح جيلتوخين يتفقد المكان في غاية الابتهاج ولمح في الحال الثغرة التي خلفتها مخالب القط في الغلالة. دس جيلتوخين راسه فيها وتطلع ذات اليمين وذات الشمال وخرج قافزا الى الهواء الشفاف الجاري ورفرف بجناحيه الصغيرين بفرقطة خفيفة فطار فوق الارضية مباشرة.

عند الباب حلق الى اعلى فرأى من الغرفة الاخرى، حول المائدة المستديرة، اربعة اشخاص ياكلون، كانوا ياخذون قطعا كبيرة بايديهم ويدسونها في افواههم. ادار الاربعة رؤوسهم وتطلعوا الى جيلتوخين بلا حراك. ففهم ضرورة التوقف في الهواء والعودة من حيث جاء، لكنه لم يتمكن من القيام بهذا الدوران الصعب في تحليقه السريع فوقع على جناحه وانقلب وجثم على المائدة بين صحن المربى والسكرية... وفي تلك اللحظة رأى نيكيتا امامه. فقفز على حافة الصحن دون تردد، ومنها الى كتف نيكيتا وربض عليه منتفشا، بل واسدل الغشاوة على عينيه حتى النصف.

وبعد ان استراح على كتف نيكيتا حلق وراح يفرفر تحت السقف واصطاد ذبابة، وحط على اصيص الفيكوس في الركن وحلق حول الثريا ثم شعر بالجوع فعاد الى نافذته و كانت تنتظره عليها ديدان طازجة.

قبيل المساء وضع نيكيتا على رف النافذة بيتا خشبيا له كوتان وباب بدكة. اعجب جيلتوخين بالعتمة داخل البيت فقفز اليه وخشخش فيه ثم غفا.

في تلك الليلة كان القط قاسيا، المحبوس في المستودع عقابا له على محاولته الغادرة، يزعق بمواء اجش وقد رفض حتى صيد الفئران، ربض وراء الباب وراح يموء بشكل اثار امتعاضه هو نفسه.

وهكذا صار جيلتوخين ثالث كائن حي – مع القط والقنفذ – يعيش في المنزل بين اهله. كان يتحلى بقدر كبير من الاعتماد



على النفس، وكان فطينا و اسع الحيلة. اعجبه كلام البشر، وعندما كانوا يجلسون الى المائدة تراه ينصت اليهم مطاطئا الراس ويرتل مكررا: «سا، سا» وكانت الكسندرا ليونتيفنا تؤكد بانه يحني راسه لها بالذات وينطق بمقطع من اسمها. وحالما تراه تخاطبه دوما: «مرحبا، مرحبا يا جيلتوخين الهمام». وعندذاك يقفز جيلتوخين في الحال الى ذيل فستانها الطويل ويتنقل عليه وراءها بمنتهى الارتياح.

عاش على هذا المنوال حتى الخريف، فترعرع واكتسى بريش اسود لامع كاجنحة الغربان وتعلم النطق بالروسية جيدا كان يقضي النهار كله تقريبا في البستان ويعود مع الغسق حتما الى بيته في النافذة.

وفي اغسطس اغوته الزرازير البرية فاخذ يتردد على سربها وعلمته الطيران وعندما بدات اوراق البستان تتساقط انطلق جيلتوخين عند بزوغ الفجر مع الطيور المهاجرة الى ماوراء البحار، الى افريقيا.

## كلوبيك

انجزت الاعمال الربيعية في الحقول وحرثت التربة حول اشجار الفاكهة في البستان وسقيت، فحل وقت فراغ حتى موسم حش الاعشاب. بعد عيد القديس بطرس اقتادوا خيول العمل الى القطيع فراحت ترعى العشب في المروج الريانة وراء البركة، حيث يخيم كل صباح ضباب مائل الى الزرقة، فتبدو اشجار الصفصاف المتباعدة الضخمة وكانما نبتت في الهواء القاتم وظلت معلقة فوق الارض.

كان ميشكا كورياشونوك، مساعد سائس قطيع الخيل، يجلس على سرج قوزاقي مرتفع ويدس قدميه الحافيتين في الركاب ويفرفط بمرفقيه منحنيا.

انطلق في المرج الاخضر يلاحق فرسا انفصلت عن القطيع وهو يصيح «عودي»! ويلوح بالسوط فتنبعث منه طقطقة كطلقات المسدس وبعد ذلك ينزل من حصانه المفكوك اللجام فيتركه يقضم الاعشاب مجلجلا بلجامه، ويجلس على حافة الساقية ليبري عودا، او يرفع اطراف سرواله ويلفها في اعلى ركبتيه

ويخوض في البركة ويجتث من تحت الماء الساخن بصيلات البردي وجذوره الطويلة السوداء كالافاعي: البصيلات حامضة الطعم بعض الشيء، وهي تصر في الفم، لكن الجذور حلوة ولينة كالعجين. واذا التهم الشخص كثيرا منها يشعر بمغص في البطن.

كان نيكيتا يقضي الايام كلها مع ميشكا كورياشوتوك وراء البركة ويتعلم الفرسية على يده.

لم يكن الصعود الى السرج صعبا فالحصان العجوز الرمادي المرقط ببقع حنطاوية يقف وادعا وينش ذبابة كبيرة عن بطنه بقائمته الخلفية لكن نيكيتا عندما يجلس على السرج ويمسك بالعنان وينطلق بالحصان خببا لايتمكن من الاستقرار على ظهر الحصان ويميل بشدة تارة الى الجنب الايمن وتارة الى الجنب الايسر وعندما يتوقف الحصان فجأة بعد ان يخطو زهاء ثلاثين خطوة ويدلي بوزه بشفته الغليظة ليقضم العشب، يتشبث نيكيتا متشنجا بمقدمة السرج، بل وينزلق احيانا من فوق رقبة الحصان ويقع امامه، الا ان هذا الاخير ماكان يعبأ بذلك.

ويقول له ميشكا:

– لا تخف، فالسقوط لا يؤلم، ولكن لن تمد رقبتك ولا تسقط على يديك، اسقط كالشليلة او الخذروف سأريك كيف اركب الفرس بلا سرج ولا لجام وانطلق به.

جرى ميشكا نحو افراس فتية غير مروضة بعد ومد لهايده مناديا:

– تعالي، تعالي، هاك قمحا...

اقتربت منه «نجمة» وهي فرس مدللة نحيفة القوائم كميت مرقطة كالتفاح شنفت اذنيها ومدت شفتيها المخملتين بحثا عن القمح الذي تحبه كثيرا. اخذ ميشكا يحك رقبتها. هزت «نجمة» راسها الرصين دلالة الارتياح، ولكي تبعث مثل هذا الارتياح في نفس ميشكا داعبت كتفه باسنانها.

مسدها ميشكا ومرر راحته على امتداد ظهرها الحريري فخطت الى الامام مرتعبة، وعند ذاك تشبث بعرفتها ونط وامتطاها جفلت «نجمة» مذهولة غاضبة نفضت راسها بشدة وترافست واقعت ورفعت قائمتيها الاماميتين الى اعلى ثم انطلقت باقصى سرعتها على امتداد القطيع.



التصق ميشكا بظهرها كالقرادة. وعند ذاك توقفت فجأة عن العدو السريع ورفعت قائمتيها الخلفيتين. فسقط ميشكا على العشب و تدحرج كالكرة عاد الى نيكيتا وهو يعرج قليلا ويمسح الدم من خدش على خده وقال:

– رمتني هذه الفرس اللعينة على الحطب، ولكنك تستطيع هكذا، فانت سمين.

صمت نيكيتا وفكر: «ساتعلم الركوب أفضل من ميشكا حتى لو تحطم راسي».

اثناء الغداء حكى قصة «نجمة» فقلقت ماما، وقالت له:

– ارجوك لا تقترب من الخيول غير المروضة، هل انت سامع؟

– والقت نظرة متوسلة على بابا – فاسيلي، الا تؤيدني انت على الاقل؟.. بالنتيجة ستنكسر يده او رجله...

– عظيم! – اجاب فاسيلي نيكيتيفيتش – امنعيه من ركوب الخيل ومن المشي ايضا – فخلاله يمكن ان يهشم انفه – ضعيه في علبة وغلفيه بالقطن وارسليه الى المتحف...

– كنت اتوقع منك هذا الجواب – قالت ماما – واعرف اني لن ارى الهدوء ساعة، هذا الصيف...

– افهمي يا الكسندرا، الصبي في العاشرة من العمر.

– اوه، لا فرق...

– اعذريني، ارجوك، فانا لا اريد له ان ينمو عبيطا تعيسا.

– ولكن ذلك لا يستوجب ان تهديه كلوبيك فورا.

– حتى الطفل الرضيع يستطيع ان يركب كلوبيك. هذا اولا.

– انه بحدوات.

– كلا، امرتهم ان ينزعوا حدواته.

– اوه، في هذه الحالة افعلوا كل ما تريدون، اركبوا الخيول الجامحة، كسروا جماجمكم – ترقرقت الدموع في عيني ماما، فنهضت من وراء المائدة ومضت مسرعة الى غرفة النوم.

مسد فاسيلي نيكيتيفيتش جانبي لحيته على عجل والقى بالفوطة نترا ولحق بماما. اما اركادي ايفانوفيتش الذي جلس طول الوقت وكان هذا الحديث لا يعنيه فقد القى نظرة الى نيكيتا وعدل نظارته وهمس:

– انت امام مشكلة، ياأخي.

– ارجوك يا اركادي ايفانوفيتش قل لماما انني لن اقع... والله سـ...

– الصبر والتحمل وقوة الشكيمة – اصطاد اركادي ايفانوفيتش بمهارة ذبابة بذلت جهدا عنيدا لتحط على انفه – هذه الخصال الثلاث ضرورية كذلك لاجادة ركوب الخيل...

في غرفة النوم جرى آنذاك حوار يقرب من الشجار فقد دوى صوت الاب: «الصبيان في عمره يعتمدون على انفسهم كليا...» – «اين؟ اين يعتمدون على انفسهم؟» سألت الأم بصوت يائس... «في امريكا...» – «غير صحيح...» – «لكن اقول لك ان الصبي في العاشرة من العمر يعتمد على نفسه في امريكا مثلي انا» – «يا الهي، لكننا لسنا في امريكا...».

استمر الكلام عن الاعتماد على النفس اسبوعا كاملا. وكانت ماما على وشك الاستسلام. وصارت تلقى نظرات حزينة على نيكيتا وكأنه شخص هالك، ولا امل لها الا بان يصون راسه على الاقل.

اما نيكيتا فكان طول الاسبوع يتعلم ركوب الخيل بجد واجتهاد وراء البركة. وراح ميشكا يشجعه ويستحسن جهوده، وعرض امامه قفزة باسلة حقا، هي ركوب الفرس من الخلف اثناء العدو، كما ينط الاولاد عبر ظهور بعضهم البعض وقال له:

– لن ترفسك ابدا. الوقت لا يكفيها فعندما ترفسك تكون انت قد قفزت على ظهرها.

واخيرا، اثناء شاي الصباح في الشرفة حيث يلقى اللبلاب ظلالا متحركة على السفرة والصحون والوجوه استدعت ماما نيكيتا واجلسته قبالتها وقالت بصوت حزين:

– انت تعرف بانك في العاشرة الآن ويجب ان تعتمد على نفسك. فالصبيان في مثل عمرك يعتمدون، يعتمدون... – وارتعش صوتها وكادت تلقى على بابا نظرة شزراء – باختصار، بابا محق، فانت لم تعد طفلا – غض الاب بصره واخذ ينقر باصابعه على طرف المائدة. – غدا سنزور شيمبولاتوفا، واذا تريد تستطيع ان تذهب معنا على ظهر كلوبيك... لكني ارجوك، ارجوك...

– ماما، حبيبتي، كلام شرف، والله لن يحدث لي شيء –



وقبل نيكيتا عيني امه وخدها وذقنها ويديها اللتين تفوح منهما رائحة الثمار.

وبعد غداء مبكر في اليوم التالي اشار فاسيلي نيكيتيفيتش على نيكيتا ان ياخذ السرج – وهو سرج انجليزي من الشمواة الرمادية اهداه له بمناسبة اعياد الميلاد وقال له وهو يسير على العشب باتجاه الاسطبلات:

– عليك ان تتعلم كيف تغسل الحصان وتلجمه وتسرجه و كيف تقوده من لجامه بعد العدو حتى يستعيد انفاسه. فالحصان يجب ان يكون نظيفا تحت رعاية دائمة، وعند ذاك تعتبر فارسا جيدا.

بوابة مستودع العربات مفتوحة على مصراعيها. انهمك الحوذي سرغي ايفانوفيتش في ربط ثلاثة جياد الى العربة كان يرتدي جاكيتا بلا ردنين وقميصا احمر قانيا وعمرة بسيطة فهو لا يرتدي قبعته المزينة بالريش الا عندما يجلس على مقعد القيادة. – عدل طوق مؤخرة الفرس الجانبية وانهال باللوم على مساعده ارتيوم:

– لماذا تدس السير تحت صدرها يا جلف؟ فهذا الطقم لرحلة بعيدة. اترك حبل السمط ولا تمسه. الافضل لك ان تفرش للقطة في السلة.

– انا لا املك فرسا.

– البنات لا يتزوجن منك لانك جلف. ناولني الاعنة الجديدة.

كان الحصان الاوسط اللورد بايرون المربوط بالسير في البوابة العريضة يقضم اللجام ويضرب الارضية الخشبية بقائمته ويعض كتف سرغي ايفانوفيتش دون ان يؤلمه. فهو يعدل له شعر ناصيته من تحت سيور اللجام. وفاحت في مستودع العربات رائحة الجلود وعرق الخيل الصحى ونفخ الحمام. وعندما اعدت العربة قال سرغي ايفانوفيتش لنيكيتا مبتسما:

– هل تريد ان تسرج الحصان بنفسك؟

اخرجوا كلوبيك من الاسطبل، وتطلع اليه نيكيتا منفعلا.

كلوبيك حصان اشقر مخصي مكتنز متين، ونظيف جدا، بقوائم ليست طويلة و كواحل بيضاء، وذيل كثيف قاتم وعفرة قاتمة ايضا.

شعر ناصيته يتدلى على عينيه، فيهز راسه وينظر بمرح من بين الشعر. طول ظهره يمتد سير اسود.

– حصان جيد – قال سرغي ايفانوفيتش وقدم له دلوا من الماء. شرب كلوبيك ورفع راسه فانساب الماء من شفتيه الرماديتين.

اخذ نيكيتا اللجام وادخل حديده في فم الحصان من الجانب وشده كما علموه. امسك كلوبيك الحديد باسنانه. ثم وضع نيكيتا الجلس والجل الرمادي المطرز بطغراء على ظهره وفوقهما السرج واخذ يشد سيوره. ولم يكن ذلك عملا يسيرا.

– انه ينفخ بطنه – قال سرغي ايفانوفيتش – يحتال علينا– وطرق بباطن كفه على بطن كلوبيك فزفر الحصان الهواء، وشد نيكيتا السيور.

جاء فاسيلي نيكيتفيتش وبدأ يصدر أوامره:

– خذ العنان باليد اليسرى وتقدم امام الحصان من الجنب الأيسر. اركب. امسكه بباطن ساقيك. لا تدس قدميك عميقا في الركاب، لا تلوي اطراف الأصابع.

ركب نيكيتا الحصان وتحسس بقدمه المرتجفة الركاب الايمن المنفلت ودسها فيه ونغز الحصان فانطلق هذا خببا في خط مستقيم نحو الاسطبل.

وصاح فاسيلي نيكيتفيتش:

– قف، قف! استعمل السير الايمن يا مغفل!..

توقف الحصان في ظل الاسطبل. قفز نيكيتا محموما من شدة الخجل وامسك بسير الحصان الخداع وقاده نحو البوابة وهمس له:

– خنزير ابله، خنزير ملعون!..

هز كلوبيك ناصيته مرحا. اقترب سرغي ايفانوفيتش وقال:

– اركب وسأقوده انا. فهو خداع لا يحب الخدمة. يريد ان يقف في الظل البارد.

و اخيرا الجموا الحصان كما يجب وراح نيكيتا يتخطر على ظهره برماحة كعدو الكلاب على امتداد حظائر الماشية.

ارتدى سرغي ايفانوفيتش قبعته المزينة بالريش وقفازه



الذي نثر عليه الطحين وصعد الى مقعد القيادة وصاح بلهجة صارمة:

– اطلقه!

افلت ارتيوم لجام اللورد بايرون وقفز الى جانب، فانطلقت الجياد الثلاثة من مستودع العربات وهي تطقطق على خشب الارضية، ووراءها العربة الصقيلة التي يلمع طلاؤها ونحاسها، وتتطاير نتف طرية من تحت سنابك حصانيها الجانبين وينساب رنين متناسق من اجراسها. رسمت الجياد نصف دائرة في الحوش المعشوشب وتوقفت امام المنزل.

نزلت الكسندرا ليونتيفنا من مدرج المدخل في فستان ابيض وفتحت مظلتها البيضاء، والقت نظرة قلقة على نيكيتا الذي ليس بعيدا من هناك. ساعد بابا ماما على ركوب العربة ثم صعد اليها.

– هيا!

رفع سرغي ايفانوفيتش الاعنة قليلا. واشرأبت اعناق الجياد الكميت الرائعة بفارغ الصبر ثم انطلقت ساحبة العربة بخفة، وتهادى وقع سنابكها على القنطرة. تحول الحصانان الجانبيان الى رماحة متسارعة، اما اللورد بايرون الذي يعرف بان ذلك كله مجرد دعابة فقد هز اذنيه. كانت ماما تتلفت طول الوقت. فقد انحنى نيكيتا والقى العنان على الغارب ليقترب من العربة باقصى السرعة.

كان يريد ان يتجاوزها بهمة وبسالة، الا ان كلوبيك لم يكن موافقا على رأيه. وعندما بلغ العربة ووازاها عاد الى الطريق وجرى بخبب رتيب في اثر العجلات، وسط عاصفة من الغبار. وما من قوة تستطيع ان توقفه او تحيد به الى جانب. فهو يعتبر ذلك كله امرا لا داعي واذا كان لابد من الجري فليكن على الطريق، لا مبرر لجهد يهدر عبثا.

تلفتت ماما فرأت نيكيتا يهتز بشفتين مضغوطتين ويتطلع متوترا الى ما بين اذني الحصان. شعر بالغثيان من الغبار، وبارتجاج في البطن من عدو الحصان.

– الا تجلس في العربة؟

هز نيكيتا رأسه بعناد. فضحك الأب وقال للحوذي:

– اسرع قليلا!
شنف اللورد بايرون اذنيه واخذ يقذف قوائمه الحديدية. وحلق الحصانان الجانبيان منحنيين فوق العشب. تحول كلوبيك الى الجري رماحة، الا ان العربة كانت تبتعد، فاشتاط غضبا وجرى بكل ما اوتي من قوة.

تلاشى الغثيان الناجم عن الخبب الرتيب و كان نيكيتا مستقرا بيسر وثبات والريح تصفر في اذنيه. وعلى جانب الطريق تنداح الى الوراء امواج السنابل الخضراء، والقبرات تتناغى باصوات بسيطة ولا ترى في ضوء الشمس... كان ذلك يبعث الارتياح كما في كتب فينيمور كوبر تقريبا.

تباطأ سير العربة فلحق بها نيكيتا لاهثا والقى على ابيه نظرة فرحة.

– هل انت مسرور يانيكيتا؟
– جدا... كلوبيك حصان رائع...

## الاستحمام

في الصباح الباكر توجه فاسيلي نيكيتيفيتش واركادي ايفانوفيتش ونيكيتا، سائرين الواحد اثر الآخر على ممشى في العشب الرمادي من كثرة الندى، للاستحمام في البركة.

ضباب الصباح لا يزال يلفع خمائل البستان الكثيفة. وفي الفسحة فوق الأزاهير الطويلة العسلية الصفراء وفوق ازهار البرسيم البيضاء، تزاحمت الفراشات كاوراق خفيفة وحومت نحلة مهمومة مشغولة البال. وتناهى من احدى خمائل البستان هديل يمامة اغمضت عينيها ونفخت صدرها وراحت تنوح بحزن لذيذ مؤكدة ان كل شيء سيبقى على حاله دوما، يمر ويعود من جديد بتلك الحال.

سار فاسيلي نيكيتيفيتش على القنطرة الطويلة التي تطبطب فوق الماء، ودخل الحمام الخشبي المكشوف. خلع ملابسه على المصطبة في الظل وربت على صدره الابيض المكسو بالشعر



وعلى جنبيه الاملسين وضيق جفونه في لمع الماء الذي يغشى العيون وقال:
– رائع! رائع جدا!

بدا وجهه الملوح بلحيته اللماعة وكانما ركب تركيبا على بدنه الابيض فهو يتمتع بصحة موفورة تكاد تفوح كعطر طيب للغاية. وعندما تحط ذبابة على ساقه او كتفه ينهال عليها بضربة مدوية من باطن يده تخلف على جسمه بقعة وردية. برد بدنه بعض الشيء، فاخذ قطعة من الصابون الفواح الذي يعوم في الماء لخفته، وسار بحذر على السلم الزلق لما علق به من اشنات خضراء الى الحمام الذي لا يتجاوز عمق مائه صدره، واخذ يصوبن راسه ولحيته برغو غزير وهو يبشبش ويقول:
– رائع! رائع جدا!

فوق الحمام، في ضوء الشمس الازرق، حوم البرغش، وجاء يعسوب يرفرف بجناحيه ويتطلع بعينين زمرديتين جاحظتين الى راس فاسيلي نيكيتيفيتش الملفع برغو الصابون ثم انطلق بتحليق مائل. وفي تلك الاثناء كان اركادي ايفانوفيتش يخلع ثيابه على عجل وبشيء من الاستحياء، وقد ضغط الأصابع الطويلة لرجليه المعقوفتين قليلا، ثم فتح الباب الخارجي للحمام وتطلع ذات اليمين وذات الشمال ليتأكد مما اذا كان هناك من ينظر اليه من الضفة، وقال بصوت اجش: «طيب، رائع» وارتمى على بطنه في البركة. انفرج الماء، وطرطش وفرت غربان القيظ من الصفصاف مذعورة، بينما راح اركادي ايفانوفيتش يسبح كالفراشة وبدنه النحيل الاشقر يتلوى تحت الماء المائل الى الزرقة.

عندما بلغ المعلم وسط البركة اخذ يتشقلب ويغوص وينفث الرذاذ مبقبقا كعفريت الماء: «برررر»...

جلس نيكيتا مقرفصا على المصطبة اللزجة ينتظر حتى ينتهي بابا من الاستحمام. وضع فاسيلي نيكيتيفيتش الصابونة والليفة على درجة السلم وسد اذنيه باصبعيه وغاص في الماء ثلاث مرات. تلاصق شعره المبلل وتدلت لحيته كاسفين مدبب، وغدا مظهره تعيسا.

– فلنسبح الآن – قال وصعد الى القنطرة خارج الحمام ثم

ارتمى ثقيلا على البركة واخذ يسبح على طريقة الضفادع فيحرك يديه وقدميه ببطء في الماء الصافي.

قفز نيكيتا بشقلبة الى البركة ولحق بابيه واخذ يسبح جنبه منتظرا ان يثنى عليه. فقد تعلم نيكيتا خلال هذا الصيف السباحة بمهارة عندما كان يستحم مع الصبيان في نهر تشاغرا. وصار يجيد العوم على الجنب وعلى الظهر وبهيئة الوقوف والانحناء تحت الماء. وقال الاب هامسا:

– تعال نغرق اركادي.

كانا يفترقان عادة ويسبحان من الجهتين نحو اركادي ايفانوفيتش الذي لا يلاحظ هذا التطويق لقصر نظره. وحالما يقتربان منه يهرعان اليه بطبطبة سريعة. فيزمجر ويحار في أمره وينط من الماء حتى الخصر ثم يغوص ويحاولان الامساك برجليه، فالدغدغة هي اكثر ما يخشاه، الا ان الامساك به ليس سهلا. فهو يتملص في الغالب. وعندما يعود فاسيلي نيكيتيفيتش ونيكيتا الى الحمام يجدان اركادي ايفانوفيتش جالسا على المصطبة مرتديا لباسه الداخلي و نظارته و يقول بقهقهة مهينة:

– يجب تعلم السباحة يا سادة.

حينما يعودون من البركة تستقبلهم الكسندرا ليونتيفنا عادة في قلنسوة خفيفة بيضاء ورداء وبرى وتقول باسمة بجفون مطبقة من الشمس:

– الشاي جاهز في البستان، تحت الزيزفون اشربوا ولا تنتظروني، والا ستبرد الفطائر.

## عقرب البارومتر

منذ عدة ايام ينقر فاسيلي نيكيتيفيتش باظافره على البارومتر ويلعن الشيطان همسا فان عقرب البارومتر يشير الى: «جفاف، جفاف شديد». طول اسبوعين لم تسقط قطرة مطر، في حين اقترب وقت نضوج القمح. تشققت التربة وبهتت السماء من شدة القيظ، وعلى الافق البعيد خيمت غلالة كغبار اثارته القطعان. المروج احرقتها الشمس، والتوت اوراق الأشجار وغدت قاتمة وظل عقرب



البارومتر يقول بعناد: «جفاف، جفاف شديد» مهما نقر فاسيلي نيكيتيفيتش على زجاجه.

لم يعد اهل البيت يمزحون كالسابق عندما يلتئمون حول المائدة. مسحة من القلق وانشغال البال تعلو وجه الاب ووجه الام. اركادي ايفانوفيتش صامت هو الآخر، يحدق في الصحن ويعدل نظارته بين الفينة والفينة محاولا ان يخفي تاوهة يحبسها بصعوبة. لكن لديه سببا آخر. فان المعلمة فاسا نيلوفنا التي وعدته بالمجيء من المدينة لزيارته في سوسنوفكا كتبت له: «انا مقيدة بسرير امي المريضة» وقالت بانها تامل في رؤية اركادي ايفانوفيتش في سامارا ليس قبل حلول الخريف.

تصور نيكيتا هذه المعلمة امراة كئيبة طويلة القامة في بلوزة رمادية يتدلى منها سير ساعة وقد ربطت احدى قدميها بقيود الى قائمة السرير. في تلك الايام الخانقة الكالحة الملفعة بغلالة الجفاف تشتد الكآبة خصوصا فتطغى حتى صورة معلمة المدينة الجالسة قرب السرير الحديدي عند الجدار العاري.

اثناء الغداء قال فاسيلي نيكيتيفيتش وهو ينق باصابعه لحنا مرحا على حافة الصحن:

– سيهلك المحصول اذا لم يسقط المطر غدا.

اطرقت ماما براسها في الحال. وتناهى من النافذة الضخمة طنين ذبابة كانما تهذي في الاعلى عند الزجاج المزدوج شبه الدائري الذي لم تمسه يد التنظيف ابدا، فغطاه نسيج العنكبوت. باب الشرفة الزجاجي مغلق منعا لتسرب قيظ البستان. وتمتمت ماما:

– هل سيحل القحط هذا العام ايضا؟ يا الهي، ياللفظاعة!

– ذلك أشبه بانتظار الاعدام. – اقترب بابا من النافذة ورفع بصره الى السماء، ودس يديه في جيبي بنطاله السميك – يوم آخر من هذا الحر اللعين وتعم المجاعة في الشتاء القادم ويتفشى التيفوئيد وتهلك الماشية ويموت الاطفال... شيء مهول.

انتهى الغداء في صمت. مضى بابا لينام. واستدعيت ماما الى المطبخ لتحسب البياضات، اما اركادي ايفانوفيتش فقد ذهب

للتنزه وحيدا في السهب الساخن، ليثقل على نفسه فوق كل المصائب والاحزان.

في هدوء الظهيرة المشؤوم الذي لا يعكره سوى طنين الذباب بدا كل شيء في الغرف وكانه ملفع بالغبار. ولا يدري نيكيتا ماذا يفعل والى اين يتوجه. مضى الى مدخل المنزل. الحوش الواسع خال هادىء. كل شيء فيه غفا وسكن في ضوء الشمس الناصع الذي يغشي الابصار رغم غلالة القيظ الكالحة ويدوي طنين في الراس من السكون المطبق والحر الشديد.

دلف نيكيتا الى البستان، لكنه لم يجد هناك حركة او حياة. طنطنت نحلة ناعسة. الاوراق المتربة معلقة بلا حراك كما لو صنعت من الصفيح. وفي البركة انغرز القارب في الماء الكابي تعلوه بقع بيضاء من ذرق الغربان.

عاد نيكيتا يجرجر قدميه الى المنزل واستلقى على أريكة تفوح منها رائحة الفئران. في وسط الغرفة تنتصب مائدة الطعام، عارية، على عدد كبير من القوائم النحيفة المنفرة. مامن شيء في العالم اكثر اثارة للملل من هذه المائدة. وفي المطبخ البعيد كانت الطباخة تغني بصوت واطيء – لعلها تنظف السكاكين بمسحوق الطابوق وتعوي، تعوي بصوت خافت من الملل القاتل

وفجاة ظهر جيلتوخين على رف النافذة المواربة. فغر منقاره من شدة الحر. عب من الهواء، ثم حلق فوق المائدة وحط على كتف نيكيتا. ادار راسه وتطلع في عيني الصبي ونقر شامة قاتمة كالحبة على صدغه، نقرها ثم تطلع في عيني نيكيتا من جديد.

– اتركني، ارجوك اغرب عني – قال له نيكيتا ونهض متكاسلا وصب للزرزور ماء في صحن.

شرب جيلتوخين ونط الى داخل الصحن واستحم وطرطش فسكب كل مائه وشعر بالمرح وحلق يبحث عن مكان ينفض فيه ريشه وينظفه فحط على افريز الهيكل الخشبي للبارومتر.

– فيويت، فيويت، عاصفة – قال جيلتوخين بصوته الرقيق.



– ماذا تقول؟ – سأله نيكيتا واقترب من البارومتر.

كان جيلتوخين يهز راسه الى الأسفل والاعلى جاثما على الأفريز وقد دلى جناحيه وراح يتمتم شيئا بلغة الطيور وباللغة الروسية. وفي تلك اللحظة راى نيكيتا العقرب الازرق على رقعة البارومتر وقد ابتعد كثيرا من العقرب الذهبي، وصار يرتعش بين مؤشري «طقس متقلب» و «عاصفة».

طرق نيكيتا باصابعه على الزجاج فتحرك العقرب باتجاه مؤشر «عاصفة». وهرع نيكيتا الى المكتبة حيث ينام ابوه. طرق الباب فتناهى صوت الاب ناعسا مدعوكا وهو يتساءل على عجل:

– ماذا؟ ماذا حدث؟

– بابا، تعال، انظر الى البارومتر...

– نيكيتا، لا تزعجني اريد ان أنام.

– انظر ما حدث للبارومتر يا بابا...

ظلت المكتبة هادئة يبدو ان بابا لا يستطيع ان يطرد النعاس واخيرا تناهت خطوات قدميه الحافيتين، وادار المفتاح وانفرج الباب ولاحت اللحية المعقوفة:

– لماذا ايقظتني؟ ماذا حدث؟

– البارومتر يشير الى العاصفة.

– كذب – تمتم بابا بهمس ورعب وركض الى الصالة وصاح منها في الحال باعلى صوته: – الكسندرا، عاصفة! يعيش! جاءنا الخلاص!

اشتدت الحرارة الخانقة، وصمتت الاطيار وتكاسل الذباب على النوافذ. وعند المساء اختفت الشمس الواطئة في غلالة ضبابية ساخنة. وحل الغسق بسرعة. كان الظلام حالكا ولا ترى نجمة في السماء. واشار عقرب البارومتر الى «عاصفة» بكل تاكد. اجتمع الاهل حول المائدة المستديرة ذات القوائم الكثيرة كارجل ام اربع واربعين. وكانوا يتحدثون همسا و يتلفتون الى باب الشرفة المفتوح على البستان المظلم.

وفي ذلك السكون الموات كانت صفصافات البركة اول ما تحرك بحفيف مكتوم ملفع بالهيبة والوقار. وتناهى نعيب الغربان

المرتعبة. وخرج بابا الى الشرفة المظلمة. أخذ الحفيف يشتد ويزداد هيبة، واخيرا انهصرت الاقاصيا عند الشرفة بهبة شديدة، واقتحمت الباب روائح عطرة مع عدة اوراق يابسة، وغمز اللهب في كرة المصباح الزجاجية الحليبية وصفرت الريح وعوت في مداخن المنزل واركانه. وفي مكان ما اصطفقت نافذة بدوي شديد وجلجل زجاجها المحطم. ضج البستان كله وصرت جذوع الاشجار وتمايلت قممها في الظلمة. وظهر من الشرفة فاسيلي نيكيتيفيتش مشعث الشعر فاغر الفم متسع العينين. واخيرا شق صفحة الليل ضوء ابيض ازرق يغشي الابصار، وللحظة باتت الاشجار المحنية جدا وكأنها مرسومة بالأسود. و اطبق الظلام من جديد، وهدرت السماء، وزمجرت وانهالت على الارض. لم يسمع احد وسط الصخب العاصف كيف سقطت زخات المطر و انسابت على زجاج النوافذ. ثم انهمر المطر غزيرا. وقفت ماما في باب الشرفة، واغرورقت عيناها بالدموع. وامتلأت الصالة برائحة الرطوبة و العفونة والمطر والاعشاب.

### الرسالة

قفز نيكيتا من السرج وربط كلوبيك بمسمار على العمود المخطط ودخل دائرة البريد في ساحة السوق بقرية اوتيوفكا.

وراء الحاجز المكشوف جلس مأمور البريد الاشعث بوجهه المنتفخ وراح يحرق شمع الاختام. منضدته ملوثة عن آخرها بقطرات الشمع الاحمر والحبر ورماد التبغ. صب على الظرف سيلا من الشمع الملتهب واختطف الختم بيده المكسوة بالشعر و طرقه بشدة وكأنما يريد تحطيم جمجمة مرسل الرسالة ثم دس يده في جرار المنضدة واخرج طابعا ومد لسانه الطويل ولعق الطابع و الصقه وبصق باشمئزاز، وبعد ذلك القى على نيكيتا نظرة شزراء من عينين متورمتين.

اسم مأمور البريد هذا ايفان لانديشيف. وقد اعتاد على مطالعة جميع الصحف والمجلات، يقراها من الفها الى يائها، ولا يسلمها الى اصحابها بأية حال الا بعد ان يفرغ من مطالعتها.



اشتكى الناس عليه مرارا عند الجهات المسؤولة في سامارا، ولكنه كان يزداد غيظا دون ان يكف عن المطالعة. وكان يدمن على المسكرات ست مرات في العام، وعند ذاك يخشى الناس حتى الدخول الى دائرة البريد. وفي تلك الايام يخرج مأمور البريد رأسه من النافذة ويصرخ في الساحة كلها: «نهشتم روحي ياملاعين»

قال له نيكيتا:

– بابا ارسلني لاستلام البريد.

لم يرد عليه مأمور البريد، واحرق الشمع من جديد، لكن قطرة سقطت على يده فقفز وزعق وجلس ثانية.

– من اين لي ان اعرف من هذا «البابا»؟ – غمغم بلهجة لا تنم عن حسن نية اطلاقا. – كل شخص هنا بابا، الكل آباء...

– ماذا تقول؟

– اقول عندكم آلاف الآباء – بصق مأمور البريد تحت الطاولة – ما اسمه؟ اسألك ما اسم هذا «البابا»؟ – القى بالشمع جانبا ولم يخرج حزمة الرسائل من الجرار الا بعد ان اجابه نيكيتا.

وضع نيكيتا الرسائل في الحقيبة وسأل بوجل:

– والمجلات و الجرائد؟ ألم تصلنا؟

بدأت اوداج مأمور البريد تنتفخ، فاسرع نيكيتا خارجا دون ان ينتظر الجواب.

كان كلوبيك يضرب الارض بقائمته قرب عمود البريد ويصفع نفسه بذيله لينش الذباب الذي انهال عليه وكان صبيان صغيران بشعر فاتح كالكتان ووجهين ملطخين بالعصير يتطلعان الى الحصان.

– ابتعدا! – صاح بهما نيكيتا وهو يصعد الى السرج.

هوى احد الصبيين على التراب، بينما استدار الآخر ومضى راكضا. وفي النافذة التهب شمع الاختام من جديد في يد مأمور البريد.

خرج نيكيتا من القرية الى السهب الذهبي الاصفر الذي

سخنته السنابل الناضجة، وهناك ترك الحصان يمشي الهوينى وفتح حزمة الرسائل.

كانت احدى الرسائل في ظرف صغير بنفسجي فاتح كتب عليه باحرف كبيرة: «ليد نيكيتا». وهي مكتوبة على ورق مخرم. طرفت رموش نيكيتا من الانفعال وهو يقرأ:

«عزيزي نيكيتا. لم انسك ابدا. احبك، احبك بشدة. نقيم الآن في الفيلا. وهي مريحة تماما، مع ان فكتور يضايقني كثيرا ويعكر علي حياتي. لم يعد يطيع ماما. حلقوا له شعره بالماكنة للمرة الثالثة، و كله خدوش الآن. انا اتنزه لوحدي في بستاننا. عندنا ارجوحة، وتفاح لم ينضج بعد. هل تتذكر الغابة السحرية؟ تعال الينا، الى سامارا، في الخريف. لم اضيع خاتمك. الى اللقاء. ليليا».

قرا نيكيتا هذه الرسالة المدهشة مرارا. وفاحت منها فجاة روعة اعياد الميلاد التي مرت سراعا آنذاك. غدت الشموع اكثر دفئا وظهر الشريط الكبير المطل على عيني البنت الزرقاوين الناقيتين وتحرك ظله على الجدار، وخشخشت السلاسل الورقية على شجرة الميلاد. وومض ضوء القمر في النوافذ المتجلدة. وانسابت اضواء الطيف على السطوح الملفعة بالثلج وعلى الاشجار البيضاء، والحقول الناصعة... وجلست ليليا من جديد تحت المصباح عند المائدة المستديرة مسندة ذقنها بقبضة يدها... يا له من سحر عجيب!..

نهض نيكيتا في الركاب ولوح بالسوط، فجفل كلوبيك من شدة المفاجاة وجرى برماحة كعدو الكلاب. وصفرت الريح المتواصلة في الاذنين وعلى السهب الواسع، فوق السنابل الناضجة، المحصودة في بعض الاماكن، وفوق ضفة النهر الطينية الشديدة الانحدار حلق نسر على ارتفاع شاهق. وفي السبخة المنخفضة، عند البحيرة المالحة، ناحت الزقازق باصوات خاوية خالية الا من الكآبة. وفكر نيكيتا فرحا وقلبه ينتفض بشدة: «اركض يا حصان، اصفري يا ريح! حلق يا نسر، غرد يا زقزاق، فانا اسعد منك. انا والريح، انا و الريح...»



## السوق في بيوسترافكا

بابا وماما يتشاجران منذ ثلاثة ايام. فاسيلي نيكيتيفيتش راغب اشد الرغبة في الذهاب الى السوق في بيوسترافكا، لكن ماما تعارض هذه الرحلة كل المعارضة:

– الأمور في سوق بيوسترافكا على احسن ما تكون بدونك يا عزيزي.

– عجيب – اجاب بابا وهو يمسك لحيته كلها في يده ويعض طرفها ويهز كتفيه – عجيب غريب.

– هل يثير ذلك استغرابك يا عزيزي فليكن.

– حقا، غريب جدا!

– لكنني اكرر مرة اخرى – قالت ماما – لسنا بحاجة الى خيول جديدة، فالاسطبل غاص بخيول السفر و الحمد لله.

– افهميني، انا ذاهب الى هناك لبيع زاريمكا اللعينة.

– لا داعي لذلك. زاريمكا فرس رائعة.

– ماذا تقولين؟! – باعد بابا ما بين قدميه وجحظت عيناه. – زاريمكا تعض وترفس.

– كلا. – اجابت ماما باصرار – زاريمكا لا تعض ولا ترفس.

– اذن فانا اعلن صراحة. – انحنى بابا بتأدب وطرق كعب احدى قدميه بكعب الاخرى – اما هذه الفرس اللعينة في البيت و اما انا!

واخيرا فضلت ماما، كما حزر نيكيتا، ان يبقى بابا في البيت. وانتهى الشجار بصلح وتنازلات من الطرفين: تقرر بيع الفرس، بينما تعهد بابا «بالا ينفق اموالا طائلة في السوق».

ولكي يعوض فاسيلي نيكيتيفيتش عما سينفقه من نقود فكر بارسال عربتين من سقيط التفاح الى بيوسترافكا وبيعه هناك بالوزن.

– طلب نيكيتا ان يسمحوا له بالرحيل على احدى العربتين مع ميشكا كورياشونوك.

بدات العراقيل منذ الصباح. فقد اتضح ان الخيول لم تكن جاهزة، واسرع ميشكا كورياشونوك على ظهر حصان الى

القطيع الذي يرى بالكاد في المنخفض الملفع بضباب الصباح وراء البرك. وعندما اخرجوا زاريمكا الشقراء ذات الكواحل البيضاء من الاسطبل واخذوا ينظفون شعرها بالمحكة عضت سرغي ايفانوفيتش وكادت تنهشه. رأى بابا هذا المشهد من النافذة فهرع الى الاسطبل بقميص النوم:

– اها... تعض! ألم اقل لكم يا ملاعين؟!..

اخذت زاريمكا تتراجع وتقعي وتسحب سرغي ايفانوفيتش من سير اللجام وتحمحم وتتملص، ثم طاطات بوزها وترافست بشدة، حتى تطايرت التنف من تحت سنابكها الى اعلى من مستودع العربات، وانطلقت الى القطيع. ثم اختفى ارتيوم الذي كان يجب ان يرتحل مع العربتين. راحوا يبحثون عنه، فاتضح انه موقوف من مساء امس في محبس الناحية. فقد حان موعد تسديد الضريبة المستحقة وقد تكدس منها على ارتيوم دين خمس سنوات، لذا يلقي العمدة القبض عليه اينما كان ويزجه في المحبس حتى ياتي من يسدد دينه.

بعث فاسيلي نيكيتيفيتش رسولا الى العمدة. فاطلقوا سراح ارتيوم بكفالة، وجاء ليشد خيول العربتين، وكان في مرح شديد. شد زاريمكا بوثوق الى العربة الخلفية، وصعد نيكيتا وميشكا كورياشونوك الى العربة الامامية، ولوح ارتيوم باطراف الاعنة فتحركت العربتان... وصاح سرغي ايفانوفيتش مازحا وهو يشير الى العجلة عمدا: «مكسورة، مكسورة» فقفز ارتيوم وتفقد العجلة. كانت سالمة.حك شعره وهز رأسه... وانطلقت العربتان اخيرا.

كانت رحلة رائعة. النسيم يهب مشبعا برائحة الشيح ودريس القمح، ويتلاعب باعشاب راعى الحمام العالية على اطراف الحقل. ومن بين أكوام القش المنتشرة على مدى البصر في السهب المستوي حلق باشق وابتعد ببطء الى اعماق السماء. ومن بعيد تصاعد دخان ازرق. فقرب محلة المحاريث يطبخون عصيدة.

وعندما وصلوا الى المحطة التي هي عبارة عن قمرة على عجلات اوقف ارتيوم فرسه. وتوجه مع الصبيين الى البرميل ليشربوا من ماء آسن مليء بالاشنات تفوح منه رائحة خشب



البرميل. اقترب عجوز طاعن في السن، كان يطبخ العصيدة للحارثين، من العربتين ووضع يده على عارضة احداهما وقال وهو يهز رأسه الحاسر:

– تحملون التفاح للبيع؟ – مد له نيكيتا بتفاحة – كلا، يا فتي، لن اتمكن من مضغها.

و ما ان غادروا المحطة حتى صادفوا اربعة اشخاص يستحثون ثيرانا تتارجح في انيارها، وتجر محاريث مقلوبة السكاكين الى اعلى. وتوجه الحارثون مشعثي الشعر في قمصان مخشوشنة لتناول العصيدة. توقف ارتيوم من جديد واستفسر منهم عن تفاصيل المنعطف الى بيوستراكفا.

عند الظهيرة سكنت الريح، وانداحت موجات الحر بعيدا على طرف السهب. حملق نيكيتا فصار يرى في هذه الزرقة المثيرة للانفعالات منزلا عائما تارة او شجرة معلقة فوق الأرض تارة اخرى او سفينة بلا صوار، في حين تواصل العربتان سيرهما، تبعث الجنادب صريرها. وفجأة تناهى من السهب رنين متناغم رتيب. ومالت زاريمكا على جنبها راقصة في عريشها واطلقت صهيلا رنانا. فالتفت ارتيوم وقال غامزا:

– اللورد بايرون يثير الغبار!

وسرعان ما مرقت ازاء العربتين مركبة بثلاثة جياد يتوسطها اللورد بايرون رافعا بوزه باستعلاء وهو يعدو في خبب كاسح، والى جنبيه فرسان قميئتان تتلظيان شررا من شدة الغضب. وفي المركبة جلس بابا منتصب القامة في سترة طويلة خشنة وقد اسند جنبيه بيديه، وتطايرت لحيته بشطرين في الريح، وصاح على نيكيتا وعيناه المرحتان تتراقصان:

– اتريد ان تركب معي؟ – وانطلقت المركبة تنهب الدرب.

واخيرا اخذت ترتفع من وراء طرف السهب قبتا الكنيسة البيضاء، وشواديف الآبار وقمم الصفصاف المتنائرة واعمدة الدخان وسطوح المنازل، وخلف النهر السهبي الغريني الأصفر، البراق في ضوء الشمس، تكشفت قرية بيوستراكفا بكاملها، وورائها، في المرعى سرادقات من القماش وبقع قاتمة من قطعان الخيل.

مرت العربتان مسرعتين فوق الجسر المترجرج الرابض على سطح الماء تقريبا، واجتازتا ساحة الكنيسة حيث كان قس بدين يعزف على الكمان في آخر نافذة بالمنزل الوردي. واستدارت العربتان في المرعى نحو السرادقات و توقفتا قرب صف الفخارين.

وقف نيكيتا في العربة ورأى غجريا بلحية كثة سوداء نبتت من تحت عينيه مباشرة وقفطان ازرق، بازرار فضية، مكشوف عن صدر عار، وهو يحدق في اسنان فرس مريضة، بينما يتطلع الفلاح النحيل، صاحب الفرس، في وجه الغجري مندهشا. وها هو شيخ ماكر يقنع فلاحة مذعورة بان تشتري منه وعاء فخاريا مزينا بنقوش مشجرة وهو ينقر بظفره. وقالت له الفلاحة: «اريد وعاء من نوع آخر يا ابتي.» – «لن تجدي، يا حلوة، احسن من هذا الوعاء في العالم كله». وها هو فلاح ثمل يصيح غاضبا قرب سلة بيض: «أهذه بيضة؟ اي بيضة هذه؟ بيضة حمام. البيض عندنا في كولديبان بيض حقيقي، والدجاج عندنا يغوص في الحب حتى الرقبة». ورأى نيكيتا بنات في بلوزات وردية وصفراء ومناديل مزركشة يتجهن صوب السرادقات التي انحنى الباعة من وراء رفوفها وهم يجتذبون المارة ويتصايحون: «تعالوا، تعالوا، اشتروا منا...». السوق غاص بالغبار والصياح وصهيل الخيل، وصفير الصفرات الفخارية. وفي كل مكان برزت عرائش العربات المرفوعة. وهاهو فتى في قميص ازرق عند الكتف يسير مترنحا متدافعا ويمطط الاكورديون بكل قوته: «عيني، عيني يا عيني...»

حل ارتيوم وثاق الفرسين وبدأ يرفع غطاء العربة. و في تلك الاثناء اقترب منه رجل في سترة عسكرية وحزام جلدي يتدلى منها سيف. تطلع الى ارتيوم وهز راسه. وتطلع اليه ارتيوم بدوره وخلع قبعته. فقال ابو الشوارب:

– وقعت في يدي اخيرا يا هارب، ساحبسك هذه المرة طبعا.

– الأمر لك – اجابه ارتيوم.

امسك ابو الشوارب بمرفقه وسحبه. فشيعهما بائع الخزفيات العجوز الماكر بضحكة. وهمس ميشكا كورياشونوك الى نيكيتا مهموما:



– اسرع وابحث عن ابيك، قل له ان الشرطي اخذ ارتيوم الى المحبس، اما انا فسأحرس العربتين.

تخلص نيكيتا من الزحام وركض في ممشى عبر الحقل المعشوشب باتجاه زرائب الخيل حيث لمح من بعيد عربة ابيه. كان بابا واقفا في غاية المرح قرب احدى الزرائب ويداه في جيبي سترته. بدأ نيكيتا يحدثه عما جرى لارتيوم، لكن اباه قاطعه في الحال.

– انظر الى ذاك الحصان الكميت، ما اشد دهاءه!..

بين الخيول في الزريبة راح ثلاثة من البشكيريين في اردية مضربة فاقعة الالوان وقبعات فرائية يجهدون لالقاء الوهق على رقبة حصان اشقر جموح. ولكنه ينشر اذنيه ويكشر عن اسنانه و يجفل متملصا من حبل الوهق فيدس نفسه في خضم القطيع تارة ويهرع الى الخلاء تارة اخرى. وفجأة ثنى ركبتيه ودس راسه تحت عارضة السياج ورفعها وقفز الى خارج الزريبة وانطلق في رماحة مرحة الى السهب المعشوشب وعفرته وذيله يتطايران في الهواء. وضرب بابا الارض بقدمه من شدة الارتياح.

ركض البشكيريون متمايلين على اقدام معقوفة الى افراس الركوب القمينة الشعثاء، وصعدوا بخفة الى السروج العالية وانطلق اثنان منهم لملاحقة الحصان الكميت، بينما توجه الثالث وبيده الحبل ليقطع الطريق عليه. اخذ الحصان يحوم في الحقل، وكان البشكيري يقطع عليه الطريق كل مرة وهو يزعق كالوحش. ارتبك الحصان، وفي تلك اللحظة اطبق الحبل على رقبته. فاهتاج وجمح، الا ان السياط انهالت عليه من الجانبين و الحبل يخنقه. تمايل الحصان وسقط ثم اقتادوه الى الزريبة وهو يرتعش والزبد يغطي جسمه. هبط البشكيري العجوز المتغضن من السرج بصورة خرقاء، واقترب من فاسيلي نيكيتيفيتش:

– اشتر هذا الحصان يا سيدي.

ضحك بابا ومضى الى زريبة اخرى، وبدأ نيكيتا من جديد يحدثه عما جرى لارتيوم.

– يالأسف – هتف بابا – حقا، ماذا استطيع ان افعل لهذا الاحمق؟ اسمع. خذ عشرين كوبيكا واشتر رغيفا وسمكا

وانتظرني قرب العربتين... هل تعلم؟ بعت زاريبكا الى ميدفيديف بسعر بخس، ولكن بدون مشاكل. اذهب، سآتي الآن.

واستغرقت تلك «الآن» وقتا طويلا جدا. قرص الشمس البرتقالي الشاحب الكبير تعلق فوق طرف السهب وخيم غبار ذهبي على السوق. ودقت نواقيس صلاة المغرب. وعند ذاك جاء بابا تعلو وجهه مسحة من الارتباك. وقال دون ان ينظر في عيني نيكيتا:

– بالصدفة اشتريت مجموعة من الجمال بثمن بخس جدا... الم يبعثوا احدا لياخذ الفرس؟ عجيب. ماذا؟ هل بعتم كثيرا من التفاح؟ بخمسة وستين كوبيكا فقط؟ عجيب. فليذهب التفاح في داهية. اخبرت ميدفيديف باني سابيعه التفاح علاوة على الفرس... فلنذهب لنخلص ارتيوم...

طوق فاسيلي نيكيتيفيتش نيكيتا وسار به في السوق الذي هدأ، بين عربات تفوح منها في الغسق رائحة القش والقطران والقمح. ومن مكان ما تهادت اغنية بصدى رفيع يذوب في السهب، وصهل حصان.

– هل تعلم؟ – توقف الاب ولمعت عيناه بمكر – ستقوم القيامة علي في البيت... ولكن، لا يهم. غدا نذهب لرؤية ثلاثة جياد رمادية مبقعة... لا يهم، تعددت الاسباب والموت واحد.

## في العربة

في المساء عاد نيكيتا من البيدر في عربة محملة بقش القمح الطري. كان خط ضيق من المغيب الكابي الارجواني، كعادته في الخريف، يتلاشى بالتدريج فوق السهب، وفوق الروابي القديمة التي خلفها البدو الرحل بعد ما جابوا هذه الانحاء في غابر الزمان.

وفي الغسق لاحت اخاديد التربة المحروثة في الحقول الخالية بعد الحصاد. وفي مكان ما يومض موقد محطة الحارثين احمر لا يكاد يرتفع عن الارض و تفوح رائحة دخان تزكم الانف. العربة تصر وتترنح ونيكيتا مستلق على ظهره مغمض العينين دب التعب اللذيذ في جسده. وراح يتذكر هذا اليوم في شبه غفوة...



... اربعة ازواج من الافراس القوية تدور وتسحب ذراع الدراس. وعلى مقعد دائري في الوسط يدوم ميشكا كورياشونوك ببطء، ويزعق بين حين وآخر ويطقطق بالسوط.

ومن الدولاب الخشبي يتراكض مطيطيا سير لا نهاية له فيدخل الدارسة الحمراء الضخمة كبناية بيت، وفيها تهتز المناخل والمقشات بشكل مسعور، وتهدر الاسطوانة الدوارة وتعوي وتزأر كوحش جائع وينداح هديرها في السهب الى مسافات بعيدة، وهي تلتهم حزم السنابل المنفوشة وتدفع القش و الحب الى احشاء الدارسة المغبرة. ويطعم الاسطوانة فاسيلي نيكيتيفيتش نفسه وهو يرتدي نظارة محكمة منغرزة في وجهه وردنين يمتدان حتى المرفقين و قميص ملتصق بظهره العرق، وقد تلوث بالغبار وعلقت العصافة بلحيته واسود فمه. العربات المحملة بحزم السنابل تقترب بصرير. ويركض صبي متباعد الساقين وراء الناقلة وياخذ كومة ضخمة من القش ويقف على اللوح ويسحب القش بسرعة الى الاكداس. ويعمل فلاحون كهول في تكويم تلك الاكداس بمذار خشبية طويلة. وتشرف على الانتهاء مشاغل واعمال عام كامل وينتهي معها قلق ذلك العام. و تنشد الاغاني وتطلق النكات طول النهار. كان ارتيوم يلقى حزم السنابل من العربات على رف الدارسة، فقبضت عليه البنات بين العربات وطرحنه ارضا واخذن يدغدغنه، مابين ثيابه وبدنه بالعصافة. وتعالت عاصفة من الضحك والقهقهة...

...فتح نيكيتا عينيه، والعربة تتمايل وتصر. خيم الظلام على السهب، والسماء مرصعة بنجوم اغسطس. سماء لا قعر لها ولا قرار، تتموج فيها الاضواء وكان النسيم يداعب مجراتها وكواكبها وامتد درب التبانة كشريط ضبابي لامع. العربة تهتز، ويسبح نيكيتا، مستلقيا عليها كما في المهد، تحت النجوم وينظر بهدوء واطمئنان الى العوالم البعيدة.

ويفكر في نفسه: «كل هذا لي، ساركب يوما سفينة جوية واطير...» وراح يتصور السفينة الطائرة بجناحين مثل الخفاش، والسماء الخالية السوداء، وشاطئا لازورديا لكوكب مجهول يقترب

منه بجبال فضية وبحيرات رائعة وقلاع وهياكل وغيوم محلقة فوق الماء كالتي يراها عند الغروب.

انحدرت العربة من التلة ونبحت الكلاب من بعيد، وهب نسيم وطب من البرك. ودخلت العربة الحوش. كانت اضواء دافئة مريحة تنسكب من نوافذ المنزل، من غرفة الطعام.

## الرحيل

حل الخريف، واكتنف النعاس الارض. صارت الشمس تشرق متأخرة، عجوزا لا تدفىء، ولا يعنيها من أمر الارض شيء. هاجرت الطيور وخلا البستان وتساقطت الاوراق. رفعوا القارب من البركة ووضعوه، مقلوبا في المستودع.

وفي الصباح تغدو الاعشاب في الاماكن التي تقع عليها ظلال السطوح فضية اللون تحت الندى المتجلد. وعلى ندى الاعشاب المصفرة تتهادى الوزات صوب البركة سمينة متمايلة مثل كرات الثلج. انهمكت اثنتا عشرة فتاة من القرية بفرم الملفوف في طست ضخم قرب جناح الخدم. كن ينشدن الاغاني وتتعالى اصوات بلطاتهن في الحوش كله. ومن مبنى السرداب حيث يجري مخض اللبن جاءت دونياشا واخذت تقضم ساق ملفوف. لقد صارت اثناء الخريف اكثر نضارة وتوردا، والجميع يعرفون بانها تتردد على جناح الخدم لا تقضم سيقان الملفوف وتتضاحك مع البنات، بل لكي يراها من النافذة الخادم الشاب فاسيلي الذي يشبهها في وسامته ونضارته. تعكر مزاج ارتيوم نهائيا وهو يصلح اطواق الخيل في جناح الخدم.

انتقلت ماما الى القسم الشتوي من المنزل، واشعلوا المدافىء والافران. جمع القنفذ اخيلكا خرقا واوراقا كدسها تحت الخوان واستعد للسبات الشتوي. وكان اركادي ايفانوفيتش يصفر في غرفته. رأى نيكيتا في شق الباب معلمه واقفا امام المرآة وقد امسك بطرف لحيته وراح يصفر متأملا. كان واضحا انه ينوي الزواج.

بعث فاسيلي نيكيتيفيتش قافلة من العربات المحملة بالقمح



الى سامارا، وسافر الى هناك في اليوم التالي. وقبيل سفره جرت مباحثات طويلة بينه وبين ماما وهي الآن تنتظر وصول رسالة منه.

بعد اسبوع كتب فاسيلي نيكيتيفيتش يقول: «تصوري، بعت القمح بسعر موفق، اغلى من سعر ميدفيديف. قضية الميراث، كما هو المتوقع، لم تتحرك قيد شعرة، ولذا يتعين، بديهيا، القيام بالاجراء الثاني الذي اعترضت عليه بشدة يا عزيزتي الكسندرا. فهل يجوز ان نقضي هذا الشتاء ايضا مفترقين؟ انصحك بالتعجيل في السفر، لا سيما وان الدروس في المدرسة قد بدأت. ولن يسمحوا لنيكيتا باداء امتحانات القبول في الصف الثاني الا بصورة استثنائية. وبالمناسبة عرضوا علي مزهريتين رائعتين من الفورفوري الصيني لاجل شقتنا في المدينة، ولا يمنعني من شرائهما الآن الا خوفي من انك ستزعلين».

لم يطل تردد ماما. فان قلقها على المبالغ الكبيرة الموجودة عند فاسيلي نيكيتيفيتش، وخصوصا احتمال شرائه للمزهريتين الصينيتين اللتين لا حاجة باي بشري اليهما، قد جعلاها تستعد للسفر في ثلاثة ايام. ارسلت ماما في قافلة العربات كل ما هو ضروري للاقامة في المدينة من اثاث وصناديق كبيرة وبراميل توابل بالاضافة الى بعض الدواجن، بينما استقلت هي و نيكيتا واركادي ايفانوفيتش والطباخة فاسيليا عربتين بعفش زهيد وتوجهوا الى المدينة قبل القافلة. كان النهار كالحا عاصفا والارض المحروثة والحقول في كل مكان خالية الا من اصول السنابل. ماما تراف بحال الجياد ولا تسمح لها بالعدو السريع. في كولديبان باتوا الليل في خان. وفي ظهيرة اليوم التالي لاحت قباب الكنائس ومداخن المطاحن البخارية من خلال الغلالة الرمادية التي تلفع طرف السهب المنبسط. كانت ماما صامتة، فهي لا تحب المدينة ولا تهوى العيش فيها. اما اركادي ايفانوفيتش فقد كان على احر من الجمر وهويعلك جانبا من لحيته. سارت المركبتان امدا طويلا ازاء معامل السمن الحيواني النتنة و مستودعات الاخشاب، واجتازتا حارة قذرة تكثر فيها الخمارات وحوانيت البقالين، وعبرتا جسرا عريضا يمارس فيه شبان الحارة الشقاوات في الليل وها هي العنابر الخشبية المعتمة

على ضفة نهر ساماركا العالية. والجياد المتعبة ترتقي الشارع الصاعد، والعجلات تهدر على قارعته. تلفت المارة بثيابهم النظيفة وتطلعوا مدهوشين الى المركبتين الملوثتين. وخيل لنيكيتا ان منظر العربتين اخرق يثير الضحك وان الجياد ريفية متباينة الالوان. فحبذا لو استداروا الى شارع جانبي! ومرق قربهم حصان ادهم يجر عربة انيقة ويتعالى وقع سنابكه. فقال نيكيتا:

— يا سرغي ايفانوفيتش لماذا نسير ببطء؟ الا يمكن ان نسرع؟..

— سنصل حتى بهذه السرعة.

كان سرغي ايفانوفيتش جالسا بوقار وحزم على مقعد القيادة وهو يمسك باعنة الجياد الثلاثة كي تسير على مهل. واخيرا استداروا الى شارع جانبي ومروا ببرج اطفاء، وقف عند بوابة سياجه شاب ناتيء الوجنتين في خوذة اغريقية، ثم توقفوا امام منزل ابيض من طابق واحد ومدخل حديدي يحتل الرصيف كله عرضا ولاح في النافذة محيا فاسيلي نيكيتيفيتش فرحا لوح بيديه واختفى، وبعد لحظة فتح بنفسه الباب الرئيسي.

دخل نيكيتا الدار راكضا قبل الآخرين. فاحتوته صالة غير فسيحة وخالية تماما لكنها مضيئة بجدرانها المغلفة بورق ابيض، وتفوح منها رائحة البوية، وعلى الارضية المطلية اللامعة انتصبت عند الجدار مزهريتان صينيتان اشبه بأباريق الغسيل. وفي آخر الصالة، تحت طاق باعمدة نحيفة بيضاء منعكسة على الارضية ظهرت بنت ترتدي فستانا بنيا وقد دست يديها تحت مئزر ابيض، وانعكس حذاؤها القصير الاصفر على الارضية ايضا. شعرها مصفف في ضفيرة، وعلى قفاها، خلف الاذنين، شريط اسود. عيناها الزرقاوان توزعان نظرات صارمة من بين جفون مطبقة قليلا. تلك هي ليليا. وقف نيكيتا وسط الصالة مسمرا. لعلها كانت تنظر اليه نظرة المارة في الشارع الرئيسي الى المركبتين القادمتين من سوسنوفكا. وسألته:

— استلمت رسالتي؟ — هز نيكيتا راسه بالايجاب. — اين هي؟ اعطينها في الحال.

دس نيكيتا يده في جيبه يبحث عن الرسالة رغم علمه بانها



ليست معه. تطلعت ليليا في عينيه بنظرة متفحصة غاضبة... وغمغم نيكيتا:

— اردت ان اجيب، ولكن...

— اين هي؟

— في الحقيبة.

— اذا لم تعدها لي اليوم سينتهي كل ما كان بيننا... انا متأسفة جدا لأني كتبت لك... دخلت هذا العام الصف الاول.

زمت شفتيها ووقفت على اطراف اصابعها. وعند ذاك ادرك نيكيتا ان سبب زعلها هو عدم الرد على الرسالة البنفسجية... ابتلع لعابه وتزحزح من الارضية الصقيلة... خبأت ليليا يديها تحت المئزر في الحال وارتفعت ارنبة انفها. واطبقت جفونها الطويلة دليلا على الاحتقار.

— اعذريني — تمتم نيكيتا — انا آسف جدا... شغلتني الخيول والحصاد والدراس وميشكا كورياشونوك...

احتقن وجهه واطرق براسه. وظلت ليليا صامتة. واحس بانها متقززة منه تقزز الانسان من السرقين وفي تلك اللحظة دوى في الدهليز صوت آنا ابولوسوفنا وتعالت التحيات والقبلات وطبطبت خطوات الحوذيين الثقيلة وهما ينقلان الحقائب... وهمست ليليا بلهجة سريعة غاضبة:

— سيرونتا... عجيب امرك... تظاهر بالمرح... قد اعذرك هذه المرة...

وهرعت الى الدهليز. ومن هناك تهادى صوتها الرفيع عبر الغرف الخالية المدوية:

— مرحبا يا خالتي الكسندرا، الحمد لله على السلامة!

هكذا بدأ اليوم الأول من الحياة الجديدة. سبع غرف ضيقة موحشة بدلا من رحاب الريف الهادئة البهيجة، ووراء النوافذ تهدر عربات الاحمال على احجار الشارع، والمارة المهمومون المستعجلون ببزاتهم التي تشبه بزة فيرينوسوف، طبيب الناحية في قرية بيوستراقكا، يتراكضون حاجبين افواههم بالياقات اتقاء لريح تحمل قصاصات الورق والغبار. الهرج و المرج الصخب واللغط المنفعل في كل مكان. حتى الوقت يمضي هنا على غير عادته. فهو يطير،

انشغل اركادي ايفانوفيتش ونيكيتا في ترتيب غرفة الصبي، فرصفا الاثاث والكتب وعلقا الستائر. قبيل المساء جاء فكتور، من المدرسة راسا، وافاد بان تلاميذ الصف الخامس يدخنون في المرحاض وان سروال معلم الحساب في صفهم التصق بالكرسي الذي طلاه احدهم بالصمغ كان فكتور شارد البال، و لكن بمظهره من يعتمد على نفسه. طلب من نيكيتا ان يعطيه السكين الصغيرة مع اثنتي عشرة شفرة وقال بانه ذاهب ليلعب بالريشات مع احد الزملاء و «انت لا تعرفه».

حل الغسق فجلس نيكيتا قرب النافذة. والغروب خارج المدينة مثل ماهو عليه في القرية. الا ان نيكيتا، كالزرزور جيلتوخين وراء شباك النافذة، يشعر بانه اسير، غريب، رهين، مثل جيلتوخين تماما. دخل اركادي ايفانوفيتش الغرفة مرتديا معطفه وقبعته وبيده منديل نظيف تفوح منه رائحة الكولونيا:

– انا ذاهب، سأعود في حوالي التاسعة.

– الى اين انت ذاهب؟

– الى مكان لست موجودا فيه الآن. – اجاب واطلق قهقهة مبتورة – ماذا يا أخي؟ كيف استقبلتك ليليا؟ على اسنة الحراب؟ لا تهتم. ستتعود وتتهذب. وقد يفيدك ذلك بعض الشيء. فيخفف من سمنة الريف... – استدار على كعبه وانصرف. فخلال يوم واحد تغير كليا حتى غدا انسانا آخر تماما.

في تلك الليلة راى نيكيتا نفسه في المنام في بزة زرقاء بازرار فضية وقد وقف امام ليليا وقال لها بخشونة:

– خذي رسالتك.

لكنه استيقظ عندما تلفظ هاتين الكلمتين، ثم غفا وراى نفسه من جديد وهو يسير على الارضية اللماعة ويقول لليليا:

– خذي رسالتك.

كانت اهداب ليليا الطويلة ترتفع وتنخفض، وانفها الصغير الأشم ينم عن الكبرياء والاغتراب، ولكن هذا الانف يكاد يتخلص من الاغتراب والوجه كله يكاد يبتسم...

واستيقظ نيكيتا وتلفت حواليه. ضوء غريب من فانوس الشارع يستقر على الجدار... وراى في المنام ثانية نفس ذلك



الحلم. لم يكن في اليقظة ابدا يحب بهذا القدر تلك البنت الاحجية...

وفي الصباح مضت ماما واركادي ايفانوفيتش ونيكيتا الى المدرسة وقابلوا مديرها الكهل النحيل المتجهم الذي تفوح منه رائحة النحاس. وبعد اسبوع ادى نيكيتا امتحان القبول والتحق بالصف الثاني...

## سنة ١٩٣٠

ترجمة عبد الله حبه

# الكونت كاليوسترو

تقوم عزبة «الينبوع الابيض» الضيعة القديمة لامراء اسرة تولوبوف في قضاء سمولينسك، وسط الحقول الممتدة فوق التلال والمكسوة بنباتات الغلال واحراش اشجار البتولا، وعلى الضفة العالية للنهر. وجرى اغلاق البيت الخشبي القديم الواقع في الوادي الضيق، واهمل. اما البيت الجديد ذو الاعمدة، من الطراز اليوناني، فتطل واجهته الامامية على النهر والحقول وراءه. بينما تمتد واجهته الخلفية بجناحين نحو المتنزه حيث كانت البركة والجزر والنافورات.

بالاضافة الى ذلك كان بوسعك ان تشاهد في شتى انحاء المتنزه تمثال امراة من الحجر تحمل سهما، او اناءً نقش على قاعدته: «اجلس تحته وتأمل – ما اسرع ما يمضي الوقت»، او خرائب كئيبة تتشابك عليها اغصان اللبلاب. وانجز بناء البيت والمتنزه قبل خمسة اعوام مضت، حينما توفيت فجأة ربة «الينبوع الابيض»، الارملة وزوجة البريجادير، الاميرة براسكوفيا بافلوفنا تولوبوفا، وكانت في عز الشباب. وانتقلت الضيعة بالوراثة الى احد اقاربها اليكسي اليكسيفيتش فيدياشيف الذي كان يعمل آنذاك في بطرسبورغ.

ترك اليكسي اليكسيفيتش الخدمة العسكرية وانتقل للعيش، بهدوء وعزلة، في «الينبوع الابيض» مع عمته ولقبها فيدياشيفا ايضاً وكان طبعه يتسم بالهدوء والاسترسال مع الاحلام كما انه



كان فتيا جدا – اذ بلغ التاسعة عشرة من العمر. وقد ترك الخدمة العسكرية بابتهاج لانه كان يشعر بألم في صدغيه واحيانا بوخز في قلبه من ضجيج حفلات الاستقبال في البلاط، والعربدة في الفوج، وضحك الحسناوات في الحفلات الساهرة، ومن رائحة المساحيق وحفيف الفساتين.

التزم اليكسي اليكسيفيش العزلة وسط الحقول والغابات وبشعور من الفرح الهادئ. و كان ينطلق احيانا بجواده لمشاهدة الاعمال في الحقول، واحيانا يجلس عند ساحل النهر بصنارة تحت صفصافة كثيرة التجاويف، واحيانا كان في الاعياد يعطي الأمر بأن تدور الفتيات الريفيات حول البحيرة وهن يرددن الاغاني بينما يتطلع نفسه من النافذة الى هذه الصورة الجميلة. وفي امسيات الشتاء، كان يعكف بهمة على المطالعة. وفي هذا الوقت كانت فيدوسيا ايفانوفنا ترتب الاوراق في لعبة الباسيانس؛ بينما كانت الرياح تعوي فوق علالي البيوت في الامسيات، ويمضي في الطرقة الوقاد العجوز، فينبعث صرير من اخشاب الارضية، ويحرك الجمر في المواقد.

هكذا عاشا باطمئنان وبدون منغصات. ولكن سرعان ما لاحظت فيدوسيا ايفانوفنا ان الامور لا تسير على مايرام تماما لدى اليكسيس –هكذا كانت تدعو اليكسي اليكسيفيتش. اذ صار كثير التأمل وشارد الفكر وشاحب الوجه. وقد لمحت له فيدوسيا ايفانوفنا بالقول:

– الم يحن الوقت، ياعزيزي، لكي تعقد العزم وتتزوج. فانك لا تنوي، فعلا، التطلع الى سحنتي، انا الفطر العتيق، طوال حياتي كلها، وقد يحدث لك مكروه..

ما هذا القول! ان اليكسيس حتى ضرب الارض بقدمه وقال:

– كفى، يا عمتي.. لا رغبة لدي ولن يحدث ان اشغل نفسي بالأمور العادية: فالبس الروب طوال اليوم وأمارس لعبة التريسيت مع الضيوف... ومن تأمريني بان اتخذها حليلة لي، بودي ان أعرف؟

قالت العمة:

– لدى الأمير شاخماتوف خمس بنات. وكلهن فتيات

حسناوات. ولدى الأمير باتريكييف أربع عشرة بنتا... ولدى
اسرة سفينين – ساشينكا وماشينكا وفاريونكا...

– آه ياعمتي، ياعمتي، ان الفتيات المذكورات ذوات خصال
حميدة: لكن مجرد التفكير بان روحي قد تضرمت بالهوى، وجمعنا
الوصال، وماذا بعد: فالمرأة التي يجعلني قفازها او رباط جوربها
ارتعش شوقا، تغدو هذه المرأة الى العنبر حاملة المفاتيح
وتنهمك بالعمل في المخازن، اوتطلب اعداد طبق شعرية وتاخذ
في تناولها أمامي..

– لم ينبغي عليها تناول الشعرية حتما امامك، يا اليكسيس؟
و لنفرض انها تتناول الشعرية – فما العيب في هذا؟

– ان العشق اللاانساني فقط بوسعه أن يقضي على كآبتي
يا عمتي.. الا انه لا توجد على الارض المرأة القادرة على ذلك...

قال اليكسي اليكسيفيتش ذلك والقى نظرة طويلة وساجية
الى الجدار حيث علقت لوحة بورتريه كبيرة بطول قامة الانسان
للحسناء براسكوفيا بافلوفنا تولوبوفا، بعد ذلك عدل وهو يتنهد
الروب الحريري ذي النقوش الصينية، وجلس في المقعد بالقرب
من النافذة وصار يدخن، نافثاً خيوط الدخان.

لكن يبدو انه افصح عن شيء ما، وقد ادركت العمة ذلك،
لانها قالت وهي تتطلع الى ابن اخيها بعجب:

– ان كنت انسانا – فاعشق انسانا، وليس حلما او شيئا
يزرق، وليغفر لي الرب..

لم يجب اليكسي اليكسيفيتش، وكان يقف وراء النافذة التي
كان ينظر منها بسام، في الباحة المغطاة بعشب مجعد، عجل أصهب
وهويمص اذن عجل آخر. وكانت الباحة تنحدر تدريجيا نحوالنهر
الذي كانت تجلس على ضفته، وسط نبات راعي الحمام، اوزات
بيضاء ناصعة وكأنها اكوام من الثلج، ونهضت احداها ولوحت
بجناحيها ثم رقدت ثانية. كان الجو قائظا وهادئا في تلك الساعة
من منتصف النهار. وكانت تتمايل و ترتج وراء النهر في مزارع
الغلال الامواج الشفافة للقيظ. و كان يمضي في الطريق المتفرعة
من غابة اشجار البتولا فلاح على ظهر حصان. وها هو قد نزل في
المخاضة، – وغاص الحصان في الماء حتى بطنه واخذ يشرب؛



وبعد ذلك هز الراكب مرفقيه و كعبيه، مما اثار رعب الاوزات،
وانطلق خببا الى اعلى التل وصرخ بعبارة ما الى فتاة في الباحة
تحمل حزمة من التبن، وضحك، ولكنه عندما راى رب الضيعة في
النافذة، ترجل من الحصان ونزع قبعته. وكان الرجل هذا ساعيا
يرسل مرة في الاسبوع الى الطريق العمومي لجلب البريد. وقد
جلب رسالة الى فيدوسيا ايفانوفنا، وحزمة كتب الى رب الضيعة.

خرجت فيدوسيا ايفانوفنا لجلب النظارات. بينما صار اليكسي
اليكسيفيتش يتصفح الكتب. وجذبت انتباهه في العدد الثامن
و العشرين من «المجلة الاقتصادية» مقالة حول اسباب داء السوداء.
«ان المصدر المشؤوم الاول للسوداء هو العذاب والاستمرار في
العشق والهواجس التي تجعل النفس في وضع كئيب دائما؛
والانسان الذي تعذبه مثل هذه الاحاسيس المبرحة، يجد السلوان،
مادام لا يجد مخرجا منها، في العزلة، حتى وتصيبه في نهاية
المطاف كآبة شديدة مما يوهن اعصاب معدته وامعائه...».

عندما قرأ اليكسي اليكسيفيتش هذه السطور اغلق الكتاب.
اذن تتربص به السوداء: فليس هناك مخرج من العشق الذي
تذيب ناره احشاءه.

## -٢-

قبل نصف عام وعندما كان اليكسي اليكسيفيتش ينهي الاعمال
التكميلية في بعض الغرف زار البيت القديم بحثا عن بعض
الحاجيات. انه يتذكر تلك اللحظة كما لو كانت الآن. كانت
الشمس تميل الى المغيب في الزمهرير. بينما ذرات الثلج
تتطاير فوق الحقول المتجمدة. وحلق غراب عجوز من غصن شجرة
بتولا يزينها الندى المثلج، وهو ينعق، فاهال الثلج على اليكسي
اليكسيفيتش الذي كان يسير بمعطف من فرو الثعلب فوق الدرب
الذي ازيل منه الثلج لتوه على طول الضفة.

وفي النهر كانت فتاة ريفية تجلس عند فجوة في الجليد وهي
تغترف منها الماء، ورفعت الدلو على نبوت ومضت، وهي تتطلع
الى رب الضيعة، بوجهها المدور وحاجبيها الاسودين. وفي

القرية لمع النور في مكان ما بين كثبان الثلج من النوافذ الصغيرة المتجمدة؛ وتردد صرير باب واصوات سمعت بوضوح في تلك الامسية الباردة. انها صورة كئيبة مملة وآمنة.

صعد اليكسي اليكسيفيتش الى شرفة البيت القديم وامر برفع الالواح من الباب وولج الى الغرف. كان كل شيء فيها يغطيه التراب، ومهملا وشبه مهدم. و كان الصبي الخادم السائر امامه يضيء بالمصباح الزخارف الذهبية على الجدران تارة، أو حطام الاثاث الملقاة في ركن الغرفة تارة اخرى. وجرى عبر الغرفة جرذ كبير الحجم. كان واضحا بانه نقلت كافة الاشياء من البيت. واراد اليكسي اليكسيفيتش العودة، لكنه القى نظرة على قاعة صغيرة خاوية فرأى على الجدار لوحة بورتريه كبيرة، بحجم الانسان، لامرأة شابة، وكانت معلقة بصورة مائلة. رفع الصبي مصباحه. وكانت اللوحة مغطاة بالغبار، بيد ان الوانها نضرة، وصار اليكسي اليكسيفيتش يتفحص جمال الوجه، وخصلات الشعر الملساء المعالجة بالمساحيق، والحاجبين المقوسين المرفوعين، والثغر الصغير الشهواني ذي الطرفين المرفوعين والفستان الفاتح اللون الذي يكشف عن نصف صدرها البض. وكانت السبابة والابهام في يدها المستلقية بوداعة أسفل النهدين تمسك بوردة.

تكهن اليكسي اليكسيفيتش بانها لوحة بورتريه للاميرة الراحلة براسكوفيا بافلوفنا تولوبوفا، ابنة عمه البعيد التي لم يرها سوى في طفولته. ونقلت اللوحة على الفور الى البيت وعلقت في غرفة المكتبة.

مرت ايام كثيرة كان اليكسي اليكسيفيتش يرى فيها هذه اللوحة امامه. وسواء كان يطالع كتابا – وكان يحب جداً وصف الرحلات في الاقطار الغريبة – ام يدون الملاحظات في كراس، وهو يدخن الغليون، او مجرد يتمشى فوق الارضية الخشبية الصقيلة مرتديا الخفين المطرزين بالخرز، فانه كان يحدق طويلا في اللوحة العجيبة. واضفى على هذه الصورة شيئا فشيئا صفات الطيبة والذكاء والتوقد في المشاعر. وكان يصف براسكوفيا بافلوفنا في دخيلة نفسه بانها رفيقة ساعات العزلة وملهمة احلامه.



وحدث مرة ان رآها في الحلم كما هي في لوحة البورتريه تماما، – ساكنة وذات خيلاء، الا ان الوردة بيدها حية، ومد يده لكي ينتزع الوردة من بين الاصابع، فلم يفلح. استيقظ اليكسي اليكسيفيتش بقلب يدق بعنف وبرأس ساخن. ومنذ تلك الليلة لم يعد يستطيع النظر الى اللوحة بلا انفعال. فقد سيطرت صورة براسكوفيا بافلوفنا على مخيلته.

–٣–

عادت فيدوسيا ايفانوفنا الى الغرفة حاملة الرسالة بيدها والنظارات فوق انفها، وبعد ان جلست قبالة اليكسي اليكسيفيتش قالت:

– ان بافل بتروفيتش يكتب لي...

– اي بافل بتروفيتش، ياعمتي؟

– ماذا جرى لك، اليكسيس، يا ابتاه، – بافل بتروفيتش فيدياشيف، الماجور الثاني... انه يكتب شتى الاخبار، وهنا شيء من اجلك، «... لقد اثار ضجة كبيرة عندنا في بطرسبورغ الكونت فينيكس الشهير، أو كما يسمونه – كاليوسترو. فقام عند الاميرة فولكونسكايا باعادة البريق الى اللؤلؤ الخابي؛ بينما زاد في بيت الجنرال بيبيكوف حجم ياقوتة حمراء في خاتم بمقدار احد عشر قيراطا، وعلاوة على هذا ازال فقاعة هواء من داخلها؛ واظهر الى لاعب القمار كوستيتش في قدح «البونش» تصنيفا معروفا للورق. فربح كوستيتش في اليوم التالي ما يربو على مائة الف؛ أما لدى الكامير فريلين* جولوفينا فقد اخرج من النوط شبح المرحوم زوجها، فتكلم معها وامسك بيدها، وبعد ذلك فقدت العجوز المسكينة عقلها تماما... باختصار لا يمكن تعداد المعجزات كلها... حتى ان الامبراطورة ابدت عطفها فدعته الى القصر. لكن حدثت عندئذ واقعة طريفة جدا: اذ ان الامير بوتيومكين تملكه الشغف العارم بزوجة الكونت فينيكس، وهي تشيكية، – وانا

* من القاب سيدات البلاط في روسيا القيصرية. **الناشر.**

نفسي لم ارها، ولكن يقولون بانها – فاتنة. وقدم بوتيومكين الى الكونت الكثير من المال والسجاجيد والاشياء؛ وعندما رأى بانه لا يمكن شراءه بالمال، عزم على اختطاف الحسناء من حفلة ساهرة يقيمها. لكن في اليوم نفسه اختفى الكونت فينيكس مع زوجته من بطرسبورغ الى جهة غير معروفة، ولايزال البوليس يبحث عنه حتى اليوم بلا جدوى...».

اصغى اليكسي اليكسيفيتش الى الرسالة بانتباه كبير واعاد قراءتها بنفسه. وعلت وجنتيه حمرة خفيفة.

وقال: – ان كل هذه المعجزة تجسيد لقوة سحرية غامضة. لو التقيت هذا الرجل... آه، لو التقيته فحسب... – وصار يذرع الغرفة مرددا عبارات التعجب، – لوجدت الكلمات للتوسل اليه.. ودعه يجري علي تجربته هذه... دعه يجسد خيالي كله... وليصبح حلمي حياة، ولتتبدد الحياة كالضباب. ولن آسف عليها.

تطلعت فيدوسيا ايفانوفنا الى ابن اخيها بعينين واسعتين ذاهلتين من الرعب. وفعلا، كان لديها ما تخافه: فقد ارتمى في المقعد واخذ يتطلع عبر النافذة بابتسامة عريضة الى فتاتين تقتربان حاملتين سلتين فيهما الفطر، دون ان يرى الفطر او الفتاتين، او الحقل الذي كان يلتف فيه عمود مرتفع من الغبار، في الحد الفاصل بين الغلال، ثم مضى بتثاقل وهو يدور ويروع الطيور على شجرة بتولا قائمة على جانب الطريق.

– ٤ –

استيقظ اليكسي اليكسيفيتش في الصباح وهو يعاني من وجع شديد في رأسه. وكان الجو قائظا بالرغم من الوقت المبكر. وكانت الاوراق تتدلى من الاشجار ساكتة – وجمد كل شيء، وانبعث من لون الخضرة بريق معدني، كما في الاكاليل التي توضع على القبور. كما التزم الدجاج الصمت؛ ورقدت على منحدر النهر بقرة حمراء ساكنة، كما لو كانت منتفخة، ودون ان تمضغ العلف. وهدأت حتى العصافير. وبدا لون السماء في الجهة الشمالية الشرقية، عند الافق، قاتما وباهتا وقاسيا.



جاء الى غرفة الطعام ناظر الضيعة للابلاغ عن شؤونها. فتركه اليكسي اليكسيفيتش يتحدث مع فيدوسيا ايفانوفنا، بينما توجه هو، متغضن الوجه بسبب الآلام في الصدغين، الى المكتبة وفتح كتابا، بيد انه سرعان ما اصابه الملل منه، وتناول الريشة الا انه لم يستطع كتابة اي شيء سوى تخطيط اسمه.

عندئذ اخذ يتطلع الى بورتريه براسكوفيا بافلوفنا، الا ان البورتريه، وكل شيء حواليه، بدا له قاسيا ونذيرا بالسوء. كانت تقف على وجهها ثلاث ذبابات. واحس اليكسي اليكسيفيتش بانه سينتحب اذا ما تواصلت هذه الحالة من الوضوح غير الاعتيادي وغلاظة كل ما يحيط به. وتألمت نفسه كربا وغما.

وفجأة صفق اطار نافذة في البيت، وتناثر الزجاج وترددت اصوات فزعة. اقترب اليكسي اليكسيفيتش من النافذة. كانت تزحف نحو الضيعة سحابة ضخمة وكثيفة، كالمساء في ليل اهيم، على ارتفاع منخفض فوق الحقول. وازرقت المياه في النهر، وصارت قاتمة. وطوى نبات اليراع وتكرمش وتساقط. واختطفت الدوامة الشديدة زغب الاوز على الضفة، واقتلعت عش الغربان من الصفصافة المجوفة، وبعثرت الاغصان، وطاردت في الباحة الدجاج الذي نشر ذيوله، وجعلت الحاجز الخشبي يتأرجح، ورفعت تنورة امرأة فوق رأسها واندفعت بكل قوة نحو البيت، واقتحمت النافذة، وولدت عويلا في المواسير. وظهر في السحابة ضوء وامتد بشكل جذور ملتوية تغشى الابصار من السماء الى الارض. انشقت السماء وفرقعت، ثم انهالت الصواعق. اهتز البيت. فاجاب نبض الساعة الموضوعة فوق الموقد برنين كئيب.

كان اليكسي اليكسيفيتش يقف عند النافذة. والرياح تطاير خصلات شعره الطويلة وترفرف الروب. هرعت العمة اليه فامسكته من يده وابعدته عن النافذة وصرخت بعبارة ما، الا ان ضربة الصاعقة الثانية والأشد هولا اخمدت كلماتها. بعد مرور دقيقة تساقطت قطرات المطر الثقيلة، وانهمر المطر بشكل حاجز رمادي، وكان يطرق على زجاج النافذة المسدودة ويلتصق به. وادلهم الظلام الشديد.

كانت العمة لاتزال تتنفس بصعوبة، وقد غمرها الفزع، وقالت:

- اليكسيس، انني اقول لك بانه جاء الينا ضيوف.
- ضيوف؟ ومن هم؟
- انا نفسي لا اعرف. لقد اصاب عربتهم عطب، وهم يخشون العاصفة الرعدية، ويرجون السماح لهم بالمبيت.
- ليسمح لهم، طبعا.
- بلى، انني اصدرت الأمر بذلك. انهم ينزعون ملابسهم المبللة. وانت، اذهب لارتداء ملابسك ايضاً.

تذكر اليكسي اليكسيفيتش الامر فجاة وتوجه من المكتبة الا انه اندفعت في الباب في تلك اللحظة فيمكا، الخادمة، وهي ذات تسريحة شعر بسيطة ورداء ريفي ملتصق بجسدها:
- اماه، سيدتي، الزائرون، واقسم لك، - ان احدهم اسود كالشيطان.

-٥-

استمر هطول المطر بقية النهار، ووجب ايقاد الشموع في وقت مبكر. وساد الصمت. وفتحت النوافذ والابواب المطلة على الحديقة، وكان يتساقط في العتمة هناك مطر خفيف ودافيء وعمودي، مولدا ضجيجا خافتا لدى تساقطه على الاوراق.

وقف اليكسي اليكسيفيتش عند الباب بقفطان حريري وجاكتة بدون اكمام لها لون القش ومطرزة بازهار زرقاء دقيقة، ومعه سيفه، وشعره مجعد وعليه المساحيق. وبدت بيضاء اللون الاعشاب المبللة في الروضة، في تلك الاماكن التي كان يسقط عليها النور. وفاحت رائحة الرطوبة والازهار.

نظر اليكسي اليكسيفيتش الى النوافذ المضاءة في الجناح الايمن للبيت، الذي يلتف بنصف دائرة وراء اشجار الزيزفون. وكانت تظهر هناك على الستائر البيضاء المسدلة اشباح. تارة لرجل ذي باروكة ضخمة وآخر رشيق لامراة، وتارة شبح طويل بعمامة
- هو الخادم.

كان هؤلاء هم الضيوف. لقد استبدلوا ملابسهم منذ وقت طويل، ونالوا قسطا من الراحة، والآن صاروا، كما يبدو، يستعدون للعشاء. وتابع اليكسي اليكسيفيتش حركة الظلال على الستارة



بنفاد صبر. كان يعتريه الدوار بتاثير روائح المطر الليلي والازهار وشمع الشموع المحترقة.

ظهر مجددا الشبح الطويل للخادم، وانحنى ثم انصرف، وسمعت في البيت خطوات منتظمة. وتراجع اليكسي اليكسيفيتش من الباب الى داخل الغرفة. ودخل رجل اسود تماما طويل القامة له عينان بلون بياض البيض. كان يرتدي قفطانا قرمزيا طويلة ويتمنطق بشال، بينما كان يلف رأسه بشال آخر. فانحنى باحترام، ولكن باعتزاز، و قال بفرنسية ركيكة:
- ان السيد يحييك، يامولاي، ويرجو الابلاغ بانه يقبل بارتياح بالغ الدعوة لتناول طعام العشاء معكم.

ابتسم اليكسي اليكسيفيتش وسال وهو يدنو بالقرب منه:
- قل لي، رجاء ماهو اسم ولقب سيدك؟

فاحنى الخادم رأسه وتنهد:
- لا اعلم.
- كيف، لا تعلم؟
- ان اسمه مجهول لدي.
- هيه، يارجل، ارى بانك - شاطر. وانت ما اسمك على اقل تقدير؟
- مارغادون.
- هل انت اثيوبي؟

واجاب مارغادون، بهدوء، وهو يتفحص اليكسي اليكسيفيتش من قمة رأسه الى اخمص قدميه:
- لقد ولدت في النوبة، وتم اسري في عهد امينحوزيريس * وباعوني الى سيدي.

فتراجع اليكسي اليكسيفيتش عنه ورفع حاجبيه:
- ماذا تحدثني؟.. كم عمرك؟
- اكثر من ثلاثة آلاف سنة.

وصرخ اليكسي اليكسيفيتش وقد احمر وجهه غضبا:
- ساقول لسيدك ان يجلدك بالسوط بشدة. اغرب عن وجهي!

انحنى مارغادون باحترام ايضا وانصرف. وطقطق اليكسي

اليكسيفيتش باصابعه، مسترجعا توازنه النفسي، ثم فكر واستغرق في الضحك.

وعندئذ فتح الصبي الخادم الباب على مصراعيه ودخل الغرفة سيد يتأبط ذراع سيدة، وبدات الانحناءات والمجاملات الشكلية.

كان السيد رجلا متوسط العمر وربعة. وكان وجهه الاحمر القرمزي ذو الانف المعقوف محاطا بالدنتلا. اما باروكته الضخمة التي تتدلى منها خصلات ملفوفة، والشبيهة بما كان يوضع على الراس في بداية القرن، فقد رشت بالبودرة كيفما اتفق. وكان قفطانه الحريري الازرق الصلب مزينا بوجوه حيوانات ويزهور مذهبة وفوقه ارتدى معطفا اخضر ببطانة من فرو الثعلب الازرق. اما الجوارب الزرقاء فموشاة بالخيوط الذهبية. وكانت قطع الماس تلمع فوق بكلتي حذائيه المخمليين. ويضع في كل اصبع من يديه القصيرتين المشعرتين خاتمين او ثلاثة خواتم مرصعة بالاحجار الكريمة.

فحيا بصوت اجش تشوبه بحة، ثم ابتعد خطوة عن السيدة، وقدمها الى اليكسي اليكسيفيتش.

– الكونتسة، – رب البيت. سيدي، – زوجتي.

بعد هذا انشغل بعلبة النشوق، فصار يشم و يعطس ويرفع راسه. اعرب اليكسي اليكسيفيتش الى الكونتسة عن اسفه بصدد الطقس السيء وعن ابتهاجه البالغ بالتعرف عليهما بصورة غير متوقعة، وقدم لها يده وقادها الى المائدة.

كانت الكونتسة تجيب باقتضاب وبدا عليها التعب والاسى، ومع هذا كانت باهرة الجمال. وكانت تسريحة شعرها ناعمة وبسيطة. وبدا وجهها، وكان أشبه به بوجه طفل منه الى وجه امرأة، شفافا، – اذ كانت بشرتها رقيقة وصافية، وانسدلت الاهداب بتواضع فوق العينين الزرقاوين، بينما كان ثغرها الجميل مفتوحا قليلا، – ولا بد انها كانت تستنشق بلذة الطراوة المنبعثة من الحديقة.

استقبلت فيدوسيا ايفانوفنا الضيوف عند المائدة بالمقبلات الباردة والساخنة. ولم تكن تجيد التحدث بالفرنسية، بينما لم يكن الضيوف يتحدثون الروسية على الاطلاق، لهذا وجب ان يلهيهم



اليكسي اليكسيفيتش وحده. وقد تبين بانهم يسافرون من بطرسبورغ الى وارشو وامضوا في الطريق فترة اسبوعين.

قال اليكسي اليكسيفيتش:

– ارجو المعذرة برحابة صدر، فانني لدى التعارف لم اسمع اسمك جيدا.

اجاب الضيف وهو يقضم ساق الدجاجة بنهم باسنان بيضاء قوية:

– الكونت فينيكس.

وضع اليكسي اليكسيفيتش بسرعة القدح المهتز بيده وشحب، وصار اشد بياضا من المنديل.

–٦–

سال اليكسي اليكسيفيتش: –اذن انت كاليوسترو الشهير، الذي تتحدث الدنيا عن معجزاته؟

رفع فينيكس حاجبيه الكثيفين اللذين وخطهما الشيب، وصب النبيذ في القدح وسكبه في حلقه، دون أن يبتلعه.

وقال بارتياح وهو يتمطق بشفتيه الغليظتين:

– نعم، انا كاليوسترو، والعالم كله يتحدث عن معجزاتي. بيد ان هذا يتأتى عن الجهل. فلا توجد معجزات. وثمة فقط معرفة مكونات الطبيعة، وبالذات: النار والماء والتراب والهواء؛ وحالات الطبيعة اي – الصلبة والسائلة والهشة والمتطايرة؛ وقوى الطبيعة: الجاذبية والتنافر والحركة والسكون؛ وعناصر الطبيعة وعددها ستة وثلاثين، واخيرا طاقات الطبيعة: الكهربائية والمغناطيسية والضوئية والشعورية. وجميعها تخضع لثلاثة مبادىء: المعرفة والمنطق والارادة، والتي تكمن هنا، – وضرب عندها جبهته، ثم وضع المنديل، وبعد ان اخرج خلالة ذهبية من جيب السترة العديمة الاكمام صار يحفر في اسنانه بهمة.

كان اليكسي اليكسيفيتش يتطلع اليه كالارنب. انتهى العشاء وانتقل الضيوف الى المكتبة حيث كانت قطع الاخشاب تتلظى في الموقد طاردة رطوبة المساء. اما فيدوسيا ايفانوفنا، التي لم تفهم كلمة من المحادثة، فقد بقيت في غرفة الطعام لاداء بعض الاعمال.

جلس كاليوسترو في مقعد من جلد السختيان وصار يتحدث، وهو يشم السعوط، عن الفائدة التي يجنيها الانسان من هضم الطعام بصورة جيدة. اما الكونتسة فقد جلست على مقعد صغير بالقرب من النار وصارت تتطلع الى اللهب، وهي غارقة في التفكير. وغاصت يداها، المتصالبتان على ركبتيها، في حرير فستانها الازرق.

– ان صديقي، الدكتور في الفلسفة، الذي توفي في نورنبرغ عام الف واربعمائة.... ياللذاكرة اللعينة، – واخذ كاليوسترو يغمغم ضاربا علبة النشوق باصابعه، – ان صديقي الدكتور بومباست تيوفراست باراتسيلزيوس قال لي اكثر من مرة: امضغ وامضغ وامضغ – هذه وصية الحكيم الاولى... امضغ...

استرق اليكسي اليكسيفيتش نظرة الى الكونت بذهول، ولكن فور ذلك و كما يحدث في الحلم، اجتمع الامر الغريب مع الواقع، واندمجا في تصوره، واصابه دوار خفيف، لكنه زال على الفور.

قال اليكسي اليكسيفيتش:

– انا أيضا سمعت، ياصاحب السعادة، بان الهضم الجيد يولد الافكار البهيجة، بينما يبعث السيىء على الكآبة وحتى يسبب انقباض النفس. بيد انه ثمة اسباب اخرى..

فقال كاليوسترو وهو يخفض حاجبيه:

– بلا شك...

– واجرؤ على ان اذكر ولو نفسي كمثال... لقد بدأ اضطراب المشاعر لدي بسبب لوحة البورتريه هذه...

ادار كاليوسترو راسه، وتطلع الى اللوحة ثم اغلق مقلتيه بالحاجبين مرة اخرى.

عند ذاك روى اليكسي اليكسيفيتش قصة لوحة البورتريه التي رسمت في فرنسا (علم ذلك من عمته)، وكيف وجدها في البيت القديم، وفي نهاية المطاف تحدث عن جميع احاسيسه ورغباته غير القابلة للتحقيق التي قادته الى انقباض النفس.

تطلع ابان الحديث مرات عديدة نحو الكونتسة. كانت تصغي بانتباه. وفي نهاية الامر نهض اليكسي اليكسيفيتش من المقعد واشار الى اللوحة وهتف:



– قلت هذا الصباح فحسب الى فيدوسيا ايفانوفنا: آه، لو التقيت الكونت فينيكس، لتوسلت اليه ان يجسد حلمي، وان يبعث الحياة في اللوحة، وليكن مايكون – حتى لو كلفني هذا حياتي...

عندما قال هذه الكلمات بدا الرعب في عيني الكونتسة الزرقاوين الصافيتين، وخفضت راسها بسرعة واخذت تتطلع الى النار مجددا.

قال كاليوسترو وهو يتثاءب ويغطي فمه بيده التي تلمع فيها الخواتم:

– ان تحقيق الافكار الحسية واحدة من اصعب واخطر المسائل في علمنا... وفي اثناء تجسيدها غالبا ما تنكشف العيوب المهلكة للفكرة الجاري تجسيدها، واحيانا عدم صلاحيتها للحياة تماما.. الا انه بودي الطلب من رب البيت السماح لنا بالانصراف الى النوم في وقت مبكر...

## -٧-

لم يغمض لاليكسي اليكسيفيتش جفن طوال الليل. وعند الفجر رمى على كتفيه الروب، ونزل الى النهر في الماء الذي لا يرى بسبب الضباب، وكان دافئا جدا، الا انه كان باردا في العمق. وبعد السباحة، ارتدى ملابسه وصفف شعره، واخذ يحتسي الحليب الساخن مع العسل وخرج الى الحديقة، – كانت افكاره مضطربة، ويسود راسه الانفعال.

كان الصباح رطبا وهادئا. وثمة شحارير تنط فوق العشب بهمة واطلق طائر الصفارية صفيرا يشبه صفير مزمار بالماء. وهدلت بعذوبة حمامة برية فوق البحيرة ذات النافورات القليلة المياه، وفي العتمة المائلة الى الازرقاق، وسط الاشجار العالية والكثيفة الاغصان.

كانت الطرقات رطبة ومغسولة، ولاحظ اليكسي اليكسيفيتش في احداها اثار اقدام نسائية. ومشى باتجاهها، فرأى الكونتسة في الفسحة حيث بدت في العتمة المائلة الى الازرقاق ملامح تعريشة

دائرية تحيطها اشجار الحور الاسود. كانت تقف على جسر صغير مسبلة اليدين، وتصغي الى وقوقة طير الوقواق.

وعندما اقترب اليكسي اليكسيفيتش منها، - احس باشتداد خفقات قلبه: اذ كانت الدموع تترقرق على وجه المراة الشابة، و كتفاها العاريتان ترتجفان. وفجاة صرخت بصوت خافت لدى سماع شخشخة خطوات اليكسي اليكسيفيتش، وهرولت وهي تمسك تنورتها الواسعة بيديها. بيد انها عندما بلغت البحيرة، توقفت والتفتت. كان وجهها مصطبغا بالحمرة، والدموع تنهمر من عينيها الزرقاوين الخائفتين. ومسحتها بالمنديل بسرعة وابتسمت باعتذار.

وهتف اليكسي اليكسيفيتش:

- لقد ارعبتك، ارجو مسامحتي.

-كلا، كلا، - اخفت المنديل في صدرها وانحنت بحركة مسرحية؛ وقبل اليكسي اليكسفيتش يدها باحترام. - الصباح رائع جدا، وما اشد عذوبة صياح الوقواق: لقد شعرت بالحزن، وانت لم ترعبني. - وسارت الى جانب اليكسي اليكسيفيتش على ضفاف البحيرة. - وانت الا تشعر احيانا بالحزن عندما ترى الطبيعة بمثل هذا الجمال؟ بالمناسبة - انني فكرت بحديثك يوم امس .ان يعيش شاب، لوحده، في مثل هذه البحبوحة.. ومعذلك لم،لم، لا تتوفر السعادة؟..

توقفت عن الكلام واخذت تتطلع في عينيه. واجابها اليكسي اليكسيفيتش باول مادار في خاطره - عن فظاظة الحياة واستحالة السعادة. وارتسمت على فمه عندئذ ابتسامة عريضة، وبقيت تلك الابتسامة على شفتيه.

بينما كانا يواصلان النزهة والحديث لم يكن يرى امامه سوى العينين الزرقاوين - فقد بدتا وكانهما مترعتان بسحر الصباح، بينما كان يتردد في اذنيه صوت المراة الشابة وصراخ الوقواق المستمر.

روت له الكونتسة انها ولدت في قرية بالقرب من براغ وانها يتيمة الابوين، واسمها اوغوستا، الا ان اسمها الحقيقي هو ماريا، وهي تجوب منذ ثلاثة اعوام في انحاء الدنيا بصحبة زوجها



ورات الكثير جدا - مما يكفي غيرها طوال الحياة - ،والآن في عتمة الفجر هذه مرق امامها ماضيها كله ، فبكت.

- لقد تزوجت وانا طفلة، ونضج قلبي خلال هذه السنوات، - قالت ذلك ونظرت بحنان والحاح الى اليكسي اليكسيفيتش. - انني لا اعرفك لكنني اؤمن لامر ما بانني اعرفك منذ زمن بعيد. انك لا تدينني على هذه الثرثرة؟..

وامسك بيدها، وانحنى، ولثمها عدة مرات، وعندما قبلها آخر مرة، انقلبت يدها وصارت راحتها على شفتيه، وضغطتها قليلا ثم ابتعدت.

قالت ماريا بصوت متهدجمن الاضطراب:

- هل يعقل بانك لم تستطع ايجاد زوجة ورفيقة، ولم تحب امراة، وآثرت عليها حلما ما خاليا من الروح؟ انك قليل التجربة وساذج... وانت لا تعرف مدى فظاعة حلمك...

دنت من مصطبة حجرية وجلست. واتخذ اليكسي اليكسيفيتش مكانه الى جانبها.

وسالها: - ولماذا هو فظيع: وما الاثم اذا ما كنت أحلم بما لا وجود له في الحياة؟

وكررت وقد اغرورقت عيناها بالدموع مجددا:

- لاسيما... في مثل هذا الصباح - لا يجوز الحلم بما لا يمكن ان يتحقق.

اقترب اليكسي اليكسيفيتش منها واخذ يدها:

- انني أشعر بانك تعيسة...

هزت راسها بعجلة وقد التزمت الصمت. كانت متاثرة ومنفعلة مثل فتاة صغيرة. وأحس اليكسي اليكسيفيتش كيف انها تصبو بكل جوارحها الى جذب افكاره ومشاعره نحوها. وغمر قلبه الدفء، واجتاحه شعور من الحنان نحو هذه المراة، كالرياح التي تميل الاعشاب والاوراق.

وسال بهمس: - من يرغمك على العذاب؟

فاجابت ماريا بعجلة،كما لو كانت تخشى ان تفقد لحظة من هذا الحديث:

- انا اخاف.. انا اكره زوجي... انه - وحش، لا يوجد مثله

نظير في العالم... انه يعذبني... آه، لو عرفت... لا يوجد لدي انسان قريب في الدنيا كلها... لقد ابتغى الكثيرون حبي، - والامر لدى سواء... ولكن لم يسأل اي واحد منهم بعطف فيما اذا كانت حياتي سعيدة... اننا ما كدنا نلتقي - وسنفترق، لكنني لن انسى الى الابد هذه اللحظة، وكيف سألتني. - وارتجفت شفتاها، ويبدو انها بذلت الكثير من الجهد، للتغلب على حيائها، وفجأة احمرت وجنتاها. - وحالما رأيتك حتى انبأني قلبي: ثقي به...

وهتف اليكسي اليكسيفيتش، وهو يضغط على مقبض سيفه:

- يا الهي.. لا يمكن الصبر على هذا... سأقتله!

في تلك اللحظة بالذات عطس احدهم بصوت عال وراء ظهر الجالسين. وصرخت ماريا بصوت ضعيف، كالطير. هب اليكسي اليكسيفيتش واقفا فرأى كاليوسترو بين جذوع اشجار الزيزفون. كان يرتدي المعطف الاخضر نفسه ويعتمر قبعة كبيرة ذات ريش نعام ابيض يتسدل على الكتفين والظهر. كان يمسك علبة النشوق بيده، وعبس بشكل رهيب، معتزما ان يعطس مرة اخرى. وبدا وجهه في ضوء النهار بنفسجي اللون، فقد كان معافى واسمر السحنة.

وقف اليكسي اليكسيفيتش، ويده على مقبض السيف، وهو يتطلع وجها الى وجه نحو ذلك الرجل العجيب. وعندئذ عدل كاليوستيرو عن العطاس، ومد بيده علبة النشوق وقال:

- تفضل.

رفع اليكسي اليكسيفيتش يده عن مقبض السيف بلا وعي، ولكنه امسك به فورا مجددا.

قال كاليوستيرو:

- مادمت لا تريد ان تشم، فلا حاجة لذلك. يا كونتسة، لقد بحثت عنك في كافة ارجاء الحديقة، ان حقيبتي جاهزة، ولكنني لم امس حاجياتك. - وخاطب اليكسي اليكسيفيتش قائلا: - اذن، سنسافر اذا ما تم اصلاح عربتنا.

ثنى كاليوستر و مرفقه وقدمه الى ماريا؛ فاخذت ذراع زوجها



طائعة، دون ان ترفع رأسها، وابتعدا في الطريق الممتد بين الاعشاب الكثيفة نحو البيت.

وغطى اليكسي اليكسيفيتش وجهه بيديه وجلس على المصطبة.

- ٨ -

جلس بلا حراك فترة طويلة من الزمن، دون ان يسمع تغريد الطيور، او طرطشة النافورات التي شغلها البستاني.

كان ينظر بين قدميه حيث كانت تزحف حشرات فالية صغيرة. انها تلك الحشرات الحمراء المسطحة التي نقش على ظهر كل واحدة منها مايشبه الوجه. كان بعضها يزحف متشابكا - وجها لوجه - بينما يدخل البعض الآخر في شق على الطريق المرصوص تارة، او يخرج من هناك دون ان تكون اية ضرورة ملموسة تارة اخرى.

كان اليكسي اليكسيفيتش يفكر بان فتنة صباح هذا اليوم قد حطمت حياته. انه لن يعود الى الاحلام العزيزة واليائسة عن الحب المثالي: ان عيني ماريا الزرقاوين قد تسللتا، مثل شعاعين ازرقين، الى داخل قلبه وايقظتاه. لكن ما له وهذا: ان ماريا راحلة، ولن يلقاها ابدا. وتحطم حلمه ويقظته، - واية سعادة اخرى ينتظر من الحياة؟

وفجأة تذكر كيف مد اليه كاليوستيرو علبة النشوق وابتسم بخبث، فجن جنونه. هب اليكسي اليكسيفيتش واقفا، ودون ان يدري بعد ما سيفعله، ولكنه سيفعل شيئا ما بحزم، امال القبعة فوق عينيه وخطا نحو البيت.

استقبلته عند الباب فيدوسيا ايفانوفنا فهتفت بانفعال:

- اليكسي، لقد جاء الحداد الآن، وقال ويا له من دجال انه لن يستطيع اصلاح عربة الكونت الا بعد يومين.

- ٩ -

ان النبأ حول بقاء الضيوف خلط جميع افكار اليكسي اليكسيفيتش و سرت القشعريرة في بدنه وبدأت يديه بالارتجاف. ودخل مع عمته الى البيت وجلس على الكنبة. وسألت فيدوسيا

ايفانوفنا، دون ان تعرف مجرى افكاره» فيما اذا كان ينبغي ارسال احد ما الى القرية المجاورة، في مثل هذه الحال، لدعوة حدادين؟

تصرخ: – كلا، البتة، ولا تجراي على طلب اي حدادين! –
وفجاة ابتسم بسخرية: – كلا، يافيدوسيا ايفانوفنا، ليبق الضيوف عندنا يومين... اما انت ياعمتي فيبدو انك لم تعرفي من هو ضيفنا.

– اسمه فينين او ما يشبه ذلك.

– المسالة انه ليس فينين بل الكونت فينيكس، – انه كاليوسترو بلحمه ودمه.

اتسعت حدقتا عيني فيدوسيا ايفانوفنا وصفقت بيديها المكتنزتين. الا ان فيدوسيا ايفانوفنا كانت امراة روسية، ولهذا فان خبر وجود الساحر الشهير في بيتهم، اذهلها من جانب آخر: وفجاة بصقت العمة.

قالت باشمئزاز:

– كافر، عدو المسيح، ليغفر لي الرب. ينبغي الآن غسل كافة الاواني بالماء المقدس، ودعوة الكاهن لرشه في الغرف مجددا... هذا ما كان ينقصنا... وهل هي ساحرة ايضا؟

– نعم، يا عمتي. ان الكونتسة – ساحرة.

– ولكن، الملاعين، ربما يتناولون طعاماً آخر.. آه، اليكسيس... فلربما لا ياكلون طعامنا، بينما لم تفطن انت الى هذا.. فاذهب واسأل – ماذا يرغبون في تناوله عن الفطور...

ضحك اليكسي اليكسيفيتش وتوجه الى المكتبة. وبعد ان دخن غليونه هناك صار يذرع الى الغرفة وبغتة ضغط باسنانه على الغليون بشدة مما ادى الى تهشم مبسم الكهرمان فيه.

«سادعو الكونت الى المبارزة واقتله ثم أهرب مع ماريا الى خارج البلاد، – دارت هذه الفكرة في ذهنه ورمى بالغليون على رف النافذة – لكن ما هي الذريعة للمبارزة؟ ايه، أليس الامر سيان...».

اخرج اليكسي اليكسيفيتش السيف من غمده وصار يتفحص حده، «لكن هل تمكن مبارزة ضيف؟». وعندئذ صدر عن الارضية الخشبية صرير في عمق الغرفة حيث يوجد عقد اسدلت عليه



ستارة بنفسجية، رفع اليكسي اليكسيفيتش راسه بسرعة، بيد انه نسي بسرعة امر الصرير، – اذ كانت الافكار تتطاير في راسه كالدوامة. «كلا، ينبغي انتظار رحيلهم، ومن ثم اللحاق بهم وراء النهر واستثارة الشجار هناك». توقف عند النافذة وهو يصغي الى دقات قلبه، وتابع بنظره الطريق كله الذي سلكه اليوم مع ماريا، من التعريشة، وبمحاذاة البحيرة وحتى المصطبة. وهمس: «اوه، ياحلوتي».

حان موعد الافطار. انتظر اليكسي اليكسيفيتش في غرفة الطعام قدوم الضيفين. وعندما تناهى الى سمعه صوت خطواتها، غمرت العتمة مقلتيه. دخلت ماريا مسدلة الرموش، وادت انحناءة طويلة للعمة وجلست الى المائدة. كان وجهها شاحبا وتغطيه المساحيق، كما لو ان لهيب روحها كله قد خمد. اما كاليوسترو فاسترق نظرة الى اليكسي اليكسيفيتش، وهو ينشر المنديل، وجلس طوال فترة الافطار – عابسا ماضغا الطعام بصوت مسموع لا يبعث على الارتياح. اما فيدوسيا ايفانوفنا فكانت توجه الاوامر الى فيمكا بهمس دون ان تأكل.

وعبثا حاول اليكسي اليكسيفيتش ان يثير بنظراته المحمومة حمرة الانفعال، ام ولو حركة ملحوظة على وجه ماريا: فقد بدت وكأنها قدت من الشمع، اما نظراته فكانت تلاقي النظرات الجوابية اليقظة والحازمة لزوجها. وغمر اليكسي اليكسيفيتش الياس بما يتصف به من فجاءة.

انتهى الافطار. وانصرفت ماريا الى الجناح دون ان ترفع بصرها. اما كاليوسترو فانه بعد ان سمح لاليكسي اليكسيفيتش بالمرور امامه اعرب عن رغبته بالتدخين في المكتبة.

استلقى في مقعد الامس، واطلق لفترة من الوقت أزيزا من غليونه، ثم نظر من تحت حاجبيه الكثين الى اليكسي اليكسيفيتش، القابع عند النافذة، وفجاة قال بصوت عال وبلهجة آمرة:

– لقد فكرت وقررت – سالبي مساء اليوم رغبتك: سأقوم بتجسيد لوحة السيدة تولوبوفا بصورة تامة وكاملة.

تطلع اليكسي اليكسيفيتش اليه بعجب ولعق شفتيه الجافتين.

نهض كاليوسترو من المقعد، ثم اخرج من جيبه عدسة ذات اطار فضي، واخذ يتفحص اللوحة، وهو يتمطق بلسانه ويطلق ازيزا.

بعد مرور ساعة بدأت الاستعدادات فنزع مارغادون اللوحة البورتريه من المسمار، ومسح عنها الغبار بعناية، ووضعها على مسند، وفرش امامها سجادة. وجمعت و نقلت من الغرفة كافة الاشياء الزائدة عن الحاجة، واسدلت الستائر على النوافذ. وصدر الامر الى اليكسي اليكسيفيتش بخلع ملابسه، والاستلقاء في السرير والبقاء مستلقيا حتى حلول الظلام، وعدم تناول طعام او شراب.

اطاع اليكسي اليكسيفيتش كل ما امربه. الا انه احس عندما كان مستلقيا في الفراش وكان راسه محاط بطوق من الرصاص. وفي الساعة الخامسة حمل كاليوسترو اليه قدحا فيه شراب بني داكن هونقيع الراوند ونبات البهشية، وشربه بالرغم من مذاقه الكريه. وفي الساعة السابعة افرغت معدته. وفي الثامنة توجه، بعد ان ارتدى رداء فضفاضا وخفيفا، سوية مع كاليوسترو الى المكتبة حيث كانت تنير الشموع في شمعدانات امام اللوحة مما جعلها تتالق.

— ١٠ —

— تنفس، ليس بقوة جداً ولا بضعف جدا. يجب ان يتم التنفس بدون تثاؤب ونشيج و سعال و لهث وعطاس، لان المادة المغناطيسية لا تطيق الهزات.

قال كاليوسترو هذا بينما اجلس اليكسي اليكسيفيتش في مقعد منخفض ومريح امام لوحة البورتريه. وكانت قطرات العرق تسيل على وجهه الاحمر ذي الحاجبين الخفاقين، و من تحت خصلات الباروكة المبرومة. كان يتحرك ولايكف عن الكلام، ويعطي الاوامر الى مارغادون بالاشارات.

اخرج الاثيوبي من علبة حزمة من الاعشاب الجافة، ووضعها في قدح نحاسي ووضعها امام اليكسي اليكسيفيتش على خوان واطىء ثم اخرج آلة موسيقية، تشبه ماندولينا ذات عرف طويل، من غلافها وحملها الى عمق الغرفة، وجلب شبكة كبيرة رفيعة، ويبدو انها متينة جدا ونشرها بين ذراعيه، وجلس بالقرب من الباب.



في ذلك الوقت رسم كاليوسترو بالطباشير دائرة واسعة حول المقعد الذي يجلس فيه اليكسي اليكسيفيتش.

قال: — اكرر، يجب ان تستجمع كل خيالك وان تتصور هذه السيدة، — واشار بالطباشير باتجاه اللوحة، — وان تكون بدون رداء.. اي عاريا... وستتوقف كل تفاصيل هيئتها على قوة خيالك.. واذكر انه طلب مني الدوق دي جين عام الف وخمسمائة وتسعة عشر، في باريس، باستحضار مدام دي سيفينياك التي توفيت بسبب داء في معدتها... ولم اجد الفرصة للتحذير. فقد كان الدوق عديم الصبر جدا، فبدت مدام دي سيفينياك تحت الفستان وكانها كيساً محشوا بالقش... وخسرت ثمانية آلاف ليفر*، و كلفتني جهداً كبيراً اعادة تلك الفزاعة الخلقة الى اللوحة من جديد. وهكذا بعد ان تتخيل بكل دقة، هيئة السيدة التي ترغب فيها، تخيلها فيما بعد بالملابس، لكن في هذه الحالة تجنب الانفعال، اذ انه، و كما حدث عام الف ومائتين و واحد وخمسين، عندما استحضرت، روح الملك الفرنسي لويس الاصلع، تلبية لطلب ارملة الراحل، ظهر مرتديا ملابسه في النصف الامامي من الجسم فقط، اما النصف الاسفل فكان عاريا مما اثار الدهشة... مارغادون، — صاح كاليوسترو وهو يعدل قامته ويلعق اصابعه الملوثة بالطباشير — اذهب وادع الكونتسة.

تراجع خطوتين، وقاس الدائرة بناظريه، ثم انحنى وصار يرسم على الخط الدائري بالطباشير اثنتي عشرة علامة لابراج السماء، واثنتين وعشرين علامة للقبالنية، ومفتاحاً وباباً، واربعة عناصر، وثلاثة اسس، وسبعة مجالات. وبعد الانتهاء من الرسم دخل الى الدائرة.

وقال بوقار:

— ستحصل على نموذج متكامل من فني، وستكون قدرتها على الكلام، وهضم الطعام وجميع اداء الاعضاء والحس كما هي لدى انسان ولدته امراة.

---

* وحدة نقدية فرنسية كانت تستعمل قبل صك الفرنك. **الناشر.**

انحنى على اليكسي اليكسيفيتش الذي كان ممددا كالجثة في المقعد، وتلمس نبضه، وامره باغلاق عينيه ووضع على جبهته يده المكتزة والساخنة. وفي تلك اللحظة تردد وقع اقدام خفيف وسمع حفيف ثوب. وأدرك اليكسي اليكسيفيتش بانه دخلت ماريا فصدر عنه انين، باذلا الجهد الاخير للتخلص من الارادة الرهيبة للانسان الذي كان يضغط باصابعه على عينيه بشكل مؤلم.

– لا تترك، ركز ذهنك، واطع اوامري.. انني ابدا – قال كاليوسترو بلهجة آمرة، وتناول من المنضدة خنجرا رفيعا طويلا، ودخل الى الدائرة ورسم علامة ماكروبوزوبوس كبيرة. وبعد ان انطوى على نفسه رفع يديه بحركة شديدة في الاكمام الواسعة لمعطف الفرو، وتجمد وجهه ذو التجاعيد العميقة والانف المتدلي.

ترددت وراء ظهر اليكسي اليكسيفيتش رنات الاوتار الناعمة.

– انني معتكف. وتحميني بقوة كافة العلامات. أنا قوي. انني آمر، – وصار كاليوسترو يرتل الكلمات، وهو يشدد من صوته ببطء، ورويداً فرويدا. – يا ارواح الهواء، يا السلفيات، انني أدعوك باسم ما لا يمكن التعبير عنه الذي يلفظ مثل كلمة ايشا.. افعلي فعلتك...

تطلع اليكسي اليكسيفيتش الى الوجه المتكبر لبراسكوفيا بافلوفنا الذي تنيره الشموع، والملتفت باعتزاز فوق الجيد العالي. وخلال لحظة بدت امامه كل كآبة احلام الماضي، وكل ضنى الليالي المؤرقة، وتراءى له وجهها الذي كان حتى وقت قريب عزيزا اليه، قظيعا مؤلما وشاحبا محموما كالسقم. بيد انه نقل بصره، شاعرا بوجوب الانصياع بالرغم من كل شيء الىالاسفل، الى كتفي براسكوفيا بافلوفنا العاريين، واجهد نفسه، فاخذ يتصورها كما طلب منه. تدفق الدم الى وجهه. ومزقه الخجل والم حاد في صدره.

عندما جرى تلفظ كلمة ايشا، اهتز نور الشموع، وهبت في الغرفة ريح عفنة. وضغط اليكسي اليكسيفيتش باصابعه على مسندي المقعد. وتابع كاليو سترو قائلا وهو يشدد صوته :

– يا ارواح الارض، ايتها الجنوموسات، انني أدعوك باسم ما لا يمكن التعبير عنه الذي يلفظ مثل المقطع «إل» افعلي فعلتك.



رفع الخنجر ثم انزله، فاهتز البيت كله كما لو كان بفعل زلزال، ورنت الثريا البلورية، واصطفقت الابواب في البيت، وسقط كتاب على الارض من خزانة الكتب التي فتحت بابها. ومضى كاليوسترو يقول:

– يا ارواح الماء، ايتها الحواري، انني ادعوك باسم ما لا يمكن التعبير عنه، الذي يلفظ مثل صوت «ر»... تعالي، وافعلي فعلتك...

عند هذه الكلمات سمع اليكسي اليكسيفيتش ضجيجا بعيداً كما لوكانت مياه الرواه تجتاح الرمال، ودون ان يبعد بصره عن براسكوفيا بافلوفنا، لاحظ بهول كيف اخذت جميع ملامح وجهها تغدو متمايلة و منفلتة...

ثم صاح كاليوسترو بصوت كالرعد:

– يا ارواح النار، ايتها السمادر، الجبارة والمستبدة، انني ادعوك باسم ما لا يمكن التعبير عنه، الذي يلفظ كالحرف «ايود». يا ارواح النار، ايتها السمادر، انني ادعوك واتوسل اليك باسم علامة سليمان للامتثال وفعل فعلتك... – ورفع كلتا يديه ووقف على اطراف اصابع قدميه بتوتر شديد للغاية. – افعلي فعلتك طبقا للقوانين السليقة، دون التراجع عن الشكل، ودون استهزاء او الخروج عن طاعتي...

في اعقاب هذه الكلمات التهم اللوحة كلها في الاطار المحفور لهب متراقص بلا صوت، وساطع، الى درجة ان ضوء الشموع صار احمر، وفجاة بدات تنبعث اشعاعات تبهر الابصار من هيئة براسكوفيا بافلوفنا كلها. وانشدت ماريا وراء ظهر اليكسي اليكسيفيتش، بصوت مرتعش ضعيف، وليس باللغة الروسية.

ولكنها لم تلحق في انهاء الاغنية، – اذ صرخ اليكسي اليكسيفيتش بصورة مرعبة: كان رأس براسكوفيا بافلوفنا قدانفصل عن اللوحة، متحررا منها، بينما تجسمت شفتاها.

قالت بصوت رفيع وبارد وشرير:

– هات يدك.

سمع وسط السكون المخيم كيف اصطدمت الماندولينا

بالارض، وكيف تنهدت ماريا، وكيف تنفس كاليوسترو بصعوبة.
وكرر راس براسكوفيا بافلوفنا:
– هات، انني اتحرر.
وهتف كاليوسترو: – مديدك اليها، اعطها يدك!
اقترب اليكسي اليكسيفيتش من اللوحة كالحالم. وامتدت منها بسرعة ذراع براسكوفيا بافلوفنا الصغيرة العارية حتى المرفق، وضغطت على يده اصابع جافة باردة. وترنح، اما هي فقد انفصلت عن اللوحة عندما سحبها وقفزت الى السجاد.
كانت امراة نحيفة متوسطة القامة، جميلة جداً وذات دلال، وحركات مترنحة وغير مستقيمة نوعا، مثل تحليق الوطواط. ودنت من المرآة وقالت، وهي تتململ وتسوي شعرها:
– انني اعجب... هل كنت نائمة؟.. مالون الوجه هذا... والفستان مكرمش كله.. والموضة غريبة – انه ضيق في الصدر... آه، ثمة شيء لا اتذكره... نسيت... ومست عينيها باصابعها. – نسيت، نسيت كل شيء...
استدارت وهي تمسك التنورة الواسعة باطراف اصابعها، ومشت، وابصرت بعينيها القاتمتين المعتمتين اليكسي اليكسيفيتش. فابتسمت ببطء، كاشفة عن اسنانها الحادة الدقيقة حتى اللثتين، وتابطت ذراعه.
وقالت: – انك تتطلع الي بشكل غريب، انا خائفة.–وقهقهت بدلال و قادته الى باب الشرفة. – ينبغي ان نتحدث بصراحة.

– ١١ –

عندما خرجا وضع كاليوسترو يده تحت معطف الفرو على الخصر واستغرق في الضحك.
وقال وهو يهتز بكامل جسده:
– لقد حصلنا على كادافر* طيبة، – ومن ثم استدار على كعبي حذائيه واخذ يتطلع الى ماريا بدون ضحك. – انت تبكين؟ –ومسحت هذه دموعها على عجل، ونهضت من كرسيها العديم

* جثة (بالفرنسية). **الناشر.**



المسند ووقفت امام زوجها مطرقة الراس. – هل انت لم تقتنعي هذه المرة ايضاً بمدى عظمة سلطة زوجك على الطبيعة الميتة والحية، اليس كذلك؟ – نظرت ماريا، دون ان ترفع راسها، وبحقد دفين، الى زوجها، وكان وجهها مشوها بما عانته من رعب واشمئزاز. – وفتاك الجميل آثر السلوان مع كادافر كريهة، وليس معك.. !
اجابت ماريا بهدوء وبصلابة: – ستجيب في يوم الحساب عما تقوم به من اعمال السحر.
عندئذ احمر وجه كاليوسترو، واخرج يديه من تحت معطف الفرو واخفى مقلتيه تماما تحت الحاجبين. بيد ان ماريا وقفت امامه بلا حراك، فقال باستعطاف بالغ:
– انني، ياسيدة، انتظر منذ ثلاثة اعوام حبك بنفاد صبر، دون اللجوء الى اي فن. اما انت فتتطلعين كالذئب نحو الغابة في كل ساعة. لن يكون حسناً اذا ما عيل صبري.
اجابته ماريا بعجلة:
– ليس لك مع هذا سلطة على حبي، ولن ترغمني على حبك.
– كلا، سارغمك! – وضحكت ماريا بسخرية جواباً عن ذلك، فاحتقنت عيناه دماً على الفور. – سأضعك يا سيدة، في قارورة صغيرة واحملك في جيبي.
و كررت قائلة: – الأمر سواء ليس لديك سلطة علىالحب. وما دمت على قيد الحياة فساهب نفسي الى شخص آخر، وليس لك.
– هذه المرة ستصمتين، – دمدم كاليوسترو بهذه الكلمات وهو يلتقط الخنجر الصغير من الطاولة. الا ان مارغادون الذي كان يقف حتى هذا الحين وراء ظهره، اندفع نحوه وامسك به من يده بخفة. فزمجر كاليوسترو وضرب مارغادون على وجهه بيده اليسرى – وعبس العبد – ورمى بالخنجر جانباً، ونفث اللهواء بصوت مسموع وغادر الغرفة.

– ١٢ –

كان اليكسي اليكسيفيتش يمشي في الدرب مع الشبيهة بالمراة، والتي كان يدعوها براسكوفيا بافلوفنا، عبر الفسحة نحو

البرك. كان الجو رطباً. وطلع القمر فوق الحديقة. وكان ضوءه الفضي ينير الفسحة الواسعة كلها. ولمعت هنا وهناك شباك حاكتها العناكب في العشب الشديد الزرقة. وبدت الزهور كبقع بيضاء وتألقت قطرات الطل الغزيرة. وتصاعد البخار بعيداً فوق البرك بهالة فضية.

كان اليكسي اليكسيفيتش يمشي صامتاً، وقد زم شفتيه ومتطلعا نحو قدميه. بينما واصلت براسكوفيا بافلوفنا الحديث بلا انقطاع وهي تنظر الى كرة القمر المضيئة المعلقة فوق الاشجار الكثيفة:

— آه، القمر، القمر! اليكسيس، انك لا تتحسس هذه المفاتن.

انهال صوتها البارد بكلمات، كقطع الزجاج، وكان ينطلق الصفير من ثوبها الحريري طوال الوقت بشكل لا يطاق. وجعلت هذه الكلمات الزجاجية وصفير الحرير اليكسي اليكسيفيتش يضغط على فكيه. كان قلبه يرقد في صدره مثل كتلة ثقيلة من الجليد. ولم يعجب لأنه تسير معه يدا بيد من كانت قبل ساعة مجرد خيال. اما المخلوقة المتغنجة ذات الفستان العريض والضيق في الصدر، والشاحبة في نور القمر، وذات الظلال الكبيرة في وقبي عينيها، فتراءت له بلا جسد، مثل حلمه السابق. وكان عبثا يكرر بعناد: «تمتع، تمتع بها، تحسس بها...» فلم يستطع التغلب على الاشمئزاز في دخيلة نفسه.

عندما وصلا الى البركة، والى المصطبة، حيث تحدث مع ماريا في الصباح، اقترح اليكسي اليكسيفيتش على براسكوفيا بافلوفنا الجلوس. فجلست فورا بعد ان نشرت فستانها.

وهمست، وهي تبتسم بملء ثغرها الى كرة القمر:

— اليكسيس، اليكسيس، انت تجلس مع سيدة خاليا من الاحساس. لا بد وان تعرف بأن الجسارة تجلب المتعة الى المرأة.

أجاب اليكسي اليكسيفيتش عبر أسنانه:

— لو علمت كم حلمت بك، لما صرت توجهين مثل هذا العتاب.

فضحكت كما لو تناثر زجاج:

— عتاب؟ عتاب.. لكنك تضغط طوال الوقت على يدي، وتفعل هذا بوهن. ماذا لو عانقتني..



رفع اليكسي اليكسيفيتش رأسه، وحدق فيها، فارتعش فؤاده. واحتضن براسكوفيا بافلوفنا بيده اليمنى، بينما امسك يديها باليسرى. كان صدرها المكشوف بقدر كبير، وقد برز عظما الترقوة فيه، يتنفس بهدوء. وتقرب من وجهها محاولا التقاط مفاتنها.

قال بكآبة: — يا حلمي.. — فابتعدت عنه قليلا ضاحكة، وهزت رأسها وتطلعت الى عينيه مقلتان شفافتان تلمعان كنقطتين في ضوء القمر، — ... انني معك كما في الحلم يا براسكوفيا، — انحني لأرتوي، بينما الماء يبتعد.

قالت: — عانقني، بقوة.

عند ذاك شدها اليها بكل قوته وقبل الشفتين الباردتين، بينما أجابته على القبلة بشهوة غير متوقعة وبعجلة، فاستلقى الى الوراء، على التو: اذ اختنق بشعور من التقزز والاشمئزاز والرعب.

تحدثت بعد برهة من الصمت، وهي تتمطى بتلذذ:

— اشعر بالرطوبة، واريد تناول الطعام.

وآنذاك نهض بسرعة وخطا نحو البيت، وفور ذلك سمع وراءه حفيف الفستان، فاسرع الخطى، وحتى صار يعدو، بيد ان براسكوفيا بافلوفنا لحقت به فورا وتعلقت بذراعه.

— اليكسيس، انك ذو طبع صعب جداً.

وصرخ فيها وهو يتوقف:

— اسمعي، أليس خيراً لنا ان نفترق!..

— كلا، ليس خيراً أبداً، — وانحنت وصارت تتطلع في وجهه، — اناسعيدة معك.

— لكنني اشعر بالاشمئزاز منك، فافهمي ذلك! — وسحب يده ومضى عدواً، بينما لم تترك هي ذراعه، وانطلقت وراءه في الدرب الضيق.

— لا أصدق، لا اصدق، فانت نفسك قلت بانني حلمك...

— مع هذا دعيني وشأني!

— كلا، يا صديقي، لن ادعك حتى الموت...

وانطلقا الى داخل البيت متشابكي اليدين. ورمى اليكسي

اليكسيفيتش بنفسه في المقعد، ومثلت امامه على الفور، ملوحة بالمروحة اليدوية، وتطلعت بمرح.

– يجب يا عزيزي عمل الكثير والكثير معك من أجل كبح طبعك... انك تحب ذاتك. – ووضعت المروحة وجلست فوق مسند مقعد اليكسي اليكسيفيتش. – يا صديقي، لي رغبة شديدة ما اما في الاكل واماني الشرب... ويبدو لي ان الماء يجري في جسدي...

هب اليكسي اليكسيفيتش من مقعده، فدنا من الباب، وجذب الشرابة الكبيرة المزينة بالخرز للجرس.

– سيجلبون اليك الطعام والشراب وكل ما تريدين، – قاطماني.

رن الجرس في مكان بعيد داخل البيت، وسمعت الخطوات الخفيفة لفيدوسيا ايفانوفنا.

– ١٣ –

قال اليكسي اليكسيفيتش لعمته، وهو يخفي بجسده الباب نصف المفتوح، ان تأمر بجلب شيء من الطعام الى المكتبة. فنظرت اليه فيدوسيا ايفانوفنا بامعان وبغرابة، وابعدته عن الباب بصمت، ودخلت الغرفة فشاهدت على التو امراة نحيفة – كما روت هذا فيما بعد – سوداء الشعر، وهي حتى ليست بامراة، بل عثة ميتة، تقف، وتهز المروحة و تتطلع بنظرات ثاقبة.

فغرت العمة فاها فورا و «صوت ساقطة على قدميها».

وقالت لها تلك بصوت يوصوص:

– فيدوسي، الم تعرفيني، يا عزيزتي؟

فتهاوت العمة بشدة اكثر، وارتكزت بقدميها وتطلعت الى الاطار الفارغ للوحة. وعندما دنت براسكوفيا بافلوفنا منها خطوة، رفعت العمة بيدها ورسمت علامة الصليب...

قال اليكسي اليكسيفيتش متكدرا:

– هيا، لماذا تخافين يافيدوسيا ايفانوفنا، ان هذا الأمر



بمنتهى البساطة، فهذه السيدة ثمرة سحر الكونت فينيكس؛ فاذهبي واعطي الأمر بشأن الطعام.

و اقترب من الباب المؤدي الى الحديقة، متغضن الوجه كما لو اصابته حرقة في معدته، واستند على عتبة الباب العليا وصار يتطلع الى الفسحة التي يغمرها ضوء القمر. ثم سمع كيف تلت العمة الصلوات، واندفعت من مكانها وهرولت بمشية كمشية البط من الغرفة، و كيف قهقهت براسكوفيا بافلوفنا بشراسة في اعقابها، وكيف بدأت في البيت الجلبة الخائفة وتردد الهمس. لكنه لم يلتفت وتطلع بعذاب كئيب الى النوافذ المضيئة في جناح البيت.

وتردد في الغرفة رنين الاواني – انها فيمكا تعد المائدة، وتضع الاوعية والاطباق، وقد اخفت راسها ما بين كتفيها وهي تسترق النظر برعب من وراء كتفها طوال الوقت.

جلست براسكوفيا بافلوفنا الى المائدة وخاطبت فيمكا:

– ياعبدة، ماذا في الوعاء؟

– فطر، يا سيدتي.

– ضعيه .

وضعت فيمكا لها الفطر في الطبق ووقفت وراء الكرسي، وقد غطت فمها بالمريلة. تناولت براسكوفيا بافلوفنا الطبق وامرت بان تقدم لها الشعرية. وقالت وهي تاخذ الطبق:

– انك تخدمين بصورة سيئة. وبالرغم من انك ريفية، يجب ان تخدمي باناقة.

– سأعمل جهدي ياسيدتي.

– يجب ان تؤدي التحية بالانحناء، عندما تتحدثين مع سيدتك:

– وبحلقت براسكوفيا بافلوفنا فيها بعينيها السوداوين وفجأة ضربت المائدة بالملعقة. – ياعبدة، انحني!.. لتلتف القدم اليمنى... ولا تجعلي ثقل جسمك على الجانبين، على الظهر... وامسكي الرداء... ابتسمي... لتكن الابتسامة معسولة اكثر..

تطلع اليكسي اليكسيفيتش الى المشهد كله باشمئزاز. وفي نهاية الأمر قال:

– دعي الفتاة وشأنها، فيمكا، انصرفي.

فنظرت اليه براسكوفيا بافلوفنا بتعجب، وما برحت الملعقة بيدها، وهزت كتفها:

– اليكسيس، يا صديقي، انني السيدة هنا وليس أنت. سآمر بجلد هذه الفتاة بالسوط، لكي تفقه عملها بجلاء اكثر...

تدفق دم الغضب المحموم الى عيني اليكسي اليكسيفيتش، ولكنه تمالك نفسه وخرج الى الحديقة.

– ١٤ –

دس اليكسي اليكسيفيتش يده في جيبي السترة العديمة الاكمام، ومضى ماشيا في الفسحة – وتبللت جواربه حتى الركبتين بقطرات الطل، وولدت في راسه افكار محمومة. هل اهرب؟ هل اغرق؟ هل أقتلها؟ هل أقتل الكونت؟ هل انتحر؟ لكن هذه الافكار تبددت بعد اندلاعها، – واحس، بانه هالك؛ فقد تعلقت به المخلوقة اللعينة كالعنكبوت، و من يدري اية سلطة رهيبة اخرى لديها؟

ودمدم قائلا:

– انا جلبت المصيبة لنفسي، وبعثت من العدم الحلم، ونتاج و ثمرة الليالي المسهدة... ان السحر الفاجر صنع جسدها. فالخيال المحموم لا يبتدع مثل هذه البشاعة.

توقف اليكسي اليكسيفيتش ومسح العرق البارد عن جبينه... «ماذا لو كان هذا مجرد حلم؟ سأقرص نفسي واستيقظ في فراش نظيف في صباح يوم رائق... وسأرى روضة واوزات وفتاة بسيطة مع مجرفة...»

هز راسه بكآبة، ورفع ناظريه. كان القمر يطل عاليا فوق الحديقة، وثمة سحب رمادية قاتمة تستر نوره، وسمع من النهر النقيق الرتيب للضفادع...

في تلك اللحظة مزق السكون في الحديقة صوت براسكوفيا بافلوفنا الحاد والرفيع و كانت تدعوه: «اليكسيس!»، ولم يجب بل دبدب بقدميه فحسب: وما كان بوسعه ان يستجيب للدعوة، بينما كان الهرب امرا مشينا. ورأى ثلاثة اشباح تقترب منه:





مارغادون وكاليوسترو وبراسكوفيا بافلوفنا. وكانت اول من اقترب منه وصرخت بحنق:

– انا اعرف كل شيء، ياعزيزي! كنت اظن ان المظهر الحائر والكلمات الجسورة نتيجة نزوات الهوى. بينما تبين انك تفكر في واحدة اخرى. اتسمع انني لن اطيق وجود اخرى بالقرب مني.

وقال كاليوسترو وهو يقترب منه:

– آي... آي... آي! لقد بذلت غاية جهدي بينما انت، يا سيد، تشيح بوجهك عنها.

وزعقت براسكوفيا بافلوفنا:

– انت عاشق متقلب، سآمر بوضعك مقيدا في السرداب.

فاجاب كاليوسترو:

– كلا، يا سيدتي، لا نفع من سجنه، اما انت أيها السيد فلا تعاند، ويجب ان تذهب الى البيت، – فالسيدة تريد ان تنام، وانه لشيء مؤسف ان ترقد وحيدة في الفراش.

غلبت على اليكسي اليكسيفيتش مجددا مشاعر الانقياد الماضية فزفر ومضى نحو البيت بخطوات وئيدة، بصحبة براسكوفيا بافلوفنا التي كانت تجره. لكنه التفت عند بلوغ الباب فراى في نافذة الجناح ظل امراة على الستارة. فاندفع وصرخ: «ماريا»، الا ان مارغادون امسكه من الخلف ودفعه الى الغرفة واغلق الباب الزجاجي.

وقد صرخ اليكسي اليكسيفيتش لانه، و كما لو زالت الغشاوة عن عينيه، اين يكمن الخلاص. وعندما اختلى مع براسكوفيا بافلوفنا، اشعل غليونه وجلس على سلم الكتب وتظاهر بالاصغاء، وهددت براسكوفيا بافلوفنا بانها ستجعله يموت في الحبس، و صرخت بان البيت كله ضدها وانها ستطرد غدا العجوز فيدوسيا ايفانوفنا، وستجز شعر فيمكا، وستجلد كافة خدم الضيعة، وستفرض انظمتها...

انتظر اليكسي اليكسيفيتش حتى تتعب من الصراخ، لكن حدة غيظها لم تخف. كان يسمعها ولا يسمعها، وكان قلبه يدق بشدة: وقرر أن يعمل. ونظف الغليون من الرماد ثم نهض، وتمطط.

قال وهو يتثاءب:
– هذه كلها من الامور التافهة، هيا بنا ننام.
فقطعت براسكوفيا بافلوفنا فورا سيل الكلام وضحكت بشفتيها الجافتين بدهشة وابتهاج. وامسك اليكسي اليكسيفيتش الشمعدان المضاء من الطاولة وسحب الستار في العقد، مفسحا الطريق لبراسكوفيا بافلوفنا لكي تمر امامه. وعندما مرت، قرب الشموع المضاءة من الستار، فالتهمت النيران قطيفته الحمراء في لحظة خاطفة.
– حريق! – صرخ اليكسي اليكسيفيتش بصوت عال: وهو يرمي الشمعدان، وهرول في الممر الطويل المؤدي بالتواء الى الجناح حيث يعيش الضيوف.
توقف مرة واحدة فقط والتفت فرأى براسكوفيا بافلوفنا صارخة وهي تنزع الستار المحترق بذراعيها النحيفتين. وعندما سمع اليكسي اليكسيفيتش بعيدا في الممرات اصوات ودبدبة اقدام قفز الى النافذة والتصق في تجويفها العميق.

– ١٥ –

هرول بمحاذاته مارغادون واطراف جبته ترفرف وكاليوسترو بطاقية النوم وبرداء طويل زاهي الالوان وبدون سراويل، وهما يصرخان بفزع. فاختفيا وراء المنعطف الذي كان الدخان يتدفق منه. عندئذ اندفع اليكسى اليكسيفيتش نحو الجناح الذي يقود اليه باب واحد من جانب الممر، بينما كان الباب الآخر يؤدي الى الحديقة مباشرة. وهناك رأى ماريا واقفة عند العتبة. كانت ملتفة بشال ابيض القته فوق الرداء، وتضع قلنسوة خفيفة على راسها. فتح اليكسي اليكسيفيتش النافذة، وخرج من الممر الى الحديقة ودنا من المرأة الشابة.
قال وقد شبك ذراعين على صدره:
– ماريا، قولي كلمة واحدة.. انتظري.. لئن – كلا، لقد هلكت... لئن نعم، انا حي، حي الى الابد.. قولي لي – هل تحبينني؟
فاطلقت صرخة قصيرة خافتة، ورفعت يديها، واحاطت بهما



عنق اليكسي اليكسيفيتش وقالت، مطرقة الراس والدموع تنهمر من مآقيها، متطلعة الى عينيه عبر الدموع، بانفعال:
– احبك.
عندما قالت هذه الكلمة تاب الى شعوره: فانتعش قلبه، وسرت في عروقه بصخب موجات الدم الساخنة، وتنفس بابتهاج هواء الليل واريج جسد ماريا الغض، وأمسك وجهها الباكي براحتيه وقبلها في عينيها:
– ماريا، اذهبي في هذا الرواق حتى البركة، وانتظريني هناك في العريشة. ولا تنسي – عندما تعبرين الجسر الصغير اسحبي السلسلة، وعندئذ سيرتفع.. وستكونين هناك بامان.
هزت ماريا راسها اشارة الى انها فهمت كل شيء، ورفعت اطراف ردائها، ومضت مسرعة في الاتجاه المذكور، ثم التفتت، وضحكت بسرور واختفت في ظلال الرواق المعتمة.
عندئذ استل اليكسي اليكسيفيتش سيفه من غمده واندفع الى داخل البيت عبر باب الشرفة.
فاسقط فيمكا ارضا وابعد فيدوسيا ايفانوفنا التي تشبثت بيده ودفع جانبا الخدم الفزعين، واندفع الى داخل المكتبة. كانت الغرفة ممتلئة بالدخان. اما الشموع الخمسة للشمعدان الثاني فكانت تضيء بلهيب احمر داخن الكتب المبعثرة على الارض كلها والتي سقطت من خزانة كتب منهارة، ومارغادون الذي كان يدوس بقدميه السجاد المحترق، وكاليوسترو الذي كان جالسا القرفصاء عند المقعد، بينما كانت في المقعد مخلوقة ملتوية الشكل ذات ضلوع قاتمة، بالكاد تسترها اسمال فستانها المحترق. وعندما رات اليكسي اليكسيفيتش انطلق منها صوت كالفحيح، وغادرت المقعد واندفعت نحوه. لكنه صرخ وشهر سيفه امامه، فتراجعت عن حده بعويل، ينم عن الياس والحنق، وانطلقت في عمق الغرفة واختفت وراء خزانات الكتب.
في تلك اللحظة اعطى كاليوسترو الذي كان يتخفى وراء الكرسي، اشارة الى مارغادون. وكف الاثيوبي عن دوس السجاد، وسحب سكينا من حزامه واخذ يقترب من اليكسي اليكسيفيتش. لكنه اندفع نفسه الى الامام، متفاديا الهجمة، مادا يده فانغرس

نصل سيفه الى النصف في كتف مارغادون، وصرخ الاثيوبي، وهوى على ظهره، وهو يبتلع الهواء، عند ذاك رمى كاليوسترو الكرسي باتجاه اليكسي اليكسيفيتش، واخذ يختفي وراء الحاجيات ويرميها، ودار في ارجاء الغرفة بخفة غير عادية بالنسبة الى سنه وضخامة جثته. وطارده اليكسي اليكسيفيتش محاولا طعنه بسيفه. لكن كاليوسترو استطاع الافلات الى الممر، ومنه قفز عبر اول نافذة مفتوحة الى الحديقة رافعا قدميه العاريتين، وهرب باتجاه البركة.

لم يلحق به اليكسي اليكسيفيتش الا عند الجسر المؤدي الى العريشة حيث بدا فستان ماريا الأبيض بين الاعمدة. وزمجر كاليوسترو واندفع عبر الجسر دون أن يرى بان قسمه الاوسط مرفوع – ولوح بذراعيه وسقط في الماء بطرطشة، و كانه كيس. واطلقت ماريا صرخة خافتة. وتراقص نور القمر فوق سطح البركة، وحلق طائر فزع على ارتفاع منخفض فوق الاعشاب، مطلقا صفيرا طويلا. وساد الهدوء المكان مجددا: ولم يتردد اي صوت في البر كة، ولا في الاحرج الكثيفة المظلمة.

مشى اليكسي اليكسيفيتش على الجسر، متفحصا، وانحنى من طرف قسمه المرفوع. وفجاة شاهد عند الركيزة في الماء عينين – تومضان ببطء، وميز الوجه البارز، والجمجمة الكثيفة الشعر، والاذنين المنتصبتين لكاليوسترو.

وخاطبه اليكسي اليكسيفيتش قائلا:

– انك لن تستطيع الصعود الى الاعلى بالرغم من كل شيء، فالركيزة ملساء زلقة، وانا احذرك: حالما تبدأ فقط بممارسة الاعيبك ساطعنك – انت نذل. وزفر بشدة من انفه – الافضل أن تبقى ساكنا، والآن سيخرجوك. – ووضع كفيه عند فمه وصاح: – هيه، يا رجال، تعالوا الى هنا. وسرعان ما سمعت اصوات افراد من بعيد، وصار يعدو في البداية الصبيان واهل الضيعة والفتيات، ومنهم من كان يحمل المذراة اوالمنجل او مجرد هراوة – وكانوا جميعاً بين النوم واليقظة وبهيئة شعثاء.

امر اليكسي اليكسيفيتش بجلب حبل، وبربط كاليوسترو واخراجه من الماء. نزع ثلاثة رجال طويلي القامة سراويلهم



ونزلوا الى الماء بعد رسم شارة الصليب، وبدات جلبة تحت الجسر بين الركائز.

وصاحوا من هناك:

– اليكسي اليكسيفيتش، انه – عليه اللعنة – يخدش باظافره.

بينما صاح آخرون من الجسر:

– امسكه من خديه، واخرجه من الماء.

واخيراً شدوا وثاق كاليوسترو وسحبوه الى الضفة. لم يعد يبدي مقاومة، ومشى نحو البيت وقد التصق قميصه بجسده وطأطأ راسه واصطكت أسنانه من البرد، وسط حشد اهل الضيعة.

حينما بقى اليكسي اليكسيفيتش لوحده اخذ يدعو ماريا، في البداية بصوت خفيض، ومن ثم بصوت أعلى، و ينم عن فزع اكثر. فلم تجب. ودار حول البركة واستقل قارباً عتيقاً، وانتقل الى الجزيرة الصغيرة، دافعاً الزورق بعود. كانت ماريا ترقد على الارضية الخشبية في العريشة. فامسك اليكسي اليكسيفيتش بها، وانهضها، وامال اليه راسها المتدلي بعجز، وقبل وجهها، وكاد ينتحب اشفاقا عليها وولها بها. في نهاية المطاف شعر بان جسدها اصبح اخف، وارتفع صدرها ثم انخفض واستلقى راسها ذو الشعر الاشقر على كتفه بشكل مريح اكثر. وقالت ماريا بصوت لا يكاد يسمع دون ان تفتح عينيها:

– لا تتركني.

## – ١٦ –

لقد تسنى اخماد الحريق. ولم تحترق سوى غرفة المكتبة – وتلف بالماء والنار عدد كبير من الكتب والاشياء فيها، – واحترق كليا قماش لوحة براسكوفيا بافلوفنا.

وعندالفجر جاءت عربة الى الجناح ووضعت فيها فوق حشائش جافة طرية امتعة الضيوف واجلس مارغادون وكان عليلا جدا: بدا رماديا، بلون التراب، وتدلى فمه ولف راسه بمنديلين دافئين. وكان الواقفون عند شرفة الجناح وحول العربة يشفقون على

الشيخ – فهو على اية حال انسان غير طليق الارادة، وخادم، وينالهُ الاذى لا لجريرته. واعطته راعية الماشية بيضة مشوية للطريق. ولكن عندما اقتيد كاليوسترو الذي كان لا يزال مشدود الوثاق، ووضعت على رأسه الباروكة كيفما اتفق والقبعة ذات الريش الاشعث، والقي فوق رداء النوم عليه معطف فرو الثعلب، اخذ الصبيان يصفرون والنساء يبصقن، اما الفلاح سبيريدون، الضعيف البصر، فكان بدون قبعة وبدون حزام ويمشي حافي القدمين، وامضى الليل كله اكثر من الآخرين في خدمة رب الضيعة، فـقـد هجم على كالـيوسـترو ولـوح بيده لكي يـلطمه على اذنه، لكنهم ابعدوه. جلس كاليوسترو في العربة بنفسه، وكان متجهما مقطب الحاجبين. وقفز الى المقود بمرح فتى عريض الوجه، ذاع صيته في القرية لقوته وشدة بأسه وامسك العنان المصنوع من الحبال، ومدت فرس رمادية اللون عنقها النير، فتحركت العربة وسط صفير اهل الضيعة وسخريتهم.

صاح اليكسي اليكسيفيتش من الشرفة:

– فيدكا، خذهما الى سمولينسك وهناك سلمهما الى عمدة المدينة.

فاجابه فيدكا من بعيد:

– لتطمئن، يا اليكسي اليكسيفيتش، سننقلهما على ما يرام، فليس هذه اول مرة.

## – ١٧ –

بعد ان اغمى على ماريا في العريشة ماكادت لتستطيع المشي حتى البيت. وقد ارقدت في غرفة النوم المخصصة لكبار الضيوف في الجناح. وانزلت فوق الفراش المظلة حتى النصف، بينما اسدلت الستائر على النوافذ، وغطت ماريا في نوم عميق. نامت هكذا حتى منتصف النهار. وسمعتها فيدوسيا ايفانوفنا، التي كانت غالبا ما تقترب من الابواب، تدمدم، وعندما دخلت الى الغرفة رأت ماريا راقدة بعينين مسبلتين، واصطبغ وجهها بحمرة قانية، وهي تتحدث مع نفسها بصوت خافت، دون ان تكف عن ذلك. لقد اصابتها الحمى، وبقيت بين الحياة والموت فترة تربو على الشهر.



اوشك ان يجن جنون اليكسي اليكسيفيتش قلقا وفي اليوم ذاته توجه بنفسه الى سمولينسك لدعوة الطبيب. وفي طريق العودة علم من الطبيب بانه اقتيد الى عمدة سمولينسك اجنبيان في عربة فاعتقلهما العمدة في البداية، وفيما بعد ارسلهما مشيعين بالاحترام الكبير الى طريق وارشو. وبعد ان فحص الطبيب ماريا قال ثمة احتمالين اما ان تنتصر الحمى، واما ان ينتصر الانسان.

وعندئذ صار اليكسي اليكسيفيتش يمضي ايامه باكملها عند فراش ماريا، وينام في مقعد بجوار النافذة، وعزف عن الطعام تقريباً، وتغير، واصابه الهزال – وصار وجهه ينم عن الرجولة، واصبحت عيناه سقيمتين؛ وبرزت خصلة بيضاء في شعره الكستنائي.

حدث مرة في احدى الامسيات، ان كان جالساً في الكرسي بين الغفوة والصحوة. وكانت الشمس تمد اشعتها الطويلة مع ذرات الغبار المتراقصة عبر الستائر البرتقالية، بينما كانت ذبابة تضرب الزجاج شبه نائمة؛ وكان اليكسي اليكسيفيتش ينظر بجفنين ثقيلين الى ذرات الغبار في الشعاع والى الذبابة. اما ساعة الموقد فكانت تدق بهدوء مبينة فترات دقائق الحياة. وفي سياق الغفوة اخذ اليكسي اليكسيفيتش يتحسس حدوث تغير ما في كل شيء، فاستدار والتفت الى الفراش ورأى عيني ماريا الزرقاوين مفتوحتين. كانت تتطلع اليه مقطبة الوجه بشكل مضحك من الدهشة ومحاولة تذكر امر ما. وركع عند فراشها وقالت ماريا:

– قل لي، رجاء، اين انا، ومن انت؟ – لكن اليكسي اليكسيفيتش الذي كان عاجزا عن الحديث بسبب الانفعال اخذ يدها بحذر وقربها من شفتيه. – وتابعت ماريا قائلة: – انني تطلعت اليك فترة طويلة وانت تغفو، – ان وجهك حزين جدا كوجه انسان قريب، – وقطبت جبينها مرة اخرى، لكنها عدلت عن التذكر مجددا وقالت: – سيكون حسنا جدا لو فتحت النافذة...

ازاح اليكسي اليكسيفيتش الستائر، وفتح النوافذ، فجاء، مع الهواء الدافيء والفواح، الصخب البهيج لتغريد الطيور

وانشادها. تورد خدا ماريا. واصغت مبتسمة، ومن بعيد وقوق ثلاث مرات وقواق متخلف أحمق. فاغرورقت عينا ماريا بالدموع وانحنى اليكسي اليكسيفيتش نحوها فهمست قائلة:

– شكراً لك على كل شيء...

وسرعان ما استغرقت في نوم عميق ولفترة طويلة. وبدات تتعافى، ومنذ ذلك اليوم لم يعد اليكسي اليكسيفيتش يمضي لياليه في غرفة نومها.

مع استرجاع ماريا لعافيتها حل ما كانت فيدوسيا ايفانوفنا وحدها تدركه: اذ لم يكن اليكسي اليكسيفيتش وماريا يطيقان البقاء لحظة واحدة بعيدا عن احدهما الآخر، وعندما كانا يلتقيان تجدهما يلتزمان الصمت: ماريا تستغرق في التامل، واليكسي اليكسيفيتش يتجهم، ويعض شفتيه، ويقف او يجلس في اوضاع غير مريحة تماما بالنسبة الى الانسان.

وعندما تحدثت معه العمة مرة قائلة:

– ماذا تعتزم، يا اليكسيس، مع ذلك، واغفر لي قلة تواضعي، عمله بشأن ماشينكا؟ هل ستبعث بها الى زوجها ام ماذا؟

اعتمله الغضب:

– ان ماريا ليست زوجة لزوجها. وبيتها هنا. واذا كانت لا ترغب برؤيتي، فبوسعي الرحيل، وساذهب الى الجيش، واترك صدري للرصاص.

كان يقضي الليالي بصورة سيئة: اذ كانت تعذبه الكوابيس وتضغط على صدره وتضيق الخناق على رقبته. وكان يستيقظ صباحا محطما ويجول حتى موعد ايقاظ ماريا في ارجاء البيت كئيباً وشرسا، ولكن حالما يسمع صوتها تغمره الطمانينة، ويذهب اليها ويتطلع اليها بعينيه الجافتين الغائرتين.

حل شهر آب. ولاحت فوق الحديقة، متالقة في البرك، نجوم لا تعد ولا تحصى، وبدا «درب التبان» ابيض كنور السحب. وفاحت من الحديقة روائح الاوراق الندية. وغادرت الطيور المكان.

في احدى تلك الليالي كان اليكسي اليكسيفيتش وماريا يجلسان في غرفة نومها عند الموقد، حيث كانت قطعة خشب تواصل



احتراقها باعثة الانوار من طرف الى طرف. وفجاة تحرك ظل ما في شبه العتمة، في اعماق الغرفة، ومن وراء الستار. تطلع اليكسي اليكسيفيتش اليه وقد جفل. ورفعت ماريا رأسها أيضا. واختفى الظل شيئا فشيئا. مضت لحظة سكون. واندفعت ماريا نحو اليكسي اليكسيفيتش واحتضنته والتصقت به وهي تكرر بصوت متأثر:

– لن اسلمك.. لن اسلمك...

في تلك اللحظة تطاير مثل تطاير الدخان في الرياح كل ما كان يفصل ما بينهما، وكل ماهو مصطنع ومعقد . وبقيت فقط الشفتان الملتصقتان بالشفتين، والعينان المحدقتان في العينين: لربما هي سريعة الزوال، ولربما حزينة هي، – فمن قاسها؟ – سعادة الحب الحي.

سنة ١٩٢١

ترجمة عبدالله حبه

# السيدة الحسناء

سلم الى نيكيتا اليكسيفيتش اوبزوف المظروف الحاوي على وثائق عسكرية سرية بالغة الاهمية، وقد جرى تسليم الوثائق وارسال اوبزوف سراً.

لقد ابهجته المهمة – القيام برحلة طويلة وخطرة الى الخارج. فان الملابس المدنية وجواز السفر الاخضر، وبثلاث لغات، والحقيبة التي طقطق قفلها بخفة لدى الانتهاء من جمع متاع السفر –كانت جميعا بشائر قدوم أيام رائعة (وهي تحل كما هو واضح عندما يحمل المرء بيده الحزام والحقيبة).

جاء اوبزوف الى محطة القطار في وقت مبكر من الصباح، وشرب قدح قهوة واتخذ مكانه في مقصورة الدرجة الاولى، دون الاستعانة بحمال.

كان المظروف في الحقيبة بادئ الأمر، ومن ثم، عندما تحرك القطار، نقل اوبزوف الكيس المصنوع من القنب الى الجيب الداخلي لسترته، وثبته بدبوس و استلقى بانشراح على الكنبة المخملية. وكانت الى جانبه كتب سفر ومجلات. وصار يقلب صفحاتها، ويدخن وهو يطلع من النافذة، وحسب الايام التي ستمر فيها امام ناظريه عدة بلدان وآلاف الناس.

انطلق الاكسبريس بمحاذاة البيوت الريفية وغابات اشجار



الصنوبر والشوح ومستنقعات فنلندا المغشاة بالطحالب التي مابرحت تغطيها بقايا الثلج. وكان الخادم يظهر في العربة في ساعات محددة داعيا المسافرين الى تناول الطعام. بينما كان المسافرون يمشون بتثاقل، وهم يستندون الى الجدران المهتزة، نحو المطعم. اما الرياح الشديدة فتدوم الغبار الثلجي فوق منصات العربات. واتخذ نيكيتا اليكسيفيتش مكانه وراء طاولة في ركن عربة المطعم، واخذ يتطلع حواليه.

ثمة عائلة من الانجليز البسطاء مع ثلاث صبايا شقراوات وحاضنة يابانية – والعائلة تسافر من فلاديفوستوك للاسبوع الثالث... وثمة اربعة فرنسيين بلحى سوداء وقصيري القامة وبوجوه قرمزية، طلبوا قنينة نبيذ احمر وصاروا يتمطقون، وهم يتذوقونه. وهناك أيضاً سويدي حليق ضخم الجثة – مدير مصنع، وفنلنديون افاضل من هلسنجفورس، و تاجر موسكوفي عريض الوجه يسافرا الى هاباراند في طلب السلع وقد تزيا بهيئة اوربية مما ينتقص بجلاء من عزة نفسه، وفتى عبوس عريض المنكبين يعتمر طاقية محبوكة من الصوف كتلك التي يرتديها المتزلجون على الثلج، وثمة عدة اشخاص آخرين غامضين لا اهمية لهم. كما كانت هناك نساء، طبعا، بيد ان نيكيتا اليكسيفيتش لم يحاول التطلع اليهن، حيث لم يجد مسوغات تبرر ذلك بالنسبة لغير الجميلات، اما الجميلات فكان يخشاهن.

كانت حساباته مع النساء صعبة. وفي سنوات الشباب كان يحلم من بعيد بمحظية شهيرة اسمها ماشا خليبنيكوفا، وهي امراة لطيفة ورائعة، ولم يرغب في الاقتراب منها، بالرغم من انه كانت هناك فرص مناسبة لذلك، وتحمل سخرية رفاقه طلاب الكلية الحربية، وانعكس هذا الشعور المزدوج على حياته كلها. وكان يشمئز من اولئك «الخبراء»، الذين يقنعون بالقليل، ويجدون في كل امراة شيئاً واحداً، وهو فقط ما يرتاحون اليه ويحتاجونه.

منذ قليل بينما كان اوبزوف في المحطة، يمضي بعجلة حاملا حقيبته باتجاه عربته، لاحظ سيدة فارعة القوام ترتدي معطفا من القطيفة. وكانت قبعتها الصغيرة ذات الجناحين الاسودين تميل

جانبا. وبدت السيدة غاضبة، وعليها دلائل الارق، وكانت تتشاجر مع الكمساري.

وفي الطريق التقى معها مرة اخرى في العربة المجاورة، ومن ثم على منصة العربة، حيث كانت تصارع الريح، وهي تمسك بقبعتها ومعطفها، واخيرا رآها عند النافذة بالقرب من مقصورته كانت السيدة تقف وكتفها يمس الاطار الصقيل للنافذة، وهي تتطلع الى الحقول الثلجية والاشجار والأعمدة والبيوت التي تنزلق امام ناظريها. وبدا حزينا وجهها النحيف، المتطلع نحو السهول الكئيبة، وجيدها نحيفا ورقيقا. بينما كان بياض الدانتلا يلمع في طيات بلوزتها الحريرية المحبوكة.

كان اوبوزوف يرى، من مكان جلوسه في ركن المقصورة، قذالها وشعرها الأشقر الكثيف المرفوع، وظهرها، الذي يهتز بسبب رجات القطار، والتنورة الجوخ الرشيقة، التي تمس الحذائين الصقيلين المربوطين بالاشرطة عاليا. وعندئذ بدت له، في نهاية المطاف، ضرورة ان يعرف الى اين ولأي سبب تسافر في مثل هذه الفترة المضطربة، وثاب نيكيتا اليكسيفيتش الى نفسه ، فاخرج مجلداً ما من روايات المغامرات من تحته ، وغاص في المطالعة.

تسلل الى باب المقصورة هواء منعش، وبغتة استنشق عبير رائحة عطرة، فيها مرارة وعذوبة. ورأى أوبوزوف طيات التنورة الزرقاء، المتارجحة تحت ضغط الساقين. أعاد قراءة الصفحة. ووقفت السيدة عندئذ أمام النافذة مباشرة، وظهرها الى الباب.

وآنذاك استدار نحو الغبار الثلجي وراء النافذة، وفكر في دخيلته ، ضاحكا، – ها انت قد جبنت، بالرغم من أعوامك الثلاثة والثلاثين ورباطة الجاش... لقد كان في تلك المراة الجميلة شيء نفاذ ويبعث على الأشفاق والتأثر... من هي؟ هل هي مجرد باحثة عن المغامرات؟ كلا، لا اظنها كذلك.. ام انها مثل طائر حملته عاصفة الحرب الرهيبة، فانطلق والشيطان وحده يعلم الى اين...؟ على اية حال، لابد من استيضاح هذا كله... وعندما تطلع الى الطرقة لم تكن السيدة موجودة عند النافذة. ولم تظهر في وقت الافطار.



كان نيكيتا اليكسيفيتش يشعر الآن بالاطمئنان والفرح، حيث يجلس وراء الطاولة في ركن عربة المطعم بانتظار ان يجلب له وجبة الطعام النادل ذو بزة الفراك الزرقاء، والياقة القوتابرشا المنشاة. ليس هناك من سعادة اكبر من الاسترخاء فوق الطنافس الوثيرة في العربة بعد العمل المجهد، والتطلع باستجمام وبلا مشاغل الى البشر، والى همومهم الصغيرة، والى البلدان المنطلقة وراء النافذة. وبدا كل شيء غير حقيقي نوعاً ما. والآن تذكر نيكيتا اليكسيفيتش لسبب ما وبصورة حادة جداً حقلا معزوقا و متجمداً، تعصف فيه الرياح الباردة، وظهور الجنود المحدودبة وراء النتوءات في الارض، بينما كانت الرمال وذرات الجليد تحرق العيون؛ وثمة طلقات منفردة، وبطالة، وضجر، وانتظار حلول الليل، وارتال لا نهاية لها من السحب الثقيلة كالجبال. انه السبات الفظيع قبل الموت. وبدا الانسان مسحوقا بالمذلة الاخيرة، ومدقعا و متجمداً، كالأرض.

انتفض اوبوزوف ورفع عينيه بسرعة – كانت تقف بمحاذاة الطاولة السيدة الحسناء وسألت للمرة الثالثة، مبتسمة، فيما اذا كان بوسعها الجلوس في المقعد المقابل.

هب اوبوزوف من مكانه وقدم لها المقعد، وارتبك لعجالته ، ثم جلس مرة اخرى، وفي نهاية الأمر وبعد أن تذكر قراره منذ لحظة، تطلع في عينيها مباشرة. فاجابته بنظرة من عينين رماديتين قاتمتين تنمان عن الكآبة تقريباً. وأصابه الدوار للحظة، كما لو اختفت العربة هذه كلها، حيث كانت توروور الاصوات، والفرنسيون يتمطقون أمام قنينة النبيذ، والسويدي ينفث دخان سيجارة.

وضعت السيدة قفازيها على الطاولة قرب النافذة المغطاة بالثلج وفتحت الحقيبة الصغيرة وتطلعت الى نفسها في المرآة – بلا فضول لكن باهتمام – وأمررت خنصرها فوق الشفتين واطراف المنخرين الدقيقين، ثم نقرت القفل وقالت:

– تناولت السمك، أليس فيه خطر؟

كان صوتها خفيضاً، وصارماً تقريباً. فاجابها نيكيتا اليكسيفيتش عن طيب خاطر:

– السمك ممتاز، بكلاه.

وقرب الطبق منها فشكرته . وصار يفكر، ماذا يمكنه ان يقول عن البكلا. غير هذا: انها اسماك كبيرة الحجم تعوم نحو الشمال في المياه الدافئة للجولفستريم، وتلتف حول شمال النرويج وتنمو بسرعة ويبلغ حجمها بمنطقة مورمان قدراً هائلا...

قطعت عليه السيدة حبل افكاره:

– انني روسية اللقب والمولد، لكنني اهرب من روسيا، هروبي من الطاعون، – وتطلعت اليه بعينين رماديتين صافيتين حزينتين، – انني اكره روسيا.

قال نيكيتا اليكسيفيتش ضاحكا:

– وما السبب؟

ثم انحنى وذكر اسمه .

اردفت السيدة قائلة:

– اسمي اودميلا ستيبانوفنا يافجينسكايا. انت تسألني عن سبب هروبي. – وقعست راسها الى الوراء، وحدقت في محدثها كما لو كانت تريد اعطاء تقديرها فيما اذا كان يستحق صراحتها –. انني اكره روسيا، حقا، حقا، حقا، – ضحكت وهي تمسك بقطعة الخبز دون ان تبلغ فمها.

ان نظرتها المتألمة، وبداية الحديث الغريبة، ومن ثم الضحكة، الذكية وغير المرحة، بدت وكأنها حددت ما تتصف به روحها من تعقيد. وقد ادرك اوبوزوف ذلك الصورة بالذات والتزم جانب الحذر.

قالت السيدة:

– لقد وجهت اهانة الى احاسيسي الجمالية، لئن كنت احب الجمال والشعر واللوحات والمرمر والموسيقى، فانني اريد قبل كل شيء التمتع بمرأى البشر. ويثير انزعاجي التفكير بانه يسير في مكان ما من الارض وفي هذه اللحظة اناس رائعون. بينما اجد نفسي بموسكو مرغمة على أن ارى يوميا كائنا اخرق، ضعيفا، بلحية صفراء، ونظارات، واقراص مسهلة في جيب صدريته . كائنا عديم الاخلاق، وبملابس داخلية وسخة وصوت يزعق، وقد تصيبه



الهستيريا في اية لحظة. فهل يمكن العيش في مثل هذه البلاد؟ كلا، انني راحلة الى امريكا.

– كما لوكنت ستجدين هناك بشرا!

– ساجد بشراً ظريفين وشجعا، من الطراز الاول – وليس، طبعا، كاولئك في روسيا.

– لدينا اناس شجعان ايضا.

– آه، كفى، ان كل شيء عندنا حقير، كما في غرفة الخدم. والمرء مظهره كالسيد، ولكن بشكل اسوا، بربطة عنق قرمزية مبتذلة، وسحنة غليظة، ولكن صريحين: ان بلادي وبلادك – مزحة سخيفة، وصدفة...

ضبط نيكيتا اليكسيفيتش نفسه، وتدفقت الحمرة وعلت وجهه كله ثم اصابه الشحوب واطرق بناظريه، وقال:

– ارجو المعذرة، ان هذا الحديث لا يطيب لي، – والتفتت اليه السيدة بدهشة، بينما اضاف قائلا: – لقد شاركت في الحرب ورايت رجالا شجعانا. ان ما تحدثت عنه هو ليس روسيا. على اية حال ان القلائل يعرفون روسيا. وما اريد قوله هو ان حقدك في غير محله .

اشعل سيجارة. انتهى الغداء، بينما كانت ريش المرواح تطرد دخان التبغ فوق الرؤوس. وكان يسمع احياناً وراء الستائر المسدلة في عتمة الليل الصفير المديد والكئيب للقطار.

لاحظ نيكيتا اليكسيفيتش بان السيدة تبدو وكأنها متوعكة. كانت تجلس واضعة ساقا على ساق، وهي تنفض رماد السيجارة المصرية، وتتطلع الى الفتى العابس ذي طاقية المتزلجين على الثلج، والى الفنلنديين، والى التاجر المنزعج مرة اخرى لسبب ما – بينما ارتفع طرفا شفتيها بضحكة استهزاء.

وسرعان ما انتقلا الى العربة ووقفا صامتين في الممر، بعيدين عن بعضهما البعض بمسافة اكبر كثيرا مما قبل حديثهما الاول.

ادركت لودميلا ستيبانوفنا بغريزتها ذلك كما وادركت لا مبالاة محدثها. كان يقف وقد وضع كالعسكريين ابهامه وراء زر الصدرية، وهو يتطلع الى تجعدات ورق الجدران المضغوط. وجهد فمه مرات عديدة في حبس التثاؤب. وجلبت المراة –

الكمساري البدينة و الانيقة الهندام قناني الصودا ووضعت واحدة امام كل مقصورة. وفي نهاية الممر فتح الباب الخارجي، وتولدت سحابة باردة، وتراءى للحظة وجه الفتى الذي لفحته الريح وذي طاقية المتزلجين. والقت لودميلا ستيبانوفنا نظرة على ساعة يدها، ووضعت قدمها على شبكة المدفاة التي تطقطق، وقالت بصوت عال مصحوبا بتنهدة:

– اود ان تسامحني: انت من لم يسمح بشتم روسيا امامي. وانا نفسي كنت لاقف اي انسان عند حده. بيد اننا بلغنا غاية التهتك. وفجاة بعثت كلماتك الحادة الدفء في نفسي.

فاجابها نيكيتا اليكسيفيتش بلطف:

– وانت ايضا سامحيني على حدتي. هل حقا انك راحلة الى امريكا؟

– لقد وقعت عقدا لتقديم ثلاثين حفلة موسيقية.

– آه، هذا شيء آخر، كنت اعتقد...

وسالته السيدة بمزيد من العجلة:

– ماذا كنت تعتقد؟

– لقد ظننت... انك لمجرد الترفيه عن النفس..

قالت بعد فترة من الصمت واطرقت ببصرها.

– انني.. انسان وحيد. انني احس بالكآبة لدى البقاء في مكان واحد فترة طويلة. ان هذا صعب جدا بالنسبة الى امراة في الثلاثين، بلا عائلة وارتباطات.. وهزت كتفيها. – ما اشد البرد، انني لا انام جيداً في الطريق. وانت اثرت قلقي، دون ان اعرف باي شيء، انني سافكر الليل كله... – وارتسمت على ثغرها ابتسامة حزينة. – اتريد ان تفعل عملا طيبا؟ هبني عدة ساعات كتضحية، هيا بنا.

فتحت المقصورة حيث كانت تفوح رائحة عطر نفاذة، ويعلق معطف فرو، بينما توجد في الشبكة حقيبة صغيرة – هذا كل متاعها – واجلست نيكيتا اليكسيفيتش على الكنبة المخملية، وجلست نفسها على طاولة صغيرة عند النافذة، وامسكت بركبتها المرفوعة النحيفة وقالت:

– بوسعك ان تدخن وتغفو..



لقد احسنت القول. وبعد هذا لزما الصمت فترة طويلة نوعا ما. كانت تصدر طقطقة عن المدفاة. اما العجلات فكانت تواصل الطرق: «طريق بعيد، طريق بعيد». صار نيكيتا اليكسيفيتش يتابع خيط الدخان الازرق، ومن ثم الساق النسائية، النحيفة عند الرسغ، والممتدة داخل جورب اسود، وهي تتارجح بالقرب منه تماما.

قال:

– اننا نحن الاثنين عازبين، وقد التقينا، وبعد مرور يوم سنفترق عن احدنا الآخر، الى حيث تحملنا الريح. وهل يمكن ان يوجد شيء اقرب وامس حاجة من الانسان الى الآخر؟ حقا، ان اكثر ما يحزن في هذه الدنيا هو – اللقاء القصير ابان السفر.

نظر الى لودميلا ستيبانوفنا. كانت تصغي اليه بانتباه و بقلق وقد مدت راسها نحوه. وتغضن جبينها الذي اختفى نصفه وراء خصلة شعرها.

وتحدثت ببطء، فقالت:

– ثمة لحظات لا ينساها المرء طوال حياته.

– لا اعرف، لم اشهد مثلها. ولكن الخيالات التافهة لايام الفتوة لا تنسى، وانت على حق.

– كلا، كلا، انها لحظات الجنون، والهيام التي تنطلق كالدوامة..

عندئذ قطب نيكيتا اليكسيفيتش حاجبيه: «آه، ما لها بهذه السرعة، وحتى اسرع مما يجب...». فاطرق ببصره وشعر بكل كيانه بتيقظ مشوب بالعداء. وانزلقت السيدة من الطاولة الصغيرة، لم يكن يرى ما تفعل، وسمع بضع تنهدات فقط، وضغط على شفتيه بقوة. بات واضحاً ان الحديث قد خرج عن مساره السلس، واندفعت احاسيسها نحو المخرج الاقرب، والابسط والاقصر، الذي يكمن وراءه الخواء واللامبالاة والاسف والضنى. وعندما اشعل عود ثقاب القى نظرة فراى لودميلا ستيبانوفنا تقف عند الجدار وقد شبكت يديها وراء ظهرها.

قال:

– انك شديد الخوف.

– بلى، انت على حق.

– لقد شحبت لدى سماع حفيف تنورة. مسكين.
– ماذا بوسعي القول، لولا اعجابي بك، لكان كل شيء اكثر يسرا...
– هل اعجبك؟ غريب. لقد بدا لي انك تعتبرني مجرد امراة لجوجة وجبنت، – واطرقت حاجبيها على عينيها الغاضبتين ودقت بكعب حذائها، – اؤكد لك، بانك على خطا.
فضحك نيكيتا اليكسيفيتش وقال:
– هيا، حسنا. أتوسل اليك جداً، ان تغفري لي جداً.
– لأي شيء؟ أظن ان سلوكك كان متواضعاً للغاية.
كان منخراها الدقيقان قد اتسعا، وكعب حذائها يدق، وظل اهدابها المسبلة يتراقص على خديها. وفكر في دخيلة نفسه: «جواد حرون»، – وبغتة غمرته دفعة دافئة من الحنان. ومد يده. فهزت رأسها غاضبة.
وقال باخلاص:
– ان سر المسالة يكمن في انني كنت اخاف النساء دائما. لقد لدغت مرة في أيام الشباب.. ان اغراءاتكن، أيتها النساء، تجذب وترهب... (وضحكت باختصار). لودميلا ستيبانوفنا، انت تذكرين: «نجمة العشق الباهرة...» لقد كنت احلم بهذه النجمة الباهرة، على ما اتذكر، في ذلك الحقل المتجمد، ووسط برك الدماء.. كان لي صديق مغرم باحدى الفتيات اشد الغرام... كان يقول: «لا يمكن قتلي – فجرب ان تطلق النار على السماء المرصعة بالنجوم! وهكذا الحال معي..» وطبعا، قتلوه، في نهاية المطاف، لكن التطلع بهذا الشكل – حتى السماء – شيء حسن... وانا اخشى دائما – التبديل: فبدلا من النجمة الباهرة – الشيء نفسه تقريبا، ولكنه يخامرني الشك في انه الشيء المراد.. اخشى العجلة والاندفاع ومن ثم التوقف والتطلع في عيني امراة خاويتين بعد فوات الاوان... هل تفهمين؟ كلا؟.. وكيف تتعاملين مع الانسان عندما تهفو روحه الى نجمة العشق الباهرة.
ضحك واخذ يد لودميلا ستيبانوفنا عنوة وقبلها بحنان. ولم تسحب يدها. وتنهدت ثم جلست الى جواره. وواصل الحديث عن نفسه وعن رفاقه، وعن الموت في الحقل المتجمد بينما التزمت هي



الصمت وهدأت. وعندما مال رأسها ذو الشعر الاصهب ومس كتفه، صمت مبتسما، ونهض بحذر وهو يقول: «لقد اتعبتك، فنامي، نامي»، – وخرج من المقصورة سائرا على اطراف اصابع قدميه.
اغلق الباب وراءه. وفتحت لودميلا ستيبانوفنا عينيها، وجمعت قبضتها الصغيرة وضربت بها الوسادة المخملية.
. . . . . . . . . . . . . . . . . . .
في منتصف الليل جاء اليها الفتى العريض المنكبين ذو الطاقية، وجلس على الكنبة، واسند حذائيه الضخمين الى الجدار الصقيل، وتلفع بدخان غليونه، وقال:
– كان ينبغي ابداء همة اكبر.
لاذت لودميلا ستيبانوفنا بالصمت وبينما كانت ترتب خصلات شعرها بيدها المرفوعتين عاليا، قبضت على الدبابيس باسنانها، وبان الذبول في عينيها الناعستين وخديها وبدت حركاتها غاضبة. ومست الفتى بمرفقها همست له عبر الدبابيس قائلة:
– انك تضايقني. اخرج مع غليونك.
تزحزح من مكانه وقال وهو يخفي الغليون في جيبه بتكاسل:
– ينبغي انهاء الأمر كله قبل بلوغ الحدود. سيكون العبور علي شاقاً. انك تجازفين بمواصلة السفر لوحدك.
– اعبر. انني لن أسافر لوحدي. وانت تعرف هذا خيراً مني.
– حسنا، و اذا ما اطلقوا على النار؟
هزت لودميلا ستيبانوفنا كتفيها. وبعد فترة صمت قصيرة سال الفتى بكسل اكثر:
– ما الامر، هل انك لا تحوزين على اعجابه، أم ماذا؟
عندئذ تملك السيدة الغضب. فتناثر شعرها، والتوت مسحة وجهها، وصارت بشعة. وتدفقت من الشفتين الجميلتين عبارات لا معنى لها، فهي تارة تنم عن العجرفة وتارة عن التوسل. اما الفتى فقد غادر المقصورة خشية حدوث ضجة.
واشعل غليونه على المنصة واتكا على العمود الحديدي. كانت الرياح والثلوج تعصف على وجهه المربع الصلب،

بينما كانت عيناه الضيقتان تميزان في العتمة الدكناء المبهمة الحقول البيضاء، والهياكل المخروطية القاتمة لاشجار الشوح السقماء. وفي الشمال كان يومض فوق الارض ضوء الشفق القطبي الابيض.

بعد بضع لحظات خرجت الى المنصة لودميلا ستيبانوفنا وقد تلفعت بمعطف الفرو و بمنديل وقالت عابسة:

– ان بابه مغلق من الداخل بالسلسلة. إنه حذر.

وحجب الفتى الرياح عن السيدة، وصارا يتشاوران.

. . . . . . . . . . . . . . . . . .

غط نيكيتا اليكسيفيتش في سبات طويل وعميق. ويبدو انه شاهد في نومه احلاما طيبة. وعندما اخذ يرتدي ملابسه ازال وهو يبتسم شعرة نسائية شقراء من زر جاكتته. انه لشيء طيب ان سارت الامور يوم امس على مايرام. والا لكان الآن يجلس براس اشعث، ولدخن السجاير. اما الآن فلديه شعور بالنصر، ولو انه صغير، ويسود راسه الصفاء، وجميع عضلاته متوترة، وقلبه يدق بانتظام وبشدة. وتنتظره عدة أيام من الصحبة الجميلة و الاحاديث التي تزول في كل كلمة منها حواجز جديدة بين البشر.

وكان الصباح باردا مشمسا.

لم يفلح اوبوزوف طوال ذلك اليوم في رؤية السيدة الحسناء كثيرا. ولقيته متعبة، وتحت الغلالة، وبقبعتها ذات الجناحين، وقالت انها قلقة جداً بشان المتاع وتعاني من صداع في الراس. وفعلا فقد جلست في المحطة الحدودية، وراء الطاولة المغطاة بقماش مشمع، وسط المسافرين والصناديق واللفائف والاطباق القذرة، وهيئتها حزينة جداً، وهي تسند خدها على قبضتها بشكل اثار اشفاق نيكيتا نيكسيفيتش عليها. كان يتطلع اليها من بعد وهو يفكر في دخيلة نفسه: «انها تسافر الى امريكا، ولكن اغلب الظن انها تكذب. فاعصابها خائرة جميعا، وتخفي وجهها في الصباح؛ وتقول سخافات، اما عيناها فكئيبتان! ولايجوز ابداء اللطف تجاهها، ولا تهدئتها، لانها نفسها لاتريد الملاطفة ولا التهدئة؛ ونهايتها ستكون اما في مستشفى الامراض العقلية او الموت غيظا».

وأراد جداً الجلوس الى جانبها والتحدث معها، لكن حالت دون



هذا الجلبة في تدبير امور الامتعة وجوازات السفر، ومن ثم عبور الحدود في زحافات، والتفتيش. وفي الساعة السابعة نقل متاعه الى مطعم صغير منخفض السقف ودافىء بالقرب من محطة القطار السويدية. كانت تسوده النظافة والبياض ورائحة الطلاء، بينما كانت القهوة تعد فوق لهيب موقد كحولي، بينما كان ينز مثل النحلة مصباح كيروسيني معلق من السقف. وانداح الليل القطبي وراء اطارات النوافذ المربعة. وكان المسافرون يغدون في الزحافات. واعتمر اوبوزوف قبعته وخرج. كان النور يومض عند طرف الارض في الشمال. كان نورا ضعيفا وخابيا وشمل السماء المرصعة بالنجوم بطيفه المائل الى الزرقة. وفي مكان اعلى منه كانت تنير مجموعات من النجوم الساطعة. وغطى الثلج والزمهرير ذو انعكاس النور الضعيف الحقول المنبسطة مع اشجار الشوح الهرمية المائلة الى السواد. بدا هذا كله ميتاً، كما لو كان من الأيام الغابرة، واحس بجلاء في تلك القفار الظلماء كيف تنبض كتلة قلبه الحي. صدر صرير من الثلج بالقرب منه. وتطلع اوبوزوف فاذا به يرى رجلا قصير القامة بصديرية وطاقية ينطلق من العتمة القاتمة، ويمر به مسرعا ثم يختفي في المبنى المنخفض. ولم ير وجهه، بل ومضت عيناه فقط.

وفكر نيكيتا اليكسيفيتش: «ما معنى ذلك؟»، وصار يتذكر العينين البراقتين كعيني قط. ثم اخذ يفكر بان حياة لودميلا ستيبانوفنا خاوية وموحشة مثل هذا السهل المنبسط، وان قلبها البائس يرتعش في كآبة خشية من الموت، وانه نفسه، نيكيتا اليكسيفيتش، لم يكن ذلك البطل الذي يصونها من الاغراءات. وقد آذاها بقسوة يوم امس بكبريائه الشديدة! واسترسل في الكلام وحتى تلا الاشعار... اف!

تنحنح ومد يده الى جيبه لاخراج السجاير. وصارت افكاره الآن تدور حول شيء ما لم يتحقق. صفق من خلفه الباب، وانفصل هيكل امراة عن الضوء الاصفر الشاحب، المنساب عبر النافذة المربعة للمطعم. وقام نيكيتا اليكسيفيتش بخطوات واسعة للقائها وصاح:

– التزمي الجانب الايسر، فهنا كثيب ثلجي، – ثم دنا من

لودميلا ستيبانوفنا، وامسك بيدها الدافئة بدون قفاز وقبلها. كانت تقف بالقرب منه تماما، رافعة رأسها نحوه بأمان.

وقالت بصوت خافت:

– كنت ابحث عنك.

تطلع الى وجهها الحزين والنحيف الذي سقط عليه بصيص من نور الشفق القطبي. وكانت تحيط بعينيها الواسعتين الظلال، بينما لمعت شرارة النجوم في حدقتيها. وبدت له ساحرة الجمال. وكانت يدها الصغيرة مستلقية بلا حراك فوق كم معطفه الفرو.

– لطيفة ومسكينة!

لم يطرأ تغير على وجهها، وكان فمها الجميل ينم عن الجد. وانحنى وقبل شفتيها. فتنهدت. كان الفرو الرمادي لمعطفها منفرجا قليلا وبدا جيدها وقلادة من اللؤلؤ الناعم. وزرر نيكيتا اليكسيفيتش بحذر ياقتها وكرر قائلا: «مسكينة!» وتردد من بعيد صفير قطار مديد.

كان نيكيتا اليكسيفيتش يستلقي مجدداً في المقصورة ذات المصباح الازرق القاتم فوق السرير ويكرر هامسا في قرارة نفسه:

–سحر! فتنة!

منذ وقت قليل عندما كانا فوق الثلج لم يتفوه بأية كلمة اخرى. ولابد ان لودميلا ستيبانوفنا نائمة الآن. بينما تركزت افكار واحاسيس نيكيتا اليكسيفيتش كلها بتوتر غير اعتيادي على تلك المرأة النائمة وراء الجدار، والغريبة عنه. الم يكن هذا سحراً؟

فجأة نهض، وفتح الحقيبة، واخرج الموسى وحلق ذقنه. لم يشعر بأية رغبة في النوم.وحضرته مجدداً عبارة: «يا نجمة العشق الباهرة، لقد غبت الى الأبد. آه، يا حبيبي راتمير...» فضحك، وزرر الصديرية وخرج الى الطرقة. كان القطار قد توقف لأول مرة في محطة صغيرة يكسوها الثلج، حيث كان يتمشى بمحاذاة العربات جندي وردي السحنة، بياقة بيضاء من فرو الماعز وغطائين للاذن من الفرو نفسه، وبدا كالدمية. وجاء الى الرصيف من بين اشجار الشوح المغطاة بالثلج، ماشيا بسرعة، الرجل العريض المنكبين



ذو الصديرية الدراعة وتطلع الى النافذة ثم قفز الى داخل العربة كانت مقلتاه شبيهتين بمقلتي المتزلج الذي رآه منذ قليل، وعموما فان وجهه بدا مألوفا لديه بشكل مخيف. وفكر نيكيتا اليكسيفيتش في دخيلة نفسه «شيء غريب»، ومس المظروف المصنوعمن قماش القنب على صدره وغمره مجدداً شعور بالفرح غير المعقول والمضحك.

استيقظ آناء الليل من نومه عدة مرات وكان يردد: «يا نجمة العشق الباهرة»، ويضرب الوسادة بقبضته، ثم يستسلم للكرى مجدداً، وهو يضحك. ومرة ميز صوتاً رجالياً مغتاظا يعاتب احداً ما في التباطؤ والجبن. وكان الصوت يكرر: «القارة، القارة...» وفي نهاية المطاف تلاشى، واختلط مع دقات العجلات.

مضى اليوم التالي بسرعة كالحلم. وقد لزمت لودميلا ستيبانوفنا الصمت واثر فيه على الاخص انه طرات عليها استكانة ما وجلة تقريبا. وعندما دعاها اوبزوف الى الافطار اجابت: «حسنا»، وسارت على الفور امامه وهي تمسك بمعطفها الفرو الملقي على كتفيها. واسترق عدة مرات نظرتها الملحة الحائرة، وفور ذلك كانت تبعد بصرها بخوف. وكان ذلك كله غير مفهوم ورائعاً ومثيراً للقلق...

كان القطار ينطلق في وسط جبال مغطاة بالغابات وتكسوها الثلوج. وكانت تمرق وراء نافذة المطعم البيوت الحمراء من مسرحيات ابسن، والشلالات المتجمدة، وحواجز الغابة السوداء، والجسور...

تطلعت لودميلا ستيبانوفنا الى الجدول الزمني (وكان من المقرر ان يتوقف القطار بعد بضع دقائق)، واقتربت من الزجاج وقالت:

– هاهو ذا سقف احمر فوق الجبل. وددت لو أعيش في هذا البيت حتى الربيع.. لربما يبدو لك غريباً، ولكنني احب جداً الخلوة والثلوج والغرف النظيفة. وهكذا لم يدر بخلد احد ان يستفيد مني كرفيقة حياة طيبة.

هزت رأسها وهي تتطلع في النافذة، وبعد هنيهة تغضنت سحنة وجهها. وصفر القطار لدى اقترابه من محطة الوقوف.

وسال نيكيتا اليكسيفيتش:

– اوما كنت ستتشعرين بالو حشة في خلوتك؟

عندئذ جرى لها أمر غريب: اذ التفتت بحدة نحو الجالسين في عربة المطعم، ثم نظرت الى عيني نيكيتا اليكسيفيتش بيأس، كما لو لم تكن تراه، واطرقت برأسها خافضة اياه، وهي تبحث عن شيء ما في الحقيبة على ركبتيها: وتوارى وجهها وراء شعرها.

وهمست: – ان التسلل خفية بعيداً عن الجميع، بدون امتعة، والبقاء لفترة الشتاء، جنون، طبعا...

توقف القطار. وتملكت عقل نيكيتا اليكسيفيتش افكار خاطفة ومضطربة. الا انه واصل الجلوس. ورفع يده السويدي ذو قبعة فرو الاستراخان و عليها شارة. واخترق صفير القطار الحاد دماغه حتى النخاع. تحرك القطار. وارخت لودميلا ستيبانوفنا يدها وبدت كما لو انها اقصر قامة.

بعد ذلك وقفا مئات المرات في الممر، وجلسا في المقصورة، وتفوها بكلمات ليس لها اي معنى، وكانا يخافان حركاتهما، وتماس الايدي. ولم يكن نيكيتا اليكسيفيتش يحول انظاره عنها، وبدت كل شعرة فيها اكثر اغراءاً. وعندما كانت تتلاقى نظراتهما يزول ضجيج القطار ويتوقف الزمن.

مر بمحاذاة مقصورتهما المفتوحة رجل بدين يرتدي جاكتة رمادية مكرمشة. وبعد ان تطلع الى السيدة الحسناء تعثر بغتة، واسقط السيجار وقال: «عفوا». وارتجف ذقن لودميلا ستيبانوفنا. أغلق اوبوزوف الباب الزجاجي واسدل الستار. وواصلت هي الضحك. عند ذاك جذبها اليه، واحتضنها وصار يقبلها بينما التزمت هي الصمت ثم قفزت بغتة وهتفت بعنف:

– كل شيء الا هذا. بحق الرب. ليس هنا. وليس الآن. – وتغيرت سحنتها. امسك نيكيتا برأسه وخرج من المقصورة، واصطدم في الممر بشخص ما ابتعد مسرعاً، وولج الى مقصورته واستلقى على وجهه ...

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

استيقظ لشعوره باليقين من انها هناك، فجلس بسرعة على الكنبة. وكانت لودميلا ستيبانوفنا تقف عند الباب وهي تمسك



بشيء ما بيديها وتضمه الى صدرها؛ كان المصباح الازرق ينير فوق رأسها. وأراد بكل كيانه ان يتقدم نحوها، ولكنه اسقط يديه على الفور، – فقد ومض الرعب الشديد في مقلتيها الواسعتين.

– ماذا تفعلين؟ – وادرك فجأة كل شيء، وماذا حدث الآن، وخلال الايام الثلاثة تلك. – ضعي الجاكتة. – قال هذه العبارات بصورة متقطعة. وعندما ترنحت سائرة نحو الباب، امسك بسرعة بيدها النحيفة والضعيفة من المرفق وكرر بصوت مبحوح: – هل جننت... هل جننت...

فاسقطت ملابسه وهي تطلق أنينا ضعيفاً:

– انني أردت أن ارى فقط... لا حاجة لي... ما كان بوسعي غير هذا... انه امرني... انه لا يرحم.. وسيبلغ عني.. وسيقتلني.. انني لم امس شيئاً.. خذ...

كانت ترتعش وهي تنظر الى اوبوزوف، مادة اليه الجاكتة بسرعة وبحركة خرقاء.

ثم نهض وأغلق الباب، وفعل هذا بلا وعي تقريباً، واخرج المسدس، ثم اعاده فورا الى جيبه.

– يجب عليك النزول في أول محطة...

فاجابته بهمس:

– شكرا...

وقاطعها بحدة: – مهلا... انني لن أتركك، أنت تفهمين، – ان لم اكن انا، فسيقع آخر في الشرك. اجلسي!

فجلست على الفور، وهي تواصل التطلع في عينيه. و عند ذاك سألها دون أن يعرف البتة لأي غرض:

– لماذا كذبت؟

– انني لم اكذب... انا احبك...

كان هذا مفاجئاً وفظيعاً ووقحاً. وتمتم اوبوزوف قائلا:

– لا تجرأي في الحديث عن هذا...

– اقسم لك...

و حتى نهضت لكي تمعن النظر، وبعد ان ادركت بانه لم يعد يصدق شيئاً الآن، صارت تكرر مع هذا بصوت غريب ومتهدج

بأنها تحبه. اراد أن يلطمها، وحتى شعر بالاختناق اشمئزازاً. وقالت بصوت هادىء، وكأنها نائمة:

– اضربني او اقتلني، فالأمر سواء. عندما قبلتني ونحن فوق الثلج احببتك. انني احبك منذ يومين. لم يكن أي رجل عزيز الى قلبي بهذا القدر. انني خائنة ولصة وجاسوسة. انت لا تعرف حياتي. بيد انني غير مذنبة امامك. يا عزيزي وحبيبي وغرامي...

كانت أسنانها تصطك.

وصرخ مهدداً بقبضته: – ماذا تغمغمين؟.. انني أمنعك، اتسمعين! صه!

اطرقت لودميلا ستيبانوفنا برأسها، وتناهت الى سمعه اصوات، – كانت تبتلع ريقها...

وسألها:

– انت لست وحدك، معك مرافق؟ – فهزت رأسها بالايجاب.

– وكان يجب عليك أن تسلميه الوثائق؟ هل هو في قطارنا؟ الفتى ذو الطاقية؟ لقد عرفت ذلك.

وقد سألها عمداً بصوت عال وحازم. كان الجو خانقاً في المقصورة. وبدت لودميلا ستيبانوفنا في الضوء الازرق والخافت، وهي ملتفة في كومة، اصغر حجماً واضعف... وقال وهو يسعل:

– انني خارج، اما انت فابقي هنا.

وعندما اصبح في الممر صار يمسح وجهه بالمنديل. «انها تكذب طبعا. والآهات والدموع، وتلك القبلة السخيفة! انها مجرد امرأة حاذقة. كانت تكفي دقيقة أخرى... ولحدث، يا الهي، مالا يحمد عقباه!.. اف!» وابتعد عن المقصورة وهو يغمغم ويتعثر، «كلا، يا امرأة، لا يجوز التسامح مع اضرابك... لو كان آخر بمكاني لارداها صريعة بالمسدس، وبعد ذلك – تفضلوا! و اعتقلوني ... ولكان على حق».

شاهد نيكيتا اليكسيفيتش من المنصة فجأة مشهداً عجيباً: كان القطار يلتف حول منحدر شديد في سلسلة الجبال، الشبيهة بحدوة الحصان، وانداحت عميقاً في الأسفل حيث تهاوت الصخور



منتصبة، بحيرة كبيرة وطويلة، يغمرها نور القمر. وكان البدر المدور يبدو فوق السلسلة المتموجة بقليل. اما انحناءات الجبال فكانت تتعاقب بخطوط سوداء وأخرى بيضاء ناصعة...

وفجأة غاص القطار في نفق، وغمر الظلام الابصار. فتراجع نيكيتا اليكسيفيتش بلا ارادته عن الباب الحديدي للمنصة المكشوفة، وعندئذ أمسكت يدان قويتان برقبته ودفعتاه بعنف الى الاسفل.

كان المهاجم الجاثم فوقه ثقيلا ومفتول العضل، ويتنفس بشدة، بينما كانت اصابعه تدعك رقبته وتضغط عليها بعجلة محمومة. وفقد اوبوزوف وعيه للحظة، ثم ثاب الى رشده فاذا بخصمه يواصل الضغط على رقبته بيد، بينما كانت اليد الأخرى تفتش في جيبه. فامسك بهذه اليد بقوة، فوق المعصم ولواها، فصدرت عنها قرقعة. أخذ المهاجم يجأر واندفع جاذبا نيكيتا اليكسيفيتش من ساقيه، وواصلا الصراع في الظلام واحدهما يدفع الآخر نحو شبكة المدخل. وكان هدير العجلات يطغي على الصرخات.

بدا واضحاً أن يد المهاجم مصابة، فقد ضعف. وانتهى النفق فجأة كما بدأ، وغمر نور القمر وجهيهما. فرأى اوبوزوف العينين الفاتحتين المألوفتين، بدون الحدقتين، ورفع غريمه عندئذ، بغيظ وهو ذلك الغيظ الذي يعتملك عندما تصرخ فلا تسمع الصراخ، وعندما تتسع حدقات العيون، انه – ذلك الغضب المحتدم والوحشي والذي يصيب المخمورين – والقى به وظهره الى الشبكة الحديدية وفك يديه. وتأوه الفتى وتهاوى وسقط فوق الصخور، وتدحرج جسده حالما بلغ الارض، وقفز ثم تهاوى بعد ذلك كالجثة الهامدة فوق المنحدر الى البحيرة. ومال نيكيتا اليكسيفيتش وهو يتطلع اليه. واختفى كل شيء وراء المنعطف.

توقف القطار في محطة مرور. ودخل اوبوزوف الى العربة مترنحا؛ كان باب المقصورة مفتوحاً. اما لودميلا ستيبانوفنا فقد اختفت. فتهاوى على الكنبة بصعوبة، ووضع مرفقيه على الطاولة، وضغط على وجهه براحتيه وجمد.

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

لم ينم اوبوزوف ليلته، وعانى من وجع فيْ صدغيه، وبدا أشعث وشاحباً، فاستقل في بيرغن سفينة تنقل حمولة من الورق والجلود.

كانت ريح شديدة تهب من البحر. وكان المارة على الكورنيش يسيرون غائصين في الاوحال، بينما كانت تقعقع مراكب البضاعة؛ وكان البحارة، ذوو الجزم غير المنثنية والقبعات الجلدية، يراوحون في مكانهم بالقرب من اوناش ينبعث منها صرير، ويدحرجون البراميل، بينما كانت الريح ترفع اطراف معاطفهم القطنية القصيرة. وهناك عدة سيدات، مع اطفال وحاضنات، يرتجفن من البرد بالقرب من حقائب انيقة القيت في الوحل. بينما علق الوكيل الهمام لشركة «كوك»، وهو ما انفك يبتسم، بسيد غاضب يضع نظارات على عينيه، ويكافح الريح والوكيل وضيق النفس والاوحال المتطايرة من اطارات السيارات. تلبدت سحب رمادية فوق المدينة الصغيرة الرطبة الشمالية، الواقعة فوق منحدرات سلسلة جبلية بشكل حدوة، وكانت تمس ابراج الكنائس و اشجار الصنوبر والصخور البنية، وتزحف الى الاعلى فوق القمم المغطاة بالأشجار.

كان نيكيتا اليكسيفيتش يقف على سطح السفينة تارة، او يلج هائماً داخل السفينة تارة أخرى، متغضن السحنة بسبب الألم في الصدغين، وينتظر شيئاً واحداً هو الابحار في اسرع وقت، والتارجح فوق الامواج، الاستلقاء، والنسيان والنوم حتى بلوغ انجلترا.

في ذلك الوقت كانت امرأتان عجوزتان نحيفتان، بصديريتين منشاتين وقلنسوتين خفيفتين، ومعهما خادم وقور، ينهمكون في تغطية مائدة ناصعة البياض بالادوات الفضية والبلور واطباق السرطان البحري الاحمر وقطع الجبن وقطع لحم الخنزير ولحم البقر البارد.

واعلاه، في صالون التدخين ذي النوافذ، وحيث علقت صور المصايف والمشاتي النرويجية، كان حوالي العشرين رجلا يدخنون السيجار و الغليون، ويحتسون الشراب. وكان بينهم سويديون ودانماركيون و رجال ربعة من امريكا الشمالية، ونرويجيون



بخدود لفحتها الريح في الجبال. وجميعهم يرتدون الاحذية المتينة و الجوخ الفضفاض، ويتمتعون بشهية ممتازة وروح مرحة وحتما بالاتزان النفسي.

اما فوق سطح السفينة فكان الجرس يدق، وتصر سلاسل الاوناش، و البراميل المتدحرجة، وتنطلق الاوامر سريعة وحادة. وكانت الريح تصفر بشدة على حبال الصواري. لقد كان ذلك عالماً آخر، مترعا بالحيوية والنشاط، وبعيداً كل البعد عن المعاناة في عربات القطار. وبدا هنا امراً مخجلا فحسب استعادة الذكريات، والغوص في الاحاسيس الذاتية. وبود المرء ان يكون نظيفاً وقوياً ونشيطاً كهذه الريح.

غادرت السفينة الميناء، واخذت طريقها بالاتجاه الجنوبي الغربي، نحو لقاء الامواج الشديدة وبدات تتارجح. كانت الامواج الثقيلة تلطم الجانب الايمن، فتغمر المنورات في كل دقيقة المياه المزبدة المائلة الى الاخضرار. وكانت القمرة تميل مع السرير والستائر والمغسلة الصقيلة، وتطقطق وقبل ان تعود الى حالها تنهال عليها موجة جديدة.

صعد نيكيتا اليكسيفيتش الى السطح العلوي. وكان قد تناول مثل الجميع، وجبة الغداء الدسمة، واحتسى عدة اقداح من النبيذ، واخذ يتمشى فوق السطح المبلل وقد استثارته الريح المالحة الكثيفة والنبيذ البورغوندي القابض وحركة المقدمة العالية للسفينة، رافعاً ياقة معطفه، وهو ينحني لدى ميلان السفينة او يتشبث بالسياج، وغمره شعور بالارتياح في الوقوف تحت الرذاذ البارد وفي مهب الريح. ولم يكن يعذبه انه قتل احدهم: فالرجل الذي القاه الى المنحدر يوم امس، لم يكن عدوه وغريمه، بل عدو الجيش، والشعب، وبدا له ان جريرة موته تقع على الجميع، بل ولم تكن هناك جريرة، وانما شعور بالنجاح والظفر. بينما يختلف الأمر بالنسبة الى لودميلا ستيبانوفنا: وهنا ساعدته الريح وعظمة بحر الشمال. وكان يدرك بانه مذنب للغاية، ويعاني من الاشمئزاز والرافة. وعندما كان نيكيتا اليكسيفيتش يتذكر المراة التي يعذبها الخوف، ونصف المجنونة،

والغارقة في الكذب والمكتومة فوق الكنبة في الركن، وكتفيها المدببتين والاصوات المخنوقة، كما لو كنت تبتلع ريقها، هز راسه، طاردا ذلك الشبح، وحدق طويلا في المحيط الهائج الرصاصي اللون.

كانت الأمواج العكرة، التي يتخللها الزبد، تتكدس كالتلال، الواحدة فوق الاخرى، وتنتفخ وتوشوش؛ وكانت الريح تشطر تيجانها البيضاء ثم تنشرها؛ وجسد الباخرة يرتفع بانحراف على هذا الجبل الحي، مولدا فرقعة، فتميل الصواري و عوارضها، وتبرز مقدمتها فوق الهاوية وبعد لحظة تتهاوى الى الاسفل، في الوادي المائي، وينهال الطود المائي وراء مؤخرة السفينة. ثم تتكدس التلال فوق التلال مجدداً، حاجبة السماء. وانطلقت فوق صفحة الماء سحب متناثرة منخفضة، كما لو كانت تتوارى فيها، ثم تتناثر منها في خطوط مائلة حبات الثلج والمطر المتجمد. اثارت انقباض النفس السماء الرمادية الباردة، والبحر الاشعث، والرياح، والكآبة اللاارادية لمناطق الشمال.

و فكر في نفسه: «اما ان تسمم نفسها واما ان تشنق... وهي نفسها تعرف بان نهايتها سيئة. وما اشد ما كانت تصبو آنذاك الى البيت المنعزل... «ماذا لو عشت هناك حتى الربيع». انها لم تكن تامل بفترة أطول من ذلك – حتى الربيع...»

لاحت الشمس لفترة قصيرة من وراء السحب المتجمعة، بعد ان كانت مختفية طوال النهار، وغمرتها بنور أحمر قاتم، وانارت الخطوط المائلة لحبات البرد، وتيجان الامواج، التي اصبحت اكبر وكما لو بدت بلا ضجيج، ثم توارت. اضيئت الانوار فوق الصواري. وصار البحر معتما وقريبا. ومضى اوبزوزوف نحو صالة التدخين وهو يرتجف من البرد.

ولم يكن هناك سوى نرويجيين، جعلتهما كتمة الهواء احمري الوجه، يلعبان الدومينو، والسيد الغاضب ذي النظارات يحتسي الويسكي، واضعاً قنينة ماء الصودا بين ركبتيه. أخذ اوبزوزوف يقلب المجلات، ويسترق النظرات الى السيد الغاضب الذي كان يصارع الغثيان، ثم تثاءب ومشى بتثاقل نحو الأسفل.



وفي الطرقة اوقفته الوصيفة قائلة بهمس:

– هناك سيدة تود رؤيتك. ارجو أن تتبعني.

فاجاب وهو يمسك العارضة النحاسية:

– اية سيدة ماهذا الهراء؟ – وبغتة شعر بالتأرجح والدوران وضيق النفس. – اية سيدة، انني اسالك؟..

ثم تبع على الفور الوصيفة المبتسمة التي فتحت باب القمرة الاخيرة. فراى هناك من العتبة لودميلا ستيبانوفنا. كانت ترقد في رداء دنتلا مهلهل، فوق غطاء يشبه جلد النمر. ووضعت على راسها كيسا فيه ماء ساخن، وتدلت يدها الى الارض بوهن، وعيناها فقط كانتا متالقتين وجافتين ونهمتين.

قالت بصوت مبحوح:

– انني اتالم غاية الألم. اجلس عند قدمي. لقد أردت أن اراك مرة أخرى. سيعتقلونني في انجلترا الا انني لا اطلب منك شيئاً. اشفق علي.

جلس نيكيتا اليكسيفيتش عند قدميها، ممسكاً بقبعته، وقال من بين اسنانه:

– انني اشفق عليك...

– انا احبك بجنون. سافقد عقلي. لن احيا هكذا. وانت، انت، تتحمل الذنب كله. آه، ما اشد عذابي!

ووضعت يدها على قلبها ثم على حنجرتها واصابها شحوب شديد. وزالت نوبة الضعف، ثم تالقت عيناها من جديد.

– لقد قررت أن اسرق الوثائق فقط من اجل التخلص منه. نعم، نعم، – رفعت يدها وهددت –، انني كنت أبغضه. انه كان سيذبحك وانت نائم لولاي. انت تعرف هذا كله بدوني... أنت تتظاهر، وتكذب، فانت تحبني. انك لن تتركني.

وغلبها الضعف، وتصبب العرق من وجهها. وحك نيكيتا اليكسيفيتش مؤخرة اذنه بشدة. وقال:

– افهميني، ايتها المراة المضحكة، فليس بوسعي ان احبك. ولن يحدث شيء بيننا.

– لا تجرأ على الحديث عن الحب هكذا.

– انني اشعر بالسأم عندما تتلفظين هذه الكلمة، – قال ذلك ونهض.

صرخت لودميلا ستيبانوفنا وهي تتشبث بكم معطفه:

– يا الهي اي ظلام! لماذا لم تعد تحبني؟ هل انا أسوأ من اليوم الثالث؟ انا – أفضل. لقد ضحيت بكل شيء، ووهبت كل شيء، انا – لك، لك، لك!

انزلق الرداء الدنتلا من كتفها العاري. وتدحرجت كرتا عينيها نحو الاعلى. تطلع نيكيتا اليكسيفيتش اليها. كانت بائسة جداً. وسرت القشعريرة في قلبه.

– حسنا، وداعا، – قال اوبوزوف وهو يفلت كم معطفه.

عندئذ دست لودميلا ستيبانوفنا يدها تحت الوسادة واخرجت مسدسا صغيرا – كان يهتز ويتقلب في اصابعها – ثم نهضت واخذت تصوب. وهز اوبوزوف كتفيه وهو يقف عند الباب.

– ارفعي صمام الامان.

عند ذاك رمت لودميلا ستيبانوفنا المسدس، ودفنت رأسها في الوسادة وصارت تعض على نواجذها. وقف اوبوزوف هنيهة، ثم انحنى على السيدة، وغطى قدميها بطرف الغطاء الشبيه بجلد النمر بحذر وخرج.

. . . . . . . . . . . . . . . . . .

عندما اقتربت الباخرة في صباح اليوم التالي من ساحل نيوكاسل المقفر وخرج رجال البوليس من بوابة العنبر لكي يصعدوا الى السطح من أجل فحص الوثائق شاهد اوبوزوف لودميلا ستيبانوفنا في حشد المسافرين. كانت قد التفت بمعطف الفرو وعلى ثغرها ابتسامة حائرة ومشت نحو السلم، وهناك اوقفوها، واخذ الموظف يتفحص جواز السفر من كافة الجوانب. وابتعد من العنبر اثنان من رجال البوليس «البوبي» وصعدا الى الباخرة. فشق نيكيتا اليكسيفيتش طريقه الى الموظف، وابرز له بطاقته، ووضع يده على الموفة الفاخرة للودميلا ستيبانوفنا، وقال:

– ان هذه السيدة تسافر معي. انا اتكفلها.



في اليوم نفسه رافقها بنفسه الى الباخرة «ابراهام لنكولن»، التابعة لخط الملاحة عبر المحيط، التي كانت ستبحر ليلا الى نيويورك، – ولدى توديعها قال العبارة الوحيدة في اليوم كله:

– انني لا اطلب مغفرتك. كما انني لن اغفر لك ابدا. عندما تحتاجين الى نقود – ابلغيني. أتمنى لك السعادة.

كانت لودميلا ستيبانوفنا تنتحب بصمت. اما هو فقد هبط بالسلالم الى الأسفل وضاع وسط حشد الناس دون ان يلتفت.

## سنة ١٩٢٨

ترجمة عبد الله حبه

# جوبلين* ماري انطوانيت

مضى تباعا آخر زوار القصر – المتحف... معاطف قصيرة من فرو الضان ومعاطف جوخ طويلة وجاكتات قطنية. مالت الشمس القرمزية وراء الضباب في عتمة المساء شتاء. ان النهار قصير في الشمال. ومابرحت أرى الزخارف فوق الزجاج: اذ كانت النوافذ العالية مكسوة باوراق رسمها الصقيع كأنها ذكريات عن الغابات التي كانت تصخب على الأرض في الازمان الغابرة.

ان الزخارف تتلاشى في سويعات الغسق الرمادي المائل الى الزرقة. اصطفق باب في مكان بعيد. بينما اختفت خشخشة جزمتي اللبد الطويلتين للحارس فوق الممشى، وحل صمت الشتاء في القصر وفي المتنزه المتلفع بالثلوج.

في بعض الاحيان كان القمر يبعث من الاعالى السحيقة نورا باهتا الى النافذة الخالية من الستائر، الا ان هذا نادر الحدوث: اذ تمضي و تمضي سحب الضباب السرمدية فوق المتنزه، وتصر وتعول العاصفة الثلجية بين الاغصان العارية. برد وخواء.

---

* نسيج مشجر تنقش عليه الرسوم والصور لغرض تعليقه على الجدران. وشاع استخدامه في القرون الماضية لتزيين قاعات وغرف قصور الاثرياء والامراء. **الناشر.**



وأنا اتسلى باسترجاع ذكريات الاعوام الماضية. انها كثيرة. بعضها موشى ببريق الأعياد، و بعضها الآخر رهيب.

لاتصيبني الشيخوخة ولا أذبل كالنساء اللواتي ترد اخبارهن في ذكرياتي، مثل الملكتين سيدتي الشعوب اللتين انتسبت لهما. أنا جميلة كما كنت قبل مائة وخمسين عاما، أضع باروكة عالية رشت بالمساحيق وارتدي فستاناً عريض الاطراف بلون الدم. انا موجودة في قاعة استقبال كبيرة، الى يسار المدخل، بالقرب من النافذة. وفي العمق، قبالة النور، علقت فوق الموقد لوحة بورتريه لمالكتي. لقد صورت بكامل هيئتها – فتية وأبية، و معتدلة القامة، جدا، كالجنود – هكذا كانت في الاعوام الاولى لزواجها.

عندما يداعب نور القمر المقاعد المذهبة اسعى غالها الى التطلع الى وجهها. الا ان عيني الامبراطورة تبتعدان عني باصرار و غيظ. لقد كانت تعتقد بانني سبب مصائبها كلها: اذ كانت تراودها الوساوس السوداء بصفتها من نساء القرون الوسطى.

على أي حال، لقد ابدى الرئيس لوبيه عدم لباقة عندما جلب في المدرعة لوحة القماش المشجر التي نقش عليها بورتريه الملكة الفرنسية المعدومة وقدمها هدية الى الامبراطورة الروسية. اخرجوني من صندوق الزنك وحملوني الى قاعة الاستقبال هذه، ووضعوني على السجاد. وسألت الامبراطورة التي لم تكن متضلعة في الفن: «ما هذا؟». (كانت تقف امامي، وقد عدلت صدرها كالمربية، وضغطت باصابعها المغسولة النظيفة والباردة، على بطنها). فاجاب لوبيه البدين، بينما كان يخشخش قميصه «الفراك»، بحماس حيوي: «يا صاحبة الجلالة انه جوبلين نادر جدا يصور بورتريه ماري انطوانيت. وقد ابقت عليه الثورة بالصدفة. وفرنسا تضع تحت اقدامكم احدى نفائسها القومية». وظهرت عندئذ على وجه القيصرة الذابل بقع قشور البودرة وزمت شفتيها كالخيوط بحركة ارادية – بغية اخفاء الفزع. بيد انني طالعت الرعب الشديد، الذي ومض للحظة في عينيها الزرقاوين المدورتين الالمانيتين. سألت القيصرة: «ولماذا ترتدي فستاناً

احمر؟»، و لم يستطع الرئيس اعطاء اي جواب عن هذا، فانحنى مجددا فقط، مولدا الصرير بجزمتيه البرجوازيتين.

علقوني على الجدار بالقرب من النافذة. ولا اذكر ان القت القيصرة نظرة علي و لو مرة واحدة. كان الفستان الاحمر يثير انزعاجها. وكانت تناسب ذوقها التلاوين الباهتة والبنفسجية والخضراء المصفرة. كما ان ماري انطوانيت لم تكن تطيق اي شيء زاه – بل فقط ما هو رقيق وباعث على السكينة. حقا ان قصة هذا اللون الأحمر غير اعتيادية. وساقصها عليكم.

قبل مائة وخمسين عاما خلت كانت تعيش في باريس اليزابيت روه، الفتاة ذات الجمال الأخاذ. وكان والدها يعمل نساجا في معمل السجاد الملكي ويعد من خيرة الصناع في فرنسا. و كان بوسعه ان يحوك في اليوم الواحد ربع بوصة، الا ان خطوط النقوش والوانها كانت منتقاة بشكل بحيث ان جوبليناته كانت تباري الالوان الحية للطبيعة بل وحتى تتفوق عليها.

وكانت اليزابيت روه التي عملت في المعمل منذ سن الثامنة تتمتع بالذوق الرفيع ذاته. وعندما بلغت ربيعها الثاني عشر نقلت الى قسم النماذج المصغرة حيث وجب ان تصنع من قطع الحرير والصوف نموذجا مصغراً تقريباً مأخوذا عن اللوحة، ومنه يصنع الجوبلين نفسه.

وهبت الطبيعة اليزابيت روحاً متقدة، الا ان سلوكها كان صارما، لانه لم تكن لديها باستثناء جمالها الفطري اية آمال في حياة افضل. ان العمل المضني، اي الأربع عشرة ساعة، التي كانت تمضيها مع الخرق والابرة، قتلت فيها كل الرغبات المميزة لسن الفتوة. على اية حال، كانت تلاحظ صرامة الخلق في فرنسا كلها، التي كانت تكدح فوق طاقتها، وفي فقر مدقع، من اجل ان يقضي الملك و الملكة والأمراء والبلاط باجمعه في فيرساي أوقاتهم في اعياد دائمة: حفلات باليه والعاب نارية وحفلات ساهرة ورحلات الصيد الباهرة في حقول الحبوب التي تفسدها الحوافر، وفي الليالي نزالات خيالية وراء طاولات لعب القمار في ضوء مئات الشموع. وكانوا يخمدون بهذا كله الرعب الكامن في نفوسهم من الهلاك القريب المحتوم: فالخزانة خاوية، والبلاد



في عسر، والنبلاء في املاق، واهل باريس يزمجرون في اعقاب العربات المذهبة الهادرة، والبرجوازيون ينشرون بسرور الأهاجي الجسورة الساخرة بالملكة، وبحياة القصر الخليعة. ولم يكن يصيب الثروة سوى ارباب الاعمال والصيارفة واصحاب صناعة الترف.

وردت من الديوان الملكي الى معمل السجاد طلبية بان تحاك صورة للملكة من لوحة البورتريه الاصلية المرفقة التي ابدعتها ريشة بوشيه العظيم.

في ذلك الدقت كانت الملكة غارقة في المشاغل بمزرعة اللعب القروية في حديقة فيرساي. وكانت الملكة تقوم بنفسها بحلب بقرة ذات قرنين ذهبيين ومخضبة بالطيب، وتطهي بنفسها الاومليت مع فطر الشامبينيون، وتصطاد السمكات الصينية بالصنارة لتناولها في وجبة الغداء، وفي أثناء ذلك تؤدي مع السيدات على ضفة الجدول رقصات الرعاة. لم يتسن لبوشيه في خضم هذه المشاغل سوى عمل رسوم عاجلة للملكة، او – رسم وجهها فقط. و صور الفستان من بنات خياله، بلون القشدة، ليساير ذوق العصر. الا انه لم يكن راضياً عن رسومه.

وردت لوحة الكارتون هذه الى اليزابيت روه، وبدأت بنسخ نموذج منها من أجل صنع الجوبلين. كان الجو قائظا في تلك الأيام ووجب عليها العمل بالزحف على الارض تارة، او التسلق على السلم تارة أخرى في سبيل التطلع الى العمل من فوق؛ وكانت اليزابيت برداء خفيف يكشف عن صدرها وعن ساقيها المشوقتين حتى الركبتين.

رآها بهذه الهيئة مدير المعمل، أحد النبلاء المفلسين، والرجل البدين الوسخ – وكان بالرغم كهولته ذا حساسية بالغة تجاه مفاتن النساء. فبحلق بعينيه بشكل رهيب، بعد ان باعد ما بين سمانتي رجليه المحشورتين في جوارب لم تشد جيداً. وتصبب العرق من تحت باروكته على خديه الحليقين. ولاحظ في ذلك اليوم القائظ عندما كان الذباب يئز على زجاج الورشة المعفر بالغبار، بأن الصبية حلوة لذيذة، مثل تفاحة غضة وطرية. جلس بالقرب من المسند واخرج علبة النشوق، ونثره فوق الدنتلا.

وكانت عيناه النقرسيتان تبحلقان. اما اليزابيت التي لم تكن تفكر سوى بعملها فكانت تزحف على ركبتيها بين قدميه مادة يدها تارة لالتقاط المقص، أو منحنية الى الأسفل من أجل قطع الخيط تارة اخرى. ووجد المدير في ذلك متعة الذواقة تقريبا: اذ كان حسن الصبية يفوح في منخريه المتنفخين. عندما انتصبت واقفة بتكدر ورفعت ذراعيها العاريتين لتثبيت خصلات شعرها الكثيفة المجعدة المنحدرة على وجهها احس بغتة بما يشبه الـ«كونجيكسيون»، أي الضربة، المستعدة لتمزيق الأوعية الدموية، وبغية التخلص من الانفعال بصورة أسرع، سقط من المقعد بثقله فوق اليزابيت، وامسك بها وصار يمطرها بوابل من القبلات في وجهها وجيدها وصدرها.

صرخت بصوت عال اذ كانت هذه اول مرة تمسها يد رجل. هبت واقفة، وصارت تكافح، وبعد ان خلصت يدها اليمنى، لطمت المدير على خده. وجرى كل شيء لاحقاً بصمت، باستثناء عدة ضربات من قبضة المدير وانين ضعيف صدر عن الصبية.

عندما اصطفق الباب وخفتت وراءه الخطوات الخافقة دخلت النساء الى الورشة. ووقع بصرهن على اليزابيت وقد تمزق ثوبها، ورقدت فاقدة الوعي على النموذج المصغر. كان فستان الملكة الحليبي ملطخا بالدماء، ووجه اليزابيت محطما. وحملت من هناك. وفي اليوم نفسه طردتها الادارة من العمل.

ان ما حدث ما كان يستحق الاهتمام، الا انه عندما راى بوشيه النموذج التالف احتدم غضبا، وانتفضت ارنبة انفه الانخس تحت البودرة، ووجه كومة من الشتائم الى مديري المعمل، ثم تطلع اليه مرة اخرى، وضيق عينيه وطقطق باصابعه. واعيد الى الاذهان بانه لم يكن راضيا عن لوحته، وعندها ومضت في راسه فكرة استخدام لون بقع الدم. فوقع اختياره على حرير قرمزي وامر بان يستبدل به فستان الملكة في النموذج. ثم قال: «رائع» وارسل النموذج الى ورشة النسيج حيث يعمل العجوز روه.

هكذا ظهرت الى الوجود. عمل العجوز روه ليل نهار في حياكتي. وغالبا ما كانت تسح عيناه الدموع بحرقة فوق تجاعيد وجهه؛ بيد انني لا أعرف بالضبط ما جرى لاليزابيت لاحقا. بدأ الحياكة من



الراس، وبقيت طوال اشهر في منسجه مقلوبة راسا على عقب، وصاروا يعجلونه، وعمل بجهد عنيف وبصمت.

في نهاية المطاف اصبحت جاهزة. واسعد الحظ بوشيه بتقديمي الى الملكة بنفسه. كانوا في البلاط يعرفون قصتي، وقال في تبرير وجود الفستان الأحمر في الجوبلين بانه لون العذرة. وكان ذلك جناسا في اذواق ذلك الزمن. فابتسمت له الملكة ابتسامة خفيفة.

علقت لوحة الجوبلين في غرفة نوم الملكة في تريانون وهو قصر صغير وحيد الطابق، خصص للمتعة الغرامية لافراد الأسرة المالكة. لاريب في ان ماكتب في المقالات الهجائية قد تضمن شيئاً من الحقيقة. اذ كانت الملكة طائشة. وذبل جمالها. ونادراً ما كان الملك يزورها في غرفة نومها، وهو يرتدي الروب الصيني وحذائين خفيفين، بجسمه المترهل، والبدين، واللغد، ولا تدور اكثر الأحاديث عن دقائق الغرام، بل عن طلقة موفقة في الصيد أو عن انجازاته في فن الخراطة. بعد انصرافه بلا ثمرة كانت الملكة تأمر بجلب المرآة الفينيسية، فتاخذ، وهي راقدة، وكلها بالدنتلا، ولا تزال مغرية في ضوء الشموع، بتأمل صورتها بشيء من الحيرة، ومن ثم تبدأ شفتها السفلى المتدلية – انها من الصفات اللازمة حتما لدى افراد أسرة هابسبورغ – بالبروز. وفور ذلك تاخذ السيدات المرحات المحيطات بسريرها العريض باداء تسلية ما ليلية وبعدها تستسلم الملكة الى النوم العميق.

يبدأ الصباح في قصر فرساي دائماً بالاحتفالات. فكانت تهدر العجلات المزخرفة للعربات القادمة، ويسمع رنين الاصوات المرحة. اما السيدات الشبيهات بالزهور الحية، ذوات التنورات الواسعة المخضبة بالعنبر والعطور، فكن يتجمعن في غرفة نوم الملكة، ويتهامسن كالطيور، أو يظهرن بين حين وآخر باغراء عبر الأشجار في المتنزه. وكان ينبعث من النافورات خرير وحفيف وطرطشة الماء، وطيور التم تصفق باجنحتها، والزوارق المذهبة تتهادى فوق سطح مياه البحيرة الاصطناعية. وتجد هناك خرائب على الطراز اليوناني، و تماثيل من المرمر تتراقص عليها بقع نور الشمس المنعكسة تحمل الخيال الخالي من الهموم الى بلاد

النعيم. وثمة فرسان مخنثون يزيلون الروائح الطبيعية لاجسادهم باستخدام العطور، وهم أقرب في المظهر الى كائنات من عالم مثالي منهم الى نبلاء رهنوا واعادوا رهان قلاعهم وايديهم ممدودة تستجدي الهبات من الملك.

لقد كانت الدنيا سخية ازاء هذه الحياة المصطنعة. وتنبعث من المروج رائحة التبن الساخن، والفراشات الزاهية الالوان تتدافع، والسحب الصيفية تنعكس في البحيرة، وحتى الانسام بدت وكأنها تهز الأشجار بلطف ومجاملة. و انصرمت الأيام تلو الأيام، كلها طائشة وباهرة. وقد سعت الملكة الى ان تبعد عن نفسها الافكار السوداء، اما الملك، فكان يفكر، وهو يصنع بماكينة الخراطة علب نشوق من دروع السلاحف، بأن كل شيء سيكون على ما يرام في نهاية المطاف: سيزج كاتبو الهجائيات في سجن الباستيل، وستحصل الخزانة على المال من مكان ما، اما البرجوازيون الطيبون فسيحبون ملكهم مجدداً، والريفيون الطيبون سيكفون عن الانزعاج بسبب الضرائب، ولربما ستعيد حرب موفقة، بعون الله ، الثروات المصروفة...

معروف كيف انتهت كل تلك الحياة المرحة في قصر فيرساي. فقد جاءت الى طريق فيرساي حسناء غاضبة ذات حاجبين كثين ورداء أحمر، وقبعة حمراء مزينة بريشات حمراء، هي بائعة الهوى تيريين دي ميركور ممتطية ظهر جواد، وملوحة بسيف مقوس، تتبعها حوالي ثلاثين الف امرأة من ضواحي باريس وهن يرددن: «أعطونا خبزاً، خبزاً...». ابتسم لهن الملك من الشرفة، وحاولت الملكة الابتسام وقد حملت ولي العهد على يديها. فوضعوهم في عربة ونقلوهم الى باريس. فلم يكن ثمة مجال للضحك والهزل.

عند ذاك بقي المطر الخريفي لوحده يدق زجاج النوافذ العالية، التي تبلغ الأرض، في قصر تريانون. وتساقطت اوراق الأشجار في المتنزه، وبدأت العفونة تدب الى أكوام الأوراق في الطرقات بعد ان لم يتم جمعها. ولاحت بين الأغصان العارية الهياكل البيضاء للآلهات اليونانية بلا خجل. وزحف ضباب الخريف، ولم يكن يعكر السكون في البيت المهجور سوى خطوات الحارس.



وظهرت بقعة من الرطوبة في سقف غرفة النوم، وبدأت قطرات الماء تتساقط الواحدة تلو الاخرى فوق الأرضية الخشبية.

مع الأيام الاولى لفصل الربيع ظهر طلاب النزهة واخذوا يتطلعون بفضول الى عجائب المتنزه الملكي. كان الرجال بملابس جوخ قاتمة اللون وغير جميلة، وبدون باروكات، اما النساء فكن بمناديل راس متواضعة وتنورات بسيطة من الصوف. جاءوا يحملون سلات فيها الطعام ويقودون الاطفال من أيديهم. وبعد ان جلسوا على العشب تناولوا طعام الافطار مخلفين وراءهم اوراق الكراريس المكرمشة الملطخة بالزيت التي كانوا قد لفوا بها الطعام. وازاحت البرجوازيات الفاضلات اعينهن بعيدا عن التماثيل العارية، بشعور من الخجل، واطلقن آهات التعجب بصخب لدى رؤية سرير الملكة الضخم عبر زجاج النوافذ. وكن يستندن باطراف اكفهن على النافذة ضاغطات بانوفهن على زجاجها ويتطلعن الى وجهي بنقمة، واحيانا يهددنني بمظلاتهن...

مضى الصيف. وحطمت عاصفة شتائية عدة لوحات زجاجية وبحلول الربيع اخذت الزرازير السوداء تنط مجددا تحت الشجيرات. ونمت في دروب المتنزه أعشاب راعي الحمام. وغطت الأشنات احواض الماء في النافورات بعد ان لم تعد تعمل. وصارت الابقار الطليقة تترك في تجوالها اقراص الروث عند قواعد التماثيل. ازداد عدد الناس الذين يأتون الى هناك في أيام الأعياد، الا انهم صاروا الآن ليسوا من البرجوازيين الأفاضل، بل من شباب مجهولين ذوي سراويل طويلة، حتى الرسغ، وبصدور عارية واكمام ملفوفة، اما صديقاتهم، فذوات خدود حمراء وكثيرات الضحك، وملتفعات كيفما اتفق بفساتين من الشيت – كانوا يمرحون كالأطفال وعندما يصيبهم التعب يستلمون للكرى فوق أكداس الحشيش. كانوا يتبادلون القبل ويقهقهون ويتشاجرون ويتصالحون... ويطرطشون الماء وهم يزعقون، ويقفزون من الضفاف الحجرية الى البحيرة، و ما كانت اجسامهم السمراء التي لفحتها الشمس أسوأ من الآلهة المرمرية ذات الأنوف المكسورة. وعند الغسق كانوا يكرمون حطام الزوارق المذهبة التي تتعفن لعدم الاستعمال، ويوقدون منها نيراناً متأججة، ومن ثم يؤدون،

مثل البشر البدائيين، واللهب ينير أجسادهم، رقصة كارمانيولا شيطانية.

بيد انه انصرم ذلك الصيف ايضاً. وغدت وجوه البشر مهمومة وصارمة أكثر، وطالعت في عيونهم آلام الجوع والتصميم العنيف. وقطعت أشجار كثيرة في المتنزه لاستخدامها كحطب. واختفت البقرتان – ولا بد ان الحراس أكلوهما! – ، ثم اختفى الحارس نفسه. حدث مرة ان توقف عند نافذتي شخصان: فتى عريض المنكبين يغطي خديه الزغب الاسود وامرأة شابة؛ كان الاثنان حافيي القدمين؛ وقد أمسك الفتى بيديه متولها كتفيها اللتين لا تكاد تسترهما الأسمال. كانت حسناء – كثيفة الشعر، ممشوقة القد، شديدة البنية. قالت هي شيئاً ما، وسحب الفتى الرزة بقوة، فأخذ اطار النافذة – الباب يطقطق، وتناثر الزجاج. ودخلا. كانت الحسناء الفقيرة هي اليزابيت روه. تطلعت الي فترة طويلة ثم وقفت على اطراف اصابع قدميها وبصقت في وجهي. عندئذ انتزعني الفتى من الجدار ورماني على السرير العاري.

ظللت ملقية باهمال هناك حتى التقطني برجوازي محترم، بائع سجق من باريس، باعتباري من الحاجيات البيتية. وقد جاء الى فرساي آملا في الانتفاع من بهيمة كسرت ساقها. فطويت بعناية وحشرت تحت مقعد الحوذي، وجلس صاحب العربة فوقي؛ وفي الخلف تمدد جسد حصان سلخ جلده، وغطي بقماش هباية. وصلت الى باريس بهذه الصورة. وجرى تعليقي على نافذة مزقها الرصاص في دكان بيع السجق. هناك في ساحة الثورة رأيت الملكة آخر مرة لكن في ظروف بائسة جداً...

لقد مرت على ذلك اليوم فترة مائة وخمسين عاما. ساتعبكم لو حدثتكم عن جميع تقلبات القدر، الذي رماني من يد الى يد. عندما رفرفت راية الكومونة السوداء فوق المبنى البلدي في يوم غائم تعصف فيه الرياح جرى شنق صاحبي بائع السجق عند باب دكانه وكتبت على صدره لوحة: «نريد اسعاراً ثابتة!» وامتدت الي يد ملطخة بالبارود فانتزعتني من النافذة واصبحت بمثابة معطف يستر كتفي فتى طويل القامة يلوح برمح وضعت طاقية حمراء على سنانه. كنت أرفرف طوال اليوم وكأنني النار الملتهبة



على كتفيه، تحت ازيز الرصاص. عندما اكفهر الليل توجه الى مبنى البلدية حيث كانت المشاعل تنيره في الأسفل بينما غاصت ابراجه الصغيرة المدببة في الضباب. دخلنا سوية مع حشد يلوح افراده بالسيوف والمسدسات في صالة كبيرة غارقة في الدخان بسبب هباب المصابيح الزيتية. كان يجلس على اللوحات والصناديق، مواصلين الاجتماع بلا انقطاع، اعضاء كومونة باريس ذوو الوجوه القاتمة لقلة النوم. كان العمال والحرفيون من المجموعة يطالبونهم برؤوس الارستقراطيين والبرجوازيين، وهم يصرخون: «ليفرق الاجتماع! الموت للخونة! كل السلطة الى الكومونة! نريد الخبز والاسعار الثابتة!». رقد صاحبي هنا في الصالة، تحت النافذة، والتف بي حتى قمة الراس.

لكن يبدو انني صنعت لمتعة الابصار فقط ولم امنحه الدفء في تلك الليلة ذات الرياح العاصفة: فرماني في ركن الصالة فوق كومة من القاذورات. بقيت هناك فترة من الوقت. وعمد أحدهم، بعد ان فطن الي، الى نشري ونفض الأوساخ عني وغطى بي طاولة هيئة الرئاسة المصنوعة من خشب الصنوبر. منذ ذلك الحين صاروا يلقون فوقي الأوراق وريش الاوز وقطع الخبز اليابس. وجلس رجل طويل الوجه ذو خصلات سوداء، ملتصقة بجبهته الناتئة الشاحبة جاثما فوق صدري بمرفقيه الممزقين وكيانه باجمعه يرتجف من الغضب الشديد. كانوا يدعونه جيبر ان لم تخني الذاكرة. كان يجسد ارادة الناس الفقراء، ويأتي الى دار البلدية في كل مساء، لكي يخطب صارخا عن العدالة وعن مطالبهم وعن حقدهم وعن حريتهم الاخيرة.

وقطعوا رأسه شأنه شأن جميع «المتشددين». في ذلك اليوم خطب أمام الأفراد العابسين من المجموعة رجل صغير القامة، ذو انف بارز العظام، بملابس نظيفة، وباروكة صغيرة بيضاء. كان يضغط بقذاله الملقي الى الوراء قليلا بين كتفيه، ويمسني باطراف اصابعه الباردة، ويتحدث بصوت قاطع عن الاعتدال والفضيلة، واقسم بأن يقطع راس كل من يدوس على مكارم الاخلاق في حياته، وكل من يفكر بمعاداة الثورة، وكل من يعتقد بانه، اي روبسبير، ليس ثوريا ووطنيا جدا. فحياة أصحاب

الدكاكين الذين يرتدون قلانس اليعاقبة. الا انه، وآسفاه، حل التعب بالبرجوازيين، واصابهم السأم البالغ من الثورة وحماس العامة، والاسمال والنقود الورقية.

لكن حدث مرة ان جلس الى الطاولة، التي ما برحت اغطيها، خمسة اشخاص تمنطقوا بوشائح ثلاثية الألوان. وكان بينهم روبسبيير. ووضع امامه مسدسا رفع زناده. التزموا الصمت، وتطلعوا دون ان يرف لهم جفن الى النوافذ السوداء، – كان حشد الناس يهدر هناك هائجا في الساحة التي يلفها ظلام الليل. وعجزت الشمعة الوحيدة على الطاولة، ذات اللهب المتأرجح بهدوء، عن تشتيت عتمة الصالة الكبيرة الخاوية.

في تلك الليلة كانت الثورة تنتهي. وخفتت زمجرة حشد الناس في ساحة غريف. وهدرت عجلات المدافع، وصدرت الاوامر العسكرية من بين الأسنان المصطكة. وسمعت على سلالم دار البلدية الخطوات الثابتة للحرس الوطني. ثم دخلوا. اتسعت بشكل رهيب حدقات عيون الارهابيين الخمسة الجالسين وراء الطاولة بلا حراك. الا ان افراد الحرس الوطني اخذوا يصرخون بشكل اكثر رهبة. نهض سان جوست، الفتى وذو الملامح النسائية، بهدوء لكي يسلم نفسه. وغطى كوتون المصاب بالشلل وجهه بيده. اما ليبا الحاد الطبع فقد اختطف المسدس ودسه في يد روبسبيير، – ورفعه الرجل الصغير بتثاقل الى صدغه. لكن رجل الحرس اندفع ودفعه من مرفقه. وانطلقت رصاصة. فسقط رأس روبسبيير على صدري وقد تهشم فكه الأسفل. وضغطت اصابعه على الاوراق غير المكتوبة، ومسح بها وجهه محاولا ايقاف نزيف الدم.

ان ذكرياتي اللاحقة تعود الى السنوات الكئيبة بين سقط المتاع في دكان بائع الحاجيات العتيقة. ولم يقدموا ثمنا لي حتى مائة فرانك، في الوقت الذي كان فيه نابليون يطارد بأسنة الحراب جيوش الاقطاعيين في اوربا بأجمعها، بيد انه اراق الكثير من دماء البرجوازيين الطيبين، وخانوه، حاسبين بان من الأنفع استبدال السيف بدفاتر الحسابات. لقد رسمت الثورة دائرة جامحة ثم توقفت للحظة: اذ اعتلى العرش الفرنسي لويس الثامن



عشر، فاعتنوا بامري، وعلقوني بصفتي من الآثار المقدسة في قصر التويلري. آه، بأي حماس قديم كانت ترقص في قاعاته المذهبة مجددا سيدات فرساي صاحباتي، اللواتي اصابهن الذبول خلال عشرين عاما من حياة المهجر! كانت سحب البودرة تتطاير من تجعدات وجوههن المصبوغة بالحمرة. انه مشهد سوداوي!

امضيت الثورات اللاحقة والترميم بهدوء وسكينة في متحف اللوفر. هذه قصة حياتي حتى الساعة التي اودعوني فيها بالقصر الاسكندري في «قرية القياصرة»، – في غرفة الاستقبال لالكسندرا فيودوروفنا، التي حكمت ملايين لا حصر لها من الشعوب.

كان الجو هناك مملا للغاية بعد تلك الانطباعات المتنوعة كثيرا. ان القيصر والقيصرة لم يكونا من هواة التسلية على مرأى من الناس – فالحياة في قصرهما ممتعة. ولم يكن يزورهما من الناس الا لقضاء الأعمال: اذ تأتي الوصيفة المحبوبة لتقبل يدها، او يتحدث احدهم بالتلفون ويرجو السماح بالمجيء، انه أحد المتشردين* من سارقي الخيول سابقا، ورجل روحاني: فيأتي مرتدياً رداء طويلا، وبجزمتين صقيلتين، – ويتم تبادل القبل على الخدود، ويجلس ويتحدث كذباً عن كل مايرد في باله، مضيقاً عينيه الماكرتين، بينما يحدق القيصر والقيصرة بابتهال الى لحيته الملطخة بالزيت، دون أن يتجرآ على ان يرف لهما جفن.

عندما كان القيصر يود احتساء الشراب يتوجه الى نادي الضباط. وكانوا يدعون نافخي الابواق العسكريين ويشربون الخمر، ويتناولون الطعام الخفيف. وفي اليوم التالي يطلق الزفرات ماسكا برأسه بيديه، خفية لكي لا تراه القيصرة. حقا انه لم يكن يمارس صناعة علب النشوق على غرار لويس الفرنسي، الا انه كان يحالفه التوفيق لدى ممارسة التصوير الفوتوغرافي، اوعندما يردد لحنا ما بصورة رتيبة، وكان يلعب البيليارد مع نفسه، اويطالع اقاصيص افيرتشينكو فيطق من الضحك. كان يحب الوقوف في ساعة الغسق عند النافذة والسيجارة بيده فيتطلع الى الرذاذ وهو يتساقط على أشجار الشوح والشجيرات التي يجلس وراءها، خشية اكتشاف امرهم، المخبرون النمش من رجال الأمن وعلى رؤوسهم قبعات سوداء عالية انزلت على اذانهم.

اما القيصرة فكانت تطرز المناديل في جناحها وتفكر، وتفكر، رافعة حاجبيها، بالاعداء الكثيرين، وبالمكائد غير المكتشفة ضد اسرتها، وبالشعب الجاحد والفاسد والوقح الفاضح، الذي تركته لها الاقدار، وبالطبع التعيس لزوجها الذي لا يحسن ارغام الناس على احترامه والخوف منه. وفي بعض الاحيان كانت تتوقف عن التطريز، وتدق بالكشتبان بحنق على مسند المقعد، فتغدو عيناها الغائبتا النظرات قاتمتين. كانت تقوم على طاولة وراء الحاجز الايقونة صانعة المعجزات مع جرس. وغالبا ما كانت تركع امامها وتصلي بانتظار حدوث المعجزة عندما يدق الجرس ذاته.

اتفقوا معي في ان السنون انصرمت بشكل كئيب في القصر الاسكندري. وبات الجو قاتما جداً بعد أن سافر القيصر وولي العهد الى الحرب، وعندها وضعت القيصرة على رأسها منديلا قماشيا وارتدت فستاناً رمادي اللون نقش عليه صليب بلون الدم في مكان الصدر. اما في فرساي فكانوا يعيشون حياة مرحة على الأقل قبيل الموت. وبقي لديهم ما يتذكرونه عن الماضي عندما كان الجلاد يشد ايديهم ويقص شعرهم في القذال فوق منصة الجيلوتين. اما هنا فالسأم قاتل. او كان يجدر بهؤلاء الناس ان يظهروا الى الوجود لكي يعيشوا بمثل هذا الاكتئاب والحقد على كل شيء!

ها انذا بدات الاحظ منذ بعض الوقت ان القيصرة تنظر الي شزراً نوعاً ما فهي تتوقف، ضاغطة بيديها على بطنها، وتبدو على جبينها الواطىء تجعدات غاضبة، كما لو انها تستجمع قواها لاستكناه امر ما والتغلب على شيء ما. في شهر ديسمبر كان الثلج يتساقط وراء النافذة ذات القضبان المتشابكة، وظهرت اكوام الثلج فوق قبعات المخبرين الجالسين تحت الشجيرات وهم ينفخون في قبضاتهم بانفاسهم. اما القيصرة فتسير وتسير موسعة منخريها بسبب الغضب العاجز. وآسفاه، لم تكن لديها السلطة لشنق حتى رئيس مجلس دوما الدولة. الاعداء في كل مكان. لقد تالب الجميع عليها.

في احدى تلك اللحظات تلقت نبا حطم روحها: فقد وجد الرجل الروحاني وصديقها الوحيد وقائدها في فتحة في الجليد تحت



الجسر مقيداً ومحطم الجمجمة. وانباتها بذلك وصيفتها المحبوبة التي تهاوت على البساط والدموع المحرقة الغزيرة تنهمر من مآقيها. أصاب وجه القيصرة شحوب الأموات، تراخت واتكأت بظهرها المنتصب الى رداني الأحمر، وقالت: «لقد هلكنا، لم يعد هناك من يشفع لنا امام الرب». عند حلول الظلام ارتدت السواد ووضعت على رأسها منديلا أسود، مسدلا على وجهها، وتسللت بين المخبرين دون أن يلحظها أحد، وشوهد هيكلها المبتعد فوق الثلوج لفترة طويلة: كانت متوجهة لكي تنتحب على نعش الرجل الروحاني الذي جلب سراً من بطرسبورغ، الى مكان منعزل، ليوضع في صومعة خشبية صغيرة.

رأيت القيصرة آخر مرة في وقت متاخر من الليل، عندما اضاء نور متوهج بعيد عبر النوافذ المتجمدة، وكان الضوء الأحمر يتعالى فوق قمم اشجار الشوح: كان شيء ما يحترق في مكان ما، ويسود غرفة الاستقبال الظلام والدفء. و فجاة صدر صرير من احد مصراعي الباب العالي، فرأيت القيصرة: كانت ترتدي رداء أبيض. وسألت المكان الخالي باللغة الألمانية: «ماذا يحترق، ماذا يحترق؟» ودنت من النافذة. كانت أوراق الصقيع عليها تبدو حمراء تارة، وزرقاء مسودة تارة أخرى، بزخارف عجيبة.

كان وجهها مشوهاً، وومض في عينيها رعب الوسوسة. استرجعنا أنا وهي في تلك اللحظة الذكريات نفسها...

عشرات آلاف الرؤوس كان تضج وتضطرب على طول سياج مدرجات قصر التويلري وفي كافة ارجاء ساحة الثورة الفسيحة حيث كانت تتعالى فوق اسنة الحراب منصة فيها نصل مثلث مثبت بين قائمتين. وكنت ارى من نافذة دكان بائع السجق الأبراج المدببة لسجن كونسرجيري. وكانت تسير بمحاذاتها عربة ذات عجلتين. استدارت نحو الجسر و عبرت الى الجانب الآخر للنهر. اضطربت الرؤوس كما لو هبت عليها الريح. وعامت العربة المحاطة بالجنود وقارعي الطبول في بحر الرؤوس ذلك وكان عويل الحشد يغطي على قرع الطبول. عندما مرت العربة بنافذتي رأيت الملكة جالسة فيها وظهرها الى الحصان. وقد ربطت يداها الى الخلف، مما جعل ظهرها يستقيم جداً. لم يكن هناك تحت فستانها الصوفي

الأسود المكرمش وجود للمشد فتدلى نهداها الذابلان، — كان شعراء البلاط قد نظموا عنهما اشعار المديح في وقت ما، وصنع بشكلها قدح من الكهرمان كان الملك يشرب منه النبيذ. كانت رقبتها الصفراء عارية، وراسها مطرقا، وشفتها السفلى متورمة باحتقار وباشمئزاز ينمان عن الكبرياء، وتدلت من قلنسوتها العالية خصلة من الشعر. وكانت العجائز حاسرات الرؤوس يهتفن: «الموت للنمساوية اللعينة». كن يسرن وراء العربة في صفوف من اربع نساء، وجميعهن يواصلن بلا توقف حياكة الجوارب من اجل الجيش. انهن «حائكات روبسبير». رايت كيف توقفت العربة. حدثت على المنصة جلبة قصيرة، وطارت القلنسوة البيضاء. وصار قارعو الطبول يضربونها بشدة أكثر فأكثر، وبكل قواهم، بهدير رهيب، وانزلق السكين المثلث على العارضتين الى الأسفل مصحوبا ببقعة من النور. وتدلى رأس الملكة بيد ما ممدودة فوق حشد الناس.

قالت القيصرة، بالروسية، بصوت مبحوح: «أيها الملعونون، ايها المجانين، يا أبالسة، يا أبالسة!»، وهي تواصل النظر عبر زجاج النافذة المزخرفة بالصقيع، التي تغمرها هالة من النور...، ثم اخذت ترسم علامات صليب قصيرة — قصيرة على صدرها وتنحني راسها فقط دون أن تثني رقبتها... امتدت شفتها السفلى وتدلت قليلا...

في تلك الليلة اصيب أطفالها بمرض الحصبة. وفي تلك الليلة عبرت آخر مرة عتبة غرفة الاستقبال، التي لا ازال فيها حتى اليوم، الى يسار النافذة. اما زائرو القصر — المتحف، الذين يضعون اخفاف الخيش فوق جزمات اللبد العالية لهم، فانهم يتوقفون للحظة امامي، ويقول مرشدهم:

— وهذا نموذج من اعمال انتاج الافنان الذي يرجع عهده الى بداية الصراع بين الراسمالية الزراعية والراسمالية التجارية — الصناعية.

**سنة ١٩٢٨**



**ترجمة د. ابو بكر يوسف**

# الأفعى

— ١ —

عندما كانت اولغا فيتشيسلافوفنا تدخل المطبخ في روب من الشيت، عابسة ومشعثة، كان كل من فيه يلزم الصمت، فلا يتردد الا فحيح مواقد الكيروسين المجلوة بعناية والمشحونة بالكيروسين والغضب المكتوم. كان ثمةخطر ما ينبعث من اولغا فيتشيسلافوفنا. وقد قال عنها احد سكان الشقة:

— توجد امثال هؤلاء اللئيمات... يسرن رافعات الزناد... فلتبتعدوا عنهن يا اعزائي...

كانت اولغا فيتشيسلافوفنا تتجه الى حوض الغسيل، وقد شدت فوطة على وسطها، وفي يدها قدح فيه فرشة اسنان، فتغتسل معرضة راسها الحليق الأسود الشعر لمياه الصنبور. وحينما لا يكون في المطبخ سوى النساء، كانت تنضو عنها الروب الى وسطها، وتغسل كتفيها الضعيفتي التكوين، مثل اكتاف المراهقات، وثدييها ذواتي الحلمتين البنيتين. ثم تقف على مقعد وتغسل ساقيها الجميلتين القويتين. وعندها يمكن ان ترى على فخذها اثرا لجرح عرضي طويل، وعلى ظهرها، فوق لوحة الظهر، حفرة وردية لامعة، مكان خروج رصاصة، وعلى ذراعها اليمنى عند الكتف وشما صغيرا شاحب الزرقة، وكان جسدها رشيقا، أسمر، ذا لمعة ذهبية.

كانت كل هذه التفاصيل معروفة جيدا للنساء الساكنات

باحدى الشقق العديدة في منزل كبير بحي زاريادي. كانت الخياطة ماريا افاناسيفنا، التي تمقت اولغا فيتشيسلافوفنا بكل جوارحها، تسميها «الموصومة». اما روزا ابراموفنا بيزيكوفتش العاطلة عن العمل – كان زوجها في مجاهل سيبيريا – فيكاد يغمى عليها عند رؤية اولغا فيتشيسلافوفنا. والمراة الثالثة، سونيا فارينتسوفا، او كما كان الجميع يدعونها «لاليتشكا»، وهي فتاة لطيفة الملامح، تعمل في مؤسسة التبغ، كانت تغادر المطبخ ما ان تسمع وقع خطوات اولغا فيتشيسلافوفنا وتترك موقدها الكيروسيني مشتعلا... ولو لا ان ماريا افاناسيفنا وروزا ابراموفنا كانتا تكنان لها الود، لكان على لاليتشكا ان تاكل كل يوم تقريبا عصيدتها محترقة.

وبعد ان تفرغ اولغا فيتشيسلافوفنا من الاغتسال، تنظر الى النساء بعينين سوداوين «متوحشتين»، ثم تمضي الى غرفتها في آخر الطرقة. لم يكن لديها موقد كيروسين، ولم يكن احد في الشقة يفهم كيف تفطر كل صباح. فكان الساكن فلاديمير لفوفتش بونيزوفسكي، الضابط السابق، والذي يعمل الآن وسيطا في بيع وشراء الانتيكات، يؤكد ان اولغا فيتشيسلافوفنا تشرب كل صباح الكونياك المركز بدرجة ٦٠ مئوية. كان كل شيء جائزا. وفي الحقيقة، فقد كان لدى اولغا فيتشيسلافوفنا موقد كيروسين، ولكنها، بدافع كراهيتها للبشر، كانت تستخدمه في غرفتها، الى ان صدر قرار من ادارة الجمعية السكنية بمنع ذلك. وكاد مدير المنزل جوراقليوف، الذي هدد اولغا فيتشيسلافوفنا بتقديمها الى المحكمة وطردها من المنزل اذا ما تكررت منها هذه «الافعال المشينة المضادة للحريق» كاد حينها يلقي حتفه، فقد قذفت في وجهه بالموقد المشتعل، لولا انه تفادى الضربة. ثم «غمرته» بسباب مقذع لم يسمع مثله في حياته حتى في الشارع ايام الاعياد. وبالطبع فقد ضاع الموقد.

وفي التاسعة والنصف كانت اولغا فيتشيسلافوفنا تنصرف. وربما كانت تبتاع في طريقها سندويتش «فرحة الكلاب»* وتتناول

* تسمية شائعة لنوع من السجق الرخيص. **المعرب.**



الشاي في مقر العمل. وتعود الى البيت في وقت غير محدد. ولم يكن يزورها رجال على الاطلاق.

ولم يسفر تفقد غرفتها عبر فتحة القفل عن شيء يشفي غليل المتطفلين... جدران عارية بلا صور او بطاقات... لا شيء سوى مسدس صغير معلق فوق السرير. اما الآثاث فلم يزد عن خمس قطع: كرسيان، وكومودينو، وسرير حديدي، وطاولة قرب النافذة. وكانت الغرفة مرتبة في بعض الاحيان: فستارة النافذة مرفوعة، والمرآة والمشط وقارورتان او ثلاث منضدة على الكومودينو المقشر الطلاء، وعلى الطاولة رزمة كتب بل وحتى زهرة ما في نصف زجاجة قشدة. واحيانا كانت الغرفة تبقى في فوضى فظيعة حتى الليل: اذ يبدو الفراش وكأن احدا تصارع فوقه وتقلب. والارضية مغطاة كلها باعقاب السجائر، وفي وسط الغرفة قصرية. فكانت روزا ابراموفنا تتأوه بصوت خافت قائلة:

– هل هذه امراة؟ هذا احد الجنود المسرحين.

اما الساكن بيوتر سيميونوفتش مورش، الموظف بمؤسسة تجارة الامدادات الطبية، والاعزب ذو العادات الراسخة، فقد نصحهم ذات مرة، وهو يضحك ضحكا خافتا بينما تلمع صلعته، بطرد اولغا فيتشيسلافوفنا بان ينفخوا في غرفتها عن طريق انبوب ورقي عبر فتحة القفل عشرة جرامات من اليودوفورم. «فاي مخلوق حي لا يستطيع ان يحتمل جوا سممه اليودوفورم»، ولكن هذه الخطة لم توضع موضع التنفيذ، فقد خافوا.

على اية حال فقد كانت اولغا فيتشيسلافوفنا مادة للقيل والقال، وتأججت في صدور السكان الشهوات التافهة، ولولا وجودها لخيم الملل في الغالب على الشقة. ومع ذلك فلم تستطع اي عين فضولة ان تنفذ الى اعماق حياتها. وحتى الرهبة الدائمة التي كانت سونيا فارينتسوفا الوديعة تشعر بها امامها، فقد ظلت سرا.

والحفوا على لاليتشكا بالسؤال، ولكنها كانت تهز خصلاتها وتتهرب نحو تفاصيل صغيرة. ولولا انها لاصبحت لاليتشكا نجمة سينمائية منذ زمن طويل. «في باريس يستطيعون ان يصنعوا من

وجهها فبدا وكأنما تغطيه بودرة بيضاء. وحينما دقق رئيس القسم النظر فيها اكتشف انها ليست بودرة بل شحوبا، اذ لم تكن في وجهها قطرة دم. وضغطت المرأة صدرها على حافة الطاولة الملوثة بالحبر، وقالت بصوت خافت وبنبرة يأس مروعة:

— اذهب الى حارة بسكوفسكي... انا ارتكبت هناك شيئا ما... لاادري ماذا... ينبغي الآن ان اموت...

وفي هذه اللحظة فقط لاحظ رئيس القسم في قبضتها المزرقة مسدسا صغيرا. فقفز من فوق الطاولة وامسك برسغ المرأة وانتزع منها تلك اللعبة الخطرة.

وصاح لسبب ما:

— وهل لديك تصريح بحمل السلاح؟ — والقت المرأة برأسها الى الوراء لأن الطاقية كانت تعوقها، ومضت تحدق في رئيس القسم بنظرة فارغة. فسألها بصوت اهدا: اسمك، اسم عائلتك، عنوانك؟

— اولغا فيتشيسلافوفنا زوتوفا...

—٢—

منذ عشر سنوات احترق وسط النهار في مدينة قازان بشارع برولومنيا منزل التاجر من الفئة الثانية ومن المؤمنين بالعقيدة القديمة فيتشيسلاف ايلاريونوفتش زوتوف. وعثر رجال المطافيء على جثتين في الطابق الاول، مكبلتين بالاسلاك الكهربائية، كانتا لزوتوف وزوجته. وفي الطابق العلوي وجدوا جسدا خامدا كان لابنتهما اولغا فيتشيسلافوفنا، التلميذة ذات السبعة عشر عاما. كان قميص نومها ممزقا، ويداها وعنقها مليئة بخدوش الاظافر، وكان كل ما حولها يشهد على وقوع صراع يائس. ولكن الاشقياء فيما يبدو لم يستطيعوا التغلب عليها، او



انهم عجلوا بالهروب، فضربوها على رأسها بجلة حديدية بحزام كانت ملقاة بجوارها.

ولم يتمكن رجال الاطفاء من انقاذ المنزل، فاحترقت كل ممتلكات زوتوف واصبحت رمادا. ونقلت اولغا فيتشيسلافوفنا الى المستشفى العسكري، حيث اعادوا لها كتفها المخلوعة الى مكانها وخاطوا لها جلد رأسها. وظلت عدة ايام غائبة عن الوعي. وكان اول ما احست به هو الألم، عندما غيروا لها الضمادة. وحين فتحت عينيها رات طبيبا عسكريا بنظارة طبية يجلس بجوارها على السرير. اثر جمالها في قلب الطبيب فزجرها برقة لكي لا تتحرك. فمدت نحوه يدها قائلة:

— يا دكتور، يا لهم من وحوش!

وسالت دموعها غزيرة.

وبعد بضعة ايام قالت له:

— اثنان منهم لا اعرفهما.. كانا يرتديان معاطف طويلة... اما الثالث فاعرفه. رقصت معه.. انه فالكا، التلميذ... سمعتهم وهم يقتلون بابا وماما... سمعت تهشم العظام... يادكتور، لماذا فعلوا ذلك؟ اي وحوش!

فهمس الدكتور محذرا:

— هس، هس!

وكانت عيناه خلف النظارة مبللتين.

لم يكن احد يزور اولغا زوتوفا في المستشفى. فلم يكن الزمن زمن زيارات ولا وقت لذلك: اذ كانت الحرب الاهلية تمزق روسيا. واخذت الحياة المستقرة تتفسخ وتنهار، ونفثت كلمات المراسيم غضبا مسعورا في الاعلانات البيضاء الملصقة في كل مكان، حيثما اتجهت انظار العابرين ولم يبق لدى اولغا ما تفعله سوى البكاء اياما بكاملها رثاء (فقد ظلت تتردد في سمعها صيحة ابيها: «لا داعي!» وصرخة امها الوحشية، وهي التي لم تصرخ هكذا طوال حياتها ابدا). وخوفا، اذ كيف ستعيش الآن، ويأسا امام هذا المجهول الذي يدوي ويصرخ ويطلق النار ليلا خلف نوافذ المستشفى.

ويبدو انها اراقت خلال هذه الأيام كل ما خصص لها من دموع للعمر كله. لقد انقطع مجرى صباها الخالي من الهموم والافكار. واكتست روحها بالندوب كجرح ملتئم. ولم تكن تعرف بعد كم من قوى مظلمة ومشبوبة تكمن فيها.

وذات مرة جلس بجوارها على الاريكة في الطرقة رجل معصوب الذراع. كان يرتدي روب المستشفى وسروالاً داخلياً وشبشبا، ورغم ذلك كانت تنبعث منه صحة حارة ومرحة كما من المدفأة الحديدية. كان يصفر اغنية «التفاحة» بصوت لايكاد يسمع ويدق بكعبيه العاريين. وتحولت نظرات عينيه الرماديتين الصقريتين غير مرة نحو الفتاة الجميلة. كان وجهه العريض الملوح، المغطى عند الوجنتين بلحية لم تحلق ابدا، يعبر عن خلو البال، بل وحتى عن الكسل. لكن عينيه الصقريتين فقط كانتا قاسيتين، شديدتي القسوة.

وسألها بلا مبالاة:

– من عنبر الأمراض الزهرية؟

لم تفهم اولغا السؤال للوهلة الأولى، ثم تضرج وجهها بحمرة السخط:

– لقد حاولوا قتلي ولم يتمكنوا، ولهذا فانا هنا. – وتزحزحت مبتعدة وهي تتنفس بغضب، واتسعت فتحتا انفها.

– آه يا الهي، يا لها من مغامرة! لا بد ان هناك ما يستوجب ذلك. ام الأمر هكذا، مجرد اشقياء؟ هه؟

سمرت اولغا فيه عينيها: كيف يجرؤ على السؤال بهذه الطريقة، كأنما يسأل عن امر عادي للغاية، بفعل الملل...

– ماذا، الم تسمع عما حدث لنا؟ آل زوتوف، في شارع برولومنيا؟

– آه، هكذا اذن! اذكر... ولكنك فتاة مقاتلة، لم تستسلمي... (وقطب جبينه). هؤلاء الناس ينبغي حرقهم في النار، وغليهم في القدور، فربما توصلنا ساعتها الى شيء ما... ما اكثر ما طفا على السطح من هذه العناصر الدنيئة.. اكثر مما



كنا نظن.. اصابتنا الدهشة. مصيبة. (وتفحصت عيناه الباردتان اولغا). ها انت طبعا تنظرين الى الثورة فقط من هذه الزاوية، من خلال هذا العنف... وهذا مؤسف. هل انت من ذوي العقيدة القديمة؟ تؤمنين بالله؟ لا باس، هذا سيزول (وضرب بقبضته على مسند الأريكة) هذا ما ينبغي ان نؤمن به: الكفاح.

ارادت أولغا ان ترد عليه بشيء قاس، وعادل بلا جدال، من اعماق روحها المدمرة. ولكن افكارها تحت وقع نظراته الهازئة المترقبة، همت وسقطت دون ان تبلغ لسانها.

فقال:

– بالضبط... يالها من مهرة متوثبة! من سلالة روسية طيبة، مع عرق غجري... والا كنت ستعيشين مثل الآخرين.. تنظرين الى الشارع من وراء النافذة، في شقة برجوازية... يا للملل.

– وهل ما نحن فيه اكثر مرحا؟

– اهو غير ذلك؟ المرح ايضا مطلوب، لا يمكن قضاء الوقت كله في نقل بكرات العداد...

وشعرت اولغا مرة اخرى بالغيظ، ومرة اخرى لم ترد بشيء، بل هزت كتفيها، فقد كان شديد الثقة بنفسه.. لكنها دمدمت فحسب:

– نهبوا المدينة كلها، نهبوا روسيانا كلها، هؤلاء الوقحون...

– وماذا تكون روسيا... اننا ننوي اجتياز العالم كله على ظهور الخيول.. لقد افلتت الخيول من عقالها. فلن نتوقف اللهم الا عند المحيط... وسواء شئت ام أبيت فستمرحين معنا.

ومال نحوها مكشرا عن اسنان لمعت بمرح متوحش. ودار راس أولغا. وكأنما سمعت من قبل مثل هذه الكلمات، ورات من قبل هذه التكشيرة والاسنان البيضاء، وكأنما نهضت الذكرى من ظلمات دمائها وصاحت اصوات الاجيال الماضية البعيدة: «الى ظهور الجياد! هيا الى المرح يا رجال!». ودار رأسها.. ومن جديد رات امامها هذا الرجل ذا الروب واليد المعصوبة... بيد ان حرارة

مست قلبها و قلقا... و لسبب ما اصبح ذو العينين الرماديتين عزيزا عليها.. عبست و تزحزحت الى طرف الاريكة. اما هو فمضى يصفر و يدق بكعبه...

. . . . . . . . . . . . . . . .

كان حديثا قصيرا.. بفعل الملل في طرقة المستشفى. صفر الرجل قليلا و مضى. ولم تعرف اولغا فيتشيسلافوفنا حتى اسمه. ولكنها عندما جلست في اليوم التالي على نفس الاريكة وحدقت في عمق الطرقة الخانقة، واسترجعت في ذهنها بعناية كل ما كانت تريد ان تقوله من كلمات مقنعة، وذكية جدا، لكي تجرده من غروره، بينما لم يظهر هو، وبدلاً منه مضى اشخاص ما يقفزون على عكاكيزهم.. احست فجاة بوضوح انها مضطربة جدا من لقاء الأمس.

بعد ذلك طال انتظارها، ربما دقيقة واحدة، ولكن الدموع ترقرقت في عينيها من الاهانة، اذ ها هي تنتظره بينما هو لا يلقي بالا. فانصرفت و تمددت على السرير، ومضت تفكر فيه بشتى الافكار الظالمة التي كان يمكن ان ترد الى ذهنها. و لكن بماذا، بماذا اثار اضطرابها؟

وعذبها الفضول اكثر من الاهانة.. لو انها تراه مرة اخرى ولو لمحا.. كيف يبدو حقا؟ لا شيء فيه يسترعي الانتباه... هناك الملايين من الحمقى امثاله.. طبعا بلشفي.. قاطع طريق... وعيناه، يا لهما من عينين... وقحتين... وعذبها كبرياؤها الانثوي: اتفكر طول النهار في شخص مثله! وبسبب رجل كهذا تعصر قبضتيها!..

في الليل ايقظوا المرضى كلهم. وتراكض الأطباء والممرضون، و مضوا يسحبون الصرر. وجلس المرضى في اسرتهم مذعورين. وخلف النوافذ قرقعت العجلات ودوت دفعات سباب مسعور. كان التشيكيون يدخلون قازان. والحمر ينسحبون. وغادر المستشفى كل من كان قادرا على الحركة. وبقيت اولغا فيتشيسلافوفنا، اذ لم يتذكرها احد.



في الفجر قرقعت في طرقات المستشفى كعوب بنادق التشيكيين العريضي الصدور ذوي الحلل النظيفة، الأجنبية. كانوا يسحبون شخصا ما، اذ صرخ نائب المدير بصوت متحشرج: «انا مجبر، لست بلشفيا.. دعوني، الى اين تسحبونني؟...». وزحف مشلولان الى النافذة المطلة على الفناء، وقالا من هناك همسا: «جروا المسكين الى الحظيرة ليشنقوه».

ارتدت اولغا فيتشيسلافوفنا ملابسها – فستانا رماديا عهدة – وغطت الضمادة على رأسها بمنديل ابيض. ودوى فوق المدينة رنين اجراس العيد. واشرق الفجر. وتناهت عالية تارة وخافتة تارة الحان الموسيقى العسكرية للالوية الزاحفة على المدينة. وبعيدا وراء الفولغا انداح هزيم المدافع المبتعد.

وخرجت اولغا فيتشيسلافوفنا من العنبر. وعند منعطف الطرقة اوقفتها دورية حراسة، وامرها تشيكيان بشاربين وفي احذية بكعوب قصيرة. بالعودة وهما يفحان ويشنشنان. فصاحت بهما اولغا فيتشيسلافوفنا وعيناها تقدحان: «انا لست اسيرة، انا روسية». فضحكا ومدا ايديهما ليقرصاها من خدها او ذقنها... ولم يكن بوسعها بالطبع ان تهجم بصدرها على حربتي بندقيتين مشرعتين. فعادت ادراجها وهي تنفخ فتحتي انفها، وجلست على السرير، واصطكت اسنانها من ارتجاف بدنها.

وفي الصباح لم يقدم الشاي للمرضى فبدأ التذمر. وفي ساعة الغداء اخذ التشيكيون خمسة من الجنود الحمر الذين اجريت لهم عمليات بتر اطراف. وقال المشلولان عند النافذة ان المساكين سيقوا الى الحظيرة. ثم دخل العنبر ضابط روسي، مشدود بالاحزمة، في سروال فضفاض كجناحي خفاش. وشد المرضى البطاطين على اجسادهم. وتفحص الضابط الأسرة، وتوقفت نظرات عينيه المزرورتين على اولغا فيتشيسلافوفنا. «انت زوتوفا؟ – سألها – اتبعيني...». ومضى وكأنه يطير بجناحي سرواله، وملأت دقات مهمازيه طرقة المستشفى الخاوية بالرنين.

كان عليهما ان يعبرا الفناء، وفي تلك اللحظة خرج من المدخل الذي كانوا يسوقونها اليه شاب اجعد الشعر، في قميص

روسي مطرز، ونظر اليها لمحا نظرة ذات مغزى وهو يرتدي العمرة، واسرع نحو البوابة... وتعثرت اولغا فيتشيسلافوفنا... وخيل اليها... كلا، هذا مستحيل...

دلفت الى غرفة استقبال وجلست الى الطاولة وهي تنظر الى ضابط بوجه طويل ملتو كأنما عكسته مرآة مشوهة. ونظر هو ايضا اليها بعينين كل منهما تختلف عن الاخرى.

وسمعت صوته المؤنب وهو يشدد على مقاطع الكلمات باحتقار:

– الا تخجلين، انت الفتاة المثقفة ابنة الرجل المحترم في المدينة، من الارتباط بالأوغاد؟

وجاهدت لكي تفهم ما يقول. ولكن فكرة متسلطة الحت عليها وعاقتها عن التركيز. وتنهدت وعصرت قبضتيها على ركبتيها، وراحت تروى كل ما حدث لها. واخذ الضابط يدخن ببطء مرتكزا على كوعه. وفرغت من روايتها. فقلب احدى الاوراق... كانت تحتها مذكرة قصيرة مكتوبة بالقلم الرصاص.

وقال وهو يقطب جبينه في تفكير:

– معلوماتنا لا تتفق تماما. بودي ان اسمع منك بعض الاشياء عن علاقتك بمنظمة البلاشفة المحلية. ماذا؟ – وارتفعت زاوية فمه الى اعلى والتوى حاجباه.

وراقبت اولغا فيتشيسلافوفنا برهبة اللاتناسق المروع لوجه الخليق الناعم.

– ماذا قلت.. انا لاافهم... انت جننت...

– للأسف لدينا معلومات اكيدة. مهما بدا ذلك غريبا. (وامسك بالسيجارة بيد ممدودة، ومضى يتأرجح، ونفث سحابة من الدخان – وكان من الصعب ان تجد شيئا اكثر صالونية من هذا الرجل). ان صدقك يغري بالتعاطف... (حلقة دخان). فلتكوني اذن صادقة الى النهاية يا عزيزتي... بالمناسبة، اصدقاؤك، الجنود الحمر، ماتوا ابطالا. (ونظرت احدى عينيه البلقاوين الى النافذة، حيث كانت تلوح بوابة الحظيرة). واذن فمازلنا صامتين؟ حسنا...

امسك بذراعي المقعد والتفت الى التشيكيين قائلا:



بيتي*، تفضلوا...

وقفز التشيكيون ورفعوا اولغا فيتشيسلافوفنا من الكرسي وتحسسوا جنبيها وصدرها وهم يلعبون شواربهم استمتاعا، ثم فتشوا جسدها باحثين عن جيوب تحت التنورة. وتطلع الضابط وقد نهض قليلا، وفتح عينيه المختلفتين واسعا. واحست اولغا فيتشيسلافوفنا بالاختناق، وتضرج خداها بالحمرة، بحريق الدماء. وانتزعت نفسها من ايديهم، وصرخت...

فأمر الضابط: – القوها في السجن!

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

قضت اولغا فيتشيسلافوفنا شهرين في السجن. في البداية في زنزانة مشتركة، ثم في زنزانة منفردة. وفي الايام الاولى كادت تجن من الفكرة المتسلطة عليها حول بوابة الحظيرة المغلقة بلوح خشبي. وجافاها النوم، فكلما نامت رأت في المنام عنقها وقد لفه حبل المشنقة.

لم يحققوا معها، ولم يستدعها احد، كأنما نسوها. وشيئا فشيئا بدأت تفكر. وفجأة خيل اليها وكأنما تكشفت امامها صفحات كتاب، واصبح كل شيء واضحا. فذلك الصبي الاجعد، ذو القميص المطرز، كان بالفعل فالكا، القاتل. انها لم تخطىء...

لقد اسرع يتقول عليها خشية ان تبلغ عنه. وكانت المذكرة المكتوبة بالقلم الرصاص هي وشايته...

كان بوسع اولغا فيتشيسلافوفنا ان تذرع الزنزانة المنفردة كالنمرة قدر ما تشاء: فردا على كل توسلاتها الحارة (في عين الباب) بأن ترى مدير السجن، او المحقق، او وكيل النيابة، كان حراس السجن العابسون يديرون ظهورهم فقط. كانت في لوعتها لا تزال تؤمن بالعدالة، وترتب خططا خيالية: ان تحصل على اوراق وقلم، وتكتب الحقيقة كلها الى سلطات عليا ما، عادلة كالله.

وذات يوم ايقظتها اصوات خشنة حادة وهدير باب يفتح. دخل شخص ما الزنزانة المجاورة. وكان فيها معتقل يضع نظارة.. لم تكن تعرف عنه الا انه يسعل سعالا يمزق القلب في الليالي.

---

* تفضلوا (بالألمانية). **المعرب.**

وقفزت واقفة واصاخت السمع. وارتفعت الاصوات خلف الجدار الى درجة الصراخ.. وكانت ملهوفة، مستعجلة. ثم انقطعت وهدات. وتناهى في السكون انين، كأنما كان شخص ما يتعرض للأذى ولكنه يغالب الألم كما في عيادة الأسنان.

التصقت اولغا فيتشيسلافوفنا بالركن، تحت النافذة، وفتحت عينيها واسعاً في الظلام كالمجنونة. وتذكرت الروايات التي سمعتها (عندما كانت في الزنزانة المشتركة) عن التعذيب... وخيل اليها انها ترى وجها رماديا بنظارات، ممرغا، وخدين ذابلين مرتعشين من الألم... كانوا يلفون ساعديه وعقبيه بالأسلاك بحيث يغوص السلك الى العظام.. وخيل اليها انها تسمعهم يقولون: «سوف تتكلم، سوف تتكلم»... وترددت ضربات، كأنما ينفضون سجادة لا انسانا... وظل صامتا... ضربة، ثم ضربة اخرى... وفجأة تردد خوار... «آه، سوف تتكلم!...» وامتلأ السجن كله لا بالخوار، بل بعواء مريض.. وخيل لأولغا فيتشيسلافوفنا ان غبار هذه السجادة الرهيبة قد لفها، واطبق الغثيان على قلبها، وانزلقت ساقاها، ومادت ارضية الزنزانة الحجرية.. واصطدمت مؤخرة راسها بها.

هذه الليلة، التي عذب فيها انسان انسانا، لفت بالظلام أملها الضعيف في العدالة. ولكن روح اولغا فيتشيسلافوفنا المشبوبة لم تستطع ان تركن الى السكون، الى الخمول. فبعد تلك الأيام السودا، التي كادت تفقد فيها رشدها، وجدت الخلاص وهي تذرع الزنزانة بخطوط محورية: الحقد، والانتقام. نعم الحقد والانتقام! آه، ليتها فقط تخرج من هنا!

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

رفعت راسها ونظرت الى النافذة الضيقة: كان الزجاج المترب يصدر رنينا خفيفا، وتأرجحت في خيوط العنكبوت عناكب جافة. وفي مكان ما تأوهت المدافع بهدير مرعد (كان الجيش الأحمر الخامس يزحف على قازان). واحضر الحارس الغداء، ونظر شزرا الى النافذة وهو يلهث: «جئتك بسميطة يا آنسة.. لو احتجت لشيء دقي الباب فقط... نحن دائما في صف السياسيين...»

وظل الزجاج يرن طول النهار. وخلف الأبواب كان الحراس



يتنهدون. وجلست اولغا فيتشيسلافوفنا على السرير مطوقة ركبتيها، ولم تمس الطعام. كان قلبها يدوي في ركبتيها والمدافع تدوي كالرعد خلف النافذة. وفي الغسق دخل الحارس مرة اخرى على اطراف اصابعه، وقال همسا: «نحن مجبرون، ولكننا دائما في صف الشعب...».

وقبيل منتصف الليل دبت الحركة في دهاليز السجن، واصطفقت الأبواب، وترددت صيحات متوعدة. وساق عدة ضباط ومدنيين حشدا من حوالي ثلاثين معتقلا الى الاسفل وهم يهددونهم بالسلاح. وسحبوا اولغا فيتشيسلافوفنا من الزنزانة ودفعوها ركضا على السلم. وراحت تتلوى كالقطة وتحاول ان تعض ايديهم. وللحظة رات السماء الريحية من مربع الفناء، وملأت صدرها ببرودة الليلة الخريفية. وبعد ذلك – باب منخفض، ودرجات حجرية، ورطوبة القبو العفنة وقد غص بالبشر. وتقافزت حزم ضوء المصابيح اليدوية على الجدار الطوبي، وعلى الوجوه الشاحبة، وعلى العيون المحملقة... وسباب بذيء مسعور... ودوت طلقات مسدسات، فبدا وكأنما انهارت عقود القبو... واندفعت اولغا فيتشيسلافوفنا الى مكان ما في الظلام... وللحظة ظهر في شعاع المصباح وجه فالكا... وارتطم شيء ساخن بكتفها، وثقب صدرها كمغزل ملتهب، ونهش ظهرها... وتعثرت، وسقطت على وجهها في طحلب عفن، تفوح منه رائحة الفطر...

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

استولى الجيش الخامس على قازان، وهرب التشيكيون* الى اسفل النهر على السفن، وتشتت الفصائل الروسية الى شتى الجهات. وهرب نصف السكان الى آخر الدنيا رعبا من الارهاب الأحمر. وعلى شاطىء الفولغا الذي انتفخ من امطار الخريف هام الهاربون المستوحشون عدة اسابيع، حاملين الصرر والعصي، متحملين عذابا لم يسبق له مثيل. وهرب فالكا ايضا من قازان.

وخلافا للمنطق السليم بقيت اولغا فيتشيسلافوفنا على قيد الحياة. فعندما حملوا جثث المقتولين من قبو السجن ووضعوها صفا في الفناء، تحت السماء المكفهرة الرذاذ، انحنى خيال في معطف من فرو الغنم فوق جسدها، وحرك راسها بحرص، ثم قال:

– الفتاة تتنفس. ينبغي يا اخوان ان نسرع الى الطبيب...

كان هو ذلك الرجل ذا الأسنان الكبيرة والعينين الصقريتين. وحملها بنفسه الى مستشفى السجن، وهرع ليبحث في فوضى المدينة المفتوحة عن «بروفيسور من العهد القيصري حتما»، واقتحم شقة أحد البروفيسورات، وقبض عليه في فورة اندفاعه، فافزعه حتى الموت، ونقله بالموتوسيكل الى مستشفى السجن، وقال مشيرا الى اولغا فيتشيسلافوفنا الخامدة، والتي غاض الدم من وجهها: «لابد ان تحييها...»

وظلت على قيد الحياة. بعد التضميد وكمادات زيت الكافور فتحت جفنيها الأزرقين، ويبدو انها عرفت العينين الصقريتين المنحنيتين فوقها. اذ قالت بصوت لا يكاد يسمع: «اقترب – وعندما اقترب تماما وانتظر طويلا، قالت لسبب غير مفهوم – قبلني...» كان هناك اناس بجوار سريرها، وكان الوقت وقت حرب، فنشق ذو العينين الصقريتين بانفه، وتلفت حوله، وقال: «يا للشيطان، انظر» ولكنه لم يجرؤ، وسوى لها الوسادة فقط.

. . . . . . . . . . . . . . .

كان الخيال يلقب بيميليانوف، الرفيق يميليانوف. وسألت عن اسمه واسم ابيه*. كان يدعى ديمتري فاسيليفتش. وعندما عرفت ذلك اغمضت عينيها، وحركت شفتيها مكررة: «ديمتري فاسيليفتش».

كان فوجه يشكل في قازان، فاخذ يميليانوف يزور الفتاة كل يوم. وراح يؤكد لها ليرفع معنوياتها: «ينبغي ان اخبرك يا اولغا فيتشيسلافوفنا بان روحك طويلة، كالافعى... عندما تشفين ساضمك الى سريتي واعينك جندي اتصالي الخاص...». كان يردد ذلك كل يوم دون ان يمل هو من الترديد وهي من الاستماع. كان يضحك كاشفا عن اسنان لامعة، اما هي فترتسم ابتسامة رقيقة على شفتيها الواهنتين... سنقص لك شعرك،

---

* تقتضي تقاليد المخاطبة في الروسية ان ينادى الشخص باسمه وباسم ابيه احتراماً. **المعرب.**



وساعطيك حذاء خفيفا احتفظ به بعد نزعه من ساقي تلميذ قتيل. بالطبع سنشدك بالحزام الى الحصان في اول الأمر حتى لا تسقطي...».

. . . . . . . . . . . . . . .

كانت اولغا فيتشيسلافوفنا بروح طويلة فعلا كالافعى. فبعد كل ما جرى لها بدا وكانما لم يتبق منها الا عينان، لكنهما كانتا تتقدان بحرارة مسهدة ونهم متلهف. وبقيت حياتها الماضية على شاطىء بعيد: بيت الوالدين الصارم الموسر، المدرسة، والصديقات العاطفيات، والثلج الزغبي في الشوارع، والولع المراهق بالممثلين الزائرين، والوله المالوف بمدرس اللغة الروسية، ذلك الجميل المكتنز فورونوف، و «جماعة هيرتسين» المدرسية* والتعلق المنبهر بزملاء الجماعة، وقراءة الروايات المترجمة، والشوق اللذيذ الى بطلات هامسون الشماليات – اللائي لا وجود لهن في الواقع – والفضول القلق الذي تثيره روايات مارجريت... احقا كان كل ذلك موجودا؟ الفستان الجديد لاعياد الميلاد، والعشق العيدي لذلك الطالب المتنكر في زي ميفستوفل بقرني الشيطان المطليين بالسناج و المحشوين بالقطن... واريج الازهار المتجمدة في الصقيع البالغ ثلاثين درجة تحت الصفر... والسكون الحزين، واجراس الصيام الكبير، والثلوج المتلاشية، البنية اللون في الشوارع التجارية... وقلق الربيع، والليالي المحمومة... والمنزل الريفي في «فيرخني اوسلون»، واشجار الصنوبر، والمروج، والفولغا المتلالىء، الممتد بعيدا في مياه الفيضان اللامحدودة. و السحب المكفهرة عند الأفق... ربما لم يعد ذلك كله يخطر الا في الأحلام، في دفء وسادة المستشفى المبللة بالدموع...

كان قالكا يقتحم تلك الأحلام، كما تراءى لها، بلحمه ودمه

---

* الكسندر هيرتسين (١٨١٢–١٨٧٠) فيلسوف وكاتب من اقطاب الديمقراطيين الثوريين الروس، ناضل بحزم ضد الحكم القيصري المطلق. **المعرب.**

في سورة الغضب، وفي يده جلة حديدية بحزام، تزن خمسة ارطال. لقد طرد فالكا بريكين هذا من المدرسة لعربدته، فتطوع للقتال في الجبهة، وبعد سنة ظهر ثانية في قازان وهو يزهو بحلة خيال وبوسام صليب جورجي للجنود. وقيل ان اباه، مأمور الشرطة بريكين (ذلك الذي اصدر الأمر الشهير «بأن يدخل رجال الشرطة دور العبادة دون مجهود») قد قدم التماسا الى قائد قوات المنطقة العسكرية بأن يرسلوا ابنه فالكا الى اقصى المواقع الأمامية، حيث يمكن ان يلقى حتفه بلا ريب، لأنه من الأفضل لقلب الأب ان يرى هذا الوغد ميتا لا حيا... وكان فالكا جائعا دائما، ونهما للملذات، وجسورا كالشيطان. وعلمته الحرب الحذاقة، فعرف أن الدم تفوح منه رائحة الحموضة و.. لا شيء آخر... واطلقت الثورة له العنان.

حطمت جلته الحديدية جليد احلام اولغا الوردية، واذا به هش الى درجة مروعة، بينما كانت تحلم بأن تبني عليه هناءها: الزواج، والحب، والأسرة، والبيت المستقر السعيد... وكانت الأغوار السحيقة تكمن تحت الجليد... فما ان تحطم حتى تفجرت الحياة، الفظة والمشبوبة، فاكتسحتها بأمواجها العكرة.

وتقبلت اولغا فيتشيسلافوفنا ذلك كما هو عليه: الصراع المسعور (حاولوا قتلها مرتين فلم يقتلوها، ولم تعد تخشى أي شيء الآن) والكراهية بكل ما في النفس من قوة، وكسرة الخبز لطعام اليوم، والقلق الرهيب من حب لم يتكشف بعد.. تلك هي الحياة... كان يميليانوف يجلس بجوار سريرها، فتحشر هي الوسائد خلف ظهرها وتقبض بأصابعها النحيلة على طرف البطانية، وتتحدث وهي تحدق في عينيه بثقة بريئة:

— كنت اتصور الحياة كالتالي: زوجي رجل أشقر محترم، وانا ارتدي بنوارا ورديا، ونجلس وصورتانا تنعكسان في ابريق القهوة النيكلي. ولا شيء اكثر!.. تلك هي السعادة، اوه كم امقت الآن تلك الفتاة... كانت تنتظر السعادة، هذه الحمقاء الكسول، في قميص وردي، بجوار ابريق القهوة!... تلك الوغدة!...

اما يميليانوف فكان يجلس مرتكزا بقبضتيه على فخذيه،



ويضحك من روايتها. ودون ان تدرك ذلك كانت اوليتشكا* تجهد أن تندمج بكل كيانها فيه... لم تكن تراودها الآن سوى رغبة واحدة: ان تنتزع جسدها من فراش سرير المستشفى. وقصت شعرها، وحصل لها يميليانوف على معطف خيالة قصير، وعلى سروال ازرق بشريط احمر، وكما وعدها، على حذاء أنيق من جلد الماعز.

وفي نوفمبر خرجت اولغا فيتشيسلافوفنا من المستشفى. ولم يكن لديها في المدينة اقارب أو معارف. كانت السحب الشمالية تمرق فوق الشوارع الخاوية والمتاجر الموصدة، وتهطل مطرا وثلجا. وراح يميليانوف يضرب بحذائيه في الوحل بهمة من حارة الى اخرى بحثا عن مسكن. وسارت اوليتشكا خلفه بخطوة وهي تجرجر قدميها، في معطف مبلل ثقيل وفي الحذاء المنزوع من قدمي تلميذ قتيل، وكانت ركبتاها ترتعشان. بيد انه من الافضل ان تموت على ان تتخلف عن ديمتري فاسيليفتش. لقد حصل من اللجنة التنفيذية على اذن سكن للرفيقة زوتوفا التي عذبها الحرس الابيض، فاخذ يبحث عن مسكن غير عادي. واخيرا وقع اختياره على قصر كبير، بأعمدة ونوافذ مرآوية، كان ملكا للتجار آل ستاروبوجاتوف الذين هجروه، فصادره. ومن النوافذ المحطمة لهذا البيت المهجور كانت الريح تتجول عبر صفوف الغرف ذات الاسقف المنقوشة والأثاث المذهب الممزق. وكان رنين شاك يصدر عن حبات البلور في الثريات، وفي الحديقة يتردد حفيف كئيب لأشجار الزيزفون العارية. وفتح يميليانوف الباب ذا المصراعين بضربة من قدمه.

— انظري، هؤلاء الملاعين قد تبرزوا على الارضية الباركيه مباشرة، كنوع من الاحتجاج...

وفي قاعة الاستقبال حطم ارغنا من البلوط — كان يمتد بطول الحائط — وحمل خشبه الى غرفة بها كنبة، حيث اشعل في المدفأة نارا حامية.

* تدليل من الأسم الكامل: اولغا. **المعرب.**

– هنا يمكنك ان تضعي غلاية الشاي، المكان دافىء ومضيء... كانوا يعرفون كيف يعيشون، هؤلاء البرجوازيون...

وجاء لها بغلاية شاي من الصفيح، وبجزر مجفف لتغلية بدلا من الشاي، وبجريش، وشحم خنزير وبطاطس، اي بكل التعيين الغذائي لاسبوعين، وبقيت اولغا فيتشيسلافوفنا وحيدة في المنزل المظلم الكبير، حيث كانت مداخن المدافىء تعوي برهبة، كانما كانت اشباح التجار آل ستاروبوجاتوف تعول من الوحشة وهي جالسة على السقف تحت مطر الخريف...

كان لدى اولغا فيتشيسلافوفنا ما تشاء من الوقت للتفكير. فكانت تجلس على الكرسي وتحدق في النار حيث تبدأ غلاية الشاي في الصفير، وتفكر في ديمتري فاسيليفتش، ترى هل سياتي اليوم؟ حسنا لو انه جاء، فلديها الآن بطاطس مسلوقة وكانت تسمع وقع خطواته من بعيد فوق الباركيه الداوي. وعندما كان يدخل – مرحا، رهيب النظرات – تدخل معه حياتها... وينزع المسدس وقنبلتين يدويتين، ويلقي بالمعطف المبلل، ويسالها هل كل شيء على ما يرام، الا تحتاج الى شيء.

– المهم ان يزول سعال الصدر والا يكون في البلغم دم... على راس السنة سيكون كل شيء على ما يرام.

وبعد ان يرتوي من الشاي، ويلف لفافة ماخوركا*، يروح يحدثها عن الامور الحربية، ويصف لها معارك الخيالة في صور معبرة، وياخذه الحماس احيانا حتى ليتملكها الرعب عندما تنظر الى عينيه الصقريتين.

يقول مادا ساقيه وسط الغرفة ومستلا سيفه من غمده:

– الحرب الامبريالية حرب مواقع، حرب خنادق. ولكن الثورة انشات جيش الخيالة... هل تفهمين؟ الحصان هو قوة طبيعية جامحة.. ومعركة الخيالة هي رفقة ثورية.. ها انذا امسك في يدي بسيف، وانقض مخترقا تشكيل المشاة، اندفع نحو وكر

* تبغ قوي رخيص. المعرب.



الرشاش... فهل يستطيع العدو أن يصمد أمام منظري هذا؟ مستحيل... فيهرب في ذعر، وانا امزق بسيفي.. وخلف كتفي جناحان... اتعرفين ما هي معركة الخيالة؟ سيل من الحمم ينقض على سيل دون اطلاق نار... ويرتفع الهدير.. وانت كالثمل.. ويصطدمان... ويبدأ العمل.. دقيقة، اثنتان لا اكثر... القلب لا يتحمل هذه الفظاعة... ويقف شعر العدو رعبا... و يدير العدو اعناق الخيول.. وعندئذ فلتنقض عليه تمزيقا، ولتطارده... ولا أسرى...

كانت عيناه تلمعان كالفولاذ، وسيفه الفولاذي يصفر في الهواء... وتحدق فيه اولغا فيتشيسلافوفنا وقد اقشعر بدنها من التوتر، معتمدة بكوعيها على ركبتيها، ضاغطة ذقنها في قبضتيها المضمومتين.. ويخيل اليها انه لو شق هذا النصل المصفر قلبها لصرخت من الفرحة .. الى هذا الحد كانت تحب هذا الرجل ...

لماذا كان يشفق عليها؟ امن المعقول انه لم يكن لها الا الشفقة؟ اكان يعطف على هذه اليتيمة ككلب صغير التقطوه من الشارع؟ كان يخيل اليها احيانا انها اقتنصت نظرته العابرة – نظرة سريعة يغلفها شعور ليس اخويا... فيندفع الدم الحار الى خديها، ولا تدري اين تخفي وجهها، ويسقط قلبها الخافق الى هوة سحيقة.. ولكن لا... ها هو يخرج من جيبه صحيفة موسكوفية، ويجلس امام النار ليقرأ بصوت مسموع مقالة هجائية – في اسفل الصفحة، حيث ينهالون بالشتائم المنتقاة ومن صميم القلب على البرجوازية العالمية... وكان يصيح وهو يدق الأرضية بقدميه من المتعة: «سنبلغ الهدف ان لم يكن بالرصاصة. فبالكلمة اللاذعة.. انظر كيف يكتبون.. يا لهم من شياطين!».

وحل الشتاء. وتحسنت صحة اولغا فيتشيسلافوفنا. وذات مرة جاءها يميليانوف مبكرا، قبل الفجر، وامرها ان ترتدي ملابسها، واخذها الى ميدان التدريب، حيث درس لها القواعد الأولية لركوب الخيل ومعاملة الحصان. وفي الفجر هطل ثلج ناعم. وركضت أولغا فيتشيسلافوفنا بالجواد في الميدان الأبيض، مخلفة وراءها آثارا رملية من حوافر الحصان. وكان يميليانوف

يصيح بها: «تجلسين، يا بنت ال..، كالكلب على «السور! لملمي مشطيك، لا تميلي!». ويراودها الضحك.. والهواء يصفر في اذنيها بالفرحة، ويثمل الصدر، وعلى رموشها تذوب ندف الثلج.

- ٣ -

كانت قوة جبارة تكمن في هذه الفتاة الضعيفة، ولم يكن مفهوما من اين جاءتها. فخلال شهر من التدريب في تشكيلات الخيالة والمشاة على ارض ميدان التدريب، اصبح عودها مشدودا كالوتر، ووردت الريح القارسة وجنتيها. وكان يميليانوف يقول: «لو نظرت اليها عن بعد لظننت انك لو نفختها فستطير، ولكنها في الواقع شيطانة...» وكانت جميلة بدرجة شيطانية.. وعندما كانت تمر عبر دخان الماخوركا في الثكنات، بقامتها الدقيقة الطويلة، وتاج شعرها الاسود الجميل، وفي معطفها القصير المشدود بالسيور المتقاطعة، وهي تصلصل بمهمازيها، كان الخيالة الشبان يرعشون انوفهم، اما المجربون منهم فيستغرقون في التفكير.

وعرفت يداها النحيلتان كيف توجهان الحصان بمهارة ورقة. اما ساقاها، اللتان، كان يبدو، انهما لا تصلحان الا للرقصات البرجوازية وللتنورات الحريرية، فقد اكتملتا وامتلأتا، وادهشت يميليانوف بصفة خاصة قصبتا.. كانتا كالحديد، شديدتي الحساسية، تقبض بهما على بطن الحصان كالقرادة، ويستسلم لها الحصان كنعجة. وتعلمت استخدام السيف، فكانت تهوي به على الاهداف باقدام، ولكن ضربتها بالطبع لم تكن حقيقية، لأن قوة الضربة كلها تكمن في الكتف، وكانت كتفاها انثويتين.

وكانت نبيهة كذلك فيما يتعلق بالتحصيل السياسي. وكان يميليانوف قلقا على هذه «الجشاة البرجوازية». فقد كان العصر حينها قاسيا. «يا رفيقة زوتوفا، ماهو الهدف الذي يسعى اليه جيش العمال والفلاحين الأحمر؟..»، فتقفز أولغا فيتشيسلافوفنا، وتجيب دون تلعثم: «الكفاح ضد الراسمالية الدموية، وضد الاقطاعيين والقسس وقوات التدخل من اجل سعادة كل الكادحين على وجه الارض...». والحقت زوتوفا جنديا في الفصيل الذي



كان يقوده يميليانوف. وفي فبراير شحنوا الفوج في عربات القطار ودفعوا به الى الجبهة للقتال ضد دينيكين.

عندما وقفت اولغا فيتشيلافوفنا ممسكة بلجام الحصان فوق ثلج المحطة الملوث بالروث، حيث كانت العربات تفرغ، ونظرت الى لهيب المغيب المظلم الأحمر كجمرات الفحم، والمائل الى الزرقة والملفع بالسحب الراكضة، واصغت الى هدير المدفعية البعيد.. استيقظ في روحها الماضي القريب كله اهانة لا تنسى وحقدا انتقاميا. ودوى صوت يميليانوف: «كفوا عن التدخين!.. الى الخيول!»، واعتلت السرج بحركة خفيفة، وضربها السيف في فخذها.. الآن لن تحاولوا ايها الاوغاد ان تمزقوا قميصي، وتهددوني بالجلة الحديدية، لن تستطيعوا سحبي من تحت ابطي الى القبو! «الى الامام رمحا!..»، وصر السرج، وصفرت الريح الرطبة، وحدقت العيون في ظلمة المغيب الدامية. وتذكرت كلمات صديقها الحبيب كاغنية مهدهدة: «لقد افلتت الخيول من عقالها، فلن نتوقف، اللهم الا عند المحيط»... هكذا بدأت حياتها الحربية.

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

كان الجميع في الفصيل يدعون أولغا فيتشيسلافوفنا بزوجة يميليانوف. ولكنها لم تكن زوجته. وما كان احد ليصدق، بل ولمات ضحكا لو عرف ان زوتوفا عذراء. ولكنهما،هي ويميليانوف، اخفيا هذا الأمر. فأن تعتبر زوجة لهو اكثر فهما وبساطة، فلم يحاول احد ان يمد يده اليها، اذ كان الجميع يعرفون ان قبضة يميليانوف ثقيلة، وقد اضطر عدة مرات الى اثبات ذلك، فاصبحت زوتوفا بالنسبة للجميع اخا صغيرا.

وأملت واجبات زوتوفا عليها كجندي مراسلة ان تكون دائما بجوار قائد الفصيل. واثناء الحملات كانت تبيت معه في غرفة واحدة وفي كثير من الأحيان، على سرير واحد، فكان يجعل رأسه من جهة وتجعل راسها من الجهة الأخرى، ويتغطى كل منهما بمعطفه، وبعد المسيرات النهارية المرهقة، لخمسين كيلومترا، وبعد نزع عدة الحصان، وازدراد الطعام من القدر على عجل، كانت اولغا فيتشيسلافوفنا تنزع حذاءها، وتفك ازرار رقبة القميص الخشن وتغيب في النوم ما أن تلامس الأريكة، او الفرن، او طرف

السرير.. ولم تكن تسمع حركة يميليانوف وهو يأوي الى الفراش او عندما ينهض. كان ينام كالوحش، نوما قصيرا. وكأنما يصيخ السمع باحدى اذنيه الى الاصوات الليلية.

كان يميليانوف يعاملها بصرامة، دون ان يميزها بشيء عن بقية المقاتلين، بل ربما كان يتشدد معها اكثر مما مع الآخرين. ولم تدرك الا الآن قوة عينيه الصقريتين.. لقد كانت تلك نظرة قتال. لقد زالت عنه البشاشة وسلاطة اللسان اثناء الحملات مع الشحم الزائد. وبعد جولة التفتيش الليلية، وبعد ان يجد الخيول على ما يرام، والجنود نائمين والحراس ونقاط المراقبة في اماكنها، كان يميليانوف يدلف الى الدار مرهقا، تفوح منه بشدة رائحة العرق، فيجلس الى الأريكة لكي ينزع بآخر جهده حذاءه المنتفخ، وكثيرا ما كان يبقى جالسا هكذا مكدودا. بحذاء نصف منزوع في احدى قدميه. ويقترب من السرير، فيحدق لدقيقة في وجه أولغا فيتشيسلافوفنا الملتهب اثناء النوم، الملوح، الانثوي والطفولي. وتغيم عيناه، وترتسم على شفتيه ابتسامة رقيقة. ولكنه ماكان ليغفر لها هفوة.

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

كانت زوتوفا تنقل مظروفا الى اركان الفرقة. وفوق السهوب الخضراء تارة، والرمادية الفضية تارة عندما تنتشر اعواد الشيح، صدحت سماء مايو الصحو بغناء القبرات. وكان بطن الجواد يعلو وينخفض، وهو يسير بخبب ناعم كالرهوان. ومن حين لآخر كانت الجرذان الصفراء تقطع الطريق وهي تركض مسرعة. في صباح كهذا يمكن ان تنسى ان هناك حربا دائرة. وان العدو يضيق الخناق ويحاصر، وفرق المشاة تنسحب الى المؤخرة دون قتال بعد ان تحطم العربات، وفي المدن جوع، وفي القرى تمردات. اما الربيع فكان يزين الأرض كسابق عهده، ويهيج المشاعر بالأمنيات، حتى الحصان، المتصبب عرقا من قلة الطعام كان ينفر بمنخاريه، ويقلب عينيه الليلكيتين، هذا الوغد، مستطلعا ما اذا كان يمكن ان يلهو ويمرح.

سار الطريق بحذاء بركة تكاد تحجبها اعشاب السعد وينعكس في مياهها جرف طباشيري مليء بالتكسرات. وبدل الحصان خطوته وانحرف الى المياه. وترجلت زوتوفا، وفكت لجامه، فخاض في



الماء الى ركبتيه وراح يشرب، ولكن ما أن جرع جرعة حتى رفع بوزه العاري واطلق صهيلا عاليا قلقا وبدنه يرتجف كله. وعلى الفور تردد صهيل مجاوب من خلف شجيرات صفصاف في طرف البركة. فاسرعت زوتوفا بتلجيم الحصان، وقفزت الى السرج. وشدت من وراء ظهرها غطاء البندقية وهي تدقق النظر وغاصت راسان بين شجيرات الصفصاف، وخرج الى الشاطيء اثنان، فارسان وتوقفا. كانت تلك دورية. ولكن دورية من؟ دوريتنا ام دورية البيض؟

مد فرس احدهما عنقه الى اسفل ليطرد الذباب عن ساقه، فانحنى الفارس ليلتقط اللجام، واذ بعلامة الاكتاف الذهبية تلمع على كتفه... «اهربي!» قالت اولغا فيتشيسلافوفنا لنفسها وضربت الجواد بغمد السيف وانحنت.. وطارت اغصان الشيح والاعشاب الجافة نحوها... وتناهى من خلفها وقع حوافر ثقيل يطاردها... طلقة... ونظرت بطرف عينها.. كان احد الفارسين يركض الى اليمين في نصف دائرة ليقطع عليها الطريق. وكان حصانه الأحمر، من خيول الدون، يعدو بوثبات كبيرة ككلب صيد... وطلقة اخرى من الخلف.. ونزعت بندقيتها من فوق ظهرها. وتركت اللجام. وكان الفارس على حصان الدون يركض على بعد حوالي خمسين خطوة منها. وصرخ بصوت رهيب: «قف! قف!» وهو يلوح بالسيف... كان ذلك هو فالكا بريكين. لقد عرفته، فضربت الحصان بالمهماز ومضت لملاقاته، واشرعت البندقية، فبرقت طلقتها بحقد لافح... وهز جواد الدون راسه، وقفز واقفا على قائمتيه الخلفيتين، ثم انهار على الفور ساحقا الفارس تحته... وصاحت هي بوحشية وفرح «فالكا! فالكا!». وفي تلك اللحظة انقض عليها من الخلف الفارس الآخر.. لم تر غير شاربيه الطويلين، وعينيه الواسعتين، المحملقتين في ذهول: «انها امرأة!». ورن سيفه بوهن على ماسورة بندقية أولغا فيتشيسلافوفنا. واندفع به الجواد مارا بها. ولم تعد البندقية في يدها - يبدو انها قذفته بها او سقطت منها (لم تستطع ان تحدد ذلك عندما روت الواقعة فيما بعد). واحست في يدها بثقل داع بطيء لحد السيف الذي استلته، وصرخ حلقها المخنوق واندفع الحصان الى المطاردة فادرك الفارس،

فاهوت بالسيف بكل قوة. وتمدد ذو الشارب على «الحصان قابضا بكلتا يديه على قفاه.

وانطلق الحصان حاملا اولغا فيتشيسلافنا عبر السهوب الشحيحة وهو يتنفس بحدة. ورأت انها ما زالت تشد يدها على مقبض السيف، فدسته في غمده بصعوبة ويدها ترتعش. ثم اوقفت الحصان. اصبح الجرف الطباشيري و البحيرة الصغيرة خلفها الى اليسار بمسافة بعيدة. وكانت السهوب خاوية، ولم يعد هناك من يطاردها، وتوقف اطلاق النار. وفي الزرقة الساطعة صدحت القبرات باصوات عذبة حلوة، كما في ايام الطفولة. وامسكت اولغا فيتشسلافوفنا بتلابيب قميصها، واطبقت باصابعها على زورها وهي تحاول بهلع ان تتمالك نفسها، ولكنها لم تفلح.. فقد طفرت دموعها، وانخرطت في البكاء وجسدها كله ينتفض فوق السرج.

وبعد ذلك، وفي طريقها الى مقر اركان الفرقة، ظلت تمسح عينيها غاضبة بهذه القبضة تارة، وبتلك تارة اخرى.

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

اجبروها في الفصيل على اعادة رواية هذا الحادث مائة مرة. وكان الجنود يقهقهون ويديرون رؤوسهم، ويتساقطون على الارض من شدة الضحك.

– انظروا ياجماعة! يا لها من مضحكة! امراة قضت على رجلين!..

– مهلا، اكملي.. اذن فقد هجم عليك من الخلف وفجأة صاح: «امراة!»

– وهل كانت شواربه طويلة؟

– حملق بعينيه ، اندهش.

– ولم يرفع يده بالسيف؟

– هذا مفهوم.

– فاهويت انت على قفاه.. آه يا اخوتي، سأموت من الضحك.. ياله من فارس مغوار.

– ثم ماذا فعلت بعد ذلك؟

فكانت اولغا فيتشيسلافوفنا تجيب: – ماذا «بعد ذلك»؟ كالعادة.. مسحت السلاح، واسرعت بالرسالة الى الفرقة.

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . .



كان هناك شيء مزعج حقا في حياة القتال: ذلك الخجل الذي لم تستطع أولغا ان تتغلب عليه. وكانت تشعر بالأسى خاصة عندما يبلغ الفصيل في يوم حار نهيرا أو بركة. فكان الجنود يندفعون الى الماء عرايا فوق ظهور الجياد المنزوعة سروجها وهم يقهقهون ويتصايحون وسط اقواس قزح المنعكسة في رذاذ الماء. اما زوتوفا فكان عليها ان تبحث عن مكان منعزل، في مكان ما وراء خميلة، خلف اعواد الغاب فكانوا يصيحون بها:

– ياللفتاة الحمقاء، شدي على جسمك لفائف الاقدام وتعالي معنا.

كان يميليانوف صارماً في متابعة النظافة والهندام. وكان يقول: «اذا اصيب الخيال بدمل في اليته فليخرج من الصفوف، فهو ليس بمقاتل. على الخيال ان يحافظ اكثر ما يحافظ على طيـ.... فاذا سمحت الظروف فلتصب الماء على جسدك عند البئر صيفا وشتاء، مع ربع ساعة من التمرينات الرياضية.

وكان صب الماء على الجسم عند البئر أمرا معقدا بالنسبة لها كذلك: اذ كان عليها ان تنهض قبل الجميع، وتركض فوق الندى القارس والصبح ينبلج لتوه شفقا أحمر من بين ثنايا السحب والضباب. وذات مرة دلت ذراع البئر الذي صدر عنه صرير شاك وسحبت دلوا بماء مثلج كريه الرائحة، ووضعته على حافة البئر، ونزعت ثيابها وهي تنكمش من الرطوبة، فاحست وكأنما من ظهرها شيء دون صوت.

والتفتت. كان يميليانوف يقف على فسحة الدرج وهو يحدجها بنظرة غريبة ثاقبة. عندئذ دارت ببطء فوقفت وراء الجانب الآخر من البئر وجلست فلم يعد ظاهرا منها سوى عينيها المحملقتين دون ان تطرفا. ولوكان الناظر اليها احدا آخر من رفاقها لصاحت فيه ببساطة:

«مالك تحملق ايها الشيطان، استدر!». ولكن صوتها جف في حلقها من الخجل والاضطراب. وهز يميليانوف كتفيه ، وضحك ضحكة قصيرة ساخرة وانصرف.

كانت تلك حادثة تافهة، ولكن كل شيء تغير منذ ذلك الحين.

اصبح كل شيء معقدا، حتى أبسط الامور. وتوقف الفصيل للمبيت
في قرية محترقة. ولم يكن هناك سوى سرير واحد للنوم، كما حدث
كثيرا من قبل. وفي تلك الليلة رقدت أولغا فيتشيسلافوفنا على
اقصى طرف السرير، على حشية فاحت منها رائحة الخيول، ولم
تستطع طويلا ان تنام، رغم انها كانت تغمض جفنيها بكل قوتها.
ومع ذلك لم تسمع صوت يميليانوف عندما جاء. وعندما ايقظها صياح
الديكة، وجدته نائما على الارض.. قرب الباب.. لقد اختفت
البساطة.. وكان ديمتري فاسيليفتش يتجهم عندما يتحدث معها،
ويحول نظراته عنها. وكانت تشعر في وجهه وفي وجهها بنفس
التوتر، وبقناع من التظاهر. مع ذلك كانت تحيا تلك الفترة وهي
ثملة بالسعادة.

وحتى ذلك الحين لم تشترك زوتوفا في معركة حقيقية. كان
فوجهم يتراجع مع الفرقة نحو الشمال. واثناء المناوشات الخفيفة كانت
دائما تتواجد بقرب قائد الفصيل. ولكن هاهو قد وقع مكروه كبير
في مكان ما من الجبهة، فتناقلته الألسن بقلق ووجوم. وتلقى
الفوج امرا باختراق خطوط العدو للخروج من الطوق، والسير عبر
مؤخرته، ثم اختراق خطوطه مرة اخرى نحو اقصى جناح الجيش.
ولاول مرة سمعت أولغا فيتشيسلافوفنا كلمة «غارة». وتحركوا على
الفور. وكان فصيل يميليانوف في المقدمة. وبحلول الليل توقفوا
في غابة دون ان ينزعوا اعنة الجياد ودون ان يشعلوا النيران. ونقر
مطر دافيء على اوراق الشجر، ولو مددت ذراعك امامك لما رأيتها.
وجلست أولغا فيتشيسلافوفنا على جذل شجرة، واذا بيد حانية
تستقر على كتفيها. وخمنت يد من هذه، فتنهدت والقت براسها الى
الوراء. وانحنى ديمتري فاسيليفتش عليها وسألها:

— ألن تخافي؟ حسنا، حسنا ... فلتكوني على مقربة
مني ...

ثم صدر الأمر بصوت خافت، فامتطى الجنود خيولهم دون صوت.
وانعطفت أولغا فيتشيسلافوفنا بالجواد جزافا فلمست بركابها
يميليانوف. وساروا طويلا بالخطوة العادية للجياد. بقبق الوحل
تحت حوافر الخيول، وتناهت من مكان ما رائحة القطر. ثم ظهرت في
الظلام الدامس شقوق مضيئة عكرة، اذا خفت كثافة الغابة. والى



اليمين، على مسافة قريبة جدا، اندفعت ابر نارية، وانداحت طلقات
مدوية عبر الغابة السوداء. وصاح يميليانوف صيحة طويلة:
«استلوا السيوف، مارش، مارش!» وضربت الاغصان المبللة
الوجوه وتلاصقت الجياد وهي تشخر، واصطدمت الركب بجذوع
الاشجار. وسرعان ما امتدت امام البصر فسحة رمادية، داخنة،
منحدرة الى اسفل، ورمحت فيها ظلال الخيالة. وانتهى الشاطيء
فجأة. وغرزت أولغا فيتشيسلافوفنا المهماز في بطن الحصان فشد
كفله واندفع الى النهر...

واخترق الفوج الى مؤخرة العدو. وركضوا في الظلام تحت
السحب المنخفضة. وأزت السهوب تحت سنابك خمسمائة حصان.
ودوت صيحات النفير وهم يركضون متقطعة. ثم صدر الأمر
بالترجل. ووزعت على الفصائل شارات الاكتاف واغطية الرأس.
وجمع يميليانوف الجنود في دائرة. وقال مخاطبا:

— نحن الآن، ولاغراض التخفي، فوج مجمع تابع لجيش شمال
القوقاز بقيادة الفريق البارون فرانجل. هل وعيتم هذا يا ابناء
الفراخ؟ (وقهقه الجنود). من يضحك هناك، اغلق فمك، صمتا. انالم
اعد بالنسبة لكم «الرفيق القائد» بل «صاحب السعادة السيد
النقيب» (واشعل عود ثقاب فلمعت على كتفه شارة مذهبة بخط
واحد). وانتم الآن لستم «رفاقا» بل «الرتب الدنيا». ينبغي ان
تشدوا قاماتكم، وتؤدوا التحية وتتكلموا بصيغة الجمع. «اخرس!
انتباه!»، مفهوم؟ (وقهقه الفصيل كله، وراحوا يشدون قاماتهم،
ويؤدون التحية، ويحشرون مع كلمة «صاحب السعادة» شتى الكلمات
الشعبية) هيا ثبتوا شارات الاكتاف، وخبئوا النجوم الحمراء في
جيوبكم، والبسوا اغطية الرأس فوق العمرات...

وركض الفوج المتخفي ثلاثة ايام في الخطوط الخلفية لجيش
فرانجل. وكانت اعمدة الدخان الأسود تتصاعد في المرة، اذ كانت
تشتعل قطارات السكك الحديدية والمخازن الحربية والمحطات،
وتنفجر مضخات المياه ومخازن البارود. وفي اليوم الرابع تعبت
الخيول وبدات تتعثر، فتوقفوا للراحة نهارا في احدى القرى
النائية. ونظفت أولغا فيتشيسلافوفنا جوادها، وانهارت بقربه
فنامت على التو فوق الدريس. واستيقظت على ضحكات نسائية..

كانت هناك فلاحة متوردة الخدين، في تنورة سوداء معقودة فوق سمانتي ساقيها العاريتين، تشير بيدها الى زوتوفا قائلة لشخص ما: «ياله من فارس جميل..» ومضت الفلاحة تنشر في الفناء شرائط الجوارب المغسولة.

وعندما دخلت أولغا فيتشيسلافوفنا المنزل كان يميليانوف جالسا الى الطاولة، مرحا، لم يفق من النوم، وكان الزغب عالقا بشعره وقدماه عاريتين. اذن فقد غسلوا له شرائط جواربه.

وقال لأولغا فيتشيسلافوفنا:

– اجلسي. سيحضرون الحساء الآن. اتريدين فودكا؟

ودخلت نفس الفلاحة المتوردة حاملة قدر حساء وهي تحول خدها المتورد عن البخار المتصاعد العبق. ودقت بالقدر وهي تضعه امام انف يميليانوف تماما، وهزت كتفها المليئة.

وقالت بصوت رفيع ناغم:

– كنا في انتظارك، وهاهو الحساء... – كانت جريئة، وقحة... – غسلت لك شرائط جواربك، ستجف في غمضة عين... – ولعقت يميليانوف بنظرة من عيني كلبة.

اما هو فكان يتنحنح باستحسان وهو يجرع الحساء.. وكان في هيئته كلها شيء من النعومة والدعة.

ووضعت أولغا فيتشيسلافوفنا الملعقة.. لقد لدغتها حية رقطاء في قلبها.. فاصفرت كالاموات، ونكست راسها. وعندما خرجت الفلاحة من الغرفة، اسرعت فلحقت بها في المدخل، وامسكت بيدها وفحت وهي تكاد تختنق:

– ماذا دهاك، هل تريدين ان تموتي؟..

فندت عن الفلاحة آهة، وجذبت يدها بقوة، وركضت مبتعدة.

ونظر ديمتري فاسيليفتش الى أولغا فيتشيسلافوفنا عدة مرات مذهولا، وهو لا يدرك ماذا جرى لها؟ ولكن عندما امتطى جواده رأى عينيها الضاريتين المعتمتين و فتحتي انفها المتسعتين، وتلك الفلاحة البسيطة تطل من خلف ركن الحظيرة مذعورة كالجرذ، فادرك كل شيء وقهقه ضاحكا، كما كان يضحك في السابق، كاشفا صف أسنانه البيضاء كله، وعندما مر من البوابة لمس بركبته ركبة اولغا وقال برقة غير متوقعة:





– يالك من عبيطة...

فكادت الدموع تطفر من عينيها.

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

في اليوم الخامس اكتشفوا ان فرقة قوزاقية كاملة تتعقب اثر الفوج الاحمر المتنكر. اصبحوا الآن ينسحبون بأقصى سرعة، تاركين الجياد المنهكة. وعندما حل الظلام نشبت معركة في مؤخرة الفوج، وسلم علم الفوج للفصيل الأول. واندفعوا دون توقف فاقتحموا قرية مظلمة، بلا اضواء، واخذوا يدقون بمقابض السيوف على شيش النوافذ. وعوت الكلاب، وبدا كل شيء حولهم بلا حياة، الا ان الناقوس دق في البرج ثم سكن.

و اقتادوا فلاحين مشعثين كالغيلان وجدوهما مختبئين في كوم قش. تطلعا الى الفرسان ومضيا يرددان جملة واحدة:

– يا اخوان، يا احباء، لا تقتلونا...

وانحنى يميليانوف من السرج وصرخ:

– هل قريتكم مع البيض ام مع الحمر؟

– يا اخوان، يا احباء، نحن لا نعرف... اخذوا منا كل شيء، نهبونا، سلبوا كل شيء...

ومع ذلك استطاعوا ان يستخلصوا منهما ان القرية لم يحتلها احد بعد، وانها في انتظار وصول قوزاق الجنرال فرانجل فعلا، وان البلاشفة متخندقون وراء النهر، خلف جسر السكة الحديدية. وخلع الفوج شارات الاكتاف، وعلق النجوم الحمراء، وعبر الجسر منتقلا الى صفوف الجيش الأحمر. وهناك اتضح ان البيض يهاجمون على الجبهة كلها كالمساعير، وقد صدر الأمر بحماية هذا الجسر حتى الموت، بينما لايوجد هناك ما يحاربون به، فاشرطة الرصاص ذات عيار مخالف لعيار الرشاشات، والقمل منتشر بين الجنود في الخنادق، وليس هناك خبز، وقد انتفخت اجساد الجنود الحمر تماما من اكل الحبوب المسلوقة، وما ان يأتي الليل حتى يتشتتوا، اما الداعية السياسي فقد مات من الاسهال.

واتصل قائد الفوج بالقائد الاعلى عبر التلفون، فاتضح بالفعل انه ينبغي الدفاع عن الجسر حتى آخر قطرة دم، الى ان يخرج الجيش من طوق الحصار.

. . . . . . . . . . . . . . . . . . .

قال يميليانوف:

— لن نمضي من هنا احياء.

وملأ قدرين من ماء النهر واعطى احديهما لأولغا فيتشيسلافوفنا، وجلس بجوارها وهو يحدق في ملامح الشاطىء البعيد غير الواضحة. كانت هناك نجمة عكرة مائلة الى الصفرة تطل فوق النهر. وقد ظلت مدفعية فرانجل تدمر خنادق البلاشفة طول النهار بنيرانها الكثيفة. وفي المساء، تلقوا امرا بعبور الجسر وطرد البيض بعيدا عن النهر واحتلال القرية.

وحدقت أولغا فيتشيسلافوفنا في اثر النجمة العكر الثابت المنعكس في صفحة النهر، الذي كان يبعث في النفس الوحشة.

وقال يميليانوف:

— حسنا، هيا يا اولغا. ينبغي ان ننام ساعة.

وكانت تلك أول مرة يناديها فيها باسمها مجردا.

من بين الخمائل زحفت اشباح الجنود حاملة قدور الماء نحو الشاطىء الشديد الانحدار، فطول النهار لم يذق احد قطرة ماء لتعذر الوصول الى النهر. وكان الجميع قد علموا بالأمر الرهيب الصادر اليهم. وبدا للكثيرين ان هذه الليلة هي الاخيرة.

وقالت اولغا فيتشيسلافوفنا بلوعة خافتة:

— قبلني.

فوضع القدر على الارض بحذر وجذبها نحوه من كتفيها، وسقطت عمرتها من على راسها، واغمضت عينيها، وراح يقبلها في عينيها وشفتيها وخديها.

— بودي لوتزوجتك يا اولغا، ولكن الآن مستحيل، أتفهمين...

. . . . . . . . . . . . . . . . . . .

صدت الهجمات الليلية. فقد حصن البيض الجسر ووضعوا عند طرفه الأسلاك الشائكة و اطلقوا نيران المدافع الرشاشة على امتداده. لاح الفجر الرمادي فوق النهر الداخن، وفوق المروج الرطبة وكانت التربة تتطاير على كلا الشاطئين كل لحظة وكأنها خمائل سوداء تنمو. وعوى الهواء وصرخ، وتفجرت قنابل الشرابنل



سحابات كثيفة. ومن شدة القصف جن جنون الجنود. وتبعثرت جثث كثيرة بجوار الجسر مغروزة في الارض، مبسوطة الاذرع. عبثا ضاعت الجهود. ولم يعد في مقدور الجنود ان يعاودوا الهجوم تحت رصاص الرشاشات.

عندئذ تجمع ثمانية شيوعيين خلف الجسر الترابي للخط الحديدي رافعين علم الفوج. وبدا العلم الممزق المثقوب في ضوء الفجر بلون الدم. وامتطى جنود فصيلتين صهوة الجياد. وقال قائد الفوج: «علينا ان نستشهد يا رفاق» وسار بجواره بالخطوة العادية تحت العلم. و كان الثامن ديمترى فاسيليفتش. وامتشقوا السيوف ولكزوا الجياد بالمهاميز من وراء الجسر الترابي وركضوا بخطوات ثقيلة فوق الواح الجسر الداوية.

وتابعتهم أولغا فيتشيسلافوفنا بنظراتها.. هاهو حصان احدهم يميل على حاجز الجسر، ويسقط الحصان والفارس في النهر من ارتفاع عشر أذرع — وبلغ السبعة منتصف الجسر. وهاهو واحد آخر يسقط من السرج كالنائم. وبلغ الاوائل نهاية الجسر فراحوا يقطعون الاسلاك الشائكة بالسيوف. وترنح حامل العلم الطويل القامة فمال العلم، فاختطفه يميليانوف.. وعلى الفور سقط جواده.

كانت الرصاصات تصفر بحرارة. وركضت أولغا فيتشيسلافوفنا بالجواد فوق الألواح ذات الشقوق على ارتفاع يدير الراس. ومن خلفها دوت وأزت مفاصل الجسر الحديدية وصرخت مائة وخمسون حنجرة. وكان ديمتري فاسيليفتش واقفا، ممسكا بالعلم بين يديه وقد باعد بين ساقيه، ووجهه ميتا، والدم يسيل من فمه. وعندما حاذته اولغا فيتشيسلافوفنا راكضة انتزعت منه العلم، فترنح نحو الحاجز وجلس. ومن جواره مرقت الفصائل.. اعراف الخيول، والظهور المحنية، والسيوف البراقة.

اقتحموا الحواجز الى الناحية الاخرى وولى العدو هاربا وسكتت المدافع. وظل العلم الممزق اربأ يخفق طويلا فوق اعصار الفرسان في الحقل، ثم اختفى وراء خمائل القرية. كان يركض به الآن جندي عريض الوجه، وهو يلكز الحصان بكعبيه العاريتين ويلوح بسارية العلم صائحا: «احصدهم، احصدهم، اضربهم!..»

التقطوا أولغا فيتشيسلافوفنا من الحقل فاقدة الوعي بسبب

السقطة ومصابة بجرح خطير في فخذها. ورثى لها رفاقها في الفصيل بشدة وهم لا يعرفون كيف يخبرونها بمقتل يميليانوف. وارسلوا وفدا الى قائد الفوج لكي ينعم على زوتوفا بمكافأة على بطولتها. وظلوا طويلا يفكرون بم يكافئونها؟ بعلبة سجائر معدنية؟ ولكنها لا تدخن. بساعة؟ ولكن ليس للنساء ان يحملن ساعات. ووجدوا لدى احد الخيالة دبوسا من الذهب الخالص في كيس حاجياته، عبارة عن سهم وقلب. ووافق قائد الفوج على هذه المكافأة دون تردد، الا انه كتب في الأمر الصادر بالمكافأة التحفظ التالي: «تكافأ زوتوفا على بطولتها بدبوس ذهبي به سهم، اما القلب فينزع باعتباره رمزا برجوازيا...».

-٤-

كطير محلق في سماء عاصفة مجنونة، يهوي فجأة كالحجر على الارض مكسور الجناحين كانت حياة اولغا فيتشيسلافوفنا كلها. تمزق حبها المشبوب البريء وتحطم، وامتدت امامها ايام ثقيلة كئيبة لا لزوم لها. وتقلبت طويلا على اسرة المستشفيات، ورحلت في عربات القطارات المتهالكة، ولسعها البرد تحت معطفها البالي، وذاقت مرارة الجوع. وكانت الوجوه حولها غير مألوفة، شريرة، وكانت بالنسبة لهم مجرد رقم في سجل المستشفى، وفي الدنيا كلها لا يوجد شخص قريب. اصبحت الحياة غثة، مظلمة، ومع ذلك لم يستطع الموت ان يقبض روحها.

وعندما خرجت من المستشفى حليقة الشعر تماما، نحيلة الى درجة انها كانت تخب في المعطف والحذاء الطويل وكأنها هيكل عظمي، توجهت الى محطة القطار حيث كانت تعيش وتموت مخلوقات لا تشبه البشر. فالى اين تذهب؟ الدنيا كلها كحقل بري، فعادت الى المدينة، الى مركز التوزيع باللجنة العسكرية، وقدمت وثائقها والدبوس – السهم المكافأة، وسرعان ما استقلت القطار الحربي الى سيبيريا لتقاتل.

دقات عجلات العربات، والصهد المنبعث من حديد المدافىء والملفع بالدخان الازرق، وآلاف الآلاف من الكيلومترات الطويلة



كالطريق نفسه، والأغاني، والروائح الكريهة وثلج الثكنات الملوث بالروث، والحروف الزاعقة للملصقات الحربية و ما لا يعلمه الا الشيطان من اعلانات وافيشات.. مزق من الأوراق تخشخش في الصقيع والاجتماعات العابسة بين الجدران الجذعية في شبه ظلام يلف قنديلا داخنا.. ثم مرة اخرى الثلوج، وأشجار الصنوبر، ودخان النيران، والصوت المألوف لقعقعة السيوف اثناء القتال، والزمهرير، والقرى المحترقة، وبقع الدماء على الثلج، وآلاف آلاف الجثث كأحطاب مبعثرة جلبتها الرياح... كل ذلك اختلط في ذكرياتها وتجمع في شلة واحدة طويلة من المصائب اللانهائية.

أصبحت أولغا فيتشيسلافوفنا نحيلة، سوداء، وكان في مقدورها ان تجرع كحول الموتورات وتدخن الماخوركا وعندما يستدعي الأمر، تطلق من السباب ما لا يقل بذاءة عن سباب الآخرين. ولم يعاملها كامرأة الا القليلون، اذ كانت جد نحيلة وشريرة كالأفعى. حدث ذات مرة ان دخل عليها الثكنة احد الأخوة من مقاتلي الجبهة الذين فقدوا المأوى. وكان ذا شفتين غليظتين – ويدعونه «ابو الشفايف» واراد أن يداعبها، فما كان منها الا ان اهوت بالمسدس على ارنبة انفه بغل مباغت حتى انهم حملوا هذا الاخ الى المستشفى. وقد زاد هذا الحادث مجرد الرغبة في التفكير بهذه «الافعى»...

وساقتها المقادير في الربيع الى فلاديفوستوك. ولأول مرة في حياتها ترى المحيط.. كان ازرق، قاتما، حيا. اندفعت نحو الشاطىء اعراف مزبدة طويلة، وكانت الأمواج ترتفع وهي بعد في الأفق، وعندما تصل، تضرب حاجز الموج وتتطاير سحبا خفيفة. وارادت أولغا فيتشيسلافوفنا ان ترحل على سفينة... فقد انبعثت في ذاكرتها صور كانت تراودها في احلام الطفولة: شواطىء بأشجار لم تر مثلها، وقمم جبلية شاهقة، وشعاع شمس بين سحب لا تحد، و أثر السفينة الوادع... وترحل مارة براس العواصف، وتجلس حزينة ساهمة على حجر عند نهر زامبيزى... بالطبع كل ذلك هراء، لم يأخذها احد على السفينة، ولكن في حانة سرية بالميناء رآها مرشد عجوز فظنها مومسا، وذرف دموعا مخمورة

مشفقا على شبابها الضائع، ووشم يدها برسم مرساة قائلا: «فلتذكري، هذا أمل في النجاة...»

ثم.. انتهت الحرب. فاشترت اولغا فيتشيسلافوفنا من السوق تنورة من قماش ستائر اخضر مخملي، وراحت تعمل في شتى المصالح: كاتبة على الآلة في اللجنة التنفيذية، سكرتيرة في مؤسسة الاخشاب، او هكذا، آنسة مكاتب، تنتقل مع مكتبها من طابق الى طابق.

لم تكن تبقى كثيرا في مكان واحد، وتتنقل طوال الوقت من مدينة الى اخرى مقتربة من روسيا. وكان يخطر ببالها: آه لو تمر بذاك الجسر، فوق ذلك الشاطىء حيث جلس معها ديمتري فاسيليفتش آخر مرة بعد ان ملأ قدره من النهر.. اذن لوجدت تلك الخميلة وذلك المكان الذي جلسا فيه فوق العشب المدعوك...

لم تفارقها ذكرى الماضي. وعاشت في وحدة وصداقة. ولكن القوة العسكرية فارقتها شيئا فشيئا. وعادت اولغا فيتشيسلافوفنا امرأة مرة اخرى.

— ٥ —

كان عليها في الثانية و العشرين من عمرها ان تبدأ الحياة للمرة الثالثة. وبدا لها كل ما يجرى الآن اشبه بمحاولة تسريج الخيول الحربية في عربة جر. كانت البلاد التى هزتها الحرب ماتزال تكشر عن انيابها، والعيون المحتقنة بالدم تبحث عما يمكن تدميره، بينما انتشرت في كل مكان اوراق المراسيم حائلا بينهم وبين يوم الأمس، داعية الى الترميم والتعمير والبناء.

قرأت وسمعت عن ذلك، وبدا لها هذا اصعب من القتال. وكانت المدن التى عاشت فيها مهدمة بضراوة عنيفة، وكل ما فيها محطم متداع، وغطت اعشاب القراص اماكن الحرائق. ولم يكن الناس يلتحفون سوى بالخيش. كانوا يأكلون ويشربون، بينما تراودهم في الأحلام رؤى الحرب. وتجلى الابداع في انتاج مضارب الحمامات والاواني الفخارية، مثلما في العصور السحيقة.

كانت اوراق المراسيم تحض على التعمير والابداع. فبأيدي



من؟ بنفس هذه الأيدي، التى ماتزال معقوفة الأصابع كأظفار الطير الجارح... كانت اولغا فيتشيسلافوفنا تهوى التجول في المدينة في اوقات الغروب. فتروح تتأمل الوجوه المرتابة العابسة التى لم تفارقها تجاعيد الغضب والرعب و الحقد.. كانت تعرف جيدا هذا التقلص في الفم، وهذا الحطام والفجوات بدلا من الاسنان التى التهمتها الحرب.. لقد خبروها جميعا، صغارا وكبارا. وها هم يجولون في المدينة الملوثة، في ملابس حمضية الرائحة مصنوعة من الخيش وستائر منازل البرجوازيين، وفي احذية مهترئة من لحاء الأشجار، مشعثى الهيئة، مستعدين في اية لحظة للبكاء او القتل...

كانت اوراق المراسيم تطالب بالحاح: الابداع، الابداع، الابداع... نعم، ان هذا اصعب من تدمير جسر بشحنة بيروكسيلين، او الاجهاز بالسيوف من فوق ظهور الجياد على اطقم المدافع، او تحطيم نوافذ مبنى المصنع بقنابل شرابنل... كانت اولغا فيتشيسلافوفنا تتوقف امام ملصق مزركش عند سور متداع.. وقد شطب عليه احدهم بقطعة ملاط. وخط كلمة بذيئة. كانت تتأمل الوجوه المرسومة، والتى لا وجود لها في الحياة، والرايات الخفاقة، والمنازل المؤلفة من مائة طابق، والمداخن، والدخان المتصاعد نحو الحروف المتراقصة: «التصنيع»... كانت شديدة التأثر كالعذارى، فتغيب مع الاحلام وهي واقفة امام الملصق الزاهي، وتثيرها عظمة هذا الكفاح الجديد.

ويدلهم المغيب وتخترق بقايا عنفوان الوانه السحب الرصاصية مشعلة شظايا الزجاج في المنازل الفاغرة الخاوية. ونادرا ما يخطر عابر وهو يقزقز اللب ويبصق على وحل الشارع المخدد، حيث تتناثر جيف القطط النافقة. اللب، اللب... كان وقت فراغ الناس يملأ بحركة الفكين، بينما ينعس المخ في الغروب. وكان في اللب رجوع الى عصر الفأس الحجرية. فكانت اولغا فيتشيسلافوفنا تعصر قبضتيها، اذ لم يكن في وسعها ان تسلم بالهدوء، وباللب، وبمضارب الحمامات، وبالخرائب الضخمة في الأقاصي المنسية...

وتمكنت من الحصول على مامورية في موسكو. ووصلت الى هناك في تنورة خضراء من قماش ستائر مخملي، وكلها عزم ونكران ذات.

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

كانت اولغا فيتشيسلافوفنا تنظر الى شظف الحياة نظرة هادئة، فقد خبرت ما هو اسوأ من ذلك. وكانت تاوى في الأسابيع الاولى من وجودها في موسكو الى اي مكان، ثم حصلت بعد ذلك على غرفة في شقة جماعية في «زارياديي»، و بعد ملء الاستمارات وتقديم طلبات لا حصر لها، واذ انكمشت على الفور بتاثير التعقيد البالغ لسير اجراءات اوراقها وضجيج المصالح المتعددة الطوابق، المليئة بالطنين كخلايا النحل، التحقت بالعمل في قسم الرقابة بمؤسسة المعادن غير الحديدية. وراودها احساس بانها عصفور وقع في آلية ساعة برج بالف ترس، قطوت ذيلها. وكانت تذهب الى العمل في الموعد تماما. وتنظر حولها وتشعر بالوجل، لانها لم تستطع، رغم كل مابذلت من مجهود عقلي، ان تحدد مدى الفائدة التي تقدمها بنسخها للأوراق. لم تكن ثمة حاجة هنا لمهارتها ولجسارتها المتهورة، لغلها الافعواني. لم يكن هنا سوى دق الآلات الكاتبة كالمطارق في الآذان اثناء هذيان حمى التيفوس، وحفيف الأوراق ودمدمة اصوات عملية في سماعات التليفون وشتان بين هذا وبين الحرب... هناك كل شيء واضح، محدد، وتحت ازيز الرصاص تمضي دائما الى الهدف المرئي...

وبعد ذلك تعودت بالطبع، وتاقلمت و «سوت شعر فروتها». ومرت الأيام سراعا، ايام عمل، رتيبة، هادئة. ولكي لا تغوص حتى راسها في هذا الركود المكتبي بدات تاخذ على عاتقها مهام انشطة اجتماعية. فادخلت في نشاط النادي روح الانضباط ومصطلحات الخيالة. واضطروا الى كبح جماح اندفاعها الزائد.

تلقت اول وخزة من مساعد الرئيس، الجالس على مكتب مجاور عند الناحية الأخرى من الباب المؤدى الى مكتب الرئيس. وقد حدث ذلك بسبب تدخينها الماخوركا. فقد قال لها مساعد الرئيس:

— انني مندهش لك يارفيقة زوتوفا. امراة وسيمة عموما، ثم تنشرين رائحة الماخوركا الكريهة في المبنى كله...



أليس فيك انوثة... هلا دخنت سجائر «يافا»...

و يبدو ان هذه الملاحظة التافهة جاءت في الوقت المناسب. احست اولغا فيتشيسلافوفنا بالضيق، ثم بالألم الى حد الرغبة في البكاء. وعندما انصرفت من العمل توقفت على بسطة السلم امام المرآة، ولأول مرة منذ سنوات، نظرت الى نفسها نظرة امرأة. «الشيطان يعلم ما هذا... مثل فزاعة الطيور». كانت التنورة المخملية المتآكلة مرفوعة من الامام، ومن الخلف انسلت خيوطها اذ مزقها كعبا الحذاء، والحذاء رجالي، مع بلوزة رمادية من الشيت... كيف حدث هذا؟

ومرقت من جوارها فتاتان من العاملات على الآلات الكاتبة في تنورتين مغريتين وجوارب وردية، ونظرتا الى زوتوفا الواقفة كالمتوحشة امام المرآة، وعندما بلغتا البسطة الأدنى انفجرتا بالضحك، ولم تسمع زوتوفا سوى عبارة «...الخيول ستخاف...». وتضرج وجه اولغا فيتشيسلافوفنا الغجري الرائع بالدم... كانت احدى الفتاتين تعيش معها في نفس الشقة في زاريادي. وكانت تدعى سونتشكا فارتنسوفا

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .

بعد عدة أيام ذهلت النساء القاطنات شقة حارة بسكوف (في حي زاريادي) من تصرف أولغا فيتشيسلافوفنا الغريب. فعند ما دخلت المطبخ صباحا لتغتسل، ثبتت عينيها البراقتين كعيني الأفعى على سونتشكا فارتنسوفا التي كانت تطهو العصيدة. واقتربت منها و قالت مشيرة الى جوربها: «أين اشتريت هذا؟» ورفعت ذيل تنورة سونتشكا، واشارت الى ملابسها الداخلية قائلة: «واين اشتريت هذا؟» كانت تسال بغل، كانما تهوى بالسيف.

خافت سونتشكا، الرقيقة بطبيعتها، من هذه الحركات الحادة. وخفت روزا ابراموفنا لانقاذها، فاوضحت بصوتها الناعم وبالتفصيل ان اولغا فيتشيسلافوفنا تستطيع الحصول على هذه الأشياء من شارع «كوزنيتسكي موست» وان الموضة الآن هي فساتين «شيميز»، و الجوارب بلون البشرة، الخ، الخ...

كانت أولغا فيتشيسلافوفنا تصغي وهي تهز راسها وتردد

«تمام. نعم... مفهوم...»، ثم قبضت على خصلة من شعر سونتشكا الاشقر رغم انها كانت خصلة من الحرير الناعم وليست عرف حصان. وسالت:

—وهذا... كيف تسرحينه؟

فمضت روزا ابراموفنا تقول بصوتها الناعم:

— لابد من قصه يا روحي... من الخلف قصير، ومن الامام بمفرق على الاذنين...

وبعد ان دلف بيوتر سيميونوفتش الى المطبخ راح يصغي، واطلق غمزة، وصلعته تلمع كالعادة في خيلاء:

— تاخرت في التحول من الشيوعية الحربية يا اولغا فيتشيسلافوفنا...

فالتفتت نحوه باندفاع (وقال فيما بعد انها قضقضت بانيابها) وقالت بصوت غير عال ولكن بوضوح:

— وغد افلت! لو وقعت في قبضتي في الميدان...

. . . . . . . . . . . . . . . . .

ارتبك جميع العاملين في مؤسسة المعادن غير الحديدية للوهلة الأولى عندما جاءت أولغا فيتشيسلافوفنا الى العمل في فستان حريرى اسود بكمين قصيرين وجوارب بلون البشرة وحذاء لامع. وكان شعرها الكستنائى مقصوصا، يلمع كالفراء البنى — الأسود. جلست الى المكتب ودفنت راسها في الأوراق، بينما كانت أذناها ملتهبتين.

اما مساعد رئيس القسم، وهو شاب فتي ساذج، فقد اتسعت عيناه وهو جالس الى تليفون يرن بجنون.

وصاح:

— ياللشيطان، من اين جاء هذا؟

وبالفعل، كانت زوتوفا صاعقة.. وجه رشيق بزغب اسمر على الخدين.. وعينان كالليل، ورموش طويلة.. و يدان نظفتهما من الحبر.. وباختصار: نجمة سينما. حتى الرئيس نفسه اطل من باب مكتبه، عرضا، ووخز زوتوفا بنظرة رصاصية.

وقال فيما بعد عنها:

— فتاة طليعية!



وركضوا من الغرف الأخرى ليتفرجوا عليها. ولم يكن هناك من حديث غير الكلام عن تحول زوتوفا المدهش.

وبعدما مرخجل اللحظات الأولى احست بالراحة و الحرية في جلدها هذا الجديد، كما كانت تحس في زمن ما و هى في فستان المدرسة او خوذة الخيال والمعطف المشدود بقوة والمهماز. وعندما كان الرجال يبحلقون فيها بشدة وهى تمر بجوارهم، كانت تسدل رموشها، كانما تسد ابواب روحها.

. . . . . . . . . . . . . . . . .

في اليوم التالي، وفي الساعة الخامسة، عندما قطعت زوتوفا قطعة من ورقة النشاف و بللتها بلعابها ونظفت بقعة الحبر على كوعها، اقترب منها مساعد الرئيس ايفان فيودوروفتش بيدوتي، الشاب الفتي، وقال لها أنه «ينبغى ان يتحدث معها في أمر جدي للغاية». فرفعت أولغا فيتشيسلافوفنا قليلا خطى حاجبيها الجميلين، وارتدت القبعة. وخرجا.

قال بيدوتي:

— اسهل شيء ان نذهب الى بيتى، انه خلف الناصية.

هزت زوتوفا كتفها هزة خفيفة. وذهبا. كانت رياح حارة تحمل الغبار. وتسلقا الى الطابق الرابع، و دخلت اولغا فيتشيسلافوفنا غرفته قبله و جلست على كرسي.

وسالته:

— حسنا؟ عم تريد أن تتحدث معي؟

القى بحقيبته على السرير، ونكش شعره، واخذ يضرب الهواء الخانق في الغرفة بقبضته:

— يا رفيقة زوتوفا، نحن دائما نتناول الأمر راسا، مباشرة.. بطريقة طليعية.. الميل الجنسى هو حقيقة واقعية وحاجة طبيعية... آن الأوان لأن نلقى في البحر بكل تلك الرومانسيات. حسنا.. اذن... لقد اوضحت لك كل شىء مبدئيا.. الأمر كله مفهوم لك...

و طوق أولغا فيتشيسلافوفنا من تحت ابطيها وشدها من الكرسى وضمها الى صدره، حيث كان قلبه الجاهل يدق بجنون، وكانه على حافة هاوية مجهولة. ولكنه أحس على الفور بمقاومة زوتوفا، ولم يكن من السهل انتزاعها من الكرسى فقد كانت

نحيلة ومرنة. ودون ان ترتبك، وبصورة هادئة تقريبا، عصرت اولغا فيتشيسلافوفنا كلتا يديه عند الرسغين، ولوتهما بقوة جعلته يصرخ متأوها و يشدهما، ولكنها واصلت تعذيبه فصاح:

— تؤلمينني، اتركيني، فلتذهبي الى الشيطان!

فقالت:

— لا تحاول ان تهجم دون استئذان، يا غبي.

وتركت يدي بيدوتي، وتناولت من علبة السجائر على الطاولة سيجارة «يافا» ودخنتها، ثم انصرفت...

. . . . . . . . . . . . . . .

ظلت أولغا فيتشيسلافوفنا تتقلب في فراشها طول الليل... وتنهض فتجلس قرب النافذة، وتدخن، ثم تدفن رأسها في الوسادة ثانية...

وتذكرت حياتها كلها. واستفاق كل مابدا قد خمد الى الأبد، وعاودها الحنين... يالها من ليلة شيطانية... ما الداعي؟ ماالداعي؟ أفلا يمكن ان تعيش باردة، كمياه النبع، بلا حمى الحب؟ وأحست وهي تختلج: رغم ان الحياة، فيما يبدو، قد طحنتها وهرستها في مصحنها، فلم تخلصها من هذا الداء وسوف يبدأ «هذا» بالطبع.. و لا مهرب لها منه او خلاص...

وفي الصباح سمعت وهي ذاهبة الى المطبخ لتغتسل ضحكا هناك و صوت سونتشكا فارنتسوفا يقول:

— شيء مذهل الى اي حد تتغنج.. حتى مجرد النظر اليها يثير التقزز.. ممنوع اللمس يا حضرة.. يا للانفة... عندما ملأت الاستمارة كتبت بحروف كبيرة: «آنسة» (ضحك، ازيز مواقد الكيروسين). اما الجميع فيقولون: كانت تتنقل معهم في الفصيلة.. اتفهمون؟ عاشرت كل الفصيلة تقريبا.

صوت ماريا افاناسيفنا، الخياطة:

— زهري أكيد، واضح من سحنتها.

صوت روزا ابراموفنا:

— اما نظراتها.. ولا البارونة روتشيلد.

صوت بيوتر سيميونوفيتش مورش الغليظ قليلا:



— كونوا معها على حذر، فانا ادركت كنه هذه الأفعى منذ وقت بعيد... ستصنع لها مستقبلا.. في لمح البصر...

صوت سونتشكا فارنتسوفا محتجا:

— أنت دائما تتهور في الكلام يا بيوتر سيميونوفيتش.. اطمئن، بمثل هذه الكفاءات لا يصنعون المستقبل...

دلفت أولغا فيتشيسلافوفنا الى المطبخ فصمتوا جميعا. وتوقفت نظرتها على سونتشكافارنتسوفا ورسمت التجاعيد التي ظهرت عند فمها اقصى درجات التقزز، حتى ان النساء أحسسن بالغليان. بيد انه لم تند اية صرخة في هذه المرة.

. . . . . . . . . . . . . . .

بعد الحادث الذي وقع لها مع بيدوتي واثار حقده عليها بكل قوة كرامته الرجولية المهانة، احاط بزوتوفا عداء صامت من النساء وموقف ساخر من الرجال. وكانوا يخشون الشجار معها. ولكنها كانت تحس من الخلف بوقع النظرات الشريرة وهي تشيعها. والتصقت بها نعوت «الأفعى» و «الموصومة» و «حثالة الفصيلة»، وكانت تسمعها في الهمسات وتقرأها على ورق النشاف. و الشيء الغريب حقا انها كانت متألمة من كل هذا الهراء... وكانما كان من الممكن ان تصرخ في وجوههم جميعا: «انا لست هكذا!..»

كان ديمتري فاسيليفتش محقا عندما قال عنها في وقت ما انها غجرية... لقد بدأت تلاحظ، بشقوق مبهم، ان الرغبات تستيقظ فيها من جديد، ولكن بقوة ناضجة هذه المرة.. كانت عذريتها تبدى سخطها... و لكن ما العمل؟ هل تستحم بالماء المثلج تحت الصنوبر من قمة رأسها الى اخمص قدميها؟ كانت النار قد لسعتها بشدة فاصبح الارتماء فيها ثانية شيئا مرعبا.. ولم يكن هناك داع لهذا، كما كان ذلك رهيبا...

. . . . . . . . . . . . . . .

لم تنظر أولغا فيتشيسلافوفنا الى هذا الرجل اكثر من دقيقة، ولكن جوارحها كلها قالت لها: انه هو... كان ذلك وبالا، لا تفسير له، كالاصطدام بحافلة تبرز مقعقعة من وراء الناصية.

كان الرجل واقفا على بسطة السلم، يقرأ جريدة الحائط، في

قميص من التيل على طراز قميص تولستوي، طويلا، بدا يميل فيما يبدو الى الامتلاء. وكان الموظفون يركضون بجواره من باب الى باب، والى اسفل والى اعلى على الدرج. وفاحت رائحة الغبار والتبغ. كان كل شيء عاديا. وكان الرجل يتامل بابتسامة كسلى رسما كاريكاتيريا في وسط الجريدة يسخر من المدير الاقتصادي لمؤسسة التبغ (التى تقع في الطابق الذى يعلوهم مباشرة). ولما كانت اولغا فيتشيسلافوفنا قد توقفت هي ايضا بجوار الجريدة، فقد التفت نحوها وقال مشيرا الى الكاريكاتير (كان ساعده ثقيلا، كبيرا، جميلا)

— اظن انك في هيئة التحرير يا رفيقة زوتوفا؟ (كان صوته قويا و غليظا). ارسموني كما يحلو لكم، انا لا أمانع... و لكن هذا لا يفيد احدا، انه شيء تافه بلا موهبة!

كان الرسم الكاريكاتيرى يصوره ممسكا بكوب شاي، جالسا بين جهازى تلفون يرنان بشدة. وكانت النكتة تكمن في انه يحب شرب الشاي في وقت العمل مما يعود بالضرر على عمله...

— لقد خفتم ان تعضوا بقوة فنبحتم، كالخدم... حسنا، وماذا اذا كنت أشرب الشاي؟ في سنة تسع عشرة كنت اشرب الكحول بالكوكايين لكى لا انام...

حدقت أولغا فيتشيسلافوفنا في عينيه.. كانتا رماديتين، باردتين قليلا، بلون الصلب الكابى، تذكرانها الى حدما بتينك العينين الغاليتين اللتين انطفاتا الى الابد... ووجهه حليق بنظافة — وجه متناسق التقاطيع، كبير، بابتسامة كسلى، ذكية، ساخرة... وتذكرت انه في سنة تسع عشرة كان ديكتاتور التموين في سيبيريا، يمد الجيش بالمؤن ويلقى اسمه الرعب في النفوس على امتداد عشرات الآلاف من الكيلومترات... وكان يخيل اليها ان امثال هؤلاء الناس يسيرون و هاماتهم في السحاب... كان يفنط الأحداث والأعمار كشدة الكوتشينة. وبعد كل هذا، هاهو يقف حاملا حقيبة، بابتسامة، متعبة، بينما تسير الحياة التى أوجدها مارة من جواره وهى تدفعه بكوعيها...

وعاد يقول:



— اذا تفهنا الامور بهذه الخرافة فمن الممكن تحويل الثورة كلها الى كاريكاتيرات رخيصة... واذن فقد ادى العجائز واجبهم ولنلق بهم الى المزبلة... لقد قبضنا الراتب، ولنذهب لنتناول البيرة... ان الشباب جيد، ولكن من الخطورة الانفصال عن الماضي. لا يعيش على اللحظة الحاضرة سوى ذباب مايو فقط، تلك الفراشات التى لا تعيش الا يوما واحدا... نعم...

وانصرف. وشيعت اولغا فيتشيسلافوفنا بنظراتها قفاه العريض، وظهره القوى الصاعد ببطء على الدرجات الحجرية الى مقر مؤسسة التبغ، وخيل اليها انه يبذل جهدا كبيرا لكى لا ينحنى تحت وطأة الايام... واشفقت عليه لحد الألم... وكما هو معروف فان الشفقة...

. . . . . . . . . . . . . . . . . .

انتهزت اولغا فيتشيسلافوفنا اول فرصة وصعدت بورقة من اللجنة النقابية الى غرف مؤسسة التبغ المعتمة ودخلت مكتب المدير الاقتصادي. كان يحرك الملعقة في كوب الشاي، وعلى حقيبته استقرت كعكة دسمة. وبجوار النافذة مضت فتاة تدق على الآلة الكاتبة بحيوية. وكانت اولغا فيتشيسلافوفنا مضطربة الى درجة انها لم تلحظها، اذ لم تر سوى العينين الفولاذيتين. وقرأ الورقة التى قدمتها له، ثم وقعها. وظلت هى واقفة، فقال لها:

— خلاص يارفيقة... انصرفي.

وبالفعل لم يكن ثمة شيء آخر. وعندما اغلقت اولغا فيتشيسلافوفنا الباب خلفها خيل اليها ان موظفة الآلة الكاتبة ضحكت ضحكة قصيرة. ولم يعد امامها الآن الا ان تجن... فلن يضربها احد مرة ثانية بالجلة الحديدية، ولن يرميها احد بالرصاص في القبو، وهو لن يحملها من هناك على ذراعيه ولن يجلس بجوار سريرها، ولن يعدها بحذاء يخلعه من قدمى تلميذ قتيل...

قضت تلك الليلة في حالة يحسن الا تتذكرها. وفي الصباح تلصص سكان الشقة على غرفتها من ثقب المفتاح، وعندما اقترح بيوتر سيميونوفيتش مورش ان ينفخوا بانبوب ورقى حوالى عشرة جرامات من مسحوق اليودفورم. وقالوا في المطبخ «افعالا

جن جنونها». وضحكت سونتشكا فارنتسوفا ضحكة غامضة، و غفت في عينيها الزرقاوين سكينة ثقة لا تتزعزع.

التغلب على الخجل اصعب من رهبة الموت. ولكن ليس عبثا ان تمرست اولغا فيتشيسلافوفنا في مدرسة القتال، فاذا كان ضروريا فلن تتوانى. اما ان تنتظر الصدفة و السعادة، وتتصرف تصرفات صغيرة تافهة، كأن تظهر ساقا بجورب من لون البشرة تارة، وتارة اخرى تخرج كتفها العارية من الفستان على عجل، فليس هذا من طبيعتها. لقد قررت ان تذهب اليه مباشرة و تخبره بكل شيء، فليفعل بها ما يشاء. اما العيشة هكذا فليست عيشة...

ركضت خلفه على الدرج عدة مرات، لكي تقبض على ذراعه هنا، في الشارع وتقول له : «انا احبك... انني اهلك...»، ولكنه في كل مرة يستقل السيارة دون ان يلاحظ زوتوفا وسط بقية الموظفات... وفي تلك الأيام ألقت بموقد الكيروسين المشتعل في وجه جورافليوف. وتشبعت الشقة الجماعية بشحنة العاصفة. و كانت سونتشكا فارنتسوفا مضطربة الأعصاب، تغادر المطبخ ما ان تسمع وقع خطوات اولغا فيتشيسلافوفنا وتمكن فلاديمير لفوفتش بونيزوفسكي العابث من التسلل الى غرفة زوتوفا بمفتاح مناسب؛ ودس لها تحت المرتبة فرشة ملابس، ولكنها نامت الليل دون أن تحس بشيء.

واخيرا انصرف من العمل سيرا على الاقدام (كانت سيارته في التصليح)، ولحقت به اولغا فيتشيسلافوفنا، وصاحت به في حدة وفظاظة... كان فمها وحلقها جافين تماما. وسارا متجاورين وهي لا تجرؤ على رفع عينيها، وتسير بصورة خرقاء، وقد باعدت كوعيها. و امتدت اللحظة دهرا، و احست بالحمى ورعشة البرد والرقة والقلق. اما هو فسار لا مباليا، بدون ابتسامة، وصارما...

— المسالة ان...

فقاطعها على الفور باحتقار:

— المسالة ان الناس يحدثونني عنك من كل ناحية... انني مندهش، نعم، نعم... انك تطاردينني... ونواياك معروفة، ارجوك لا تكذبي، لست بحاجة الى شروح... فقط نسيت انني لست من



رجال النيب*، ولا يسيل لعابي لدى رؤية كل وجه مليح. لقد اظهرت صفاتك الطيبة في نشاطك الاجتماعي. ونصيحتي لك ان تلقى من دماغك الأحلام عن الجوارب الحريرية و البودرة و ما شابه ذلك... فمن الممكن ان تصبحي رفيقا جيدا...

وعبر الشارع دون ان يودعها، وعلى الرصيف المقابل، بجوار محل حلوى، تأبطت ذراعه سونتشكا فارنتسوفا. وراحت تقول له شيئا ما وهي تهز كتفيها وتبدي سخطها. وواصل امتعاضه المعبر عن الاحتقار، وخلص ذراعه منها، وسار خافضا رأسه الثقيل. وحجبتهما عن انظار اولغا فيتشيسلافوفنا سحابة دخان بنزين محترق نفثتها حافلة.

. . . . . . . . . . . . . . . . .

وهكذا اصبحت سونتشكا فارنتسوفا هي البطلة. وهي التي امدت المدير الاقتصادي لمؤسسة التبغ بمعلومات مفصلة عن ماضي وحاضر حثالة الفصيل زوتوفا واحست سونتشكا بنشوة الانتصار، ولكنها كانت مذعورة الى درجة رهيبة...

في صباح الأحد الذي سبق أن تحدثنا عنه، وعندما صر باب اولغا فيتشيسلافوفنا، هرعت سونتشكا الى غرفتها واجهشت بالبكاء، بصوت عال لأنها احست بالمهانة الشديدة من العيش في خوف مستمر. وبعد ان اغتسلت اولغا فيتشيسلافوفنا قالت لسبب غير معروف «آه، الشيطان يعلم ما هذا»، وقالتها مرتين، مرة وهي في المطبخ، ومرة في غرفتها عندما عادت اليها، وبعد ذلك غادرت المنزل.

واجتمع السكان مرة اخرى في المطبخ: بيوتر سيميونوفتش في بنطلون يوم الأحد وفي عمرة جديدة بيضاء من أعلى. وفلاديمير لفوفتش، غير حليق ومرحا من سكرة الأمس. وكانت روزا

---

* النيب اختصار لعبارة: (السياسة الاقتصادية الجديدة) — سياسة مؤقتة طبقت بعد الحرب الأهلية لتنشيط الاقتصاد المدمر، وسمحت بحرية امتلاك المشروعات الراسمالية الخاصة فظهرت فئة من الاثرياء، خاصة في قطاع الخدمات والتجارة، ثم الغيت هذه السياسة فيما بعد. **المعرب.**

ابراموفنا تصنع مربى من البرقوق، وماريا افاناسيفنا تكوي بلوزة. وكانوا يثرثرون وينكتون. وظهرت سونتشكا فارنتسوفا بعينين منتفختين.

وقالت وهي بعد في الباب:

— لا استطيع الاحتمال اكثر، أليس لهذا حد في النهاية... سوف تلقى علي ماء الفائر...

واقترح فلاديمير لفوفتش بونيزوفسكي ان يقصوا على الفور شعرا من فرشاة الملابس، ويضعوا منه كل يوم في فراش الأفعى، عندئذ لن تتحمل وتترك الشقة بنفسها. اما بيوتر سيميونوفتش مورش فاقترح وسائل دفاع كيميائي: فاما كبريتات الهيدروجين، و اما اليودفورم اياه. ولكن ذلك كله كان خيال رجال. ماريا افاناسفنا هي وحدها التي اقترحت شيئا عمليا. فقد سألت سونتشكا:

—رغم انك كتومة جدا يا لاليتشكا، لكن هيا اعترفي: هل علاقتك بالمدير مسجلة قانونيا؟

فاجابت لاليتشكا:

— نعم، كنا في مكتب تسجيل الزواج منذ ثلاثة أيام... بل اني اصررت على التكليل في الكنيسة، ولكن هذا غير ممكن بعد...

فقال بيوتر سيميونوفتش بحشرجة، ولمعت صلعته :

— من يعش ير.

قفزت ماريا أفاناسيفنا المكواة في يدها قائلة:

— اذن فلتلقى بقسيمة الزواج في وجه هذه الأفعى، مومس الجيوش هذه.

— اوه كلا... لا يمكن أبدا أبدا... انا خائفة جدا.. اشعر بنذير سيىء.

— سنقف وراء الباب... لا تخافي شيئا...

وثغا فلاديمير لفوفتش، السعيد من سكرة الأمس، كالخروف:

— سنقف وراء الباب مسلحين بأدوات الأنتاج المطبخي.

واقنعوا لاليتشكا.

. . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . . .



عادت أولغا فيتشيسلافوفنا في الساعة الثامنة مساء محنية الظهر من التعب، مربدة الوجه. واغلقت على نفسها الغرفة، وجلست على السرير، وقد أسقطت ذراعيها على ركبتيها... وحدها، وحدها في حياة متوحشة معادية، وحيدة كما في ساعة الموت، لا احد بحاجة اليها... منذ يوم الأمس تملكتها حيرة غريبة. وها هي الآن ترى في يدها المسدس. ولم تذكر كيف نزعته عن الجدار. جلست تفكر وهي تحدق في هذه اللعبة الحديدية القاتلة...

ودق الباب، فانتفضت أولغا فيتشيسلافوفنا بشدة. وازداد الطرق، فنهضت وفتحت الباب بقوة. وفي ظلمة الطرقة خلف الباب تراجع سكان الشقة وهم يتدافعون، وخيل اليها انهم يحملون في أيديهم فرشا وبشاكير... ودلفت فارينتسوفا الى الغرفة، شاحبة، مزمومة الشفتين... وقالت على الفور بصوت متحشرج يميل الى الزعيق:

— منتهى قلة الحياء أن تطاردى رجلا متزوجا...! هذه قسيمة الزواج... الجميع يعلمون انك مصابة بالامراض الزهرية... وتريدين معها ان تصنعي لك مستقبلا!.. وفوق ذلك عن طريق زوجي الشرعي! أنت حقيرة!.. ها هي القسيمة...

نظرت أولغا فيتشيسلافوفنا كالعمياء الى سونتشكا الزاعقة... وها هي موجة الحقد المسعور المعروفة تصعد الى زورها، وتخنقها، وعضلاتها تتوتر كالصلب... وأفلت من حلقها عويل... واطلقت أولغا فيتشيسلافوفنا النار – ومضت تطلق الرصاص على هذا الوجه الأبيض المتقلب امامها...

**سنة ١٩٢٨**

ترجمة ابو بكر يوسف.

# الفطرة الروسية

الفطرة الروسية!.. عنوان كبير حافل بالمعاني بالنسبة لقصة قصيرة ولكن ما العمل... انني اريد أن احدثكم عن الفطرة الروسية بالذات.

الفطرة الروسية! فلنحاول اذن ان تصفها...

هل اتحدث عن المآثر البطولية؟ ولكنها من الكثرة بحيث تحار أيها تختار. أنقذنى احد معارفى من هذه الحيرة بقصة قصيرة من واقع حياته. لن أحدثكم عن قتاله ضد الالمان، مع انه يحمل وسام النجمة الذهبية* وتغطى النياشين نصف صدره. انه انسان بسيط، هادى، عادي، فلاح من احدى قرى الفولجا بمقاطعة ساراتوف. ولكنك تستطيع ان تميزه بين الآخرين بجسده القوى المتناسق وبجماله. وعندما كان يخرج من برج الدبابة – كاله الحرب! – ثم يقفز منها الى الارض، وينزع الخوذة عن خصلات شعره المبللة، ويمسح بالخرقة وجهه المتسخ، ثم حتما يبتسم من صفاء نفسه... عندئذ لا يسعك الا ان تملى منه ناظريك.

وفى الحرب، اذ يدور الناس دوما حول الموت، يصبحون

* يحملها الحائزون على لقب «بطل الاتحاد السوفييتي». المعرب.



افضل، وتسقط عنهم كل الادران كما ينسلخ الجلد الميت اذ تحرقه الشمس، ولا يبقى في الانسان سوى النواة. وهي بالطبع قوية لدى البعض، ولدى البعض الآخر اضعف. ولكن حتى ذوو النواة الضعيفة يجاهدون، ويريد كل منهم ان يصبح رفيقا طيبا ومخلصا. لكن صاحبى يجور دريوموف كان، حتى قبل الحرب انسانا مستقيما صارما في استقامته، يكن لامه ماريا بوليكاربوفنا ولابيه يجور يجوروفيتش حبا واحتراما شديدين «كان ابي شخصا رزينا، معتزا بنفسه. وكان يقول لي: سترى يا بني الكثير في هذه الدنيا، وستسافر الى بلدان اجنبية، فلتعتز بانك روسي...»

وكانت لصاحبى عروس من نفس القرية الواقعة على الفولجا. وعندنا يقال الكثير عن العرائس والزوجات، خاصة اذا كانت الجبهة هادئة والبرد قارصا، بينما المصباح يرسل لهبه الأسود فى الملجأ، وتطقطق النار في المدفأة، وقد فرغ الجنود من عشائهم. في هذه الحالة يختلقون من الاقاويل ما يجعلك تصيخ كالابله. يبداون الحديث مثلا بسؤال: «ما هو الحب؟»، فيقول أحدهم: «الحب ينشأ على أساس من الاحترام»... ويرد الآخرون: «هذا هراء، الحب هو عادة، فالانسان لا يحب زوجته فقط، بل اباه وامه، بل وحتى الحيوانات...» فيقول ثالث: «يا للغباء! الحب هو ان تحس بأن كل ما في داخلك يغلي، وتسير كأنك ثمل...» وتستمر الفلسفة ساعة او ساعتين، الى ان يتدخل الشاويش فيحدد بصوته الآمر لب القضية... ويبدو ان يجور دريوموف كان يخجل من ذكر هذه الاشياء، فلم يشر الى عروسه الا عرضا، قائلا انها فتاة طيبة، وما دامت قد وعدت بانها ستنتظرني، فستظل تنتظر، ولو عدت اليها بساق واحدة...

ولم يكن يحب ايضا الافاضة فى الحديث عن بطولاته الحربية. «لا أجد رغبة في تذكر تلك الاعمال!» ثم يقطب حاجبيه ويشعل سيجارة. ولكننا علمنا بالاعمال الحربية التي قامت بها دبابته من طاقم الدبابة، وخاصة من سائقها تشوفيليف الذي ادهش السامعين بروايته.

«... ما ان استدرنا حتى رأيت دبابة من طراز «النمر» تخرج من وراء التل. فصحت: «أيها الرفيق الملازم، هناك نمر»

فصرخ بي: «الى الأمام، باقصى سرعة!». فاخذت اراوغ بين شجيرات الشوح يمينا ويسارا... والنمر يدور بمدفعه كالأعمى، ثم اطلق فلم يصبنا... عندئذ ضربه الرفيق الملازم فى جنبه فطارت منه الشظايا! ثم ضربه في البرج فرفع مدفعه كخرطوم الفيل. ثم ضربه للمرة الثالثة فتصاعد الدخان من جميع ثقوبه، واندفع اللهيب منه الى ارتفاع مائة متر... فخرج أفراد طاقمه من باب الطوارئ،... وهنا فتح عليهم فانكا لابشين نار رشاشه فناموا على الأرض وارجلهم ترتعش. وهكذا نظفنا الطريق. وبعد خمس دقائق اقتحمنا القرية. وهنا ضحكت حتى وجعنى بطنى!. فقد تفرق الفاشيون كل الى جهة، و كانت الأرض قذرة، أتدرى، فترى الواحد منهم يخرج حافي القدمين الا من جورب، ثم يرتمي في الوحل، ويركضون كلهم نحو الحظيرة. فاصدر الى الرفيق الملازم امرا: «هيا، دس الحظيرة»... وأدرنا المدفع الى الخلف واقتحمت الحظيرة باقصى سرعة. يا الهى! راحت العروق والألواح وقوالب الطوب تفرقع على جوانب الدبابة، وكذلك الفاشيون الجالسون تحت السقف... واخذت ادور بالدبابة فوق الحظيرة كما تدور بمكواة... فرفع الباقون أيديهم، وقل على هتلر كابوت...*».

هكذا ظل الملازم يجور دريوموف يحارب حتى وقعت المأساة. فخلال معركة كورسك* الرهيبة، عندما خارت قوى الالمان وبداوا يتقهقرون، اصيبت دبابته بقذيفة وهى فوق رابية في حقل قمح، فقتل اثنان من افراد الطاقم على الفور، وجاءت الطلقة الثانية فاشعلت الدبابة. وعاد السائق تشوفيليف الذي قفز من الباب الامامي فتسلق الدبابة واستطاع ان يستخرج منها الملازم... كان فاقد الوعي، بينما امسكت النيران فى افروله. وما ان سحبه تشوفيليف بعيدا حتى انفجرت الدبابة بقوة أطاحت ببرجها وقذفته على بعد حوالى خمسين مترا. واخذ تشوفيليف يهيل حفن التراب الرخو على وجه الملازم ورأسه وملابسه حتى يخمد

---

* كلمة اصلها المانية وتعنى «النهاية او الهلاك» وكانت شائعة الاستعمال على لسان الجنود اثناء الحرب. **المعرب.**



النار. ثم سحبه من حفرة الى حفرة حتى نقطة الاسعاف. ويقول تشوفيليف: «لماذا سحبته ساعتها؟ لأننى سمعت قلبه ينبض...».

ونجا يجور دريوموف من الموت، و لم يفقد حتى بصره، الا أن وجهه احترق بشدة، حتى لاح عظمه فى بعض المواضع. ورقد فى المستشفى ثمانية شهور، أجروا له خلالها عملية تجميل تلو عملية، وأعادوا له أنفه وشفتيه وجفنيه واذنيه. وعندما رفعوا عنه الاربطة بعد ثمانية اشهر تطلع الى وجهه الذي لم يعد الآن وجهه. اما الممرضة التى اعطته مرآة صغيرة، فقد استدارت واجهشت بالبكاء. وأعاد لها المرآة على الفور قائلا:

– احيانا يقع ما هو أسوأ... بهذا الوجه يمكننى ان أعيش.

ولم يطلب من الممرضة مرآة بعد ذلك، ولكنه كان يتحسس وجهه. وكأنه يريد التعود عليه. واعتبرته اللجنة الطبية صالحا للخدمة غير الميدانية. عندئذ ذهب الى الجنرال وقال له: «أرجو ان تسمحوا لى بالعودة الى الفوج». فرد الجنرال: «ولكنك عاجز». فقال: «أبدأ، اننى مشوه فقط، وهذا لن يعوقنى عن العمل، أما القدرة القتالية فسوف استعيدها» (وقد لاحظ يجور دريوموف أن الجنرال تجنب النظر الى وجهه أثناء الحديث، فارتسمت على شفتيه الزرقاوين المستقيمتين كجانبى شق ضيق ابتسامة ساخرة). و حصل على اجازة لمدة عشرين يوما للشفاء التام، فسافر ليزور امه وأباه، و كان ذلك في شهر مارس من هذا العام.

و ظن في المحطة انه سيستطيع ان يركب عربة، ولكنه اضطر الى السير على قدميه ثمانية عشر فرسخا. وكان الثلج لا يزال يغطى الارض، والمكان رطبا خاويا، والريح القارسة تذرو طرف معطفه وتملأ اذنيه بصفير الوحدة الموحشة. وهبط القرية مع الغسق. ها هى البئر بذراعها العالية التى كانت تتأرجح وتصر. والمنزل السادس بعده منزل والديه. وفجأة توقف عن السير ودس يديه في جيبيه. وهز رأسه. وانعطف منحرفا صوب المنزل. وغاص فى الثلج حتى ركبتيه ثم مال نحو النافذة فراى امه فى ضوء المصباح الخافت وهي تعد المائدة للعشاء.

كانت ترتدى نفس المنديل الغامق، هادئة، فتانية، طيبة. لقد هرمت، برزت كتفاها النحيلتان... «آه لو كنت ادرى لكتبت لها كل يوم عن أحوالي ولو كلمتين...». واعدت مائدة بسيطة: كوبا من اللبن، وقطعة من الخبز، وملعقتين و ملاحة، ثم وقفت امام المائدة شاردة وقد عقدت يديها النحيلتين على صدرها...
وبينما كان يجور دريوموف يتطلع الى امه عبر النافذة ادرك انه لا يجوز أن يخيفها، وان يجعل وجهها العجوز يرتعش يأسا.

فليكن! وفتح باب السور ودلف الى الفناء، ثم ارتقى الدرج ودق الباب. وصاحت الأم من الداخل: «من بالباب؟» فأجاب: «الملازم دريوموف بطل الاتحاد السوفييتى».

ودق قلبه بعنف حتى مال معتمدا بكتفه على جانب الباب، كلا، لم تعرف امه صوته. بل خيل اليه انه يسمعه هو نفسه لأول مرة، فقد تغير بعد كل تلك العمليات واصبح أبح مكتوما غير واضح.

وسألت الأم:

– وماذا تريد يا ولدي؟

– جئت حاملا لماريا بوليكاربوفنا التحية من ابنها الملازم اول دريوموف.

عندها فتحت الباب وارتمت عليه وامسكت بيديه.

– ولدى يجور حي؟ بصحة طيبة؟ ادخل يا بنى، ادخل.

وجلس يجور دريوموف على الاريكة بجوار المائدة، في نفس المكان الذي كان يجلس فيه عندما كانت ساقاه لا تصلان بعد الى الأرض، وكانت امه تمسح احيانا على خصلاته المجعدة قائلة: «كل يا عصفوري» وراح يحكي لها عن ابنها، أى عن نفسه، بالتفصيل، فاخبرها كيف يأكل ويشرب ولاينقصه اي شيء، وهو دائما سليم ومرح، ثم حدثها باختصار عن المعارك التى خاضها بدبابته.

وقاطعته وهي تتطلع الى وجهه بعينين معتمتين لا تريانه:

– قل لي، هل تشعرون بالرعب في الحرب؟

– طبعا يا امي نشعر بالرعب ولكنا تعودنا.

ثم جاء الأب يجور يجوروفيتش، الذي هرم ايضا خلال هذه



السنوات وابيضت لحيته كأنها رشت بالدقيق. ووقف على عتبة الباب ينفض حذاءه اللباد البالى متطلعا الى الضيف، ثم فك التلفيعة بتؤدة، ونزع المعطف القصير واقترب من المائدة وصافح الضيف.. آه، نفس اليد الأبوية العريضة العادلة المعروفة. ولم يسأل عن شيء، فقد كان واضحا سبب وجود هذا الضيف ذي الاوسمة، فجلس واخذ يستمع وقد اغمض عينيه نصف اغماضة.

و كلما طالت جلسة الملازم دريوموف دون ان يتعرفا عليه وهو يتحدث عن نفسه وعن غيره... اصبح من المستحيل عليه ان يفصح عن حقيقته فينهض ويقول: هيا اعرفاني مشوها يا ابى ويا أمي!.. لقد كان يحس وهو جالس الى مائدة الوالدين بالراحة والألم.

– حسنا، فلنتعش سويا... قدمي شيئا للضيف يا أم. وفتح يجور يجوروفيتش دولابا صغيرا قديما، حيث كانت في زاويته اليمنى خطاطيف الصيد في علبة كبريت: و كانت لا تزال فى موضعها – وغلاية شاي ذات فم مكسور – وهي ايضا كانت في موضعها الذي كانت تنبعث منه رائحة بقايا الخبز وقشر البصل الجاف. واخرج يجور يجوروفيتش دورقا به نبيذ لا يملأ الا كأسين، وتنهد بحزن لاستحالة الحصول على المزيد. وجلسوا الى العشاء، كما كانوا يفعلون فيما مضى وعندئذ فقط لاحظ الملازم اول دريوموف ان امه تتابع باهتمام خاص حركة يده بالملعقة، فابتسم بمرارة، ورفعت الام عينيها و ارتعش وجهها بألم.

وتحدثوا فى شتى المواضيع: كيف سيكون الربيع، وهل سيقدر من بقى فى القرية على بذر البذور، وانه من المنتظر ان تنتهى الحرب هذا الصيف.

– ولماذا تظن يا يجور يجوروفيتش انه من المنتظر ان تنتهى الحرب هذا الصيف؟

فأجاب يجور يجوروفيتش:

– لأن الشعب غضب و مر عبر الموت، فلن تقف قوة امامه الآن. قل على الالمان كابوت.

وسألت ماريا بوليكاربوفنا:

– ولكنك لم تقل لنا متى سيمنحونه الجازة ليأتي لزيارتنا. لم نره منذ ثلاث سنوات. تراه الآن كبر وأطلق شاربه... كل يوم يمشي والموت حوله. لا بد ان صوته اخشوشن؟ فقال الملازم:

– حسنا، سيأتي، وربما لا تتعرفون عليه عندئذ.

وأعدوا له فراشا فوق الفرن، حيث كان يعرف كل حجر وكل شق في الحائط الخشبي وكل عرق في السقف. وانبعثت من المكان رائحة جلود الغنم والخبز، رائحة الجو المنزلي الأليف الذي لا ينساه المرء حتى في لحظة الموت. وكانت رياح مارس تصفر فوق السقف. ومن خلف الساتر كان يتردد شخير الأب، أما الام فأخذت تتقلب وتتنهد وقد جافاها النوم. ورقد الملازم على بطنه، دافنا وجهه في راحتيه، وفكر بينه وبين نفسه: «أمن المعقول انها لم تعرفني، أمن المعقول؟ امي، يا امي...».

واستيقظ في الصباح على طقطقة الحطب، وكانت امه تمد شيئا ما بحذر عند الفرن، وعلى الحبل المشدود تدلت جواربه المغسولة، واستقام حذاؤه بجوار الباب نظيفا. وسألته:

– هل تحب شطائر القمح؟

ولم يجب من فوره، بل هبط من فوق الفرن و ارتدى سترته العسكرية وشد حزامه، وجلس على الاريكة حافي القدمين.

– خبريني، هل تعيش هنا كاتيا ماليشيفا، ابنة اندريه ستيبانوفيتش ماليشيف؟

– لقد تخرجت في العام الماضي من الدورة الدراسية، وهي الآن مدرسة عندنا. هل تريد ان تراها؟

– طلب مني ابنك ان ابلغها تحياته والح علي.

وارسلت الام ابنة الجيران في طلبها، ولم يكد الملازم يرتدي حذاءه حتى اقبلت كاتيا مهرولة. كانت عيناها الرماديتان الواسعتان تلمعان، وحاجباها مرتفعين في دهشة، وعلى خديها حمرة الفرحة. وعندما ارخت منديل رأسها الصوفي على كتفيها العريضتين تأوه الملازم في نفسه: آه لو استطيع تقبيل هذا الشعر الدافىء الاشقر... لم يكن يتصورها على غير هذه



الصورة، يانعة، رقيقة، مرحة، طيبة وجميلة الى درجة ان المنزل توهج كالذهب اذ هلت...

– هل جئت بالتحية من يجور؟ (كان واقفا و ظهره الى النور فاحنى رأسه اذ لم يستطع ان يتكلم) انني انتظره ليل نهار... خبره بذلك.

واقتربت منه وتطلعت اليه فارتدت مذعورة وكأنها تلقت دفعة خفيفة في صدرها وعندئذ عقد امره على الرحيل... اليوم دون ابطاء.

وأعدت الأم شطائر من دقيق القمح وقلتها في السمن. وحكى لهم ثانية عن الملازم دريوموف، فتحدث هذه المرة عن مآثره البطولية. كان يتكلم بصرامة دون أن يرفع عينيه الى كاتيا، كيلا يرى على وجهها الرقيق انعكاس دمامته. واراد يجور يجوروفيتش ان يحصل له على حصان المزرعة ولكنه رفض ذلك، فذهب الى المحطة سيرا على الاقدام كما جاء. وقد اضناه ما حدث، حتى انه كان يتوقف، فيلطم وجهه براحتيه ويردد بصوت أبح: «وماذا أفعل الآن؟».

وعاد الى فوجه الذي كان يرابط في اعماق المؤخرة لتعويض الخسائر. واستقبله رفاقه في السلاح بفرحة صادقة، فانزاح عن صدره ما كان يمنعه من النوم والاكل والتنفس. وقال لنفسه: فلتجهل امي ما اصابني اطول فترة ممكنة، اما فيما يخص كاتيا فسينزع من قلبه هذه الشوكة.

وبعد حوالي اسبوعين تلقى رسالة من امه:

«مرحبا يا ولدي العزيز. انني اخاف حتى ان اكتب لك، ولا ادري كيف افكر. لقد جاءنا رسول منك، شخص طيب جدا، لكن وجهه قبيح. واراد ان يمكث عندنا ولكنه رحل فجأة. ومن يومها يا ولدي لا انام الليل، ويخيل الي انك انت الذي زرتنا. ويجور يجوروفيتش يوبخني على هذه الافكار ويقول: لقد مسك الجنون أيتها العجوز... لو كان هذا ولدنا لكشف لنا عن نفسه... وما الذي يدعوه الى التخفي لو كان هو؟ الشخص الذي له وجه كهذا يحق له ان يفخر به. واصدق كلام يجور يجوروفيتش، ولكن قلب الام يصر على رأيه! لقد كان هو... هو الذي زارنا! لقد قضى

ذلك الشخص ليلة عندنا، وبات على الفرن. وحملت معطفه الى الفناء لانظفه فضممته الى صدرى وبكيت... انه هو، وهذا معطفه! اكتب لي يا يجوروشكا* بحق المسيح خبرنى بالحقيقة... ام ترانى فعلا اصابنى الجنون...».

واطلعنى يجور دريوموف على هذه الرسالة وهو يروى لى قصته، ومسح عينيه بكمه، فقلت له: «يا لهما من طبعين التقيا! انك احمق، اكتب الى امك بسرعة طالبا عفوها، لا تسبب لها الجنون... اتظن انها بحاجة الى جمالك؟ انها ستحبك اكثر من ذي قبل بهيئتك هذه».

وكتب لهما فى نفس اليوم رسالة:

«والدي العزيزين ماريا بوليكاربوفنا ويجور يجوروفيتش... اغفرا لي قلة ادبي. نعم ان من كان في زيارتكم هو انا، ابنكما...» الخ... الخ... وملأ اربع صفحات بحروف دقيقة، ولو كان ممكنا لكتب عشرين صفحة.

وبعد مضى فترة كنت اقف معه في الميدان عندما اقبل نحوه احد الجنود راكضا ثم قال: «هناك من يسأل عنك ايها الرفيق النقيب». ومع ان الجندي كان واقفاً طبق الاصول العسكرية تماما، الا ان وجهه كان يشى بتعبير من يستعد للشرب. فتوجهنا الى القرية، وعندما اقتربنا من المنزل الذي انزل فيه انا ودريوموف، نظرت اليه فوجدته منفعلا، يسعل بين الحين و الحين، ففكرت في نفسي: «حقا انه قائد دبابة، ولكن اعصابه...». ودخل المنزل قبلى فسمعته يقول: «مرحبا يا امى ها انا ذا!» ورايت عجوزا صغيرة الحجم ترتمى فى احضانه وتضمه، وتطلعت فرايت امرأة اخرى. واقسم لكم انه قد يوجد مثلها حسناوات في مكان ما، فليست هي وحدها الحسناء... غير انى لم ارهن.

وتخلص من عناق امه ثم اقترب من تلك الفتاة. وقد سبق ان ذكرت انه كان بجسده الاسطورى يشبه اله الحرب. وصاح: «كاتيا، كاتيا، لماذا جئت؟ لقد وعدت ان تنتظري ذلك الشخص لا هذا الذي امامك...»

---

* تدليل من «يجور». **المعرب.**



و خرجت من الغرفة الى المدخل ولكني سمعت كاتيا الجميلة تقول: «لقد قررت ان اعيش معك الى الأبد يا يجور. ساظل احبك باخلاص، ساظل احبك جدا... لاتصدني عنك...»

نعم هذه هي الفطرة الروسية... يبدو لك الانسان بسيطا، ولكن عندما تحل محنة عصيبة تتصاعد من اعماقه قوة عظيمة... هي الجمال الانساني.

**سنة ١٩٤٤**

## تعليقات

ص – ٣

### «الامير الا عرج»

صدرت هذه الرواية لأول مرة عام ١٩١٢. وبها تختتم سلسلة مؤلفات الكاتب المكرسة لتصوير حياة النبلاء الروس. وقال الكسي تولستوي بهذا الخصوص: «سرعان ما عثرت على الموضوع الذي اثار اهتمامي. وهو احاديث امي و اقرباني عن عالم النبلاء المحتضر الذي تبدد رصيده و فقد مصداقيته . وهو عالم عجيب مبرقش غاص بالسخافات. في ١٩٠٩ – ١٩١٠ على خلفية الراسمالية الزاحفة قبيل الحرب تحولت روسيا بسرعة الى دولة استعمارية، ومثل اولئك النبلاء الغريبو الاطوار امامي بكل روعة نماذج عصر القنانة المحتضر. وكانت تلك لقية فنية حقا». لقد صور الكاتب «بصدق قاس»، على حد تعبير مكسيم غوركي، تحلل عالم النبلاء آنذاك اخلاقيا و اقتصاديا.

تقدم هذه الرواية، بحكم ارتباطها الوثيق مع السلسلة السابقة لها من اقاصيص الكسي تولستوي، نموذجا للنبلاء اكثر تعقيدا من حيث المعالجة السيكولوجية، وهو النموذج الاخير لهذه الطبقة، ونعنى به الامير كراسنوبولسكي. الا ان الصورة التي يرسمها الكاتب لبطله متناقضة للغاية. فمن جهة نرى قبحه الروحي الواضح وولعه الساري بعذاب الآخرين وانعدام اي مرتكز حياتي فيه، و من جهة اخرى نجد عنده الصدق غير المتكلف والميل الشديد الى الطهارة والخير والامل في حب بكر. ازدواجية



كراسنوبولسكي مكشوفة وعارية تماما. ولم يكن من السهل على الكاتب ان يسير ببطله الاناني الذاوي المحطم الى الصفاء الروحي، ذلك الصفاء الذي تمنحه الطبيعة للانسان، فالطبيعة بالذات تساعد كراسنوبولسكي في الخروج من عزلته الذاتية المهلكة. وبذلك يكمن مغزى مشاهد مكوث الامير في اوندوري. فالطبيعة تولد بلسما يجعل الانسان يتحسس ارتباطه بالجمال الشمولي الخالد. وليس من قبيل الصدفة ان الشخصيات النسائية في الرواية، وخصوصا كاتيا فولكوفا النقية النضيرة، على ارتباط كبير بالطبيعة.

في هذه الرواية، كما في سائر مؤلفات الكسي تولستوي خلال تلك الحقبة، تجسد نماذج النساء، اللواتي غالبا ما تعود ملامحهن في اصولها الى تقاليد ايفان تورغينيف، المثل الاخلاقية السامية. واكثر ما يميزهن القدرة على الحب المتفاني حتى النهاية. و في هذه الرواية ستنتصر فكرة الآلام المطهرة و بلسمها الشافي – الحب الذي يغدو قربانا من اجل التكفير و التوبة. فان حماس التضحية ينبض في كل ابطال الرواية تقريبا. فالامير كراسنوبولسكي المسكين المعذب يزحف على ركبتيه ويقطع طريقا طويلا بهذه الصورة ليطلب الصفح والغفران من زوجته كاتيا. وتتحمل ساشا، تلك المراة الطيعة الوديعة، العذاب والآلام في سبيل حبها للامير. والدكتور زابوتكين بضميره الحي يهبط الى الدرك الاسفل ويدفع في آخر المطاف ثمنا باهظا يكلفه حياته مقابل حبه الذي لا يجد صدى في فؤاد كاتيا. ثم ان حياة كاتيا نفسها، حبها وزواجها، ضحية ملتهبة.

ويطور الكسي تولستوي في هذه الرواية تقاليد الواقعية الكلاسيكية، ومنها تقاليد دوستويفسكي. الا ان الكاتب نفسه احس بانه استنفد موضوع النبلاء المحتضر. فقد تطلبت الحياة موقفا جديدا ومواضيع جديدة وابطالا جددا.

**عيد العنصرة** – من الاعياد الارثوذكسية. ويحتفل به في اليوم الخمسين بعد عيد الفصح.

**الكسي اورلوف** – هو الكونت اورلوف من كبار جنرالات روسيا في اواخر القرن الثامن عشر.

**ريوريك** – هو، بموجب السجلات التارخية، مؤسس سلالة الأمراء والقياصرة الروس الذين حكموا البلاد من اواخر القرن التاسع حتى القرن السادس عشر. وينتمي الى هذه السلالة بعض بطون النبلاء حتى مطلع القرن العشرين.

ص – ١٤٦

### «طفولة نيكيتا»

الف الكاتب هذه القصة في المهجر بباريس عام ١٩٢٠ واهداها لابنه نيكيتا تولستوي الذي غدا فيما بعد عالما فيزياويا شهيرا. ذات مرة، اثناء التنزه في باريس، سال نيكيتا الصغير اباه دون مقدمات: ماهي اكوام الثلج؟ دهش الاب، وهو الروسي القح، اشد الدهشة لأن ابنه لا يعرف شيئا عن اكوام الثلج الزغبية الرائعة التي تتكدس في روسيا شتاء. ولذا اراد الكاتب ان يتحدث عن الطفولة كما هي في دياره الحبيبة.

وفيما بعد، عند ما ذاعت شهرة الكاتب السوفييتي قال عن حالته في فترة تاليف القصة: كنت هائما في اوربا الغربية، في فرنسا والمانيا، وقد اشتد بي الحنين الى روسيا والى اللغة الروسية فكتبت «طفولة نيكيتا». ونيكيتا هو انا، صبي من ضيعة غير كبيرة في ضواحي سامارا. هذا الكتاب اعز علي من كل ما الفته من روايات و مسرحيات قبله».

كان تولستوي قد عنون قصته الطبعة الاولى «حكاية عن اشياء رائعة كثيرة». وبالفعل فالقصة تجسد روعة الطبيعة الروسية الهادئة وصداقة نيكيتا الصغير مع صبيان القرية وحبه الاول، الطفولي جدا، لليليا والحكاية السحرية للصورة القديمة المعلقة في الصالة المعتمة و الخ...

ويتميز السرد بالطلاقة و اليسر وعدم التكلف. وتتهاوى انفاس الكاتب هادئة غير مقيدة وهو يحكي قصة طفل بدأ يتعرف على العالم الكبير المحيط به.



«**نيفا**» – مجلة ادبية فنية مصورة «للمطالعة العائلية»، صدرت في بطرسبورغ اعتبارا من عام ١٨٧٠.

**بيبين القصير** (٧١٥ – ٧٦٨) – ملك الافرنج الجرمانيين اشتهر بقوته البدنية الخارقة وذكائه المفرط. في اجتماع الافرنج في سواسون عام ٧٦١ ارغم الناس على مبايعته ملكا للميروبجيين.

ص – ٢٥٨

### «الكونت كاليوسترو»

**فينيكس الشهير** – كاليوسترو (اسمه الحقيقي جوزيبه بالزامو، ١٧٤٢ – ١٧٩١) – ايطالي الأصل، مغامر، منوم مغناطيسي كان يدعي بأنه ساحر. كانت له علاقة بالماسونيين الألمان، وزار عدة بلدان اوروبية. وفي عام ١٧٨٠ زار بطرسبورغ باسم الكونت فينيكس، واستقبله علية القوم في المدينة، وبسط حمايته عليه الأمير بوتيومكين الذي كان ذا سطوة آنذاك. وفي قصة تولستوي اضيفت الى الوقائع الحقيقية لسيرة حياة كاليوسترو شخوصا واوضاع ولدت في الخيال الفني للكاتب.

ص – ٢٦٧

في عهد الفرعون امينخوزيريس... – ربما يقصد بهما الكاتب الفرعونين المصريين امنحوتب الثالث او الرابع (القرن الخامس عشر قبل الميلاد)، اللذين قاما بحملات على النوبة وسوريا.

ص – ٣٢٢

### «جوبلين ماري انطوانيت»

**ريشه بوشيه العظيم** صنع جوبلين ماري انطوانيت (١٧٥٥ – ١٧٩٣)، الذي حفظ في اعوام العشرينات بالقصر الاسكندري في «قرية القياصرة»، اعتماداً على لوحة الفنانة اليزابيت لويز فيجيه – ليبران (١٧٥٥ – ١٨٤٢). وقد ذكر الكسي تولستوي بأن

صاحب اللوحة هو ف. بوشيه (١٧٠٢ – ١٧٧٠)، ربما، من اجل الا تكون لقصته علاقة بجوبلين معين.

ص – ٣٣٣

– ...أحد المتشردين من سارقي الخيول سابقا.

المقصود به غريغوري راسبوتين (١٨٦٤ – ١٩١٦). وكان ابن فلاح معدم، ولم يتلق التعليم، واستطاع التقرب من البلاط لامبراطوري واكتسب نفوذا لاحدود له على نيقولاي الثاني وقرينته الكسندرا فيودوروفنا. ووفقا لأوامر راسبوتين كان يجري تغيير وتعيين الوزراء وغيرهم من رجال ادارة الدولة والكنيسة. وقد استغل سلطته من أجل الرشوة وسرقة أموال الدولة. قتل بنتيجة مؤامرة دبرها الملكيون.

ص – ٣٣٧

### «الافعى»

نشرت هذه القصة لاول مرة في مجلة «كراسنايا نوف» عام ١٩٢٨. ولها مكانة هامة بين مؤلفات الكسي تولستوى في العشرينات. فقد ادرك المعاصرون فورا انها تنطوى على تصميم اجتماعي كبير. قالت الكاتبة السوفييتية المعروفة ماريتا شاهينيان: «من المستبعد ان يكون لدى الكسي تولستوى شيء اقوى من هذه القصة. فقد هيأ للكثير من الناس متعة كبيرة للتعرف على انفسهم او جيرانهم والتعرف من خلال انفسهم وجيرانهم على حقبة من العصر».

بطلة قصة «الافعى» اولغا زوتوفا تواجه بصورة مشددة، لحد الفاجعة، الانتقال من الحرب الاهلية الى ايام العمل السلمي... وتتجسد في صورتها بشكل ساطع رومانسية السنوات الاخيرة، رومانسية فترة الكفاح ضد الدخلاء، وقوات الحرس الابيض. زد على ذلك ان الكسي تولستوى يؤكد في بطلته ميلا معينا الى المجازفة واللعب بالنار بل وحتى بالموت.

وبعد ان كافحت اولغا زوتوفا ببسالة ضد الحرس الابيض لم تتمكن من العثور على مسلك يناسبها في ظروف حلت فيها



طقطقة الآلات الكاتبة محل طقطقة الرشاشات. وفي اصطدام البطلة بالابتذال تجلى بشكل حاد عدم فهمها للحاضر وما يلازمه من تناقضات وتقلبات وتعرجات في الطريق الى المستقبل. ولم تنتبه اولغا الى هبوطها التدريجي من القمة التي ارتقتها بفضل مشاركتها في الثورة، وصارت في بعض الاحيان تقف على نفس مستوى الابتذال المتجسد في جيرانها والذي تكرهه بكل جوارحها.

لقد جسد الكسي تولستوي في هذه القصة واحدا من التناقضات الهامة للمرحلة الانتقالية، وهو التناقض المرتبط بضرورة التخلي عن بعض اشكال النضال في سبيل الجديد (الاشكال «الجبهوية») والانتقال الى اشكال اخرى اكثر مرونة، بحيث تراعي الوقائع المعقدة لذلك العصر. فالبطولات ضرورية الآن ايضا، ولكنها بطولات من نوع آخر. ولم تفهم زوتوفا ذلك، وهذا هو مبعث التعقيدات في طريقة استيعابها للحياة، والقساوة الجبهوية لسلوكها في ملابسات تتطلب مرونة. وهذا هو اصل النهاية الفاجعة للبطلة.

ص – ٣٥١

في صيف عام ١٩١٨ اثار الفيلق التشيكوسلوفاكي الذي تشكل من اسرى الحرب السابقين الذين كانوا متوجهين بسماح من الحكومة السوفييتية عبر سيبيريا والشرق الاقصى الى اوربا الغربية ضد السلطة السوفييتية في اواسط الفولغا وسيبيريا.

ص – ٣٨٦

### «الفطرة الروسية»

نشرت هذه الاقصوصة لاول مرة عام ١٩٤٤، وادرجت ضمن مجموعة «اقاصيص ايفان سوداريف» التي الفها الكاتب ابان الحرب الوطنية العظمى (١٩٤١ – ١٩٤٥) ضد الفاشية.

ان الكسي تولستوي الذي كان شاهد عيان للبطولة والبسالة المنقطعتي النظر اللتين ابداهما المواطنون السوفييت في المعركة العظمى ضد الغزاة الفاشيست انما يرسم نموذجا بطوليا

حقا. فان ايجور دريوموف يجمع بين صلابة المحارب ورقة القلب لدى انسان لا يريد ان يسبب الما روحيا للآخرين. واذا كان ايجور لا يريد ان يثقل على الناس الاعزاء عليه فانهم لا يتصورون امكان العيش بدونه مهما الحقت به الحرب من تشويه بدني.

تستند الاقصوصة الى حادثة فعلية عرف بها تولستوي من مراسلي الجبهة. وكتب اديب سوفييتي آخر هو ك. ترينيف اقصوصة حول نفس هذا الحادث بعنوان «في العائلة». اما اقصوصة «الشكيمة الروسية» فهي آخر اقصوصة كتبها الكسي تولستوي.

ص — ٣٨٨

المقصود معركة كورسك (يوليو — اغسطس ١٩٤٣) التي هي من المعارك الحاسمة في الحرب الوطنية العظمى، وقد دحرت القوات السوفييتية خلالها ٣٠ فرقة للعدو وحررت قسما كبيرا من الاراضي التي احتلها الفاشيون.

## محتويات